

التقدم إلى الله

د. مختار الجبالي

التقدّم إلى اللّه


بسم الله الرحمن الرحيم

د. مختار الجبالي

التقدّم إلى اللّه



تونس



مقدّمة

الحمد لله، والصلاةُ والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعدُ، فقد فتّشتُ منذ سنين، عن كتاب زُهدٍ للسّالكين، يَدلُّ الناسَ على كيفيّة الوصول إلى ربِّ العالمين؛ فلم أجد في الساحة -مع كثرة كتب الرقائق- ما يَشفِي الغليل ويُنيرُ السبيل.

فاستخرتُ اللهَ تعالى في جمع هذا الكتاب، الذي أرجو له القبولَ من العزيز الوهّاب. وقد فتح الله عليّ باختيار عنوان طريف لهذا التصنيف، فسمّيتُهُ على بركة الله: «التقدّم إلى الله».

وهذا المُصطلحُ عادةً ما يُستَعمَلُ في السياسة واقتصاد البلدان، وقلّ ما نسمعُ به في مباحث الدّين والإحسان. وحتّى يَستصحبَ القارىءُ معنى السّير والسّفَر في الكتاب، فقد غيّرتُ ما تعارف عليه المصنّفون في تقسيم الأبواب. واخترتُ مُصطلحات «نظام المرور وسير الطُّرقات»، فانتقلَتْ (الفصُولُ) إلى (محطّاتٍ)، و(المباحثُ) إلى (لَوْحاتٍ)، و(المطالبُ) إلى (إشاراتٍ)! مَع وضع مداخل توجيهية في بعض الحالات، كلُّ ذلك حتى يَستشعرَ المطالعُ للكتاب أنّنا: مُسافرون، وإلى الله راجعون، وعن أعمالنا مُحاسَبون.

وقد وفّقني الله تعالى في هذا التأليف، إلى استخراج مادّة زُهدية نافعة من عدّة مُصنّفات، وأعانني سبحانه على تحرير جُملةٍ من المُصطلحات. مع حُسن التوثيق والتأصيل، واعتماد الراجح من أقوال العلماء بالدليل.

وأخيراً، أسألُ اللهَ المنّان: أن يُبلّغنا درجةَ الإحسان، وأن لا يحرمنا لذّةَ النّظر إلى وجهه الكريم في دار الجِنان، وأن يتقبّل منّي هذا العمل، مع ما فيه من تقصير وزَلَل. وأن يجعلَهُ ذخيرةً لي يوم الدين، وينفعَ به سائرَ المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

تونس: 13 رجب 1440هـ

20 مارس 2019م.

المحطّة الأولى

حقيقة التقدّم إلى اللّه

- اللوحة الأولى: معنى التقدّم إلى اللّه
- اللوحـــة الثانية: دليل التقدّم إلى اللّه
- اللوحة الثالثة: مصطلحات تقدميّة
- اللوحة الرابعة: اللّه: المُقدِّم – المؤخِّر





معنى التقدّم إلى اللّه تعالى

ارتبط مُصطلح «التقدّم» في العصر الحديث بالمجال الاقتصادي والتنموي، حيث يُطلِقُ الخبراءُ نَعتَ «التقدّم» على ما يتحقّقُ في الدّول من: نُموٍّ في الموارد، وزيادةٍ في الإنتاج، وتطوّرٍ في الصناعة والتجارة، مع مجموع التحسينات في الميدان الاقتصادي والاجتماعي المرافقة لها. وقد غلبَ هذا الاستعمال المادّي لمصطلح «التقدّم»، حتى غابت عن أذهاننا معانيه الرّوحيّة السامية، وأشرفها على الإطلاق: «التقدّم إلى الله» جلّ في عُلاه، وهو العنوان الذي اخترتُهُ -بتوفيق الله الوهّاب- عنواناً لهذا الكتاب. فما هي حقيقة هذا المُصطلح؟ وكيف يُمكنُ تأصيلُهُ في النُصوص؟ وما هي استعمالاته لدى علماء السلوك؟

الإشارة الأولى: تعريف التقدّم

1. التقدّم في اللغة: يُقَالُ تَقَدَّمَ فِي عَمَلِهِ: أيْ خَطَا فِيهِ خُطْوَاتٍ إلَى الأمَام.

وَتَقَدَّمَ إلَى الشَّيْءِ: اقتَرَبَ مِنهُ، وتَقدَّمَ على أقْرَانِهِ: أيْ سَبِقَهُم. والتقدّمُ ضِدّ التأخُّر، الذي يَعْنِي: التراجُعَ والتخلّفَ والتقهْقُرَ وعَدَم الوُصُولِ إلى الهدف[1].

(1) المعجم الوسيط (ص8 و720).

2. **التقدم المقصود**: يمكننا أن نعرّف التقدّم إلى الله بأنه: «**عبادةُ الله تعالَى بِكَامِلِ الطَّاقَاتِ، والمُسَارَعَةُ إليهِ بأنوَاعِ الطَّاعَات، مَعَ استِصْحَاب الخَوفِ والرّجَاءِ، والصّدق في المَحبّة وشوقِ اللّقاء**».

الإشارة الثانية: شرح تعريف التقدّم

1. **عبادة الله تعالى**: هي اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[1]. وهي وظيفة الإنسان الأولى وحكمة وُجُوده، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذّاريات: 56). فهذه الغاية التي خلق الله الجنّ والإنس لأجلها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمّنة لمعرفته ومحبّته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عمّا سواه[2].

والمسلم الكيّس الحكيم: هو الذي يوجّه حياته ومماته، وحركاته وسكناته كافة لربّه العظيم، وذلك التزاما بأمره في كتابه الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 162-163). وبهذا المعنى الواسع يتجاوز مفهوم العبادة في الإسلام الشعائر التعبديّة، ليشمل أنشطة الإنسان كافة وذلك إذا صلحت فيها النيّة. «إنّه التجرّد الكامل لله، بكل خالجة في القلب، بكل حركة في الحياة: بالصلاة والاعتكاف، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبّديّة، وبالحياة الواقعيّة. إنّها تسبيحة «التوحيد» المطلق، والعبوديّة الكاملة»[3].

2. **بكامل الطاقات**: نعني بها: الاجتهاد في طاعة الله تعالى، وبذل كل الوسع في عبادته سبحانه دون تهاون أو تكاسل أو تقصير. قال الحق تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر: 99)، ففي الآية أمر من الله لعباده المؤمنين بالاستقامة على

---

(1) العبوديّة، لابن تيميّة: (ص38).

(2) تيسير الكريم الرّحمان، للسعدي: (ص824).

(3) في ظلال القرآن، لسيّد قطب: (3/ 124-1241).

طاعته، ومجاهدة أنفسهم لعبادته حتى يدركهم الموت. وقد كان رسولنا ﷺ إمام المجتهدين في طاعة ربّ العالمين، ومن ذلك ما رَوَته أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّه ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، فقالت: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: «أفلا أحبّ أن أكون عبدا شكورا»[1].

3. **المسارعة إلى الله**: وهي مأمور بها في الكتاب والسنّة، فقد قال الله تعالى ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ (البقرة: 148) وقال الحق تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 133).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «والتعبير هنا يصوّر أداء هذه الطاعات في صورة حسيّة حركيّة.. يُصورُهُ سبقا إلى هدف أو جائزة تُنَال... سارعوا فهي هناك: المغفرة والجنّة»[2].

كما حثنا نبيّنا ﷺ على المسارعة إلى الطاعات، واغتنام الأعمال والطاقات قبل وقوع الفتن والمُعيقات، فقال ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويُمسي كافرا، ويُمسِي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بِعَرَضٍ من الدنيا»[3].

فَعجِّل أيّها المتقدّم إلى الله في فعل الخيرات، واتْرك التأنّي والتمهّل والتباطؤ، لأنّ النبي ﷺ قد حسم هذا الأمر بقوله «التُّؤدَةُ في كلّ شيء خيرٌ، إلاّ في عمل الآخرة»[4].

4. **الخوف والرجاء**: وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله: «إنّ الرجاء والخوف جناحان بهما يطيرُ المقرّبون إلى كلّ مقام محمود، ومطيتان بهما يُقطع من طُرُق الآخرة كل عقبة كَؤود، فلا يقُودُ إلى قرب الرحمان ورَوْح الجِنان – مع كونه بعيد الأرجاء،

---

(1) رواه البخاري (4837) ومسلم (2189).

(2) في ظلال القرآن: (1/ 475).

(3) رواه مسلم (118)

(4) راوه أبو داود (4810) وهو في صحيح الجامع (3009).

ثقيل الأعباء، ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كونه محفوظا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات - إلاّ سياط التخويف وسطوات التعنيف»[1].

فالعابد المُوَفَّق هو الذي يُحسنُ المراوحة -في سيره إلى الله- بين ترغيب النفس وترهيبها. فكلّما رأى منها عصيانا وطغيانا، ردعها بلجام الخوف من عذاب الله ونقمته. وكلّما غلب عليها اليأس وتكاسلت، حفّزها ببشائر رحمة الله وفضله. وهذا الميزان مقتبسٌ من كلام الديّان ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: 56). قال الإمام القرطبي: «أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتخوّف وتأميل لله عزّ وجلّ، حتّى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته»[2].

5. **المحبّة والشوق:** يقول الإمام الغزالي: «اعلم أنّ المحبّة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبّة مقام إلاّ وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا، ولا قبل المحبّة مقام إلاّ وهو من مقدّماتها، كالتّوبة، والصبر، والزهد وغيرها. واعلم أن الأمّة مُجمعة على أنّ الحبّ لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبّة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: 54)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: 165)، وهذا دليل على إثبات الحبّ لله، وإثبات التفاوت فيه»[3].

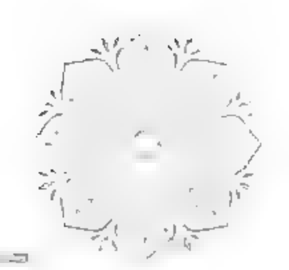
فالمحبّة التي تملأ قلب المتقدّم إلى ربّه، وشدّة الشوق لملاقاته، والفرح والسرور بقربه ومناجاته، هي أعظم الوسائل المساعدة على تحمّل أعباء الطريق، والصبر على مشاق السير عند كلّ مَضِيق، فطوبَى لمن ملأت قلبَهُ محبّةُ مولاه، حتّى لم تُبقِ فيه مكانا لسواه!

---

(1) إحياء علوم الدين (4/ 172).

(2) الجامع لأحكام القرآن: (7/ 227).

(3) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة: (ص359).



تأصيل التقدّم إلى الله

«التقدّم إلى الله» مصطلح أصيل، ولكن قد يظهر -لقلّة استعماله- كأنّه دخيل. ومع نُدرة النصوص التي تصلح دليلا لهذا اللفظ الجليل، فقد يسّر الله تأصيله من الكتاب والسنّة ولله الحمد والمنّة.

الإشارة الأولى: التقدّم في القرآن

نجد هذه الكلمة في كتاب الله في سورة المُدّثّر، حيث يُخوّفنا ربّنا الجبّار من عذاب النّار، ويحثّنا على سلوك طريق الأبرار، فيقسم سبحانه على أنّ (سَقَر): هي إحدى الأمور العظام، والخطوب الجسام، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثّر: 35 - 37).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أي نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير والطاعة، أو يتأخّر إلى الشرّ والمعصية»[1].

وقال الإمام الرازي رحمه الله: «المرادُ بالتقدّم والتأخّر: السبق إلى الخير والتخلّف عنه»[2].

(1) الجامع لأحكام القرآن: (19/ 85-86).

(2) مفاتيح الغيب: (30/ 209).

وزاد الإمام ابن القيم بيانا لمعنى هذا التقدّم قائلا: «لله على العبد في كلّ وقت من أوقاته عبوديّة تقدّمه إليه وتقرّبه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدّم إلى ربّه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخّر. فالعبد لا يزال في تقدّم أو تأخّر، ولا وقوف في الطريق البتة. قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾»[1] . وأضاف قوله رحمه الله: «فإن لم يكن في تقدّم فهو في تأخّر ولا بدّ، فالعبد سائر لا واقف، فإمّا إلى فوق، وإمّا إلى أسفل، وإمّا إلى الأمام، وإمّا إلى وراء... ما هو إلا مراحل تُطوَى أسرع طَيٍّ إلى الجنة أو إلى النّار، فمُسْرِعٌ ومُبْطِئٌ، ومتقدّم ومتأخّر، وليس في الطريق واقف البتّة، وإنّما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء»[2].

فكلّ فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها، يتقدّم بها أو يتأخّر، ويكرمها أو يُهينها... وقد بيّن الله للنّفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة[3].

الإشارة الثانية: التقدّم في السنّة

رغم كون الأحاديث -مثل الآيات- قد حفلت بمعاني التقدم إلى الله، إلاّ أنّ اللفظ الصريح لهذا المصطلح قليلُ الاستعمال في هذه النّصوص الشرعيّة؛ ولكن نجد في أحاديث النبيّ ﷺ ما يشير - بطريقة غير مباشرة - إلى هذا المعنى، حيث ثبت أنّ رسول الله ﷺ وجد بعض أصحابه رضي الله عنهم متأخّرين عن الصفّ الأوّل في الصلاة، فأمرهم بالتقدّم ليقتدوا به ﷺ، وليقتدي بهم مَن بعدهم ممّن يصلّي خلفهم، فقال: «تَقَدَّمُوا فَأْتَمُّوا بِي وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، لا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حتّى يُؤَخِّرَهم الله»[4]، قال النووي: «لا يزال قوم يتأخرون: أي عن الصفوف الأولى،

(1) الفوائد: (ص249).

(2) مدارج السالكين: (1/ 267).

(3) في ظلال القرآن: (6/ 3761).

(4) رواه مسلم (438).

حتى يؤخرهم الله تعالى عن رحمته، أو عظيم فضله، ورفع المنزلة، وعن العلم ونحو ذلك»[1].

قلتُ: وفي هذا الحديث: حثٌّ على المسارعة إلى الخيرات، والمسابقة والمبادرة إلى الطاعات، والتقدّم إلى الله بالأعمال الصالحات، وذمٌّ للتكاسل والتأخّر عن مثل هذه المقامات.

ومن أقرب النصوص النبوية إلى معنى «التقدّم إلى الله»: الحديث القدسي الشهير، الذي يقول فيه ربّنا سبحانه: «إذا تقرّبَ إليّ العبدُ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً، وإذا تقرّبَ إليّ ذراعاً تقرّبتُ إليه باعاً، وإذا أتاني مَشْياً أتيتُهُ هَرْوَلَةً»[2]. قال العلّامة المُناوي في شرحه: ««إذا تقرّبَ إليّ» أي طلب قُربةً مني بالطاعة، «شبراً» أي مقداراً قليلاً، «تقرّبتُ إليه ذراعاً» أي أوصلتُ رحمتي إليه قدراً أزْيدَ منه، وكلّما زاد العبدُ قُرباً زاده الله رحمةً، «وإذا تقرّبَ إلي ذراعاً تقرّبتُ إليه باعاً» معروف وهو قدر مدّ اليدين، «وإذا أتاني مشياً أتيتُهُ هرولةً» وهو الإسراع في المشي، أي أوصل إليه رحمتي بسرعة. قال النووي: معناه من تقرّبَ إليّ بطاعتي تقربتُ إليه برحمتي، وإنْ زادَ زدتُ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيتُهُ هرولةً، أي صبَبْتُ عليه الرحمة وسبقتُهُ بها، ولم أُحَوِّجْهُ إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود»[3].

---

(1) شرح النووي على مسلم: (4/ 159).

(2) رواه البخاري (7536).

(3) فيض القدير: (4/ 611).

مصطلحات تقدّميّة

اختلفت تعابير علماء الزّهد والتصوّف عن هذا «التقدّم إلى الله» جلّ في علاه، فأطلقوا عليه عدّة ألفاظ، ولكنها في الحقيقة متقاربة المعاني، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وقد جمع رؤوسَها الإمامُ ابن القيم في قوله: «فاعلم أنّ العبد إنّما يقطع منازل السّير إلى الله بقلبه وهمّته لا ببدنه. والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج: 32)، وقال النبيّ ﷺ: «التقوى ههنا، وأشار إلى صدره». فالكيّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلوّ الهمّة وتجريد القصد وصحّة النيّة مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإنّ العزيمة والمحبّة تُذهب المشقّة وتطيّبُ السّير. والتقدّم والسّبق إلى الله سبحانه إنّما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة»[1].

(1) الفوائد: (ص 186).

1 . السّير والسّلوك إلى الله: وأشهر عبارات القوم: (السَّيْرُ)، وقد تمثّل بعضهم[1] في معنى (السّير) بما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكّة، فمرّ على جبل يقال له جُمْدَان، فقال: «سيروا هذا جُمْدَان، سَبَقَ المُفَرِّدُون» قالوا: وما المفرّدون يا رسول الله ؟ قال: «الذاكرون الله كثيرا والذّاكرات».

وقال أبو بكر الشبلي رحمه الله: «العارف: سيّارٌ إلى الله عزّ وجلّ غير واقف»[2].

وأمّا (السّلوك)، فمنهم[3] من اقتبسه من حديث النبيّ ﷺ في صحيح مسلم: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله به طريقا إلى الجنّة»، وهذه من الإشارات التي يُؤخذ منها ويُردّ[4]. وقد سُمّيَت بهذين الاصطلاحين معظم مصنفات الزهد والتصوّف، وكثر استعمالهما من سائر المشائخ. وأشهر العناوين في هذا الفن: كتاب «منازل السائرين إلى الحق المبين» للإمام عبد الله الأنصاري الهروي (ت481هـ)، وشرحه الماتع: «مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيّة (ت751هـ). كما كتب الحافظ ابن رجب الحنبلي (ت795هـ) رسالة قيّمة سمّاها «المحجّة في سير الدُّلجة» قال فيها: «فالمؤمن في الدنيا يسير إلى ربّه حتى يبلغ إليه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6)، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر: 99)»[5].

---

(1) منازل السائرين، للهروي: (ص 7-8).

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: (1/ 277).

(3) المعجم الصّوفي، لمحمود عبد الرازق: (2/ 756).

(4) ومن الإشارات الملبحة التي نقلها الإمام ابن القيّم عن شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله قوله في حديث «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلبا ولا صورة»: «إذا كانت الملائكة المحلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عزّ وجلّ ومحبّته وحلاوة ذكره والأنس بقربه في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها!»: (مدارج السالكين: 1/ 139).

(5) المحجّة في سير الدُّلجة: (ص71).

2. الهجرة إلى الله: وقد أخذ بعضهم هذا المعنى من قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم الخليل عليه السلام-: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: 26)، وكذلك من حديث النبيّ ﷺ الشهير: «...فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله».

وفي كتاب «زاد المهاجر إلى ربّه» سَمَّى الإمام ابن القيم هذا التقدّم «هجرة» حيث قال فيه: «لمّا فصل عيرُ السفر واستوطن المسافرُ دارَ الغربة وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن. أحدث له ذلك نظرا، فأجال فكره في أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله، وينفق فيه بقيّة عمره، فأرشده مَن بيده الرشدُ إلى أنّ أهم شيء يقصده إنّما هو الهجرة إلى الله ورسوله»[1].

وبيّن ابن القيّم أن «الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله، هي الهجرة الحقيقية وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها»[2].

وفي توضيح معالم هذه الهجرة يقول رحمه الله عن العبد الصالح الذي سلك سبيلها: «فله في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب والمحبّة والعبوديّة، والتوكّل والإنابة والتسليم، والتفويض والخوف والرجاء، والإقبال عليه وصدق اللّجأ والافتقار في كل نَفَسٍ إليه. وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه»[3]. ويضيف الإمام ابن القيم قوله: «وهي هجرة تتضمن (مِن) و(إلى)؛ فيهاجر بقلبه من محبّة غير الله إلى محبّته، ومن عبوديّة غيره إلى عبوديّته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكّل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكّل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذلّ له والاستكانة له، إلى

(1) زاد المهاجر إلى ربّه، واشتهر باسم الرسالة التبوكيّة: (ص35).

(2) الرسالة التبوكيّة: (ص36).

(3) طريق الهجرتين: (ص24).

دعائه وسؤاله والخضوع له والذلّ له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إليه. قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذّاريات:50)»[1].

3. السّباق إلى الله: وهناك من المعاصرين الأفاضل من سَمَّى التقدّم إلى الله «سباقًا»، وذلك استنباطا من قوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:148)، وقوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة: 10 11)، وقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر: 32). والمراد بهذا السباق هو: «تسابق الخلق إلى الله تعالى بحسن استغلال أوقاتهم سواء كان العمل المتسابق فيه من أعمال الجوارح: كالصلاة والصيام وغيرها، أو من أعمال القلوب كالذكر والدعاء وغيرها»[2].

4. السفر إلى الله: وهو أطول سفر وأعظمه، يحتاج فيه المسلم إلى زاد خاص يخالف ما اعتاد النّاس التزوّد به في أسفارهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: 197).

ومن الذين سمّوْا هذا التقدّم إلى الله تعالى بالسفر: الإمام ابن القيم إذ يقول: «العبدُ من حين استقرّت قدمُه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربّه، ومدّة سفره هي عمره الذي كُتِبَ له، فالعمر هو مدّة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربّه تعالى»[3]. وقال أيضا: «إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته، عرضت له الخوادع والقواطع»[4].

ولعلّ استصحاب نيّة السفر إلى الله في هذه الدنيا هو الذي جعل بعض الصالحين يحرصون على حمل العصا، ليظلّوا دَوْمًا متذكرين أنّهم من المسافرين إلى ربّ العالمين.

---

(1) الرسالة التبوكيّة: (ص 36).

(2) الوقت عمار أو دمار، لجاسم المطوّع: (ص10) وعنه أخذ صاحب «سباق نحو الجنان».

(3) طريق الهجرتين: (ص337).

(4) الفوائد: (ص 223).

وقد قيل للإمام الشافعي: مالك تُكثرُ من إمساك العصا ولستَ بضعيف ؟ فقال: «لأذكُرَ أني مسافر»[1].

حملتُ العصا لا الضّعفُ أوجبَ حَمْلَها ولا أنــي تحنّـيـتُ عـلـى كِبَـــرْ
ولكـنـي ألزمـتُ نـفـسـي حـمـلـهـا لأُعـلـمـهـا أنّ المـقـيـمَ على سَـفَرْ.

5. **التقدّم إلى الله**: وهو مصطلح جميل، فتح به ربّنا الجليل؛ وأرجو أن يكون منهاجا للعابدين، ودليلا للصالحين، ومعينا على طاعة ربّ العالمين. وقد سطّرتُ به عنوان هذا الكتاب لعدّة أسباب:

أولا: لأصالته في الكتاب والسنّة، وفي بعض آثار علماء الأمّة.

ثانيا: لِجدته وتميّزه عن المصطلحات المألوفة، حيث لم أجد من صنّف تحت هذا العنوان قَبْلُ.

ثالثا: لِرَمْزيّة كلمة «التقدّم» في هذا العصر، وكما قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: «لابدّ من مخاطبة أهل الزّمان باصطلاحاتهم»[2]. وقد قصر أهل زماننا استعمال هذا المصطلح على شؤون الدنيا وقضاياها الماديّة على الطريقة الغربيّة، مع إغفال تام –في الغالب– لأبعاده الروحيّة وأصوله الإيمانيّة، فكان لزاما أن أُقدِمَ على هذه الخطوة التجديديّة لهذه المعاني الإسلاميّة المَنسيّة.

(1) سير أعلام النبلاء، للذهبي: (10/ 97)، والمجموع، للنووي: (1/ 30).

(2) مدارج السالكين: (1/ 131).

اللهُ: المُقدِّم - المُؤخِّر

إنّ «علم الأسماء والصفات» هو أعظم العلوم النّافعة للعبد في تقدّمه إلى الله جلّ في علاه؛ إذ به يزداد المسلم معرفة بربّه سبحانه، ومحبّة له، وأُنْسا بذكره، ونشاطا في طاعته، وإخلاصا في عبادته.

ومن أسماء الله الحسنى التي تزيدنا فقها لحقيقة التقدّم: اسما (المُقدّم) و(المُؤخّر). وهما من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يُطلق واحدٌ بمُفرده على الله تعالى إلا مقرُونا بالآخر، لأنّ الكمال في اجتماعهما. وذلك لارتباط الاسمين ببعضهما، كما هو الشأن في أسماء الله: (المُعزّ والمذلّ) و(الخافض والرّافع) و(القابض والباسط)...

الإشارة الأولى: ثبوت الاسمين الحُسنيين

لّما كانت أسماء الله تعالى وصفاته من الأمور الغيبيّة التي لا يمكن معرفتها إلاّ عن طريق الوحي، وجَبَ علينا -في إثباتها- الاقتصار على نصوص الكتاب والسنّة وذلك لأنّها قضايا توقيفيّة لا مجال فيها لاجتهاد الإنسان، إذ قد يزلُّ وينسب لله تعالى ما لا يليق بجلاله وكماله سبحانه[1].

---

(1) ويُستثنى من هذا (باب الإخبار عن الله تعالى) إذ هو أوسع من (باب الأسماء والصفات)، بذلك جوّز الكثير

قال أبو إسحاق الزجّاج: «لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه»[1].

وقال أبو الحسن القابسي المالكي: «أسماء الله وصفاته لا تُعلَم إلاّ بالتوقيف من الكتاب والسنة أو الإجماع، ولا يدخل فيها القياس»[2].

وقال أبو سليمان الخطابي: «ومن عِلمِ هذا الباب، أعني الأسماء والصّفات، وممّا يدخل في أحكامه ويتعلّق به من شرائط، أنه لا يُتجاوز فيها التوقيف ولا يُستعمل فيها القياس»[3].

وقال شهاب الدين القرافي: «الأصل في أسماء الله تعالى المنع إلا ما ورد السمع به... فإنّ مخاطبة أدنى الملوك تفتقر إلى معرفة ما أذنوا فيه من تسميتهم ومعاملتهم حتى يُعلم إذنهم في ذلك، فالله تعالى أولى بذلك، ولأنّها قاعدة الأدب، والأدب مع الله تعالى متعيّن، لا سيما في مخاطباته»[4].

ونجد اسمي (المُقدّم والمُؤخّر) في جملة من الأحاديث، منها:

= من العلماء الإخبار عن ربّنا سبحانه بما لا يتضمّن نقصا، أمّا ما يتضمّن النقص أو يوهمه فلا يجوز الإخبار به عن الله تعالى. واستحسن هؤلاء العلماء الإخبار عن الله تعالى بما يجوز الإخبار به عنه عند الحاجة إلى ذلك، كالردّ على المبتدعة، أو التنزّل عند المجادلة، أو تفسير معنى صفة من صفاته سبحانه ونحو ذلك، ولا ينبغي أن يتوسّع المسلم بما لا حاجة إليه، حتّى لا ينجرّ إلى الإخبار بما لا يليق.

قال الإمام ابن تيمية: «يُفرّق بين دعائه والإخبار عنه، فلا يُدعَى إلا بالأسماء الحسنى، وأمّا الإخبار عنه فلا يكون باسم سيّئ، لكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيّئ وإن لم يُحكم بحُسنه، مثل اسم (شيء) و(ذات) و(موجود)». (مجموع الفتاوي: 6/ 142). وذهب الإمام ابن القيم إلى «أن ما يُطلق على الله في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيا، كـ(القديم) و(الشيء) و(الموجود) و(القائم بنفسه)». (بدائع الفوائد: 1/ 162).

(1) فتح الباري، لابن حجر: (11/ 223).

(2) فتح الباري: (11/ 220).

(3) شأن الدعاء: (ص111).

(4) الفروق: (3/ 788).

1. **حديث علي** رضي الله عنه: في وصفه لصلاة النبي ﷺ حيث قال: «... ثمّ يكونُ من آخر ما يقول بين التشهّد والتسليم: اللهمّ اغفرْ لي ما قدّمْتُ وما أخّرتُ، وما أسررْتُ وما أعْلنتُ، وما أسْرَفتُ، وما أنتَ أعلمُ به منّي، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إله إلاّ أنتَ»[1].

2. **حديث ابن عبّاس** رضي الله عنهما: قال: كان النبيّ ﷺ إذا قام من اللّيل يتهجّدُ قال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ»[2]. وَوُرُود هذين الاسمين الجليلين في سياق طلب الغفران للذنوب جميعها يشير إلى أنّ الذنوب توبق العبدَ وتُؤخّرهُ، وصفح الله تعالى عن عبده وغفرانه له يقدّمه ويرفعه.

الإشارة الثانية: معنى المُقدّمُ والمُؤخّر

قال الإمام الغزالي: «المقدّم والمؤخّر: هو الذي يُقرّبُ ويُبعِدُ، ومن قرّبه فقد قدّمَهُ، ومن أبعَدَهُ فقد أخّرَهُ. وقد قدَّمَ أنبياءَهُ وأولياءهُ بتقريبهم وهدايتهم، وأخّرَ أعْدَاءَهُ بإبعادهم وضرب الحجاب بينهُ وبينهم. والمَلِكُ إذا قرّب شخصين مثلاً، ولكن جعل أحَدَهُما أقربَ إلى نفسه، يُقال: قدّمَهُ، أي جعَلهُ قُدّامَ غيره.

والقدّام تارة يكون في المكان وتارة يكون في الرتبة، وهو مضافٌ لا محالة إلى مُتأخّر عنه، ولا بُدّ فيه من مقصد هو الغاية بالإضافة إليه يتقدّم ما يتقدّم ويتأخّر ما

(1) أخرجه مسلم رقم (771).

(2) أخرجه البخاري رقم (1120).

يتأخّر. والمقصدُ هو الله سبحانه وتعالى. والمقدَّمُ عند الله تعالى هو المقرَّبُ، فقد قدّم الملائكة، ثمّ الأنبياء، ثمّ الأولياء، ثمّ العلماء»[1].

وقال الإمام النووي: «يُقدِّمُ من يشاءُ من خلقه إلى رحمته بتوفيقه، ويُؤخِّرُ من يشاءُ عن ذلك لخُذلانه»[2].

فهو سبحانه المُقدّم لبعض الأشياء على بعض، إمّا تقديما كونيا، كتقديم بعض المخلوقات في الوجود على بعض، وكتقديم الأسباب على مسبّباتها، والشروط على مشروطاتها.

وإمّا تقديما شرعيا معنويا، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام على سائر البشر، وتفضيل بعض النبيّين على بعض، وتفضيل العباد كذلك بعضهم على بعض.

وهو سبحانه المؤخّر لبعض الأشياء عن بعض، إمّا بالزمان أو بالشرع كذلك[3]

الإشارة الثالثة: ثمرات الإيمان بهذين الاسمين

إنّ للتعبّد بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى آثارًا عظيمة على قلب المسلم وعمله، يقول الإمام العز بن عبد السلام: «اعلم أنّ معرفة الذات والصفات مُثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة، ومعرفة كلّ صفة من الصفات تثمرُ حالا عَليّة، وأقوالا سنيّة، وأفعالا رضيّة، ومراتب دنيويّة، ودرجات أُخرويّة»[4].

وقد ثبت في الصحيحين أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ لله تعالى تسعةً وتسعينَ اسما - مائة إلاّ واحدا- من أحصاها دخل الجنّة»[5]. ومعنى هذا الإحصاء -على الراجح-

(1) المقصد الأسنى: (ص134-135).

(2) شرح صحيح مسلم: (17/ 40).

(3) النهج الأسنى: (ص586).

(4) شجرة المعارف والأحوال: (ص14-15).

(5) أخرجه البخاري (2736) ومسلم (2677).

هو: حفظها، والدعاء بها، والتعبّد لله بمقتضاها. فإذا علم العبد أنّ الله رحيم تعرّض لرحمته، وإذا علم أنه غفورٌ تعرّض لمغفرته، وإذا علم أنّه سميع اتقى القول الذي يُبغضه، وإذا علم أنّه بصير اجتنب الفعل الذي لا يرضاه، وإذا آمن بأنّ ربّه جميل ورحيم وودُود أوجب له هذا الإيمان محبّة خاصّة وشوقا إلى لقائه.

وللإيمان باسمي الله (المقدّم والمؤخّر) جملة من الثمرات، أهمّها:

1. اعتقاد المسلم الجازم بأنّ الله تعالى هو المقدّم والمؤخّر بكلّ اعتبار، وهو على كلّ شيء قدير، فيتوكّل عليه ويستعين به، ويسأله التوفيق والسداد، والحفظ والرعاية في هذا السفر الطويل حتى يصل إليه سبحانه، ويفوز بمرضاته وجناته. وقد كان من دعاء نبينا ﷺ في سفر الدنيا: «اللهُمّ أنت الصاحب في السفر»[1]، فكيف بسفر الآخرة!

2. من أراد أن يرفعه الله تعالى ويقدّمه على غيره، فليسابق إلى طاعته والعمل بمرضاته، وأمّا من تخلّف عن عبادة ربّه، وتكاسل عن القيام بحقوقه فلا يَلومَنّ إلاّ نفسه! فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخرا فقال لهم: «تقدّمُوا فائتمُّوا بي، وليأتمّ بكم مَنْ بَعْدَكم، لا يزال قومٌ يتأخرون حتى يُؤَخِّرَهُم الله»[2].

3. ومن ثمار الإيمان بهذين الاسمين: الحرص على تقديم ما قدمه الله وتأخير ما أخّره، و«النبي ﷺ كان شديد التحرّي لتقديم ما قدمه الله والبُدَاءة بما بدأ به، فلهذا

---

(1) رواه مسلم (1342) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبّر ثلاثا ثمّ قال: «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون، اللهمّ إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهمّ هوّن علينا سفرنا هذا واطو عنا بُعده، الله أنت الصاحبُ في السفر والخليفة في الأهل، الله إنّا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل».

(2) رواه مسلم (438).

بدأ بالصفا في السعي، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»[1]، وبدأ بالوجه ثم اليدين ثم الرأس في الوضوء ولم يُخِلَّ بذلك مرّة واحدة»[2].

وهكذا في جميع أمور الدين، والواجب كذلك تقديم من قدّمه الله وتأخير من أخّره، ومحبّة من أحبّه الله وبغض من أبغض، فإنّ هذا أوثق عُرى الإيمان[3].

(1) مسند الموطأ (309).

(2) بدائع الفوائد، لابن القيم: (2/ 189).

(3) فقه الأسماء الحسنى، للبدر: (ص332).

المحطّة الثانية

أساس التقدّم إلى اللّه

- اللوحة الأولى: الإيمان أوّلا
- اللوحة الثانية: الإيمان جوهر القرآن
- اللوحة الثالثة: بيان حقيقة الإيمان
- اللوحة الرابعة: مَنْ ربك؟
- اللوحة الخامسة: تعرّف إلى اللّه

الإيـمـان أوّلا

ترتبط العقيدة في الإسلام بالسلوك ارتباطا وثيقا، إذ هي الأساس المتين الذي يقوم عليه صرح هذا الدين. فعلى كلّ من أراد التقدّم إلى ربّه الديّان، أن يعتني بترسيخ الإيمان، الذي بدونه لن يقوم للعبد بنيان.

1. **الأعمال بنيان أساسه الإيمان**: إنّ كلّ عمل صالح يتقرّب به العبد إلى ربّه في هذه الدنيا بمثابة اللبنة يضعها في صرح العبادة، الذي يرجو ثباته وارتفاعه على أصل متين. وقد أخبرنا أحد خُبراء التقدّم إلى الله تعالى –وهو الإمام ابن القيم– بقواعد تأسيس وصيانة هذا البناء، فقال رحمه الله: «من أراد علوّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدّة الاعتناء به، فإن عُلُوَّ البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيانٌ، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقا حَمَلَ البنيان واعْتُلِيَ عليه، وإذا تهدّم شيء من البنيان سهُل تداركه، وإذا تهدّم شيء من الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبتْ، وإذا تهدّم شيءٌ من الأساس سقط البنيانُ أو كاد.

فالعارف همّته تصحيحُ الأساس وإحكامهُ، والجاهلُ يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث بنيانه أن يسقط. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة: 109).

فاحمِلْ بنيانك على قوّة أساس الإيمان، فإذا تشعّث شيء من أعالي البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

وهذا الأساس أمران:

الأوّل: صحّة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وأمره.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه. فهذا أوثق أساس أسَّسَ العبدُ عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء»[1].

ولمزيد حماية هذا الحصن الحصين، ينصحنا الإمام ابن القيم بقوله: «فإذا كمل البناء فبيّضه بحسن الخلق والإحسان إلى النّاس، ثمّ حُطْهُ بسور من الحذر لا يقتحمه عدوّ ولا تبدو منه العورة. ثمّ أَرْخِ الستور على أبوابه، ثمّ أقفِلْ البَاب الأعظم بالسكوت عمّا تخشى عاقبته، ثمّ ركّب له مفتاحا من ذكر الله، به تفتحه وبه تغلقه. فإن فتحت فتحتَ بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصنا تحصنت فيه من أعدائك، إذا طاف به العدوّ لم يجد منه مدخلا فييئس منك.

ثمّ تعاهد بناء الحصن كلّ وقت، فإنّ العدوّ إذا لم يطمع في الدخول من الباب، نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب. فإن أهملت أمره وصل إليك النقب، فإذا العدوّ معك في داخل الحصن فيصعب عليك إخراجه»[2].

2. **فضل العلم بالله:** إنّ «العلم بالله تعالى» أشرف العلوم والمعارف على الإطلاق، وذلك أنّ «حاجة العباد إليه فوق كلّ حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، لأنّه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة إلاّ بأن تعرف ربّها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله»[3].

---

(1) الفوائد: (ص 109).

(2) المرجع نفسه: (ص205).

(3) شرح العقيدة الطحاوية: (ج1/ ص5-6).

ومعلوم أنّ أصل العلوم النافعة هو: «العلم بالله، الذي يوجب خشيته ومحبّته والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثمّ يتلوه العلم بأحكام الله، وما يحبّه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد»[1].

ولو تأمّلتَ سبب جرأة العاصي على ربّه علام الغيُوب، وإقدامه على اقتراف المعاصي والذنوب، لوجدت أنّ مردَّ ذلك بالأساس: الجهل بالله جلّ في علاه. فقد قال نبينا ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[2]. وقال ﷺ: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان على رأسه كالظلّة، فإذا أقلع رجع إليه»[3].

فعلى قدر إيمانك بالله، يأتي خوفك من الله. قال أحمد الأنطاكي رحمه الله: «من كان بالله أعرف، كان من الله أخوف»[4].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله»[5]:

على قَدْرِ عِلْـمِ المَرْءِ يَعْظُمُ خَوفُهُ ... فَـلاَ عَـالِـمٌ إلاّ مِــنَ الله خـائِـفُ
فآمِـنُ مَــكْـرِ الله بــالله جَــاهــلٌ ... وَخَائِفُ مَـكْــرِ الله بالله عَارِفُ[6]

وصدق الإمام ابن القيم رحمه الله حين قال: «أي شيء عرَف مَن لم يعرف الله؟! وأي حقيقة أدرك مَن فاتته هذه الحقيقةُ؟! وأي علمٍ أو عمل حصَّل من فاته العلم بالله والعمل بمرضاته، ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وماله بعد الوصول إليه؟»[7].

---

(1) بيان فضل علم السلف، لابن رجب: (ص154).

(2) أخرجه البخاري (2475) ومسلم (57).

(3) رواه أبو داود (4690) وهو في صحيح الجامع رقم (586).

(4) تعظيم قدرة الصلاة، للمروزي رقم (786).

(5) حلية الأولياء، لأبي نعيم (8/ 110).

(6) التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي: (ص95).

(7) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: (ص 57).

3. **العلم بالآمر قبل الأوامر**: ونحن اليوم غفلنا عن هذا الأساس في تربية الناس، فضعف الإيمان وكثرت مشاكل الإنسان! وقد ثبت عن عبد الله بن عمر ﷺ أنّه قال: «لقد عشنا برهة من الدّهر وأحدنا يُؤتي الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمّد ﷺ فيتعلّم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها. ثمّ لقد رأيتُ –اليوم– رجالا يُؤْتَى أحدُهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمرُهُ ولا زاجرُه ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فينثره نثر الدّقْلِ»[1].

وعن عائشة ﷺ قالت: «إنّما نَزَل أوّلُ ما نَزَلَ منه [القرآن] سورة من المفصَّل[2] فيها ذكر الجنّة والنّار، حتّى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّل شيء: (لا تشربوا الخمر)، لقالوا: لا نَدَعُ الخمر أبدًا، ولو نزل: (لا تزنُوا)، لقالوا: لا ندَعُ الزّنَا أبدًا»[3].

فقبل معرفة الأوامر، علينا أن نُعرِّفَ الناس بالآمر. وعلى هذا الأساس قامت دعوة الرسل والأنبياء «فعرّفوا الربّ المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفا مفصّلا، حتّى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته وعلى عرشه»[4].

---

(1) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 35)، وابن مندة في الإيمان (1/ 369) رقم (207)، والبيهقي في الكبرى (5073) و(الدَّقْلُ): رديء التمر. ومن الطريف أنّنا في تونس نطلق تسمية (الدقلة) على أرفع أنواع التمر!

(2) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (2/ 259): «أول المفصّل من سورة (ق) إلى آخر القرآن على الصحيح، وسمّي مفصّلا لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة على الصحيح».

(3) أخرجه البخاري رقم (4707).

(4) مدارج السالكين، لابن القيم (3/ 348).

الإيمان جوهر القرآن

لَمّا كان الإيمان بالله هو الأصل الأوّل في العقيدة الإسلاميّة، وهو أعظم قضيّة على الإطلاق، وأشرف المسائل بالاتفاق، فقد حظي بأكبر قسط من العناية والبيان في نصوص الكتاب والسنة، ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ القرآن كله حديث عن هذا الإيمان.

- فالقرآن إمّا حديث مباشر عن الله تعالى (ذاته وأسمائه، وصفاته، وأفعاله) كآية الكرسي وسورة الإخلاص.

- وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وترك ما يُعبَدُ من دونه من آلهة باطلة، وهذا كله تعريف بالله، ودعوة للقيام بحقه، ونهي عن صرف ذلك لغيره.

- وإمّا أمرٌ بطاعته سبحانه، ونهي عن معصيته، وهذا من لوازم الإيمان.

- وإمّا إخبار عن أهل الإيمان وما فعل بهم في الدنيا من الكرامة، وما يثيبهم به في الآخرة، وهذا جزاء أهل الإيمان بالله.

- وإمّا إخبار عن الكافرين، وما فعل الله بهم في الدنيا من النّكال، وما سيفعل بهم في الآخرة من العذاب، وهذا جزاء من أعرض عن الإيمان.

فالقرآن كلّه حديث عن الإيمان بالله؛ ويُوضّح هذا أن ذكر (الله) تعالى قد تكرّر

في القرآن باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته (10،062) مرّة، أي في الصفحة الواحدة قرابة عشرين مرّة في المتوسّط[1].

قال الإمام ابن أبي العزّ الحنفي: «فالقرآن كلّه، في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[2].

ويشير الإمام ابن الجوزي إلى عظمة الآيات التي تخبرنا عن الله تعالى، وأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، فيقول رحمه الله: «والله لو أنّ مؤمناً عاقلاً قرأ (أوّل سورة الحديد)، و(آخر سورة الحشر)، و(آية الكرسي)، و(سورة الإخلاص)، بتفكّر وتدبّر، لتصدّع من خشية الله قلبُه، وتحيَّر في عظمة الله لُبُّهُ»[3].

وقد أورد الإمام ابن القيّم فصلاً ماتعاً، بيّن فيه المُحتوى الأساسي لخطاب القرآن الكريم، فقال رحمه الله: «تأمّل خطاب القرآن تجد مَلكاً له الملك كلّه، وله الحمدُ كله أزمّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردّها إليه، مُستوياً على سريرِ مُلكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطّلعا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردا بتدبير المملكة، يَسمعُ ويرى، يُعطي ويمنع، ويُثيب ويعاقب، ويُكرم ويُهين، يخلق ويرزق، ويُميت ويُحيي، ويُقدّرُ ويقضي ويُدبّر.

الأمور نازلةٌ من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدةٌ إليه لا تتحرّك ذرّة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه. فتأمّل كيف تَجِدُهُ يُثني على نفسه، ويُمجّد نفسه، ويَحمدُ نفسه، وينصح عباده، ويدلّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغّبهم فيه، ويحذّرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرّف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبّبُ إليهم بنعمه وآلائه، فيذكّرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذّرهم من نِقَمِه ويذكّرهم بما أعدّ

(1) العقيدة في الله، للأشقر: (ص67).

(2) شرح العقيدة الطحاوية: (1/ 142).

(3) التذكرة في الوعظ: (ص73-74).

لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدّ لهم من العقوبة إن عَصَوه، ويُخبرهم بصُنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم، وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم، وقبيح صفاتهم.

ويضرب الأمثال، وينوّع الأدلّة والبراهين، ويُجيبُ عن شُبَه أعدائه أحسنَ الأجوبة، ويُصدّقُ الصّادق، ويُكذّب الكاذب، ويقولُ الحقّ، ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحُسنها ونعيمها. ويحذّر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكّر عباده فقرهم إليه وشدّة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحدٌ ذرّةً من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرّة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاّتهم ومقيمٌ أعذارهم، ومُصلح فسادهم والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيلُ بمصالحهم، والمنجي لهم من كلّ كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليّهم الذي لا ولي لهم سواه فهو مولاهم الحق، ونصيرُهم على عدوّهم، فنعم المولى ونعم النّصير.

فإذا شهدت القلوبُ من القرآن مَلِكاً عظيماً، رحيما جوادا جميلا، هذا شأنه فكيف لا تحبّه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسَها في التودّد إليه، ويكون أحبّ إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره، ويصير الحبّ والشوق إليه والأنس به غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت، ولم تنتفع بحياتها»[1].

---

(1) الفوائد: ص 41-43.



بيان حقيقة الإيمان

الإيمان بالله تعالى: أساس عقيدة المسلمين، وهو الأصل الأوّل من أصول الدين. وعليه مدار الإسلام، ويتصدر أعظم مقام. لذا يُذكر مُتقدّمًا على بقيّة أركان الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: 285)، ولمّا سُئل النبي ﷺ عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر: خيره وشرّه»[1].

1. **تعريف الإيمان بالله تعالى:** هو تصديق الإنسان الجازم، وإقراره الكامل، واعترافه التام، بوجود الله تعالى، وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانا تُرى آثاره في سلوك العبد، والتزامه بأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

فإذا استقرّ هذا التصديق والإقرار في قلبك إلى حدّ اليقين، وامتلأت نفسك اطمئنانا وحبّا وتعظيما لربّ العالمين، وانقادت جوارحك طاعة والتزاما بهذا

---

(1) رواه مسلم رقم (8) قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (1/ 97): «وهو حديث عظيم جدّا، يشتمل على شرح الدين كلّه، ولهذا قال النبيّ ﷺ في آخره: «هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم» بعد أن شرح درجة الإسلام، ودرجة الإيمان، ودرجة الإحسان، فجعَل ذلك كلّه دينا».

الدين، فقد ذُقتَ حلاوة الإيمان، وانخرطت في سلك عباد الرحمان، وسلكت طريق الجِنان.

2. **حقيقة الإيمان:** اشتهر عن الحسن البصري رحمه الله أنّه قال: «ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل»[1].

نعم ليس الإيمان مُجرّد معرفة باردة بالله تعالى، أو تصديق جاف يرفض صاحبه الإقرار الكامل بمحتواه، والالتزام التام بأحكامه!

بل الإيمان: عقيدة يُصدّقها الإنسان بقلبه، ويعلنها بلسانه، وعلى نهجها تنتظم حياته. ولذلك قال علماؤنا: «الإيمان: اعتقاد بالجَنان، ونطقٌ باللسان، وعَملٌ صالح بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[2]. قال الإمام الآجرّي رحمه الله: «اعلموا -رحمنا الله تعالى وإيّاكم- أن الذي عليه علماء المسلمين، أنّ الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو: تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح. ثمّ اعلموا أنّه لا تُجزئ المعرفة بالقلب والتصديق، إلاّ أنّ يكون معه الإيمان باللسان نطقا، ولا تجزئُ معرفة بالقلب، ونطق باللسان، حتّى يكون عمل بالجوارح. فإذا كملت فيه هذه الخصال الثلاث كان مُؤمنًا، دلَّ على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين»[3].

وقال الحافظ ابن عبد البرّ رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والحديث على أنّ الإيمان: قول وعمل، ولا عمل إلاّ بنيّة. والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات عندهم كلّها إيمان»[4].

(1) رُوي هذا الأثر مرفوعا إلى النبيّ ﷺ ولكنه لا يصحّ. والراجح ما نقله العلّامة المناوي عن الحافظ العلائي أنه قال: «وقد رُوِي معناه بسند جيّد عن الحسن من قوله، وهو الصحيح». (فيض القدير: 5/ 434).

(2) شرح مقدّمة ابن أبي زيد في العقيدة: (ص 136)، وشرح العقيدة الطحاويّة: (2/ 505).

(3) كتاب الشريعة: (ص 96).

(4) التمهيد: (9/ 238).

وقال الإمام ابن القيّم: «وأمّا الإيمان فأكثر الناس، أو كلهم، يدّعونه [وما أكثر الناس ولو حرصتَ بمؤمنين]، وأكثر المؤمنين إنما عندهم إيمان مُجمَل، وأما الإيمان المفصّل: فهو حقيقة مركّبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نطقاً، والانقيادُ له محبّة وخضوعا، والعمل به باطنا وظاهرا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان. وكماله في الحبّ في الله والبغض في الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلاهه ومعبوده. والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله.. فهذا إيمان خواصّ الأمّة وخاصّة الرسول»[1].

فمجرّد معرفة الله دون إقرار يصدّقه العمل، لا قيمة لها في دين الإسلام، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينيّة: يعرف الله ويعرف صدق الرسل والكتب، ولكنّه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه.

وفرعون كان يُوقن بأنّ المعجزات التي جاء بها مُوسى إنما هي من عند الله، ولكنّه جحد بها استكبارا وعُلوًّا، كما قال الله في حقه وملئه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: 14).

وأهل الكتاب يعرفون أنّ محمّدا ﷺ مُرْسَلٌ من ربّه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ (البقرة: 146) ولكنهم لا يُقرّون بذلك.

واسْمَع إلى قول أبي طالب يخاطب الرسول ﷺ مُعتذرا لعدم إيمانه:

ولقد علمتُ بأنّ دين محمّد ... من خير أديان البريّة دينا

لولا الملامة أو حذار مسبّة ... لوجدتني سَمْحًا بذاك مُبينًا[2]

---

(1) الفوائد: (ص 139- 140).

(2) العقيدة في الله، لعمر الأشقر: (ص19-20).

3. **أثر الإيمان**: إنّ الإيمان قوة عاصمة من الخطايا والدنايا، دافعة إلى الطاعات والمكرمات. ومن ثم فإنّ الله تعالى عندما يدعو عباده إلى خير أو يُنفّرهم من شرّ، يجعل ذلك مُقتضى الإيمان المستقرّ في قلوبهم. وما أكثر ما ينادي الله عباده بوصف الإيمان فيقول مثلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثمّ يذكر بعدُ ما يُكلّفهم به بقوله سبحانه - مثلا -: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ (الحج: 77)، أو ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102)، أو ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: 9).

فالإسلام قائم على الإيمان والعمل الصالح، وبهذا المعنى أجاب النبيّ ﷺ من سأل عن خلاصة الدّين حين قيل له: «يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك، فقال ﷺ: «قل: آمنت بالله، ثمّ استقم»[1]. وفي رواية: «قل: ربيّ الله، ثمّ استقم»[2]. قال الحافظ ابن رجب: «فأصل الاستقامة: استقامة القلب على التوحيد، كما فسّر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وغيرُه قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ (الأحقاف: 13) بأنهم «لم يلتفتوا إلى غيره»»[3]، فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكّل عليه، والإعراض عمّا سواه، استقامت الجوارح كلّها على طاعته، فإنّ القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه»[4].

ومن فضل الله تعالى علينا: أنّ العبد كلما عرف ربّه، واستقرّ الإيمان في قلبه، اشتاقت إليه الجنة، وتيسرت السّبل إليها. فهذا عمّار بن ياسر رضي الله عنه يصفه النبيّ ﷺ

---

(1) رواه مسلم رقم (38).

(2) راوه الترمذي (2410) وقال: حسن صحيح.

(3) في تفسير الطبري (11/ 107): «لم يلتفتوا إلى إله غيره».

(4) جامع العلوم والحكم (1/ 511-512).

بقوله: «إنّ عمّارًا مُلئ إيمانًا إلى مُشَاشه»[1]، ثم بشرّ بصدى هذا الإيمان في الآخرة، مع أنّ أصحابه لازالوا في دار الدنيا بقوله ﷺ: «إنّ الجنّة لتشتاق إلى ثلاثة: علي، وعمّار، وسلمان»[2].

4. **نعمة الإيمان**: الإيمان هو أفضل نعم الرحمان على بني الإنسان[3] إذْ به يَعرفُ العبدُ ربَّه وإلاهَه الديّان، ويرتقى في مدارج السالكين حتى يبلغ في الدنيا مرتبة الإحسان، ويفوز في الآخرة بأعلى درجات الجِنان.

وقد امتنّ الله سبحانه بهذه النعمة على عباده حيث قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات:17)، وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجرات: 7-8).

ونظرا إلى الأهميّة الكبرى للإيمان بالله وتوحيده في قلب الإنسان، فقد شبّهه ربُّنا سبحانه بالشجرة الطيّبة الثابتة في أعماق الأرض، والتي لا تؤثر فيها الرياح ولا تُزَعْزِعُها الأعاصير، تثمر على مرّ الأيّام ولا ينقطع خيرها على مدى الزمان، فقال عزّ مِن قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: 24). وقد ذكر أهل التفسير أن هذه الشجرة عُنِيَ بها إيمان المؤمن، ورَوَوْا عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال: «الكلمة الطيبة: شهادة أن لا إله إلاّ الله»[4].

---

(1) الإيمان لابن أبي شيبة (91 92) وصححه محققه الألباني. و«المُشاش» رؤوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين.

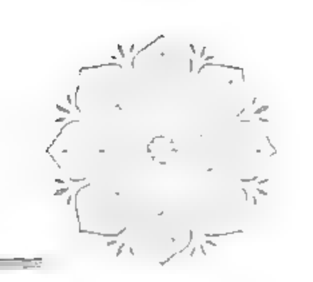
(2) أخرجه الترمذي (3797) وحسنه الألباني في المشكاة (6234).

(3) مختصر الفتاوي المصرية: (ص 268).

(4) تفسير الطبري (7/ 437)، تفسير ابن كثير: (4/ 410)، تفسير القرطبي: (9/ 359).

فشجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علما واعتقادا. وفرعها من العلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضيّة، والآداب الحسنة في السماء، دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها هذه الشجرة ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره[1].

(1) تفسير السعدي: (400-401).



من ربّك؟

إنّ العين لتدمع، وإنّ القلب ليحزن حين نرى معظم النّاس غافلين عن ربّهم الجليل، ولا يعلمون عنه إلاّ القليل القليل. قد انشغلوا بالخلق عن الخالق، وبالرزق عن الرازق، وبالنّعمة عن المنعم. تراهم يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن السلاطين والفنانين والرياضيين، وبالمقابل يزهدون في التعرّف على ربّ العالمين، وأرحم الراحمين، الذي خلقهم ورزقهم وهداهم، وهو إلاههم الحقيقي ومولاهم!

ألا يعلمون أنّهم عنه سيُسألون، وبين يديه سيقفون، وعن تقصيرهم سيحاسبون!

1 . **أخطر سؤال في الوجود:** يُمتحن الإنسان -في الدنيا والآخرة- بعديد الأسئلة الخطيرة، ولكن أعظم وأخطر وأشرف هذه الأسئلة على الإطلاق: هو سؤال العبد عن ربّه سبحانه وتعالى.

ولو طرحنا هذا السؤال العظيم: «من ربّك؟» على الناس اليوم، لوجدنا عامتهم لا يحسنون الجواب عنه، وإن أجابوا فببعض الكلمات الخفيفة والمعلومات الضعيفة، التي لا تليق بجلال الله وعظمته وكماله.

فلا تستهن بهذا السؤال العظيم الذي امتَحَنَ به نبينا الكريم بنتا أراد سيدها أن يعتقها، حيث قال لها ﷺ: «من ربّكِ؟» قالت: الله، قال: «من أنا؟» قالت:

أنت رسول الله، قال: «فأعتقها فإنّها مؤمنة»[1]. وأوّل سؤال يمتحن به الإنسان في قبره، هو كذلك السؤال عن الله عزّ وجلّ، حيث ثبت من حديث البراء بن عازب -الطويل- أنّ النبيّ ﷺ أخبر عن حال الميت المؤمن إذا أُدخِلَ قبرَهُ، فقال: «ويأتيه ملكان فيُجلسانه، فيقولان له: من ربّك؟ فيقول ربّي الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت «-زاد في رواية:-» فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: 27). قال: «فينادي منادٍ من السماء: أن قد صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنّة، وألبسوه من الجنّة. فيأتيه من رَوْحِها وطِيبِها، ويُفتح له فيها مدّ بصره»[2].

وهكذا ينجح المؤمن في أعسر امتحان بعد مفارقة الدنيا، ألا وهو «سؤال الملكين»، أو «فتنة القبر» التي تُعدّ كالمفتاح للآخرة: إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار. حيث ثبت عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنّه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يَبُلّ لحيته، فقيل له: تذكُرُ الجنّة والنّار فلا تبكي، وتبكي من هذا ؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ القبرَ أوّلُ منزلٍ من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدّ منه»[3].

إنّ أسئلة القبر «من ربّك»، «ما دينك»، «من نبيّك»: هي الأصول العلميّة الأساسيّة التي على المسلم أن يتعلّمها. ومعرفة الله عزّ وجلّ هي الأصل الأوّل منها.

(1) رواه أبو داود (3283) وأصله في مسلم (537).

(2) صحيح: أخرجه أحمد (4/ 287-288)، وأبو داود (4753)، والنسائي (4/ 87)، وابن ماجة (1548)، والحاكم (1/ 37-40) وصححه ووافقه الذهبي وكذلك ابن القيم في تهذيب السنن (4/ 337)، والألباني في أحكام الجنائز (ص159).

(3) صحيح: رواه أحمد (1/ 63)، وهو في صحيح الترمذي للألباني (1878).

فلا يصحّ للعبد دينٌ، ولا يسعد في الدّارين، إلاّ إذا عرف ربّه تبارك وتعالى، وأفرده وحده جلّ وعلا بالعبادة.

فإن كنت حقا مؤمنا أوّابا، فأعدّ -من الآن- للسؤال جوابا، وللجواب صوابا.

2. **اليقين في ربّ العالمين**: أَخْوَفُ ما يُخافُ على الإنسان -خاصة في هذا الزمان- هو ضعف الإيمان، وإنّ إدراك اليقين هو أعظم النّعم من ربّ العالمين. لأجل ذلك اجتهد الصالحون في زيادة الإيمان، والعمل على بلوغ درجة الإحسان.

أ. **تعريف اليقين**: أمّا حقيقة اليقين: فهو الاعتقاد الجازم، والعلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل[1]. ويُقال خبر يقين: أي لا شك فيه، ويُطلق اليقين على الموت، لأنّه لا امتراء فيه قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر: 99).

وقال عبد الله بن مسعود: «اليقينُ: الإيمان كُلّهُ»[2]. وقال الحافظُ ابن رجب: «واليقينُ هو: العلمُ الحاصلُ للقلب بعد النّظر والاستدلال، فيوجبُ قُوةَ التّصديق حتى ينفي الريبَ والشك، ويُوجبُ طمأنينة القلب بالإيمان، وسكونه وارتياحه به»[3].

قال الإمام ابن تيميّة: «اليقين: هو طمأنينة القلب، واستقرار العلم فيه، وهو معنى ما يقولون (مَاءٌ يقن) إذا استقرّ عن الحركة. وضد اليقين الريب، وهو نوع من الحركة والاضطراب»[4].

وقد جعل الله رسوخ الإيمان إلى حدّ اليقين أعظم صفات المتقين، حيث مدحهم بقوله ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ

(1) تفسير السعدي: (ص39).

(2) أخرجه البخاري معلقاً في أول كتب الإيمان من صحيحه، ورُوي مرفوعاً عن النبي ﷺ والراجح وقفه كما في الفتح (1/ 48).

(3) فتح الباري، لابن رجب: (1/ 13).

(4) مجموع الفتاوي: (3/ 339).

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ (البقرة:1-4).

ولما كان اليقين أعظم عون على الطاعات والصبر على الابتلاءات، فقد كان نبيّنا ﷺ يكثر من طلبه في دعائه. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنّتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصيبات الدنيا...»[1].

ب. **منزلة اليقين:** هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمّر العاملون. وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، كما قال ربّ العالمين: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: 24).

وخصّ سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال -وهو أصدق القائلين-: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات:20).

وخصّ أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العاملين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (البقرة: 4-5).

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ (الجاثية: 32)[2].

---

(1) رواه الترمذي (3502) وصححه الألباني.

(2) مدارج السالكين (2/ 124).

ج. درجات اليقين: يترقى الإنسان في اعتقاده بزيادة الإيمان في قلبه، وبحسب ذلك يتدرج في سلم اليقين الذي يبدأ أولا عِلمًا، ثمّ عَيْنًا، ثمّ حقًا.

قال ابن القيم: «والفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان، وحق اليقين: فوق هذا.

وقد مُثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك أن عنده عسلا، وأنت لا تشكّ في صدقه. ثمّ أراك إيّاه، فازددت يقينا، ثمّ ذُقت منه.

فالأوّل: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حقّ اليقين.

فَعِلمُنَا الآن بالجنة والنّار: علم يقين، فإذا أُزلفت الجنة في الموقف للمتقين، وشاهدها الخلائق، وبُرّزت الجحيم للغاوين، وعاينها الخلائق، فذلك عين اليقين. فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النّار النّار: فذلك حينئذ حق اليقين»[1].

وقد ذُكرت هذه المراتب الثلاث في كتاب الله، حيث قال الحق تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ (التكاثر: 5-7). «أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة. ولكن عدم العلم الحقيقي، صيّركم إلى ما ترون [لترونّ الجحيم] أي: لتردنّ القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين. [ثم لترونها عين اليقين] أي: رؤية بصريّة، كما قال تعالى ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (الكهف: 53)»[2].

وأقسم الله تعالى على صدق رسوله ﷺ بما جاء به من هذا القرآن الكريم ثم ختم الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ (الحاقة: 51). «أي: أعلى مراتب العلم، فإنّ أعلى مراتب العلم: اليقين، وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

---

(1) مدارج السالكين: (2/ 129).

(2) تفسير السعدي: (ص934).

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى ممّا قبلها:

- أوّلها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

- ثمّ عين اليقين: وهو العلم المُدرَكُ بحاسة البصر.

- ثمّ حق اليقين: وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيّدة بالبراهين القطعيّة، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين»[1]

د. يقين الداعين: تتجلّى في «الدعاء» أعظم مظاهر العبوديّة، لأجل ذلك قال نبينا ﷺ -في بلاغة عظيمة-: «الدعاء هو العبادة»[2]، وأكّد منزلته الرفيعة بقوله: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[3].

وقد تظافرت الأدلة القاطعة على زيادة الإيمان بالطاعات عموما، وللدعاء خصوصيّة في هذه الزيادة، إذ الداعي -ولا سيما المضطرّ- تُلجئُهُ حاجته الملحّة وفقره الشديد إلى ما يقضي حاجته ويكشف كربته، وحينئذ يجد الفطرة ترشده وتهديه إلى الله تبارك وتعالى، ويصل الأمر إلى أن تكون معرفته بخالقه وصفاته ضرورية فيزداد يقينا وإيمانا وإخلاصا، كما يزداد معرفة بحاجته وضعفه وعجزه، وأنّ الذي يدعوه عالم بحاله وقادر على قضاء حوائجه[4].

ولا شك أنّ معرفة العبد نفسه بالعجز والنقص، ومعرفته ربّه بالقدرة والعلم والرحمة وسائر صفات الكمال، من أعظم المعارف الإيمانية. فلولا أنّ الداعي على يقين من وجود الله ربّ العالمين، وأنّ هذا الإله العظيم موصوف بكلّ كمال ومُنزّه

---

(1) تيسير الكريم الرحمان: (ص891).

(2) رواه الترمذي (2969) وهو في صحيح الجامع (3407).

(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (712) وهو في صحيح الجامع (5392).

(4) الدعاء ومنزلته من العقيدة، للعروسي: (1/ 239-240).

عن كلّ نقصان، يسمع النداء ويُجيبُ الدعاء، لما توجّه إليه، ولما رفع إليه يديه. وقد صرّح علماؤنا باشتمال الدعاء على هذه المعاني الإيمانيّة العميقة.

قال الإمام الزركشي -في معنى كون الدعاء مخ العبادة[1]-: «إنما كان مخًّا لتضمّنه التوحيد، إذ الداعي لا يدعو الله إلا وهو يُوحّدُهُ، ويعتقد أنه لا مُعطى غيره»[2].

وأكد الإمام ابن عقيل الحنبلي على هذه الحقيقة بقوله: «قد ندب الله تعالى إلى الدّعاء، وفي ذلك معانٍ:

أحدها: الوجود، فإنّ من ليس بموجود لا يُدْعَى.

الثاني: الغِنَى، فإن الفقير لا يُدْعَى.

الثالث: السّمْعُ، فإن الأصمّ لا يُدْعَى.

الرّابع: الكَرَمُ، فإنّ البخيل لا يُدْعَى.

الخامس: الرحمة، فإنّ القاسي لا يُدْعَى.

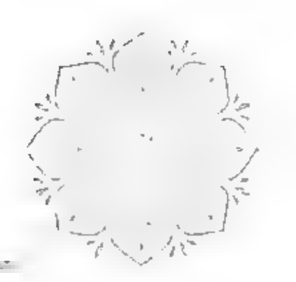
السّادس: القُدرَةُ، فإنّ العَاجِزَ لا يُدْعَى»[3].

---

(1) هو نص حديث ضعيف أخرجه الترمذي في سننه برقم (3371).

(2) الأزهيّة: (ص30)، وعنه في إتحاف السادة المتقين: (5/ 29).

(3) شرح العقيدة الطحاوية: (2/ 695).



اللوحة الخامسة

تعرّف إلى الله

لمّا كان الإخبار عن الله تعالى من أنواع الذكر والحمد له جلّ شأنه، فقد تنافس العلماء في تصنيف كتب التوحيد والإيمان والثناء على ربّنا الدّيّان.

ومِنْ أجمع وأمتع ما قرأته من المؤلّفات في وصف ربّ الأرض والسماوات تبارك وتعالى: ما سطّرَهُ الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم «الوابل الصيب»، حيث بيّن أن الذكر ينوّر القلب، وإذا تدبّره الذاكر وعقل معانيه، واستشعر عظمة الأذكار التي يتعبّد بها، «فتنكشف له حقائق الإيمان حتى كأنه ينظر إلى عرش الرحمان تبارك وتعالى بارزا وإلى استوائه عليه، يُدبّر أمر الممالك، ويأمر وينهى... إلخ»[1]. ثمّ عرَضَ -في كلام مطوّل- جملة جليلة من أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العُلى ونعوت جلاله المقدسة.

ونظرا إلى أهميّة هذا الفصل الجميل في وصف الله الجليل[2]، فقد عمدت -منذ

---

(1) الوابل الصيب: (ص122).

(2) وقد قال عنه محقق الكتاب الأستاذ إياد القيسي: «يصْلُح أن يكون قطعة من نصوص الأدب العربي، كي يُشرح ويُحفظ ويُدرّسُ في المدارس. لأنّه يحْوي عقيدة سليمة، ولغة رائعة، فضلا عن معانيه السمية». وعرض الشيخ محمد الصالح المنجد في كتابه (ظاهرة ضعف الإيمان· ص41) ملخصا هذا الفصل، ضمن الوسيلة الثانية من وسائل العلاج، حيث قال: «إن استشعار عظمة الربّ عزّ وجلّ بالتأمّل في هذه النّصوص وغيرها من أنفع الأشياء في علاج ضعف الإيمان، ويصف ابن القيم رحمه الله عظمة الله بكلام عذب فيقول: يدبر أمر الممالك... إلخ».

سنين- إلى إفراده والتعليق عليه ونشره في رسالة مستقلة[1] حتّى ينتفع به الناس، وها أنا أنقله هنا رجاء الإفادة وبالله التوفيق.

بسم الله الرحمان الرحيم

الله جلّ جلاله، يُدبّرُ أمر الممالك[2]، ويأمرُ وينهى[3]، ويخلق ويرزق[4]، ويميت ويُحيي[5]، .... ويقضي وينفّذ[6]، ويعزّ ويُذلُّ[7].

---

(1) وكانت طبعته الأولى بدار ابن حزم – بيروت سنة 1424هـ/ 2003م، ثمّ طُبع مجدّدا.

(2) التدبير: هو تصريف ورعاية شؤون الغير، والله سبحانه وتعالى هو الذي يدبر أمر الخلائق جميعا في العالم العلوي والسفلي، ولا يهمل شأن أحد، فهو جلّ جلاله الذي يصرّف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشؤون الكائنات كلها، قال الله تعالى عن نفسه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (السجدة:5)، قال ابن كثير 6/ 361: «أي يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾» (الطلاق: 12).

(3) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: 90).

(4) قال الله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: 40). فالله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة لا شريك له.

(5) في قصة ملك بابل النمرود الطاغية الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في وجود الله تعالى، وكأنه طلب من إبراهيم دليلا على وجود الربّ الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: (ربّي الذي يحيي ويُميت) أي الدليل على وجوده سبحانه حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة، لأنّها لم تحدث بنفسها، فلابدّ لها من موجد أوجدها، فعند ذلك قال المحاج –وهو النمرود– (أنا أحيي وأميت)، ورُوي أنه دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما، فقال: هذا أمته، وأمر بإطلاق الآخر، وقال: هذا أحييته! ولما رأى الخليل عليه السلام حماقته ومكابرته قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ (البقرة: 258). فلمّا علم النمرود عجزه خُرس وقامت عليه الحجة. اهـ مختصرا من «ابن كثير» 1/ 463.

(6) قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (غافر: 20) قال ابن كثير 7/ 127: «أي الله يحكم بالعدل والذين يدعون من دونه من الأصنام والأنداد لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء».

(7) يقول الحق تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ

ويُقَلّبُ اللّيل والنّهار[1]، ويداول الأيّام بين النّاس[2]، ويقلب الدّول فيذْهب بدولة ويأتي بأخرى.

والرّسل من الملائكة عليهم السلام بين صاعد إليه بالأمر، ونازل من عنده به[3]. وأوامره ومراسمه متعاقبة على تعاقب الأوقات[4]، نافذة بحسب إدارته[5]. فما شاء

مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: 26 - 27).

(1) يقول الله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (النور 44). قال القرطبي 12 / 290: «قيل: تقليبها أي يأتي بأحدهما بعد الآخر، وقيل نقصها وزيادتها، وقيل: هو تغيير النهار بظلمة السحاب ومرة بضوء القمر، وقيل: تقليبها باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر ونفع وضر». قال الرازي 23/ 15: «ولا يمنع في مثل ذلك أن يريد الله تعالى معاني الكل لأنّه في الإنعام والاعسار أولى وأقوى».

(2) قال عزّ من قائل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران. 140)، أي الأيام دول، يوم لك ويوم عليك، وقد نزلت هذه الآية تسلية للمؤمنين عمّا جرى لهم في غزوة أحد حيث نالتهم الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ. انظر الحكم الواقعة في هذه الغزوة في «زاد المعاد» 3/ 218 للمؤلف.

(3) في هذا إشارة إلى صفة علوّ الله عزّ وجلّ، الثابتة بالكتاب والسنّة المتواترة والمدعمة بشهادة الفطرة السليمة، من ذلك قوله تعالى. ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (الملك: 16)، وقوله تعالى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعرج: 4)، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (فاطر: 10) ومن حديث النبيّ ﷺ المتفق عليه قوله: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم -وهو أعلم بهم-: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون» وقال ابن تيميّة في «الحموية» 1/ 431 - «الرسائل الكبرى»: «ممّا هو من أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية التي تورث علما يقينا من أبلغ العلوم الضرورية أن الرسول ﷺ المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعويين أن الله سبحانه وتعالى على العرش استوى وأنه فوق السماء كما فطر الله على ذلك جميع الأمم».

(4) المراسم جمع مرسوم، وهو ما يصدره الحاكم من أوامر في شأن من الشؤون فتكون له قوة القانون، وقد تتخلف مراسم العباد عن التنفيذ وتتعطل أحيانا، أما أوامر رب العباد ومراسمه جلّ شأنه فنافذة حسب مشيئته لا تتخلف أبدا، أخرج البخاري (4800) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا: الحق وهو العلي الكبير».

(5) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود: 107). قال القرطبي 19/ 297: «أي لا يمتنع عليه شيء يريده». وقال ابن كثير 8/ 393: «أي مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه ولا يُسأل عمّا يفعل، لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّه قيل له - وهو في مرض الموت -. هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا فما قال لك؟ قال لي: إنّي فعّال لما أريد».

كان كما شاء، في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء[1]، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدّم ولا تأخر[2].

وأمره وسلطانه نافذ في السّماوات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجوّ وفي سائر أجزاء العالم وذرّاته، يقلّبها ويصرّفها ويحدث فيها ما يشاء[3].

وقد أحاط بكلّ شيء علما، وأحصى كلّ شيء عددا[4]، وَوَسع كل شيء رحمة وحكمة. ووسع سمعه الأصوات[5]، فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها على اختلاف لغاتها وكثرة حاجاتها.

---

(1) قال الإمام الطحاوي في «عقيدته» ص ٠٧ «وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلاّ ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن».

قلت: وهذه القاعدة الأخيرة -التى أشار إليها المصنف- مقتبسة ممّا رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يعلم بعض بناته يقول: «قولي حين تصبحين وحين تمسين: سبحان الله وبحمده، ولا قوّة إلاّ بالله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما، فإنّه من قالهن حين يصبح حُفظ حتّى يمسي، ومن قالهن حين يمسي حفظ حتى يصبح» أخرجه أبو داود (5075) وضعّفه الحافظ ابن حجر كما في «الفتوحات الربانية» 4/ 122. وما أحسن قول الإمام الشافعي رحمه الله -كما ورد في «الأسماء والصفات» 1/ 450 للبيهقي -:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ	وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العبادَ على ما علمتَ	ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ	وهذا أعنتَ وذا لم تعن
فمنهم شقيّ ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن

(2) تأمّل -مثلا- حركة هذا الكون وجريان الكواكب ونظام الحياة في هذا الوجود كيف تصرفه يد البارئ الحكيم في غاية الدقة والضبط والإحكام والتناسق العجيب الذي بهر العالمين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(3) لفهم قضية المشيئة ومسألة القضاء والقدر على حقيقتها، عليك بكتاب «شفاء العليل» للمؤلف.

(4) هذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ (الطلاق: 12).

(5) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾(المجادلة: 1). رواه أحمد 6/ 46 والبخاري معلقا 13/ 372، فتح الباري، وابن ماجه (188) وهو صحيح.

لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلّطه كثرة المسائل[1]، ولا يتبرّم بإلحاح ذوي الحاجات[2].

وأحاط بصره بجميع المرئيات، فيرى دبيب النّملة السّوداء على الصّخرة الصمّاء في الليلة الظّلماء[3].

فالغيب عنده شهادة، والسرّ عنده علانية[4]. يعلم السّر وأخفى من السّر، فالسرّ: ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه: ما لم يخطر به بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا[5].

---

(1) تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، وأدرك نداء كل حيّ! انظر إلى مشهد الناس يوم عرفة مثلا، وكيف يتوجه العباد -بالملايين- في وقت واحد بأدعية متنوعة لا تدخل تحت حصر ولا عدّ، ومع اختلاف لغاتهم وكثرة حاجاتهم، وجهرهم وإسرارهم، يسمعهم ربنا السميع سبحانه جميعا.

(2) بل إن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء، وثبت في صحيح مسلم (1794) أنه ﷺ «كان إذا دعا، دعا ثلاثا، وإن سأل، سأل ثلاثا»، وفي صحيح ابن حبان (889) يقول ﷺ «إذا سأل أحدكم فليكثر فإنّه يسأل ربّه»، وقال ﷺ: «إنّه من لم يسأل الله يغضب عليه» صحيح الترمذي (2686)، ونظم أبو العتاهية هذا المعنى فقال:

الربّ يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنيّ آدم حين يُسأل يغضبُ
فاجعل سؤالك للإله فإنما ... في فضل نعمه ربّنا نتقلّبُ.

(3) إذا اعتقدت أن الله ينظر إليك أينما وكيفما كنت، أورثك اعتقادك هذا مراقبة ربّك عزّ وجلّ، والاستحياء منه في السرّ والعلن، وصدق القائل:

إذا ما خلوتَ الدّهر فلا تقلْ ... خَلَوْتُ ولكن قُل عليّ رقيبُ
ولا تحسبنّ الله يغفلُ ساعةً ... ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيبُ.

(4) من الأدلة القرآنية على صفة علمه الشامل والمحيط بالجلّي والخفي قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: 59).

(5) أخرج الطبري 8/ 393 في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه: 7) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «(السرّ): ما يكون في نفسك اليوم، و(وأخفى): ما يكون في غد وبعد غد، لا يعلمه إلاّ الله. وقال قتادة: (السرّ) ما حدثت به نفسك، و(أخفى) من السرّ: ما هو كائن مما لم تحدث به نفسك».

له الخلق والأمر[1]، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة[2]، وله النعمة والفضل[3]، وله الثناء الحسن[4].

له الملك كلّه، وله الحمد كلّه، وبيده الخير كلّه، وإليه يُرجع الأمر كلّه[5]. شملت قدرته كلّ شيء[6]، وَوَسِعَتْ رَحمتُه كلّ شيء[7].

---

(1) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: 54). وهذه الآية دليل لأهل السنة أبطلوا به مذهب الجهمية والمعتزلة في نفي صفة الكلام عن الله تعالى وادعائهم أنه مخلوق. فقد فرّق الله تعالى في هذه الآية بين الخلق والأمر، وهما صفتان من صفاته سبحانه، أضافهما إلى نفسه. فأما الخلق ففعله، وأما الأمر فقوله، والأصل في المتعاطفين التغاير إلا إذا قامت قرينة على عدم ذلك، وهنا قد قامت القرائن على توكيد الفرق بينهما، فكلام الله تعالى صفة من صفاته غير مخلوق.

(2) كما قال ربّ العزة سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ (النجم: 25) قال ابن كثير 7/ 434: «أي إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن».

(3) قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: 53) وقال أيضا: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (البقرة 105).

(4) ثبت في صحيح مسلم (594) أن رسول الله ﷺ كان يهلّل دبر كل صلاة بهذه الأذكار يقول: «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، لا حول ولا قوة إلاّ بالله. لا إله إلاّ الله ولا نعبد إلا إيّاه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلاّ الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

(5) أخرج ابن أبي الدنيا في «كتاب الذكر» – كما في «الترغيب والترهيب» 2/ 441 – عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبيّ بن كعب رضي الله عنه: لأدخلنّ المسجد فلأصلينّ ولأحمدنّ الله بمحامد لم يحمده بها أحد، فلمّا صلّى وجلس ليحمد الله ويثني عليه، فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول: اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره. لك الحمد إنك على كلّ شيء قدير، اغفر لي ما مضى من ذنوبي، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني أعمالا زاكية ترضى بها عنّي، وتب عليّ. فأتى رسول الله ﷺ فقصّ عليه، فقال: «ذاك جبريل عليه السلام» وأخرجه الطبراني في «الدعاء» (1746) عن حذيفة بن اليمان، وقال الهيثمي 10/ 96: رواه أحمد وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات.

(6) وصف الله تعالى نفسه في عدّة مواضع من القرآن الكريم بالقدرة المطلقة على كلّ شيء، مثل قوله جلّ شأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 20) ومن أسمائه الحسنى سبحانه: (القادر والقدير والمقتدر)، وكان من دعائه ﷺ: «اللهمّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمتَ الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي». انظر (صحيح النسائي 1/ 280).

(7) قال الله تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الأعراف: 156). قال ابن كثير

وَسِعَتْ نعمته إلى كلّ حيّ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ (الرحمن: 29). يغفر ذنبا، ويفرّج همّا، ويكشف كربًا، ويجبُر كسيرًا، ويُغني فقيرًا، ويُعلّم جاهلا، ويهدي ضالا.

يُرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفكّ عانيا، ويُشبع جائعا، ويكسو عاريا، ويشفي مريضا، ويعافي مبتلى. ويقبل تائبا، ويجزي مُحسنا، وينصر مظلوما، ويَقصِمُ جبّارا. ويُقيل عثرة، ويستر عورة، ويُؤمّن مِن رَوْعة، ويرفع أقواما ويضع آخرين[1].

لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه. يُرفع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل. حجابه النور لو كشفه لأحْرَقَتْ سُبُحَات وَجهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِن خَلْقِه[2].

يمينه مَلأى لا تغيضها نفقة، سحّاءُ الليلُ والنّهارُ، أرأيت ما أنفق منذ خلق الخلق، فإنّه لم يَغِضْ ما في يمينه[3].

3/ 479: وقوله تعالى: (ورحمتي وسعت كلّ شيء) آية عظيمة الشمول والعموم كقوله إخبارا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون. ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر: 7)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فَمِنْ ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». (رواه مسلم 2752).

(1) قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى (كلّ يوم هو في شأن): «من شأنه أن يغفر ذنبا ويكشف كربا، ويجيب داعيا، ويرفع أقواما ويضع آخرين» صححه الألباني -رحمه الله- في «السنّة» لابن أبي عاصم (301) وفي «صحيح ابن ماجة» (167).

(2) هذا نصّ حديث رواه مسلم (179) في كتاب الإيمان من صحيحه، ومعنى قوله ﷺ: «يخفض القسط ويرفعه» أي: أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرفوعة إليه وبما يوزن من أرزاقهم النازلة من عنده، وهو سبحانه الخافض الرافع، الحكَم العدل تبارك وتعالى، و(سبحات وجهه) أي: نور وجهه سبحانه، ويقال: جلال وجهه، قال الخطابي: ومعنى الكلام أنه سبحانه لم يطلع الخلق من جلال عظمته إلا على مقدار ما تطيقه قلوبهم، وتحتمله قواهم، ولو أطلعهم على كنه عظمته لانخلعت أفئدتهم وزهقت أنفسهم، ولو سلط نوره على الأرض والجبال لاحترقت وذابت كما قال في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: 143). انظر (شرح السنة للبغوي 1/ 174-175).

(3) هذا نصّ حديث رواه البخاري (7419) ومسلم (993).

قلوب العباد ونواصيهم بيده[1]، وأزِمَّةُ الأمُور مَعقُودة بقضائه وقَدَرِه، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر: 68)، يقبض سمواته كلّها بيده الكريمة، والأرض باليد الأخرى، ثمّ يهزّهنّ ثم يقول: «أنا المَلِكُ أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئا، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها»[2].

لا يتعاظمه ذنب أن يغفره[3]، ولا حاجة يُسْألها أن يُعطيَها. لو أن أهل سماواته وأهل أرضه، وأوّل خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنّهم، كانوا على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئا. ولو أن أول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنّهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئا. ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه وإنسهم وجنّهم وحيّهم وميّتهم ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلا منهم ما سأله، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة[4].

ولو أن أشجار الأرض كلّها -من حين وُجدت إلى أن تنقضي الدنيا- أقلام، والبحرُ وَوَرَاءَهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ تَمُدُّهُ مِنْ بعده مِدَاد، فكُتِبَ بتلك الأقلام وذلك المداد،

---

(1) قال الله تعالى -على لسان نبيّه هود عليه السلام-: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: 56). ومعنى الآية الكريمة أي: ما من نسمة تدب على وجه الأرض إلاّ هي في قبضة الله عزّ وجلّ وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بالناصية -وهي مقدمة الرأس- تمثيل للمُلك لكامل والقهر المطلق.

(2) في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «يقبض الله -تبارك وتعالى- الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض».

(3) يشير المصنف -رحمه الله- إلى ما أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (374) عن أبي الجلد أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود أنذر عبادي الصدّيقين فلا يُعْجَبن بأنفسهم ولا يتّكِلن على أعمالهم، فإنّه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه. وبَشّر الخطّائين أنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأتجاوز عنه».

(4) أصل مادة هذا الكلام الحديث القدسي الشهير الذي رواه الإمام مسلم (2577) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما رواه عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: «يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا...» الحديث، وهو حديث جليل، كان إذا حدّث به أبو إدريس الخولاني -رحمه الله- جثى على ركبتيه.

لفَنِيَت الأقلامُ، ونفدَ المِداد، ولم تنفذ كلمات الخالق تبارك وتعالى[1]. وكيف تفنى كلماته جلّ جلاله وهي لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية؟! فهو أحق بالفناء والنّفاد، وكيف يُفنِي المَخلوقُ غيرَ المَخلوق؟!

هو الأول الذي ليس قبله شيء[2]، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء[3]. تبارك وتعالى أحقُّ مَنْ ذُكِر، وأحَقُّ مَنْ عُبِد، وأحَقُّ مَنْ حُمِد، وَأوْلَى مَنْ شُكِر، وأنْصَرُ مَنْ ابتُغِي، وَأرْأفُ مَنْ مَلكَ، وأجْوَدُ مَنْ سُئِل، وأعْفَى مَنْ قَدَر، وَأكرَمُ مَنْ قُصِد، وَأعْدَلُ مَنْ انتَقَم.

---

(1) قال ابن كثير 6/ 351: «يقول الله تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: 27) أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعلت أقلاما، وجُعل البحر مدادا، ومدّه سبعة أبحر معه، فكُتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددا، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء».

(2) أحدث المتكلمون «القديم» في أسماء الله الحسنى ليثبتوا به وجوده سبحانه قبل كل شيء، وأسماء الله تعالى توقيفية لا يجوز إثبات شيء منها إلا بنص من الكتاب أو السنّة لا بمجرد الرأي، وقد بين العلماء أن لفظ: «القديم» لا يدل على المعنى المراد لأنه يُقصد به في اللغة: المتقدم على غيره وإن كان مسبوقا بالعدم، فيقال قديم للعتيق، وحديث للجديد. فلا ينبغي عدّ «القديم» في الأسماء الحسنى لعدم ثبوته من جهة النقل ويُغني عنه اسمه سبحانه «الأول» كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ (الحديد: 3). راجع «شرح الطحاوية» 1/ 77 – 78.

(3) عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضاجعنا أن نقول: «اللهم ربّ السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربّنا وربّ كلّ شيء فالق الحبّ والنوى، ومُنزِل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شرّ كل شيء أنت آخذ بناصيته. اللهم أنت الأوّلُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنّا الدين، وأغننا من الفقر». (رواه مسلم 2713).

حِلمُهُ بَعدَ علمِه[1]، وَعَفوُهُ بَعْدَ قدرَتِه[2]، ومَغفِرَتُه عَنْ عَزتِه، ومَنعُهُ عَنْ حِكْمَتِه، ومُوَالاتُه عَنْ إحسانه ورحمته:

مـا للعبَـادِ عـليـهِ حَقٌّ وَاجِـبُ	كلاَّ ولا سـعـيُ لديـه ضائـــعُ
إن عُـذّبـوا فَـبِـعَـدْلِـه أو نُـعِّـمُوا	فَبِفَضْلِـه وَهـوَ الكرِيـمُ الوَاسِـعُ

هو المَلِكُ لا شريك له، والفَرْدُ فلا ندّ له، والغَنيّ فلا ظَهِيرَ لَه، والصّمَدُ فلا وَلَدَ له ولا صاحبَةَ[3]، والعليُّ فلا شبيه له ولا سميَّ له.

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ (القصص: 88)، وكلُّ مُلكٍ زائلٌ إلاّ مُلكُه[4]، وكل ظلٍّ قالصٌ إلاّ ظلّه، وكل فضل منقطع إلاّ فضله.

لن يُطاعَ إلاّ بإذنِه ورحمته، ولن يُعصَى إلاّ بعلمه وحكمته. يُطَاعُ فَيَشكُر، وَيُعصَى فيتجَاوز ويَغفِر. كُلُّ نقمة منه عَدلٌ، وَكلُّ نعمَة منه فضلٌ.

---

(1) من اسمائه عزّ وجلّ الحسنى (الحليم) قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (الحج: 59). قال الحليمي في معنى (الحليم): «إنّه الذي لا يحبس إنعامه وإفضاله عن عباده لأجل دنوبهم، وقال الخطابي: هو ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص، ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنّما الحليم هو الصفوح مع القدرة، لمتأني الذي لا يُعجّل بالعقوبة». راجع (الأسماء والصفات. للبيهقي ص 53).

(2) عن حسّان بن عطيّة، قال: «حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم، قال فيقول أربعة منهم سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك. وتقول الأربعة الآخرون: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك». (مختصر كتاب العلوم، للذهبي: ص75، وقال لألباني: إسنده قويّ).

(3) وقال الخطّابي (شأن الدعاء: ص58). «الصّمد هو السيّد الذي يُصمَدُ إليه في الأمور، ويُقصد في الحوائج والنوازل، وأصل الصّمد القصد»

(4) قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: 26-27). ولقد أحسن من قال:

تأمّل في الوجود بعين فكر	ترى الدنيا الدنيّة كالخيال
ومن فيها جميعا سوف يفنى	ويبقى وَجْهُ ربّك ذو الجَلال.

أقرَبُ شَهِيدٍ، وَأدْنَى حَفيظ، حَالَ دُونَ النفُوس[1]، وأخذ بالنّواصي، وسجّل الآثار، وكتب الآجال. فالقلوبُ له مُفضِية، وَالسِرُّ عنده علانيّة، وَالغَيْبُ عِندَه شَهَادَة[2].

عَطَاؤهُ كَلامٌ، وَعَذَابُهُ كَلامٌ[3]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: 82).

---

(1) قال الله تعالى. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الأنفال. 24) أي: أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يُصرّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغيّر مقاصده، ويلهمه رشده أو يُزيغ قلبه. وفي دعاء النبيّ ﷺ الصحيح: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» قال أبو حيان في «البحر المحيط» 4/ 481. «وفي ذلك حضٌّ على المراقبة والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جلّ علا».

(2) جُلُّ هذه المدائح مأخوذة من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح وإذا أمسى دعا بهذا الدعاء. «اللهم أنت أحق من ذُكر وأحق من عُبد وأنصر من ابتغى، وأرأف من مَلك، وأجود من سئل، وأوسعُ من أعطى. أنت الملك لا شريك لك. والفردُ لا ندّ لك، كل شيء هالك إلاّ وجهَك. لن تُطاع إلاّ بإذنك، ولن تُعصَى إلاّ بعلمك. تُطاع فتشكر، وتعصَى فتغفر. أقربُ شهيد، وأدنى حفيظ، حلت دون النفوس، وأخذت بالنواصي، وكتبتَ الآثار، ونسختَ الآجال. القلوب لك مفضية والسر عندك علانية. الحلال ما أحللت والحرام ما حرّمت، والدين ما شرعت، والأمر ما قضيتَ. الخلق خلقك والعبد عبدك وأنت الله الرؤوف الرحيم، أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض وبكلّ حقّ هو لك، وبحق السائلين عليك أن تقيلني في هذه الغداة أو في هذه العشية، وأن تجيرني من النار بقدرتك» أخرجه الطبراني في «الكبير» وقال الهيثمي في «المجمع» 10/ 120. فيه فضالة بن جبير وهو ضعيف مجمع على ضعفه.

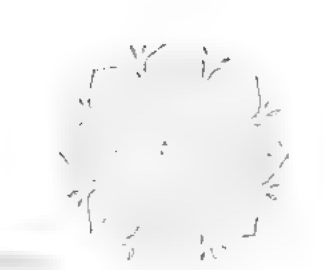
(3) ورد هذا الوصف في حديث قدسي رُوي أن رب العزة سبحانه وتعالى قال في آخره: «عطائي كلام، وعذابي كلام، إنّما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون» رواه الترمذي (2495) وابن ماجة (4257) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (712) وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف. وقال الله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل: 40)، والمعنى: أنّ الله تعالى لا يتعاظم على قدرته شيء، فإذا ما أراد فعل شيء، فإنّما يفعله ويخلقه بأمره الكوني له (كُنْ). فلا يتأخّر ذلك الشيء الذي أراده، بل يكون من فوره. وهذا دليل القدرة التامة لله عزّ وجلّ، فلا يعجزه شيء سبحانه.



المحطّة الثالثة

خطر التأخّر عن الله

- اللوحة الأولى: آثار الذنوب والمعاصي
- اللوحة الثانية: وجوب التوبة إلى الله



آثار الذنوب والمعاصي

إذا كانت الطاعات والحسنات تقرّب العبد من ربّه وتجعله يتقدّم إليه، فإنّ المعاصي والسيّئات تؤخّره عن إلهه وتعيقُ وصوله إليه. لأجل ذلك، وجب التحذير من أسباب التأخّر عن ربّ العالمين، والتذكير بصفات عباد الله المتقين.

الإشارة الأولى: التحذير من المعاصي

قرأنا جميعا -في كتاب الله تعالى- قصّة خروج (آدم وحوّاء) من الجنّة: دار السعادة والسرور، إلى الدنيا: دار الأحزان والشرور، ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (طه: 123).

وعلمنا جميعا أنّ سبب هذا الخروج والحرمان: إنّما هو معصية الرحمان، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ (طه: 121). وسمعنا جميعا تحذير ربّنا الديّان لكافة بني الإنسان: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ (الإعراف: 27)، فهل من مُدّكر؟

1. **وجوب الطاعة وحرمة المعصية**: إنّ الله تعالى خلقنا لعبادته، فقال في كتابه العزيز ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56). وأمرنا بطاعته

حيث قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: 132). وكما بشر المطيعين بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: 71)، فقد أنذر العُصاة والمذنبين بقوله جل شأنه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: 36).

ولا يليق بالعبد الضعيف أن يعصي ربّه العظيم، الذي من حقّه علينا -كما قال ابن مسعود- «أن يُطاعَ فلا يُعصَى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر»[1].

وحقيقة الطاعة في اللغة: الانقياد والموافقة[2]. فطاعة الله تعالى تعني الانقياد لأوامره والموافقة لشرعه، لأنّه سبحانه الأحقّ بذلك وحده، فلا ربّ غيره ولا معبود بحق سواه.

وفي الاصطلاح: هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي. قال الحافظ ابن حجر: «والطاعة: هي الاتيان بالمأمور به، والانتهاء عن المنهي عنه»[3].

وصورة العبادة تتجلّى في طاعة الله، التي عليها مدار الدين لذلك قال الزجّاج: «معنى العبادة: الطاعة مع الخضوع»[4].

وهذه الطاعة هي مُقتضى الإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:1)؛ وكلّما عصى العبد ربّه سبحانه نقص إيمانه، حتّى يذهب بالكلية عياذا بالله. فعلى المسلم أن يحذر الوقوع في المعاصي، لأنّها صفة الشيطان، وصنعته، وشباكه الذي يصطاد به أتباعه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ (مريم:44).

---

(1) بهذا فسر ﷺ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: 102). كما جاء في تفسير ابن كثير (2/ 71) بسند صحيح.

(2) لسان العرب (8/ 240)، ومختار الصحاح (ص403).

(3) فتح الباري: (13/ 112).

(4) لسان العرب: (2/ 273).

وحذّرنا من فتنته قائلا سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: 168-169). والشيطان يأمر بالمعصية من أطاعه ليكون رفيقه في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (فاطر: 6). فهل يُعقل أن يُرضي المسلم عدوّه الشيطان، ويُغضب ربّه الرحمان، ويستبدل النار بأعلى الجنان. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النساء: 69). قال ابن كثير: «أي مَن عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله. فإنّ الله عزّ وجلّ يُسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقا للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم: الصديقون، ثم الشهداء، ثمّ عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم، ثمّ أثنى عليهم فقال: (وحسن أولئك رفيقا)»[1].

2. **إيّاكم ومُحقّرات الذنوب**: يستهينُ الكثير من الناس بصغائر الذنوب، بدعوى أنّها من اللّمَم الذي تُكفّره الطاعات! وهذا من مداخل الشيطان اللعين على بعض السالكين، لأنّ استصغار المعاصي لا يصدر من المؤمنين الأبرار، وإنّما هو شعار الفاسقين الفجّار. ورحم الله التابعي الجليل بلال بن سعد رحمه الله حيث قال: «لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر عظمة من عصيْتَ»[2].

وثبت في المسند أنّ النبي ﷺ قال: «إيّاكم ومُحقّرات الذّنوب، فإنّهنّ يجتمعن على الرجل حتّى يُهلكنَهُ»[3].

فإذا كان النبي ﷺ يحذّر أصحابه ونساءه من هذه الصغائر، وهم من هم في الورع والصلاح والعلم، فمن باب أولى أن نكون نحن أحقّ بالتحذير منهم.

(1) تفسير ابن كثير: 2/ 34.

(2) العلل المتناهية، لابن الجوزي (1279) بسند صحيح

(3) مسند أحمد رقم (3689) وهو في صحيح الجامع (2687).

فلا يجوز التهاون بصغائر الذنوب والاستهانة بشأنها، فإن الإصرار على الصغيرة كبيرة، والاستخفاف بها مهلكة. قال النووي رحمه الله: «قَالَ الْعُلَمَاء رَحِمَهُمْ الله: وَالْإِصْرَار عَلَى الصَّغِيرَة يَجْعَلهَا كَبِيرَة، وَرُوِيَ عَنْ عُمَر، وَابْن عَبَّاس وَغَيْرهمَا ﷺ: لَا كَبِيرَة مَعَ اِسْتِغْفَار وَلَا صَغِيرَة مَعَ إِصْرَار، مَعْنَاهُ أَنَّ الْكَبِيرَة تُمْحَى بِالِاسْتِغْفَارِ، وَالصَّغِيرَة تَصِير كَبِيرَة بِالْإِصْرَارِ»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «الإصرار على الصغيرة قد يساوي إثمه إثم الكبيرة أو يُربِي عليها»[2]. وثبت عن عَبْدِ الله بْن مَسْعُودٍ ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»[3].

قال الحافظ ابن حجر: «الْمُؤْمِن يَغْلِب عَلَيْهِ الْخَوْف لِقُوَّةِ مَا عِنْده مِنْ الْإِيمَان فَلَا يَأْمَن الْعُقُوبَة بِسَبَبِهَا، وَهَذَا شَأْن الْمُسْلِم أَنَّهُ دَائِم الْخَوْف وَالْمُرَاقَبَة، يَسْتَصْغِر عَمَله الصَّالِح وَيَخْشَى مِنْ صَغِير عَمَله السَّيِّئ. وَقَالَ الْمُحِبّ الطَّبَرِيُّ: إِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ صِفَة الْمُؤْمِن لِشِدَّةِ خَوْفه مِنْ الله وَمِنْ عُقُوبَته، لِأَنَّهُ عَلَى يَقِين مِنْ الذَّنْب وَلَيْسَ عَلَى يَقِين مِنْ الْمَغْفِرَة، وَالْفَاجِر قَلِيل الْمَعْرِفَة بِاَللَّهِ فَلِذَلِكَ قَلَّ خَوْفه وَاسْتَهَانَ بِالْمَعْصِيَةِ. وَقَالَ اِبْن بَطَّال: يُؤْخَذ مِنْهُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُون الْمُؤْمِن عَظِيم الْخَوْف مِنْ الله تَعَالَى مِنْ كُلّ ذَنْب صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، لِأَنَّ الله تَعَالَى قَدْ يُعَذِّب عَلَى الْقَلِيل فَإِنَّهُ لَا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل سُبْحَانه وَتَعَالَى»[4].

فالاستهانة بالمعصية وعدم استعظام الذنب: أمرٌ في غاية الخطورة، لأنه بقدر ما يصغر الذنب عند العاصي بقدر ما يعظم عند الله، قال ابن القيم رحمه الله: «فاستقلال

---

(1) شرح النووي على مسلم (2/ 28).

(2) «إغاثة اللهفان» (2/ 151).

(3) رواه البخاري (6308).

(4) فتح الباري (11/ 105).

العبد للمعصية: عين الجرأة على الله وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقّه»[1]. ومعلوم أنّ من استصغر المعصية هان عليه أمرها، وخفّت على قلبه، ولم يجد حرجاً في الاستزادة منها.

وحتى إذا عزم على التوبة منها، كانت عزيمته باردةً، لأن داعي التوبة لديه ضعيف. لأنه أمن مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (الأعراف: 99).

وما أحسن نصيحة الصحابي الجليل أنس ﷺ، حين قال لأهل زمانه -وهم من خيرة القرون-: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر، إن كنّا لنعدّها على عهد النبي ﷺ من الموبقات»[2].

3. **لا تغتر برحمة الله**: ربما نَظر بعض الناس إلى عفو الله وسعة رحمته، فيحمله ذلك على ارتكاب المعاصي والتساهل في الذنوب!

وهو بذلك مُخطئ؛ لأن الله عَزّ وَجلّ امتدح الذين لا يُصرّون على المعاصي صِغارها وكبارها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 134).

قال ابن كثير: أي: «إذا صَدَر منهم ذَنْب أَتْبَعُوه بالتوبة والاستغفار»[3].

وقال البغوي: «قيل: [فعلوا فاحشة]: الكبائر، [أو ظلموا أنفسهم]: بالصغائر»[4].

---

(1) مدارج السالكين (1/ 140).

(2) رواه البخري (6492).

(3) تفسير القرآن العظيم (2/ 103).

(4) تفسير البغوي (2/ 106).

وربما اعتمد بعض الناس على الأحاديث التي فيها: «من قال كذا... غُفِر له..». ولتوضيح هذه المسألة ينقل لنا الحافظ ابن حجر عن العلامة ابن بطال حكاية عن بعض العلماء أن «الفضل الوارد في حديث الباب وما شابهه إنما هو لأهل الفضل في الدِّين والطهارة مِن الجرائم العظام، وليس لمن أصرّ على شهواته وانتهك دِين الله وحُرماته بِلاحِقٍ بالأفاضل المطهّرين في ذلك، ويشهد له قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية:21)»[1].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل.

وإن كان حلمه يسع الذنوب؛ إلا أنه إذا شاء عفا، فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ باليسير فالحذر الحذر...

ولقد رأيت أقوامًا من المتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق -عز وجل- إليهم في الخلوات، فَمَحا محاسن ذكرهم في الجلوات، فكانوا موجودين كالمعدومين، لا حلاوة لرؤيتهم، ولا قلب يحن إلى لقائهم.

فالله الله في مراقبة الحق -عزَّ وجل-، فإن ميزان عدله تَبِينُ فيه الذرة، وجزاؤه مراصد للمخطئ ولو بعد حين، وربما ظن أنه العفو، وإنما هو إمهال، وللذنوب عواقب سيئة.

فالله الله! الخلوات الخلوات! البواطن البواطن! النيات النيات، فإن عليكم من الله عينًا ناظرة، وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم قد استدرج!»[2].

---

(1) فتح الباري (11/ 208).

(2) صيد الخاطر (135-136).

فعلى العاقل أن لا يُقدمَ على معصية ربّه سبحانه، ثمّ يتعلَّل -بعد ذلك- بعفو الله تعالى ويتمنّى على الله الأماني! قال الحسن البصري رحمه الله: «إن قوماً غرهم حسن الظن بالله حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقولون: نحسن الظن بالله، وكذبوا والله لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»[1].

والتمادي في الذنوب، اعتماداً على سعة رحمة الله - جهل وغرور، وأماني باطلة؛ فرحمة الله قريب من المحسنين، لا من المُسيئين المُفرّطين، المعاندين المصرّين، ثم إن الله عز وجل -مع عفوه، وسعة رحمته- شديد العقاب، ولا يُرَدّ بأسُه عن القوم المجرمين. قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (الحجر: 49-50).

وصدق الشاعر حيث قال:

تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجي	**درج الجِنـان بهـا وفـوز العابـد**
ونـسـيـتَ أن الله أخـــرج آدمـاً	**منهـا إلـى الدنيـا بذنـبٍ واحـد**

الإشارة الثانية: آثار المعاصي

إن مَثل المعاصي والذنوب، كمثل الجراثيم الفتاكة والسُّموم المهلكة. فكما تفتك الثانية بالجوارح فتُفسد الأبدان، فإنّ الأولى تضرّ بالأرواح، فتُمرض القلب وتُضعف الإيمان. فاحذرها دوما أيّها الإنسان!

1. **مرض القلب وموته:** للقلب شأن عظيم في مسيرة التقدّم إلى الله تعالى، إذ بصحته يصحّ سير العبد ويتواصل حتى الوصول. وبمرضه يتعثّر في طريقه وقد ينقطع ويُحرم القبول! وهذا القلب لدى الإنسان: كالملك، والجوارح عنده كالعبيد

(1) الزهد، للإمام أحمد (1625).

تأمرُ بأوامره، وما الأعمال إلاّ ثمرة من ثماره. قال نبينا ﷺ: «ألا وإنّ في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»[1].

وأعظم ما يهدّد هذا القلب: الذنوب والمعاصي، إذ هي بمثابة السموم القاتلة. لأجل ذلك وجبت الوقاية منها والحذر من الوقوع فيها. قال الإمام ابن القيم: «إن الذنوب والمعاصي تضرّ، ولا بُدَّ أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضّرر، وهل في الدنيا والآخرة شرٌّ وداءٌ إلا سببه الذنوب والمعاصي؟»[2].

وهذا ما حذّرنا منه نبينا ﷺ حيث قال: «إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نُكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، وإن عَادَ زيد فيها، حتى تعلو قلبَهُ، وهو الرّانُ الذي ذكر الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (المطففين: 14)»[3].

نعم، الذنوب إذا كثرت وتتالت فإنّها تُعمي القلب، وقد تُميتُه، حتّى يصير منكوسا، فاقدًا لحرارة الإيمان، ولا يعرف طعم الإحسان. بل هو أسيرٌ لدى عدوه الشيطان، محجوبٌ عن ربّه الرحمان!

قال الإمام ابن القيم: «ومن عُقوباتها: أنّ العاصي دائما في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه. فهو أسيرٌ مسجونٌ مقيّدٌ، ولا أسير أسوأُ حالا من أسير أسَرَهُ أعْدَى عدوّ له، ولا سجن أضيقُ من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلبٌ مأسورٌ مسجونٌ مقيّد، وكيف يخطو خطوةً واحدة!»[4].

---

(1) رواه البخاري (52) ومسلم (1599).

(2) الجواب الكافي: (ص43).

(3) رواه الترمذي (3334) وقال: حسن صحيح.

(4) الجواب الكافي: (ص108)

وما أحسن قول الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيتُ الذنوب تُميتُ القلوب وقد يُورث الذُلّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها

2. **وحشة العبد وهوانه على ربّه:** إنّ محبّة الله، والقرب منه ورضاه: هي الغاية الكبرى التي لها يعمل العاملون، وعليها يتنافس المتنافسون، وإليها شمّرَ السّابقون، وبِرَوْح نسيمها سعد العابدون، فهي غذاء أرواح السائرين، وقرّة عيون الصالحين. ولكن، إذا تورّط العبدُ في معصية الإله، وخالف أمر سيده ومولاه، حُجب عن ربّه الكريم، وأُبْعدَ -بعد القرب- عن هذا النّعيم. فيفقد الخشوع وحلاوة الإيمان، وتستحوذ عليه وساوس الشيطان. فهو مهمُومٌ حائر مغموم، بسبب تأخّره عن الحيّ القيّوم!

وفي تعداد الآثار السيئة للمعاصي، ذكر الإمام ابن القيم أنّ منها: «وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلا، ولو اجتمعت لذّات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يُحسُّ به إلاّ مَنْ في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلامُ[1].

فلو لم يكن ترك الذنوب إلاّ حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حَرِيًّا بتركها»[2].

وقد يغتر بعضنا بسعة رحمة الله، فيستسهل المعاصي، ويقول: الله «غفور رحيم»!

ويتناسى أنه كذلك «شديد العقاب». قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (الحجر: 49-50). يقول الإمام ابن الجوزي:

(1) هو بيتٌ مشهور للشاعر المتنبي، وتمامه:
مَنْ يهُن يسهل الهوانُ عليه ما لجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ.

(2) الجواب الكافي: (ص77).

«كلّ ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل وكل مذنب ذنبا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: 123).

وربّما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظنّ أن لا عقُوبة، وغفلته عمّا عُوقب به عُقوبة، وقد قال الحكماء: المعصية بعد المعصية: عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة: ثواب الحسنة. وربما كان العقاب العاجل معنويا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: «يا ربّ كم أعصيك ولا تعاقبني»؟ فقيل له: «كم أعاقبُك ولا تدري، أليس قد حرمْتُك حلاوَةَ مُناجاتي؟».

فرُبّ شخص أطلق بصرهُ فحُرمَ اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرمَ صفاء قلبه، أو آثر شبهة في طعامه فأظلم سرّه، وحُرمَ قيام الليل، وحلاوة المناجاة، إلى غير ذلك. وهذا أمرٌ يعرفه أهل محاسبة النفوس. وعلى ضدّه يجد من يتقي الله تعالى من حُسن الجزاء على التقوى عاجلا، كما في حديث أبي أمامة من النبيّ ﷺ يقول الله تعالى[1]: «النظرة إلى المرأة سهمٌ مسموم من سهام الشيطان، من تركه ابتغاء مرضاتي، آتيتهُ إيمانا يجد حلاوته في قلبه»[2].

فلو نظر العاقل ووازن بين لذّة المعصية وما تُولّدُه فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله، وعظيم غبنه، إذْ باع أنْسَ الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف.

وسر المسألة: أنّ الطاعة توجبُ القرب من الربّ سبحانه، كلما اشتدّ القرب قوي الأنس، والمعصية توجبُ البُعد من الربّ، وكلما ازداد البعدُ قويت الوحشة.

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 264)، والبيهقي في شعب الإيمان (5431)، والطبراني في الكبير (7842) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «ما من مُسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثمّ يغضّ بصره، إلا أحلف الله به عبادة يجد حلاوتها». قال ابن كثير (التفسير 3/ 283). «ورُوي هذا مرفوعا عن ابن عمر وحُذيفة وعائشة رضي الله عنهم ولكن في أسانيدها ضعف، إلا أنه في الترغيب ومثله يتسامح فيه».

(2) صيد الخاطر: ص (85-86).

ولهذا يجد العبدُ وحشة بينه وبين عدوّه للبُعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه. ويجد أنسًا قويًا بينه وبين من يحب، وإن كان بعيدا عنه.

والوحشة سببها حجاب المعصية، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة[1].

والمعصية سببٌ لهوان العبد على ربّه وسقوطه من عينه. قال الحسن البصري: «هانُوا عليه فعصَوْهُ، ولو عزُّوا عليه لَعَصمَهُم»، وإذا هان العبدُ على الله لم يُكرمه أحدٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج:18)[2].

3. **توالد المعاصي وعرقلة السير إلى الله**: وذلك أنّ الشيطان إذا استسلم له العبد بالمعصية، فسوف لن يرضى منه بالقليل، بل سيدفعه إلى الإدمان على الموبقات، حتى يغرق في أتون الذنُوب، ويُحجبَ عن ربّه علاّم الغيوب. قال الإمام ابن القيم: «ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، ويُولدُ بعضها بعضا، حتى يعزّ على العبد مفارقتها والخروج منها. كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة: السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها.

فالعبد إذا عمل حسنة، قالت أخرى إلى جنبها: اعملني أيضا. فإذا عملها، قالت الثالثة كذلك، وهلمّ جرّا. فيتضاعف الربح، وتتزايد الحسنات، كذلك جانب السيئات أيضا. حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة.

فلو عطّل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحسّ من نفسه بأنّه كالحوت إذا فارق الماء، حتى يعاودها، فتسكن نفسه وتقرّ عينه.

ولو عطّل المُجرم المعصية، وأقبل على الطّاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره وأعْيَتْ عليه مذاهبه، حتّى يُعاودها.

---

(1) الجواب للكافي: (ص104-105).

(2) المرجع نفسه: (ص82).

ولا يزال العبدُ يعاني الطاعة ويألفها ويحبّها ويُؤثِرها، حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته إليه الملائكة تؤُزّه أزًّا، وتحرّضُهُ عليها، وتُزعجهُ عن فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يألفُ المعاصي ويحبّها ويُؤثرها حتى يُرسل الله إليه الشياطين فتؤُزّهُ إليها أزًّا.

فالأوّل: قوَّى جُندَ الطاعة بالمَدَد، فصاروا من أكبر أعوانه، والآخر: قوّى جُندَ المعصية بالمدد، فكانوا من أكبر أعدائه!»[1].

فكيف يستطيع العبد السير إلى الرحمان بعد أن صار أسيرًا لدى الشيطان؟! يقول ابن القيّم رحمه الله: «ومن عقوباتها: أنها تُضعفُ سيْرَ القلب إلى الله والدّار والآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم تردّه عن وجهته إلى ورائه. فالذنبُ يحجبُ الواصل، ويقطع السّائر، وينكّس الطّالب.

والقلب إنّما يسيرُ إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تُسيّره. فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه، والله المستعان»[2].

(1) الجواب للكافي: (ص80) باختصار.

(2) المرجع نفسه: (ص101-102).

وجوب التوبة إلى الله

اعلم أنّ الذنوب حجابٌ عن المحبوب، والانصراف عمّا يُبعد عن المحبوب حكمه الوجوب[1].

وحتى نصدُق في تحقيق التوبة، لابدّ قبل هذه المنزلة من محاسبة النفس على تفريطها في جنب الله، وتزكيتها حتى تصل إلى ربّها جلّ في عُلاه.

الإشارة الأولى: التوبة وظيفة العُمُر

إنّ التوبة من المعاصي والذنوب، والأوبة إلى الله علاّم الغيوب، هي: مبدأ طريق العابدين، ورأس مال المتقدّمين إلى رب العالمين. تصاحب السالك في سيره من أولى الخطوات إلى حدّ المهات.

1. **حُكم التوبة**: التوبة واجبة لأن الله تعالى أمرنا بها، حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ (التحريم:8)، وقال جلّ شأنه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا

(1) مختصر منهاج القاصدين: (ص271).

﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: 31). قال القرطبي: «ولا خلاف بين الأمة على وجوب التوبة، وأنّها فرضٌ متعيّن»[1].

أ. **التعجيل بالتوبة**: والتوبة من كلّ ذنب ارتكبه العبد: واجبة على الفور دون تراخ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 17).

وقال الإمام النووي: «اتفقوا على أنّ التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنّها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، والتوبة من مهمّات الإسلام وقواعده المتأكدة»[2].

وذكر الإمام ابن القيم: «أنّ المبادرة إلى التوبة من الذنوب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخّرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقلّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده: أنّه إذا تاب من الذّنب لم يبق عليه شيء آخر. وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلاّ توبة عامّة ممّا يعلم من ذنوبه وممّا لا يعلم. وفي الحديث: «اللهمّ اغفر لي ذنبي كلّه: دقّه وجلّه، خطأه وعَمْده، سرّه وعلانيته، أوّله وآخره»[3]. فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه»[4].

وقال العلامة الفقيه ابن عاشر رحمه الله:

وتـوبـةٌ مـن كل ذنـب يُـجـتـرم تجـبُ فورًا مُطلقًا وهـي النّدم[5].

---

(1) تفسير القرطبي: (12/ 238).

(2) شرح صحيح مسلم: (17/ 59)

(3) رواه مسلم (216).

(4) مدارج السالكين: (1/ 232-233).

(5) العَرف الناشر – قسم العقيدة والتصوّف: (ص167).

فاحذر أخي أن تُؤخّر التوبة، وتستمرّ في المخالفات، حتى يفاجئك الموتُ وأنت في الغفلات. فحينئذ لن ينفع النّدم ولا الحسرات. قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: 18).

فلا تغتر بشبابك وقوتك، واحذر التسويف فإنها بضاعة المفلسين وزاد البطّالين، الذين قال فيهم ربّ العالمين: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد: 25). قال الحسن البصري في تفسيرها: «زيّنَ لهم الخطايا، ومدّ لهم في الأمل»[1].

يامـن بدُنيـاهُ اشـتغل ... قد غرَّهُ طـولُ الأمـل

الـموتُ يـأتي بـغـتـةً ... والقبرُ صُندُوقُ العمل

ب. **حاجة الأبرار إلى التوبة والاستغفار:** يغفلُ عامّةُ الملتزمين عن محاسبة النفس وتجديد التوبة، بل يشمئزّ بعضهم إذا قلت له: «تاب الله عليك» ويردّ غاضبا: «وماذا صنعتُ حتى أتوب ؟».

والكثير منا قد يقرأ القرآن ويمرّ على آيات الوعيد والتهديد، فلا يُلقى لها بالاً وكأنها لا تعنيه، ويغفل عمّا هو غارق فيه من العُجب والاستكبار الذي لا يليق بالمحسنين الأبرار! وقد كان سلفنا الصالح في قمّة الخوف من الله، حتّى مات بعضهم بسماع آية من كتاب الله. وقد جمع أخبارهم الإمام أبو إسحاق الثعلبي (ت427هـ) في كتاب سماه «قتلى القرآن»[2].

فأهل الطاعة محتاجون إلى التوبة كما يحتاج إليها أصحاب الذنوب؛ ومن ظنَّ منهم أنه ليس عنده ما ينوبُ منه، أو أنه مستغني عن التوبة فقد زلّ، فالتوبة لازمة للعبد من جهات عدّة:

(1) تفسير القرطبي: (16/ 249).

(2) هو مطبوع بدار العبيكان بتحقيق الدكتور ناصر المنيع.

- من الخلل الذي يقع في الطاعات.
- من التقصير والتفريط في شكر النعم التي لا تعدُّ ولا تُحصى.
- ممّا قد يشوبُ العمل من الرياء والعُجب[1].

وقد أشار الإمام ابن تيميّة إلى هذه الحيثية بقوله: «العبدُ دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب يحتاج فيه إلى استغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما، لأنّه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجا إلى التوبة والاستغفار. ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين محمّد ﷺ يستغفر في جميع الأحوال»[2].

وبيّن الإمام ابن القيم حاجة الطائعين إلى الاستغفار قائلا: «الرّضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشدّ ما يكونون استغفارا عقيبَ الطّاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه»[3].

2. **شروط التوبة**: يُخبرنا بها الإمام النووي رحمه الله بقوله: «قال العلماء: التوبة واجبة من كلّ ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله لا تتعلقّ بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يُقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعُود إليها أبدا. فإن فُقد أحدُ الثلاثة لم تصح توبته.

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، لمحمد الغزالي: (ص189).

(2) مجموع الفتاوي: (10/ 88).

(3) مدارج السالكين: (1/ 159).

وإن كانت المعصية تتعلّق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة وأن يبرأ من حقّ صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه ردّه إليه، وإن كانت حدّ قذفٍ ونحوه مكّنهُ منه أو طلب عفوهُ، وإن كانت غيبة استحلّه منها»[1].

وقال الإمام ابن القيم: «فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل. والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة. فإنّه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذ يرجع إلى العبوديّة التي خُلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة»[2].

أ. **الإقلاع عن المعصية**: أي ترك الذنب الذي تورّط فيه العبد، وهذا أوّل شروط التوبة الصحيحة. وكيف يُوصف الإنسان بالتائب وهو لا يزال عاكفًا على ذنبه، متمسّكا بجرمه، ومتلبّسا بمعصيته!

فهذه توبة الكذّابين، وسلوك غير المؤمنين، والمستهزئين بربّ العالمين.

أستغفر الله من استغفر الله ... من لفظة بدرت خالفتُ معناها
وكيف أرجو إجابات الدعاء وقد ... سددتُ بالذنوب عند الله مجراها.

ب. **الندم على فعلها**: وهو أعظم الشروط المطلوبة للتوبة النصوح، فقد جاء في الحديث: «النّدمُ توبة»[3]، وهو أن يندم المذنب على معصيته التي تركها، ويشعر بالحزن والأسف كلما ذكرها، فتراه مهموما بذلك لشعوره بعظم جُرمه وقبح صنيعه، وإدراكه مبلغ التفريط الذي صدر منه، والغفلة التي وقع فيها.

---

(1) رياض الصالحين: (ص24).

(2) مدارج السالكين: (1/ 165).

(3) صحيح ابن ماجة رقم (3429).

قال الإمام ابن القيم: «فأمّا النّدم، فإنّه لا تتحقق التوبة إلاّ به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه»[1]. بل نجد من الناس من يتغنّى بمعاصيه القديمة -بعد ادعائه التوبة- ولسان حاله يقول: «ليت الشباب يعُودُ يومًا»! فهذه توبة كاذبة، لا تستقيم بالحال، لأنّها تفقد أهم ركن من أركانها: ألا وهو النّدم والحزن على التقصير في حق الله، والتجرؤ على معصيته، وارتكاب ما نهى عنه سبحانه.

أمّا التائب الصادق فتراه نادما بحق بعد رجوعه إلى الله: منكسر القلب، ذليل النفس، خاضع الجوارح، يهتف بربّه الرحيم، أن يغفر له الذنب العظيم، وينجيه من عذاب الجحيم:

يا ربّ إنّ ذنوبي اليوم قد كثُرت	**فما أطيقُ لها حصرا ولا عدّا**
وليس لي بعذاب النار من قِبَل	**ولا أطيق لها صبرا ولا جلدًا**
فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكنتي	**ولا تذقني حرّا للجحيم غدًا**

وهذا الذل والانكسار بين يدي العزيز الجبّار: هو روح التوبة وحقيقة التخلية الضرورية لتزكية النفس.

وقد أجاد الإمام ابن القيم في وصف هذه الحالة الروحيّة السامية حيث ذكر أنها: «كَسْرَةٌ خاصة تحصل للقلب لا يُشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب... تكسرُ القلب بين يدي الرب كسرةً تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحا ذليلا خاشعا، كحال عبد جَان آبق من سيده، فأُخذ فأُحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء، ولا منه مهربا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته. هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

(1) مدارج السالكين: (1/ 165).

فيجتمع من هذه الأحوال (كسرة، وذلّة، وخضوع). ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها. وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير. وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه.

يامَن ألوذُ به فيما أؤملُه — ومَن أعوذُ به ممّا أحاذرُه

لا يجبُرُ الناسُ عظمًا أنتَ كاسرُهُ — ولا يَهيضُون عظمًا أنتَ جَابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتّهم توبته وليرجع إلى تصحيحها»[1].

ج. **العزم على عدم العودة:** وهذا هو الشرط الثالث الأكيد لصحة التوبة، حيث يعزم المُذنب عزمة قويّة صادقة على اجتناب ما اقترفه من المعاصي، ويعاهدُ الله جلّ جلاله على عدم العودة إلى مثل هذه المخالفات مدى الحياة.

فاعزم أخي التائبُ على أن لا ترجع إلى الذنب ولا تعود، وكُن رجُلا في ذلك: فإذا عاهدت فأوفِ، وإذا نويتَ فاصدُق، وإذا عزمتَ فتوكّل على الله إن الله يحبُّ المتوكلين.

وإليك قصة معبّرة من عزائم الرجال تقول: إنّ مالك بن دينار مرّ يوما في السوق، فرأى بائع تين، فتاقت نفسه إلى التين، ولم يكن يملك ثمنه، فطلب إلى البائع أن يؤخّره

(1) مدارج السالكين: (1/ 169).

فرفض، فعرض مالك على البائع أن يرهن عنده حذاءه مقابل هذا التين فرفض ثانية، فانصرف مالك وأقبل الناس على البائع وأخبروه عن هوية المشتري، فبعث بغلامه إلى مالك بعربة التين كلها وقال لغلامه: إن قبلها منك فأنت حر لوجه الله.

وذهب الغلام إلى مالك واضعا في باله أن يبذل قصارى جهده لينال حرّيته، فإذا بمالك يقول له: اذهب إلى سيدك وقل له: إنّ مالك بن دينار لا يأكل التين بالدين، وإن مالك بن دينار حرّم على نفسه أكل التين إلى يوم الدين.

قال الغلام: يا سيدي خذها، فإن فيها عتقي.

قال مالك: إن كان فيها عتقك، فإن فيها رقيّ[1].

رأى مالك أن شهوته أذلته وأن بطنه أهانه، فأدّب نفسه وحرّم عليها أكل التين زجرا لها وتهذيبا.

فكيف لا يعزم هذه العزمة من استزلّه شيطانه، وأخضعته شهوته، فسقط في بئر الخطيئة؟!

كيف هان عليه أن يرى نفسه ذليلة مهينة، دون أن يَمُدَّ لها يد المساعدة وينتشلها من مستنقع الهوان؟!

الإشارة الثانية: من أسرار التوبة

مع ما في مصارعة النفس والشيطان مِن شدّة ومعاناة، فإن في طيّاتها جُملة من الفوائد والفتوحات. ومن فضل الله على عبده المفتون، أن يبعث إليه بإشارات، حتى يصرفه عن السيّئات ويردّه إلى الطاعات. فإن لم ينتبه أتته الإنذارات، فإن طالت رقدته تتالت عليه الضربات، حتى يستيقظ من الغفلات. كما رُوِيَ في الأثر الإلاهي:

---

(1) هبّي يا ريح الإيمان: (ص49).

«أَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كَرَامَتِي، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِي لَا أُقْنِطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِي، إِنْ تَابُوا إِلَيَّ فَأَنَا حَبِيبُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَبِيبُهُمْ، أَبْتَلِيهِمْ بِالمَصَائِبِ، لِأُطَهِّرَهَمْ مِنَ المَعَايِبِ»[1].

لأجل ذلك وجب على من ثبّته الله على الطريق، ألا يبخل بالنصح والتذكير على من سقط أو وقع في مضيق، وليكُن نِعمَ الرّفيق، وتلك هي أخلاق الصالحين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: 55)، وقال ﷺ: «إن المؤمنَ خُلقَ مُفتّناً توّابًا نَسِيًّا، إذا ذُكّرَ ذكر»[2].

1. **فوائد الابتلاء بالذنوب:** لِله تعالى -في ابتلائنا بهذه الذنوب- حِكَمٌ غزيرة، لا يعلمها إلا علاّم الغيوب. فهي وإن بدت في ثوب مِحنة، فقد تنقلبُ إلى منحة. فكم من معصية جَبَرت صاحبها بعد كَسْرِه، وأيقظت غفلته بعد رقدته، وزكّت نفسه بعد تدْسيتها! وقد قال نبيّنا ﷺ: «لو لم تُذنبوا لذهبَ اللهُ بكم، ثم جاء بقوم يُذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»[3].

قال الحافظ ابن رجب: «والمُرادُ بهذا أن لِله تعالى حكمةً في إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحيانا، حتى يقعَ منهم بعضُ الذنوب، فإنه لو استمرّت لهم اليقظةُ التي يكونون عليها في حال سماع الذّكر، لما وقع منهم ذنبٌ. وفي إيقاعهم في الذنوب أحيانا فائدتان عظيمتان:

أحدهما: اعتراف المذنبين بذنوبهم، وتقصيرهم في حق مولاهم، وتنكيس رؤوس عُجْبهم. وهذا أحبّ إلى الله من فعل كثير من الطاعات، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العُجْب وفي الحديث: «لو لم تذنبوا لخشيتُ عليكم ما هو أشدُّ من ذلك: العُجْب»[4].

---

(1) فتاوى ابن تيمية (14/ 319)، ومدارج السالكين (1/ 430-431).

(2) رواه الطبراني وهو في صحيح الجامع (5735).

(3) رواه مسلم (2749).

(4) رواه البزّار - كشف الأستار (3633)، وجوّد إسناده المنذري، وصحّحه الألباني في الصحيحة (658)

قال الحسن: لو أن ابن آدم كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن، أوشك أن يجن من العُجب. قال بعضهم: ذنب أفتقر به، أحب إلي من طاعة أَدِلّ بها عليه.

أنين المذنبين أحبّ إليه من زَجَلِ المسبّحين، لأن زجل المسبّحين ربما شابه الافتخار، وأنين المذنبين يُزينهُ الانكسار والافتقار. وفي حديث: «إن الله لينفعُ العبدَ بالذنب يذنبه»[1]. قال الحسن: «إن العبد ليعمل الذنب فلا ينساه، ولا يزال متخوفا منه حتى يدخل الجنة». والمقصود من زلل المؤمن: ندمه، ومن تفريطه: أسفه، ومن اعوجاجه: تقويمه، ومن تأخره: تقديمه، ومن زلقه في هُوّة الهوى: أن يُؤخذ بيده فيُنجّى إلى نَجْوة النجاة، كما قيل:

قُـرّةَ عينـي لا بـدّ لـي منـكَ وإنْ   أوحـشَ بينـي وبيـنَـكَ الزّلـل
قُـرّةَ عيني أنـا الغريـقُ فَخُـــذْ   كَـفَّ غـريـقٍ عـليـكَ يتّكـــل

الفائدة الثانية: حصول المغفرة والعفو من الله لعبده، فإن الله يحب أن يعفو ويغفر، ومن أسمائه: الغفّار، والعَفوّ، والتوّاب، فلو عُصم الخلق فلِمَن كان العفو والمغفرة ؟ قال بعض السلف: أول ما خلق الله القلم فكتب: إني أنا التواب أتوب على من تاب.

قال أبو الجلد: «قال رجل من العاملين لله بالطاعة: اللهم أصلحني صلاحا لا فساد عليّ بعده. فأوحى الله تعالى إليه: إن عبادي المؤمنين كلهم يسألوني مثل ما سألت، فإذا أصلحت عبادي كلهم فعلى من أتفضل وعلى من أجود بمغفرتي؟» كان بعض السلف يقول: لو أعلم أحب الأعمال إلى الله لأجهدت نفسي فيها، فرأى في منامه قائلا يقول له إنك تريد مالا يكون، إن الله يحب أن يغفر قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه، لم يبتل بالذنب أكرم الخلق عليه.

(1) ذكره صاحب كنز العمال 4/ 240، وعزاه لأبي نُعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمر، وليس في المطبوع.

يــا رب أنــت رجائـي	وفـيـك حـسّـنـتُ ظني
يــارب فـاغـفـر ذنوبـي	وعافـنـي واعـفُ عـني
الـعـفـوُ مـنـكَ إلـهـي	والذنـبُ قـد جـاء منّي
والـظـنُّ فـيـك جـمـيلٌ	حَقِّـق بحقِّك ظنّـي»[1].

2. حقيقة التوبة النصوح: إذا كانت (التوبة) هي: «الرجوع ممّا يكرههُ الله ظاهرًا وباطناً، إلى ما يُحِبّهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا»[2]، فما هي (النصوح) الواردة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ (التحريم: 8).

يجيبنا أهل العلم بأنّ: كلمة (نصوح) مشتقّة من (نَصَحَ) الشيءَ: أي خلّصه من الغشّ والشوائب الغريبة، و(النّصوح) على وزن فَعول، كشَكور وصَبور، فهي من صيغ المبالغة. والنّصح في التوبة: تخليصها من كلّ غش ونقص وفسادٍ، وإيقاعها على أكمل الوجوه[3].

قال الإمام ابن القيّم: «وقد اختلفت عبارات السلف عنها.

فقال عمر بن الخطاب، وأُبي بن كعب رضي الله عنهما: التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادما على ما مضى، مجمعا على أن لا يعود فيه.

وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن.

وقال سعيد بن المسيب: توبة نصوحا: تنصحون بها أنفسكم. جعلها بمعنى ناصحة للتائب.

(1) لطائف المعارف: (ص 58- 59).

(2) مدارج السالكين، لابن القيم: (1/ 259).

(3) المرجع نفسه: (1/ 260- 261).

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العَوْد بالجَنان، ومهاجرة سَيّء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردُّد، ولا تَلَوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل»[1].

3. **سرُّ محبّة الله للتائب**: إن عبوديّة التوبة من أحبّ العبوديات لله تعالى، فإنه سبحانه يحبّ التوابين، ويكشف لنا الإمام ابن القيّم سرّ هذه المحبّة الخاصّة للتائبين عند ربّهم بقوله: «للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يُقدّر، كما مثّله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدّوية المهلكة، بعد ما فقدها، وأيس من أسباب الحياة. ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرا عظيما في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يُعَبّر عنه، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية، فيصير حبيبا لله، فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب، ويوضحه:

(1) مدارج السالكين، لابن القيم: (1/ 261).

أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخّها ولُبُّها، يوضحه:

أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر، والعبودية، والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه كما في الأثر الإسرائيلي: «يا رب أين أجِدُكَ؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»، ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه»[1].

4. **كرامة أحد التائبين:** كثيرة هي قِصص التائبين من القدامى والمحدثين، ومن أجملها ما حكاه لنا الإمام ابن قدامة، حيث قال رحمه الله: «رُوي: أنه لحق بني إسرائيل قحط على عهد موسى عليه السلام فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا كليم الله ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث.

فقام معهم وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفا أو يزيدون، فقال موسى عليه السلام: إلهي اسقنا غيثك وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضّع والبهائم الرتع والمشايخ الركع.

فما زادت السماء إلا تقشعا والشمس إلا حرارة، فسأل موسى ربّه عن ذلك؟ فأوحى الله إليه فيكم عبد يبارزني منذ أربعين سنة بالمعاصي، فنادِ في الناس حتى يخرج من بين أظهركم فَبِهِ مَنعتكُمُ.

فقال موسى: إلهي وسيدي، أنا عبد ضعيف وصوتي ضعيف، فأين يبلغ وهم سبعون ألفا أو يزيدون؟

(1) مدارج السالكين، لابن القيم: (1/ 252).

فأوحى الله إليه منك النداء ومني البلاغ، فقام مناديا وقال: يا أيها العبد العاصي الذي يبارز الله منذ أربعين سنة، اخرُج من بين أظهرنا فبكَ مُنِعنا المطر.

فقام العبد العاصي، فنظر ذات اليمين وذات الشمال، فلم يَرَ أحدًا، خرج فعلم أنه المطلوب. فقال في نفسه: إن أنا خرجتُ من بين هذا الخلق افتضحتُ على رؤوس بني إسرائيل، وإن قعدت معهم مُنعوا لأجلي، فأدخل رأسه في ثيابه نادما على فعاله، وقال: إلهي وسيدي، عَصيتُكَ أربعينَ سنة وأَمْهَلْتَنِي وقد أتيتُكَ طائعًا فاقْبَلْنِي، فلم يستَتِمّ الكلام حتى ارتفعت سحابةٌ بيضاء فأمطرت كأفواه القرب.

فقال موسى: إلهي وسيدي بماذا سقيتنا، وما خرج من بين أظهرنا أحد؟

فقال: يا موسى سقيتُكُم بالذي به مَنَعتُكُم.

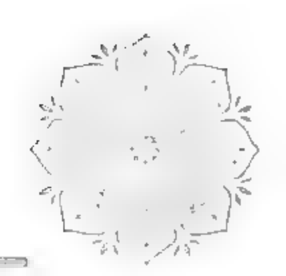
فقال موسى: إلهي أرني هذا العبد الطائع. فقال: يا موسى إني لم أَفَضَحْهُ وهو يعصيني، أأَفَضَحُه وَهوَ يُطيعُنِي!»[1].

(1) كتاب التوابين. (ص 80). وهذه القصّة من الإسرائيليات التي فيها عبرة وموعظة، وقد ثبت في صحيح البخاري أنّ النبيّ ﷺ قال: «وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

المحطّة الرابعة

فقه التقدّم إلى اللّه

- اللوحة الأولى: العلم قبل القول والعمل
- اللوحة الثانية: منزلة العمل الصالح
- اللوحة الثالثة: ما لا يسع المتقدّم جهله



العلم قبل القول والعمل

لا بدّ أن يكون المتقدّم إلى ربّه الجليل، على بصيرة في هذا السير الجميل، ولا يحصل له ذلك إلا بالعلم ومعرفة الدليل. فعلى من أراد سلوك الصراط المستقيم أن يتفقّه - أوّلاً - في الدّين، ويتبع سنة سيّد المرسلين ﷺ، حتى ينجو من فتنة المغضوب عليهم والضالين[1].

الإشارة الأولى: الإسلام دين العلم

1. **الثورة العلمية في الإسلام:** لمّا كان الإسلام دين العلم، فقد اعتنى عناية فائقة بتأسيس العلوم ونشرها وإكرام أهلها، حتى قامت حضارته على أسس عظيمة ومناهج مستقيمة. ففي بيئة جاهلية متخلفة لا أثر فيها للعلوم والمعارف تنزل الآيات الأولى من كتاب الله تأمر بالقراءة وهي (مفتاح العلم)، وتنوّه بالقلم وهو (أداة تقييد ونقل للعلم)، حيث قال تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1-5).

(1) قال الشيخ السعدي: «وهذا الصراط المستقيم هو (صراط الذين أنعمت عليهم) من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين (غير) صراط (المغضوب عليهم) الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط (الضالين) الذين تركوا الحق عن جهل وضلال كالنصارى ونحوهم». (تيسير الكريم الرحمن: ص38).

وتتجلّى ملامح هذه الثورة العلميّة التي جاء بها الإسلام في جعل التعلّم إلزاميًا، كما جاء في حديث النبيّ ﷺ: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم»[1]، وقد بادر ﷺ بالقيام بمهمّة التعليم التي شرفت وصارت من وظائف النبوّة التي من أجلها بُعث الرسول وأنزلت الرسالة، إذ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: 2).

2. **فضل العلماء في الإسلام**: وتنويها بمقام العلم وأهله استشهد الله تعالى العلماء على وحدانيته فقال جلّ شأنه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: 18) قال الإمام القرطبي: «في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنّه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء»[2]. ولأهميّة العلم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: 114)، فالله سبحانه لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلاّ من العلم[3]. وقد كان ﷺ يسأل ربّه هذا العلم، حيث يقول في دعائه: «اللهمّ إنّي أسألك علما نافعا، وأعوذ بك من علم لا ينفع»[4].

وللعلماء في الإسلام منزلة رفيعة تعلو مَنْ سواهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة: 11)، ومدح الله أهل العلم وأثنى عليهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: 9).

(1) أخرجه ابن ماجة (224) وهو في صحيح الجامع (3913).

(2) الجامع لأحكام القرآن: (4/ 44).

(3) قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «ولم يزل ﷺ في زيادة [أي من العلم] حتّى توفّاه الله عزّ وجلّ» (تفسير ابن كثير: 5/ 312).

(4) أخرجه ابن حبّان في صحيحه (82).

ومن الأدلّة على فضل العلم وأهله: أن الله عزّ وجلّ أخبر أن أهل العلم هم أهل خشيته، بل خصّهم من بين العباد بذلك، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: 28)، وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار بالله جهلا»[1].

ومن نصوص السنّة في شرف العلم وفضل طلبه قول النبيّ ﷺ: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له به طريقا إلى الجنّة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع. وإنّ طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. وإنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا درهمًا ولا دينارا، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ»[2].

3. **العلم يرفع الحيوان:** ومن أجمل ما استدلّ به العلماء على فضل العلم وشرفه: أن الله عزّ وجلّ جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المعلّم، وهذا من شرف العلم، فلولا مزيّة العلم والتعليم وشرفهما لكان صيد الكلب الجاهل والمعلّم سواء، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ (المائدة: 4). قال الإمام ابن القيم: «وحرّم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنّما أباح للأمّة صيد الجوارح العالمة. فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شيئا، والله سبحانه وتعالى أعلم»[3].

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير: (9/ 211)، وأحمد في الزهد (ص 158).

(2) أخرج مسلم (2699) الجملة الأولى منه، ورواه كاملا أبو داود (3641) والترمذي (2682) و بن ماجة (223) وصححه ابن حبّان (88) والألباني في صحيح الجامع (6297)، وقد أجاد ابن القيم في شرح الحديث في كتابه مفتاح دار السعادة (1/ 254-265).

(3) مدراج السالكين: (2/ 181).

الإشارة الثانية: فضل الفقه في الدين

والإسلام يدعو إلى تعلّم سائر العلوم النّافعة، والعلوم أنواع ودرجات وأفضلها على الإطلاق علوم الشريعة التي بها يعرف الإنسان ربّه ونبيّه ودينه، قال الحافظ ابن حجر: «والمراد بالعلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلّف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص»[1].

وثبت في الصحيحين أنّه ﷺ قال: «مَن يُرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[2]، قال ابن منظور: الفقه: «العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين، لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم كلّه»[3].

وقبل تخصيصه بمعرفة الأحكام الشرعية العمليّة كما هو مشهور عند الفقهاء والأصوليين، فقد كان مصطلح (الفقه) يشمل العلم بأحكام دين الإسلام عامة بما فيها من عقيدة وشريعة وأخلاق[4]. بل خصّ الكثير من السلف مصطلح (الفقيه) بمن حصّل العلم بالله، واستقام على دينه، وزهد في دنياه، واجتهد لآخرته.

وقد نبّه الإمام الغزالي على ما لحق بعض ألفاظ العلوم من التبديل، فقال رحمه الله: «واعلم أنّه قد بُدّلت ألفاظ وحُرّفت، ونُقلت إلى معان لم يُردها السلف الصالح. فمن ذلك: لفظ (الفقه)، فإنّهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصّوه بمعرفة الفروع وعللها،

---

(1) فتح الباري: (1/ 141).

(2) أخرجه البخاري (71) ومسلم (1037).

(3) لسان العرب: (13/ 522).

(4) وأصل ذلك حديث جبريل الشهير، الذي أخرجه مسلم برقم (8) والذي بيّن فيه النبي ﷺ حقيقة الإسلام والإيمان والإحسان. قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (1/ 97): «وهو حديث عظيم جدًا، يشتمل على شرح الدين كلّه، ولهذا قال النبيّ ﷺ في آخره: «هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم» بعد أن شرح درجة الإسلام، ودرجة الإيمان، ودرجة الإحسان، فجعَل ذلك كلّه دينا».

ولقد كان اسم الفقه في العصر الأوّل منطلقا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدّة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. ولذلك قال الحسن البصري: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لهم»[1].

وقال الإمام ابن القيم: «لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلاّ على العلم الذي يصحبه العمل، كما سُئل سعد بن ابراهيم عن أفقه أهل المدينة: قال: أتقاهم»[2] وأضاف قوله -في معنى الحديث-: «وهذا يدل على أن مَنْ فقـّهَهُ الله في دينه فقد أراد به خيرا، إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأما إن أُريد به مُجرّدُ العلم فلا يدلُّ على أنّ من فَقُهَ في الدين فقد أُريدَ به خيرا»[3].

الإشارة الثالثة: اقتضاء العلم العمل

وقد تكاثرت النصوص في الكتاب والسنة بالتهديد والوعيد لمن لم يعمل بعلمه، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصفّ: 2 – 3)، وكقوله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه»[4].

ولخطورة هذه الآفة، فقد تناولها أهل العلم في مصنفاتهم فحذّروا منها. بل خصّها بعضهم بالتأليف، مثل الإمام الخطيب البغدادي (ت463هـ) في كتابه

(1) مختصر منهاج القاصدين: (ص 19).

(2) مفتاح السعادة: (1/ 319).

(3) المرجع نفسه (1/ 246).

(4) أخرجه الترمذي (2417) والدارمي (543) وهو في السلسلة الصحيحة (946).

«اقتضاء العلم العمل»، والحافظ ابن عساكر (ت571هـ) في رسالته «ذمّ من لا يعمل بعلمه».

فالعالم في الإسلام لا ينفعه علمه ما لم يكن عاملا بهذا العلم، ملتزما بمقتضياته، ومتأدّبا بآدابه، ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

إنّ العلم ليس مقصودا لذاته، وإنما هو مقصود لغيره وهو العمل. وكل علم شرعي فطلبُ الشرع له إنّما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبّد به لله تعالى، لا من جهة أخرى[1]، ويدلّ على ذلك أمور:

أحدها: أنّ الشرع إنما جاء بالتعبّد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25). والآيات في هذا كثيرة، تدلّ كلّها على أنّ المقصود من العلم هو: التعبّد لله عزّ وجلّ، وصرف جميع أنواع الطاعات له سبحانه.

الثاني: ما جاء من الأدلّة على أن روح العلم هو العمل، وإلاّ فالعلم عارية وغير منتفع به، فقد قال الله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الزمر: 9). قال الإمام الرّازي: «واعلم أنّ هذه الآية دالة على أسرار عجيبة فأوّلها: أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم. أمّا العمل فهو: (القنوت، والسجود، والقيام).

وأمّا العلم: ففي قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؟ وهذا يدلّ على أنّ كمال الإنسان محصور في هذين المقصُودين»[2].

(1) الموافقات، للشاطبي، (1/ 64) فما بعدها.

(2) التفسير الكبير: (26/ 250).

وقال العلاّمة الألوسي: «ويُعْلَمُ ممّا ذكرنا أن المراد بالذين يعلمون (العاملون) من علماء الديانة... وفيها دلالة على أنّ ذلك مقتضى العلم، وأنّ العلم الذي لا يترتب عليه العمل ليس بعلم عند الله تعالى»[1].

قال أبو الدّرداء ﷺ: «إنّما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربّي أن يقول: قد عَلِمْتَ، فما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟»[2].

فهذه النصوص وغيرها تدلّ على أنّ العلم وسيلة من الوسائل، وليس مقصودا لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنّما هو وسيلة إلى عمل الصالحات والتقرّب إلى ربّ الأرض والسّماوات.

فعلى من أراد أن يتقدّم إلى ربّه ويصل إليه سريعا، أن يُخلِصَ لله النيّة وأن يُطهّر -من البدء- السريرة والطويّة.

أما من خلّطَ وفسد قصده، فهو على خطر عظيم، ويُخشى عليه من العذاب الأليم. فقد حذّرنا نبيّنا الكريم ﷺ بقول: «من تعلّم علما ممّا يُبتَغَى به وجهُ الله تعالى، لا يتعلّمه إلاّ ليُصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنّة يوم القيامة»[3]: يعني ريحها. وقال ﷺ: «لا تعلّمُوا العلم لتُباهُوا به العلماء، ولا لتُمارُوا به السفهاء، ولا لتخَيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنارُ النّار»[4].

الإشارة الرابعة: علامة العلم النافع

ومن أعظم ثمرات العلم النافع وعلاماته: خشية الله سبحانه وتعالى، «والخشية أخصُّ من الخوف، فإنّ الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

(1) روح المعاني: (23/ 246-247).

(2) اقتضاء العلم العمل، للبغدادي رقم (53) بسند حسن.

(3) رواه أبو داود (3664) وهو في صحيح الترغيب (99).

(4) رواه ابن ماجة (254) وابن حبّان (77) وهو في صحيح الترغيب (101).

ﭐلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ (فاطر: 28)، فهي خوف مقرونٌ بمعرفة»[1]، وقال النبيّ ﷺ: «أنا أعلَمُهُمْ بالله، وأشدُّهم له خشيةً»[2]. فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنّه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ (البيّنة: 8)[3].

قال الحافظ ابن رجب: «وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول عن معروف[4]: معه أصل العلم: خشيّة الله. فأصل العلم: العلم بالله الذي يوجب خشيته، ومحبّته والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثمّ يتلوه العلم بأحكام الله، وما يحبّه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد.

فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علما نافعا، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة والدعاء المسموع، ومن فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبيّ بقوله: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[5]. وصار علمه وبالا وحجّة عليه، فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه لربّه، ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصا ولها طلبًا، ولم يُسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربّه وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه»[6].

---

(1) مدارج السالكين: (1/ 416).

(2) أخرجه البخاري (5750) ومسلم (2356).

(3) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: (ص698).

(4) هو أبو محفوظ معروف الكرخي البغدادي، أحد كبار الزهد والأئمة العارفين، كان كثير العبادة مجاب الدعوة، ذُكر عند الإمام أحمد، فقيل: قصير العلم. فقال: أمْسِكْ، وهل يُرادُ من العلم إلاّ ما وصل إليه معروف! أفرد ابن الجوزي مناقبه بكتاب، وتوفي رحمه الله سنة (200 هـ). انظر: حلية الأولياء: (8/ 360)، وسير أعلام النبلاء: (9/ 339 344).

(5) رواه مسلم (2722).

(6) بيان فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب: (ص 79-80).

الإشارة الخامسة: تقديم العلم على العبادة

لابُدّ للمسلم من التعلّم أوّلا حتى يكون على بصيرة في تقدّمه إلى الله تعالى. فالعلم هو الذي يبيّن لنا الحق من الباطل في المعتقدات، والسنة من البدعة في العبادات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والحلال من الحرام في التصرّفات، والصواب من الخطأ في الأفكار والأطروحات.

ولهذا كان طلب العلم مُقدّمًا على طلب العمل، قال إمام الهدى عمر بن عبد العزيز: «من عمل على غير علم، كان ما يُفسد أكثر ممّا يُصلح»[1]. وقال الحسن البصري: «العامل على غير علم كالسائر على غير طريق»[2]. فالعلم هو النور الذي يهدي - بإذن الله - إلى صالح العمل، كما أنه يهدي إلى الإيمان أيضا، كما أرشد إلى ذلك القرآن حين يقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج:54). هكذا بهذا الترتيب الذي دلّ عليه العطف بـ(الفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب: (ليعلموا، فيؤمنوا، فتُخْبِتَ قلوبهم..) فالعلم يترتّب عليه الإيمان، والإيمان يترتّب عليه الإخباتُ والخشوع، ترتب الأثر على المؤثّر[3].

1. **القرآن بدأ بالعلم قبل العمل**: وذلك أنّ العلم يسبق الإيمان والعمل، وقد كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:1-5). أمر فيها سبحانه بالقراءة وكرّره، والقراءة هي مفتاح العلم، ونوّهَ بالقلم وهو أداة نقل العلم وتثبيته.

---

(1) جامع بيان العلم، لابن عبد البّر: (1/ 33).

(2) مفتاح دار السعادة: (1/ 304).

(3) نحو فقه مُيَسِّر ومُعاصر، للقرضاوي: (ص179-180).

ثمّ نزل بعدها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ (المدثّر: 1-7) وكلها آيات آمرة بالعمل، وهو ترتيب فطري ومنطقي: أن يُؤمَرَ بالعمل بعد العلم[1].

2. **عُلَمَاؤنا قدّموا العلم على العمل**: ويتصدرهم في هذا المنهج: الإمام البخاري الذي عقد في كتاب العلم من صحيحه: (باب: العلم قبل القول والعمل). قال الحافظ ابن حجر في شرحه: قال ابن المنيّر: «أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يُعتبران إلا به، فهو متقدّم عليهما، مُصَحِّحٌ للنيّة، المُصَحّحة للعمل»[2].

واستدلّ البخاري لما ذكره بجملة من النصوص، أوّلها: قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ (محمد: 19). فبدأ بالعلم، وثنى بالعمل.

ونحا نحو البخاري الإمام الغزالي، حيث بدأ بالعلم في كتابين له:

أولهما: «إحياء علوم الدين»، وهو يشتمل على أربعين كتابا في العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات، وأوّل هذه الكتب: «كتاب العلم».

وثانيهما: كتابه «منهاج العابدين» حيث جعل العقبة الأولى التي على السالك أن يقطعها في طريقه إلى الله: «عقبة العلم»، إذ يقول: «يا طالب الخلاص والعبادة عليك أولا –وفقك الله– بالعلم، فإنّه القطب وعليه المدار. واعلم أن العلم والعبادة جوهران... ولما استقرّ أنه لابُدّ منهما جميعا، فالعلم أَوْلى بالتقديم لامحالة، لأنّه الأصل والدليل.

وإنّما صار العلم أصلا متبوعا، يلزمك تقديمه على العبادة لأمرين:

أحدهما: لتحصُل لك العبادة وتسْلَمَ، فإنّك أولا يجب عليك أن تعرف المعبُود

(1) نحو فقه مُيَسَّرٍ ومُعاصر، للقرضاوي: (ص180).

(2) فتح الباري: (1/ 160).

ثمّ تعبُدَهُ، وكيف تعبُدُ من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته، وما يجب له وما يستحيل في نعته، فربّما تعتقدُ فيه وفي صفاته شيئا، والعياذ بالله تعالى مما يُخالف الحق، فتكون عبادتك هباء منثورا. ثم يجبُ عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعيّة على ما أُمِرتَ به لتفعَل ذلك، وما يلزمك تَرْكُهَ من المناهي لتترك ذلك.

الخصلة الثانية: التي توجب تقديم العلم: أنّ العلم النافع يُثمر خشية الله تعالى ومهابته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: 28)، وذلك أنّ من لم يَعْرفهُ حقّ معرفته لم يهبْه حق مهابته، ولم يُعظّمه حق تعظيمه وحُرمته، فصار العلمُ يثمرُ الطاعة كُلّها، ويَحْجُزُ عن المعصية كلها بتوفيق الله تعالى»[1].

ويُؤكد الإمام ابن القيم على منزلة العلم وأهميتها في التقدّم إلى الله تعالى، فيقول: «وهذه المنزلة إن لم تَصْحَب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه، فسلوكه على غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدودة عليه سُبُل الهُدى والفلاح، مُغلقة عنه أبوابها. وهذا إجماع الشيوخ العارفين»[2].

3. **تحذير المشائخ من ترك العلم**: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يَحمِلُ هذا العِلمَ من كلّ خَلَفٍ عُدُولُه، يَنفُون عنه تَحْرِيفَ الغَالين، وانتحَال المُبْطِلين، وتأويلَ الجَاهِلِينَ»[3]. وبجهود هؤلاء الأعلام يتجدّد الدين على مدى السنين. وهذا التجديد يقوم -أساسا- على «إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات»[4].

(1) منهاج العابدين: (ص67 و74).

(2) مدارج السالكين: (2/ 176).

(3) حديث حسن: أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (53) والبيهقي (10/ 209) وحسنه العلائي كما في بُغية الملتمس (ص34) وساق ابن القيم الطرق التي يتحسن بها في مفتاح دار السعادة (1/ 497-500)، وحسنه كذلك عبد القادر الأرناؤوط في الوجيز (ص29).

(4) عون المعبود: (11/ 391).

وأمام استهانة الكثير من جُهّال المتزهّدة والمُتَصَوِّفة بالعلم، واحتقارهم لطلبه، وطعنهم في أهله، تصدّى العلماءُ الربّانيون لهذه الشطحات، وعَمِلُوا على مقاومة هذه الضلالات.

أ. **تحذير الإمام ابن الجوزي**: وأشهر من أنكر هذا الخطر: الإمام ابن الجوزي في كتابه الشهير «تلبيس إبليس» حيث قال تحت عنوان (ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التشاغل بالعلم): «اِعلم أنّ أول تلبيس على الناس: صَدّهم عن العلم، لأنّ العلم نور، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظُّلَمِ كيف شاء. وقد دخل على الصوفية في هذا الفن من أبواب»[1].

ب. **تحذير الإمام ابن القيم**: ويكشف لنا الإمام ابن القيم أشهر شطحات الصوفية في مسألة العلم بقوله: «وأمّا الكلمات التي تُروى عن بعضهم من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه:

كقول من قال: نحنُ نأخُذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت.

وقول الآخر -وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟[2]- فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاّق!

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عزّ وجلّ.

وقول الآخر: إذ رأيت الصوفي يشتغل بـ «أخبرنا» و«حدثنا» فاغسل يدك منه.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها: أن يكون جاهلا يُعذَرُ بجهله، وشاطحا معترفا بشطحه، وإلاّ فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولو لا «أخبرنا» و«حدثنا»

---

(1) تلبيس إبليس: (ص310) ط. دار القلم.

(2) أظنه يقصد الإمام الحافظ عبد الرزاق بن همام اليمني الصنعاني صاحب المصنف في الحديث المتوفى رحمه الله سنة 211 هـ.

لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام... وكلّ طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة، فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم»[1].

ج. **تحذير الإمام الجُنيد:** وقال الإمام الجنيد[2] رحمه الله: «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأنّ عِلمنا هذا مُقيّد بالكتاب والسنة».

د. **تحذير الإمام زرّوق:** وممّا أنكره الشيخ أحمد زرّوق[3] على الصوفية: هجرهم للعلم الشرعي، حيث قال: «أمّا هجرانهم العلم فمخالف للكتاب والسنة والإجماع، للنّصوص الناطقة بذلك من حيث رفع شأن العلم وتفضيل العلماء على غيرهم، وإجماع العلماء على ضرورة العلم بالحكم الشرعي في جميع الأمور، فلا يجوز للمرء أن يُقْدمَ على أمر حتى يعلم حكم الله فيه»[4].

وقد وضع العلاّمة زرّوق رحمه الله قاعدةً تقول: «لا يجوزُ لأحدٍ أن يُقدِمَ على أمرٍ حتى يعلمَ حُكمَ الله فيه»[5]. وقال في موطن آخر: «فلا تصوّف إلّا بفقه»[6].

---

(1) مدارج السالكين: (2/ 179).

(2) هو الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي شيخ الصوفية، ويقال له سيد الطائفة لضبط طريقته بقواعد الكتاب والسنة، تفقه على الإمام أبي ثور وصحب خاله السري السقطي، وسمع من الحارث المحاسبي، أتقن العلم ثم تعبد وتزهد. كان كثير الذكر والعبادة ورُزق الذكاء ونطق بالحكمة منذ صغره، أصلح كثيرا من أخطاء الصوفية وله أقوال مفيدة. رُوي أنّه ختم القرآن عند احتضاره ثم ابتدأ سورة البقرة فقرأ سبعين آية ثمّ مات رحمه الله وذلك سنة 297 هـ. انظر ترجمته وأقواله في: الحلية 10/ 255 وطبقات الصوفية 155 والسير 14/ 66.

(3) هو الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عيسى الملقب بزرّوق – نسبة إلى جدّه كان أزرق العينين – البرُنسي – نسبة لقبيلة البرانس بالمغرب–الفاسي، كان متضلّعا في الفقه والتصوّف، وعمل على إصلاح الطرق الصوفية ومقاومة بدعها في عهده، له عدّة مؤلفات أشهارها: شرح الرسالة، وقواعد التصوف، وعدّة المريد الصادق توفي رحمه الله سنة 899 هـ. انظر: الفكر السامي للحجوي: (2/ 311) الأعلام للزركلي: (1/ 91).

(4) عدّة المُريد الصادق: ضمن رسالة الشيخ أحمد زروق وآراؤه الإصلاحيّة (ص310).

(5) قواعد التصوّف: (ص 62).

(6) المرجع نفسه: (ص 22)، قلتُ: وقد أورد الشيخ زروق إثر ذلك أثراً للإمام مالك رحمه الله يقول: «من تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق، ومن تفقّه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومن جمع بينهما فقد تحقّق»! وهذه القولة

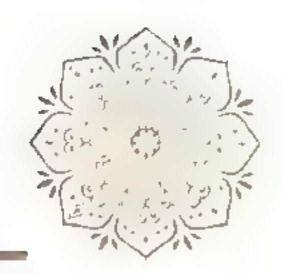
هـ. تحذير الإمام ابن عاشر: وذكر الشيخ عبد الواحد بن عاشر المالكي (تـ 1040هـ) في «صفات المريد» ضمن «كتاب مبادئ التصوف» من منظومته الشهيرة: وُجوب معرفة حكم الشرع قبل الإقدام على أي عمل، قائلا:

ويُوقفُ الأمورَ حتى يَعْلَمَا ... ما الله فِيهِنّ به قدْ حكَمَا.

قال الشارح: «وأمّا كونه «يوقف الأمور»: أي يقف عنها، ولا يرتكبها حيث يجهل حكمها. «حتى يعلم»: أي يغلب على ظنّه ما حَكَم الله به في تلك الأمور، بالنظر في الأدلة أو في كتب العلم إن كان أهلاً لذلك، أو بالسؤال لأهل العلم لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 43)، وحينئذ يفعل أو يترك. وليس هذا من باب ترك الشبهات، لأنّ «الشبهات»: ما اختلف فيه العلماء أو ما تجاذبته الحلّيّة والتحريم، فلتاركها لذلك شعور بالحُكم في الجملة وتركها ورع، وهذه المسألة فيمن لا شعور له بالحكم أصلاً، والتوقّف عنها حتى يعلم حُكمها واجب فقهاً لا ورعاً، والله أعلم»[1].

= -على شهرتها- لا تصحُّ نسبتها لإمام دار الهجرة، وذلك لفقد إسنادها، وعدم وجودها في مصنّفات الإمام ولا أمّهات المالكية، زيادة على خلوّ عصر الإمام مالك من مصطلح التصوّف!

(1) الدرّ الثمين والمورد المَعين، لمحمّد ميّارة: (531-532).



منزلة العمل الصالح

السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كلّ سائر إلى مقصد، لا يتمّ سيرُه، ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علميّة، وقوّة عمليّة. فبالقوة العلميّة يُبصرُ منازل الطريق ومواضع السلوك... وبالقوّة العمليّة يسيرُ حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العمليّة فإن السير هو عمل المسافر[1].

الإشارة الأولى: أهميّة العمل الصالح

للعمل الصالح مكانة عظيمة في الإسلام، فهو جزء من مسمّى الإيمان، وببركته نبلغ درجة الإحسان، ثم يكون -بفضل الله- سببا لنيل رضا الرحمان والفوز بالجنان. وهذ اعتقاد أهل السنة الذين يعرّفون الإيمان بأنه: تصديق بالجَنان، وإقرارٌ باللسان، وعمل بالأركان.

ومن أدلة علمائنا على دخول الأعمال في مُسمّى الإيمان: قول الله تعالى بعد نسخ القبلة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (البقرة: 143)، وقد ثبت في سبب نزول هذه الآية من حديث البراء ﷺ: «أنّه مات على القبلة قبل

(1) طريق الهجرتين: (ص332).

أن تُحَوَّلَ رجالٌ وقُتِلُوا فلم ندْر ما نقول فيهم فأنزل الله هذه الآية»[1]. وعلى هذه القصّة ترجم البخاري (باب: الصلاة من الإيمان). قال الحليمي في قوله تعالى: [وما كان الله ليضيع إيمانكم]: «أجمع المفسرون على أنّه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس، فثبت أن الصلاة إيمان. وإذا ثبت ذلك، فكل طاعة إيمان، إذ لم أعلم فارقا في هذه التسمية بين الصلاة وسائر الطاعات»[2].

ومن الأدلة الصريحة على هذا الأمر حديث وفد عبد القيس وفيه قوله ﷺ لهم: «آمُرُكم بالإيمان بالله وحده» وقال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلاّ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تُعطوا من الغنائم الخُمس»[3].

ففي هذا الحديث فسّر الرسول ﷺ للوفد الإيمان هنا بقول اللسان وأعمال الجوارح. ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب، لما أخبر في أحاديث أخرى أنه لا بُدّ من إيمان القلب، فعُلِمَ أن هذه مع إيمان القلب هي الإيمان.

ومن البراهين الدالة على دخول الأعمال والأقوال في مسمّى الإيمان: قول النبي ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شُعبة، فأفضلها: قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[4]. وهذه الشُعب جمعت رأس الإيمان وأعلاه، وهو التوحيد، إلى آخر خصاله وأدناها وهو إماطة الأذى عن الطريق.

وأقوال السلف الصالح في هذه المسألة متفقة على أن الإيمان: قول وعمل.

---

(1) رواه البخاري (40).

(2) المنهاج في شعب الإيمان (1/ 37).

(3) رواه البخاري (53) ومسلم (17).

(4) البخاري (9) ومسلم (35).

قال الإمام البغوي: «اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان»[1].

وقال الحافظ ابن عبد البرّ: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل»[2].

وقال الإمام الشافعي: «... وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممّن أدركنا: أنّ الإيمان قول وعمل ونية لا يُجزئُ واحد من الثلاثة عن الآخر»[3].

وقال الإمام أحمد: «الإيمان: قول وعمل، يزيد وينقص»[4].

وهذا قول الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين[5].

الإشارة الثانية: فضل العمل الصالح

يتقدّم المسلم إلى ربّه في اليوم والليلة بجملة من الطاعات والقربات، ويدخل فيها عمل القلب والجوارح، وأفرادها لا يمكن حصرها لكثرتها وتنوّعها، وهي مراتب ودرجات. ولهذا العمل الصالح الكثير من الفضائل، يجدر بالمسلم التعرف عليها لأنّها تُحَفِّزُهُ على الالتزام بها، قال أبو عبد الله بن أبي جعفر البراثي: «من لم يعرف ثواب الأعمال، ثقلت عليه في جميع الأحوال»[6]. ومن أبرز فضائلها:

(1) شرح السنة: (1/ 38-39).

(2) التمهيد: (9/ 238).

(3) شرح أصول الاعتقاد: (5/ 887).

(4) السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد: (1/ 307).

(5) مجموع الفتاوى: (7/ 144).

(6) صفة لصفوة: (1/ 234).

1. **مَحْوُ السيّئات وتبديلها حسنات**: حيث يتفضّل الله سبحانه على أهل الإيمان والعمل الصالح بعد توبتهم النصوح بمغفرة ذنوبهم وستر عيوبهم، وجعل سيئاتهم حسنات متجدّدة. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: 70). وفي وصيّة النبيّ ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: «اتق الله حيثما كُنت، وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُهَا، وخالق الناس بخلُق حسن»[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ (هود:114).

2. **تفريج الكروب**: وهذا الوعد ثابت في كتاب الله، حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ (الطلاق: 2-3). وحدّث النبي ﷺ «عن الثلاثة الذين آواهم المبيتُ إلى غار، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فلم يُنقذهم إلاّ توسلهم بأعمالهم الصالحة»[2].

فاحرص أيها المتقدّم إلى ربّك على ادّخار عمل خفي نقي خالص لربّنا العلي، ينفعك عند الشدائد والكرب، فقد أوصانا نبينا بذلك حيث قال ﷺ: «من استطاع منكم أن يكون له خِبْءٌ من عمل صالح فليفعلْ»[3].

3. **العزة والرفعة**: وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول في دعائه: «اللهمّ أعزّنا بالطاعة، ولا تذلّنا بالمعصية»[4]. وصدق رحمه الله، فإنّ العمل الصالح يُورث العزّة والرّفعة لصاحبه، وهذا المعنى نجده في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ (فاطر: 10). قال الشيخ السعدي: «أي: يا من يريدُ العزة، اطلبها ممّن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تُنالُ إلاّ بطاعته، وقد ذكرها بقوله: [إليه يصعد الكلم الطيب] من قراءة وتسبيح وتحميد

(1) رواه الترمذي (1987) وقال: حسن صحيح.

(2) كما رواه البخاري (2272) ومسلم (2743).

(3) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة (1/ 296)، وهو في صحيح الجامع برقم (6018).

(4) الحكم الجديرة بالإذاعة، لابن رجب: (ص36).

وتهليل وكل كلام حسن طيب. فيُرفعُ إلى الله ويُعرضُ عليه ويُثني الله على صاحبه بين الملأ الأعلى. [والعمل الصالح] من أعمال القلوب وأعمال الجوارح [يرفعه] الله تعالى إليه أيضا، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفعُ الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كَلِمَهُ الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يُرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي تُرفع إلى الله تعالى، ويَرفعُ الله صاحبها ويُعزّهُ»[1].

4. **النّصر والتمكين**: رغم كلّ المحن والخطوب، فإن المؤمن على يقين بوعد الله علاّم الغيوب، ومصدق ببشارة سيد المرسلين بالنصر والتمكين لعباده الصالحين. وهذه سنة إلاهيّة جارية عبر التاريخ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء: 105-106).

فالصالحون: الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيّات، هم الذين يُورّثهم الله الجنات. ويُحتمل أنّ المُراد: الاستخلاف في الأرض، وأنّ الصالحين يُمكّن الله لهم في الأرض، ويُولّيهم عليها كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ (النور: 55)[2].

فبالإيمان الصادق والعمل الصالح وتحقيق العبوديّة لله وحده، يتحقّق الاستخلاف والتمكين بإذن ربّ العالمين.

ومن البشارات النبويّة التي تربطُ على القلوب وتُثبت الأقدام قوله ﷺ: «بشِّرْ هذه الأمة بالنّصر والسناء والتمكين، فمَنْ عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب»[3].

(1) تيسير الكريم الرحمان: (ص694).

(2) المرجع نفسه: (ص543).

(3) صحيح ابن حبّان (405) وهو في صحيح الترغيب (21).

5. **الحياة الطيّبة**: قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النّحل: 97). قال الحافظ ابن كثير: «هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحا -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مُؤمن بالله ورسوله، وأنّ هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله- بأن يُحييه الله حياة طيّبة في الدنيا.

والحياة الطيّبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد رُوي عن ابن عبّاس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيّب، وعن علي بن أبي طالب ﵁ أنه فسّرها بالقناعة، وعن ابن عبّاس أنّها السعادة. وقال الضحّاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كلّه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافًا، وقنّعَهُ الله بما آتاه»، ورواه مسلم»[1].

6. **حفظ أهل العامل وذرّيته**: وهذا من بركات العمل الصالح، حيث لا يقتصر فضله على صاحبه فحسب، بل يتعدّاه إلى ذريته وأهله ومن حوله من الناس. قال الله تعالى عن سرّ بناء الجدار من قبل الخضر صاحب سيدنا موسى ﵇: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: 82). فلقد حُفظ كنز اليتيمين بسبب صلاح أبيهما.

قال القرطبي: «ففيه ما يدُلّ على أنّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وولد ولده وإن بَعُدوا عنه، وقد رُوي أن الله تعالى يحفظ العبد الصالح في سبعة من ذرّيته، وعلى هذا يدلّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

(1) تفسير ابن كثير: (4/ 520-521).

(الأعراف: 196)»[1]. وقال محمد بن المنكر: «إنّ الله يحفظ بصلاح العبد ولدَهُ وولدَ ولدِه وعِترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»[2]. فانظر رحمك الله إلى هذا الضمان الأسري الذي يغفل عنه الكثير من الناس!

7. **الأمن من عذاب القبر**: وقد ثبت في السنة أنّ العبد لا يبقى معه في قبره إلاّ عمله الصالح، فهو الذي يؤنس وحشته ويدفع عنه العذاب ويقيه الفتنة، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ أنّ النبيّ ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاثةٌ: أهلهُ وعملهُ ومالهُ، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهلُه ومالُه ويبقى عملُه»[3].

فتأمل -بارك الله فيك- كيف يفارقك بعد الموت أهلك ومالك وكلّ أحبابك، ولا يبقى معك إلاّ عملك، فهو رصيدك الحقيقي إلى قيام الساعة، وسَنَدُكَ في مواقف القيامة، وبه تقسم المنازل في الآخرة إمّا إلى جنة وإمّا إلى نار. قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: 46). وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (الروم: 44). «قال بعض السلف: أي يَمْهَدُونَ لأنفسهم في القبر، فالعمل الصالح يكون مهدًا لصاحبه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا لا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كلّ عامل يفترش عمله ويتوسّده من خير أو شرّ، فالعاقل من عمّر بيته الذي تطول إقامته فيه... وقال بعض السلف: اعمل للدنيا على قدر مُكثك فيها، واعمل للآخرة على قدر مُكثك فيها»[4].

وفي حديث فتنة القبر وسؤال الملكين ذكر النبي ﷺ أن العبد المؤمن بعد نجاحه في الإجابة عن أسئلة (من ربّك، ما دينك، من نبيّك؟)، يُبشّر بالخير، حيث قال

---

(1) الجامع لأحكام القرآن: (11/ 38-39).

(2) سير أعلام النبلاء: (5/ 355).

(3) رواه البخاري (4165) ومسلم (2960).

(4) شرح حديث يتبع الميت ثلاث، لابن رجب: (ص22-23).

المصطفى ﷺ -الذي لا ينطق عن الهوى-: «فينادي مُنادٍ من السماء: أن صَدَقَ عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة. قال: فيأتيه من رَوْحِهَا وطِيبِها، ويُفسَحُ له في قبره مدّ بصره. قال: ويأتيه رجُلٌ حَسُنَ الوجْهِ، حَسُنَ الثياب، طَيِّبَ الريح، فيقول: أَبْشِرْ بالذي يَسُرُّكَ، هَذا يومُك الذي كنت تُوعَدُ. فيقول: من أنت؟ فوَجْهُكَ الوَجْهُ يجئُ بالخير، فيقول: أنا عملك الصالحُ، فوالله ما علمتك إلاّ كنت سريعا في طاعة الله، بطيئًا في معصية الله، فجزاك الله خيرا. فيقول: ربّ أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي»[1].

هكذا -في هذه الرواية- يُمثّلُ العملُ الصالح للمؤمن في شكل رجل طيّب حسن الوجه، وفي رواية أخرى تأتي الأعمال الصالحة أفرادًا تدافع عن صاحبها. فعن أبي هريرة ﷺ أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ الميّت إذا وُضع في قبره إنه يسمَعُ خَفقَ نعالهم حين يولّون مدبرين، فإن كان مُؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيامُ عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه. فيؤْتَى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخلٌ، ثمّ يُؤْتَى عن يمينه فيقول الصّيامُ: ما قِبلي مدْخَلٌ، ثم يُؤتَى عن يَساره فتقول الزكاة: ما قِبلي مَدْخلٌ، ثمّ يُؤتى من قِبل رجْليه فيقول فعلِ الخيرات من الصّدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى النّاس: ما قِبلي مدخلٌ»[2].

تـزوّد قرينـا مـن فـعـالـك إنـمـا ... قريـنُ الفتى في القبرِ ما كان يفعلُ
فلن يَصْحَبَ الإنسانَ من بعدِ موتهِ ... إلـى قبـره إلاّ الـذي كـان يعملُ.

فجهّز أيّها المتقدّم إلى ربّك من الآن جنودك المخلصين، لتنجو من فتنة القبر وتفوز بعليّين.

(1) رواه أحمد (4/ 287) وهو في صحيح الترغيب (3558).

(2) صحيح ابن حبّان (3113) وهو في صحيح الترغيب (3561).

8. **تكفير السيئات ودخول الجنّات:** وفي ذلك نصوص كثيرة منها قوله تعالى -في تكفير السيّئات-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: 7). وقال نبيّنا ﷺ: «من قال حين يُصبح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرّة، حُطّت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»[1].

وأمّا في الفوز بالجنّة ونيْل رضا الله تعالى، فإنّ الأعمال الصالحة من أعظم الأسباب لذلك. ومن أدلّتها قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 43)، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 32). وقوله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادِيَ الصالحين ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذن سمِعتْ، ولا خَطرَ على قلب بَشَر»[2].

الإشارة الثالثة: هل دخول الجنة استحقاق على الله؟

نعم، الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنّة، ولكن ليست ثمنا لها، حتى قال العلماء: إنما تُنالُ الجنة برحمة الله وفضله، ويتفاضل المؤمنون بأعمالهم في درجاتها. وقالوا: إنما صلحت أعمال العبد لأن تكون سببا لدخوله الجنة، أو شرطا، برحمة الله وفضله على عباده. كما في الصحيحين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ»، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «لا، وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»[3].

(1) رواه البخاري (6042) ومسلم (2691).

(2) رواه البخاري (3244) ومسلم (2824).

(3) رواه البخاري (5673) ومسلم (2816).

وقد فصّل هذه المسألة الإمام ابن القيّم حيث قال: «إنّ الله سبحانه جعل الجنّة دار جزاء وثواب وقسّم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم، وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماؤها وصفاته، فإنّ الجنّة درجات بعضها فوق بعض، وبين الدّرجتين كما بين السماء والأرض، كما في «الصّحيح»[1] عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ الجنّة مئة درجة، بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض».

وحكمةُ الربّ سبحانه مقتضيَةٌ لعمارةِ هذه الدّرجات كلّها، وإنّما تُعمَرُ ويقعُ التّفاوُتُ فيها بحسب الأعمال، كما قال غيرُ واحد من السَّلف: «يَنجون من النّار بعفو الله ومغفرته، ويدخلون الجنّة بفضله ونعمته ومغفرته، ويتقاسمون المنازل بأعمالهم».

وعلى هذا حمل غيرُ واحد ما جاء من إثبات دخول الجنّة بالأعمال كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الزخرف: 72)، وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 32).

قالوا: أمّا نفيُ دخولها بالأعمال كما في قوله ﷺ: «لن يدخل الجنّة أحدٌ بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا»[2]، فالمُرادُ منه نفيُ أصل الدّخول.

وأحسنُ من هذا أن يقال: الباءُ المُقتضية للدّخول غير الباء التي نُفيَ معها الدّخول، فالمقتضية هي باءُ السببيّة الدّالة على أنّ الأعمال سبَبٌ للدّخول مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمُسبّباتها، والباءُ التي نُفيَ بها الدُّخول هي باءُ المُعاوَضة والمُقابلة، التي في نحو قولهم: اشتريتُ هذا بهذا.

فأخبرَ النبيُّ ﷺ أن دخول الجنّة ليس في مقابلة عمل أحد، وإنّه لولا تغمُّدُ الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنّة، فليس عملُ العبد -وإن تناهى- مُوجبا بمُجرّده لدُخول الجنّة، ولا عوضا لها، فإنّ أعماله -وإن وقعت منه على الوجه

(1) أخرجه البخاري (2790) ومسلم (7423).

(2) سبق تخريجه.

الذي يُحبُّه الله ويرضاه- فهي لا تقاومُ نعمة الله التي أنعم بها عليه في دار الدّنيا، ولا تُعادلها، بل لو حاسبهُ لوقعت أعماله كلّها في مقابلة اليسير من نعمه، وتبقى بقيّة النّعم مقتضية لشكرها، فلو عذّبه في هذه الحالة لعذّبه وهو [غير] ظالم له، ولو رحمهُ لكانت رحمته خيرا له من عمله، كما في «السّنن»[1] من حديث زيد بن ثابت وحُذيفة بن اليمان -وغيرهما- مرفوعا إلى النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ الله لو عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم»[2].

فعلى من أراد الوصول إلى ربّه الكبير المتعال، أن يتقدّم إليه بكلّ ما يقدر عليه من صالح الأعمال، حتّى ينال في الدنيا أشرف الأحوال، وفي الآخرة حُسن المآل.

الإشارة الرابعة: شروط قبول الأعمال

الصالحون العارفون بالله يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثمّ ينشغلون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من ردّه. وهؤلاء الذين قال فيهم ربّنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ (المؤمنون: 60)، وقد سألت أمّنا عائشة رضي الله عنها النبيّ ﷺ عن هذه الآية: أهم الذين يشربون الخمرَ ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصدّيق، ولكنهم الذين يصُومُون ويُصلون ويتصدّقون، وهم يَخافُون أن لا يُقبَلَ منهُم»[3]. ورُويَ عن علي رضي الله عنه قال: «كُونُوا لقبُول العمل أشدَّ اهتماما منكم بالعمل، ألم تَسْمَعُوا الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:27)»[4].

(1) رواه أبو داود (4699)، وابن ماجه (77).

(2) مفتاح دار السعادة: (1/ 119-120).

(3) رواه الترمذي (3175) وصححه الألباني (2537).

(4) لطائف المعارف، لابن رجب: (ص375).

لأجل هذا، اهتم العلماء بشروط قبول الأعمال، وبيّنوا أنّها تتلخّص في شرطين أساسيين، قال الإمام ابن القيم: «فإن الله جعل الإخلاص والمتابعة سببًا لقبول الأعمال، فإذا فقد بِمَ تقبل الأعمال!»[1].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك:2). قال «أخلصُه وأصوبُه». قالوا وما أخلصه وأصوبه يا أبا عليّ ؟ قال: «إنّ العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبله الله، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبله الله، فيجب أن يكون العمل خالصا لله، وصوابا على السنّة»[2].

1. **شرط الإخلاص**: اعلم أيّها الفاضل أنّ الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة المرسلين. وهو لبّ العبادة وروحها وأساس قبول الأعمال وردّها. فما هي -أيّها اللّبيب- حقيقة هذا الأمر العجيب؟

أ. معنى الإخلاص لغة: هو مشتق من خَلُصَ الشيءُ، خُلُوصًا، وَخَلاصًا: أيْ صَفَا وزَالَ عَنهُ شَوْبه.

وأخلصَ الشيءَ: أي أصْفَاهُ ونقَّاهُ مِن شَوْبه، ويُقَالُ: خَلَّصَ الحبَّ من النّوى: صَفَّاهُ ونَقّاهُ مِنها.

والشيءُ الخالِصُ: أي المَحْضُ والصّافي والصِّرفُ. يُقال: ذهبٌ خالصٌ: أي غير مخلوط، لا يحتوي عُنصرًا غَريبًا.

وأخلص دينَهُ لله: أي أَمْحَضَهُ ونَقَّاهُ لله[3].

ب. معنى الإخلاص اصطلاحا: تنوّعت عبارات العلماء في حقيقة الإخلاص:

---

(1) الروح (1/ 135).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (8/ 95) والبغوي في التفسير (4/ 369).

(3) انظر مادة [خلص] في: لسان العرب والمعجم الوسيط.

فقيل:

- **الإخلاص**: هو أن يُراد بالعمل: وجه الله تعالى لا غيره.
- **وقيل**: هو تجريد قصد التقرّب إلى الله عزّ وجلّ عن جميع الشّوائب.
- **وقيل**: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، وتصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين. وهو أن يُريد بطاعته: التقرّب إلى الله سبحانه دُون شيء آخر كتصنّع لمخلوق، أو اكتساب مَحْمَدَةٍ عند الناس، أو محبّة مَدْحٍ من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرّب به إلى الله تعالى[1].

وقد أمر الله تعالى بالإخلاص، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البيّنة: 5). وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ (الزّمر: 14).

وقال الرسول ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ إمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «اتفق العلماء على صحته وتلقيه بالقبول، وبه صدّر البخاري كتابه «الصحيح» وأقامه مقام الخطبة له، إشارة منه إلى أنّ كلّ عمل لا يُرادُ به وجه الله تعالى: فهو باطل، ولا ثمرة له في الدنيا ولا في الآخرة»[3].

وذكر الإمام النووي رحمه الله أن «السلف كانوا يستحبّون افتتاح الكتب بهذا الحديث تنبيها للطالب على تصحيح النيّة، وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله البارزة والخفيّة»[4].

---

(1) انظر: مدارج السالكين (1/ 503)، والرسالة القشيرية: (ص207).

(2) أخرجه البخاري (1) ومسلم (1907).

(3) جامع العلوم والحكم (1/ 61).

(4) المجموع شرح المهذّب (1/ 16).

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى، فصلاحها وفسادها بحسب النيّة الباعثة عليها، كالجهاد والحجّ وغيرهما. وقد سُئل النبيّ ﷺ عن اختلاف نيّات النّاس في الجهاد وما يُقصد به من الرياء، وإظهار الشجاعة والعصبيّة، وغير ذلك: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[1]. فحرج بهذا كلّ ما سألوا عنه من المقاصد الدنيويّة[2].

فيا من أراد التقدّم إلى الله تعالى، ونيل مرضاته ودُخول جناته، عليك أوّلا وقبل كلّ شيء أن تُخلصَ لله النيّة، وأن تُطهّر السريرة والطويّة، لأنّ الله سبحانه طيّب لا يقبل إلاّ طيبا. وقد حذرنا بقوله جلّ جلاله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[3].

ج. **التحذير من فتنة العصر**: إيّاك -أيّها الحبيب- وفتنة العصر، التي قصمت الظهر، وأحبطت الأجر. ألا وهي: الصور الدعائيّة، التي تُنشَرُ على صفحات التواصل الاجتماعيّة ! والتي يمكن تسميتها: بظاهرة «الرياء الإلكتروني»، حيث يتنافس الناس في عرض طاعاتهم، وكشف قرباتهم، والمراءات بأقوالهم وأعمالهم:

فهذا: يخبرنا مسبّقا أنه ذاهب إلى الحج أو العمرة، وحين يصل إلى هناك يفرض علينا متابعته بالصوت والصورة، وتنزل «التغطية مباشرة على الهواء»: وهو يلبّي، وهو يطوف، وهو يسعى، وهو يرمي الجمرات... ولسان حاله يقول «خذوا عني مناسككم!»[4].

---

(1) رواه البخاري (123) ومسلم (1904).

(2) جامع العلوم والحكم (1/ 75).

(3) رواه مسلم (2985).

(4) قال القرافي - رحمه الله-: «تنبيه: قال الله تعالى: (وأتموا الحج والعمرة لله)، ولم يقل في الصلاة وغيرها: لله، لأنهما -الحج والعمرة- مما يكثر الرياء فيهما جداً ويدل على ذلك الاستقراء، حتى إن كثيرًا من الحجج لا يكاد يسمع حديثًا في شيء من ذلك إلا ذكر ما تفق له أو لغيره في حجه، فلما كانا مظنة الرياء قيل فيهما: لله، اعتناء بالإخلاص». الذخيرة للقرافي (3/ 174).

وآخر: يُصَوّر لنا قيام ليله، ويعرّفنا بما لديه من خشوع، ويسمعنا بكائه، وتظهر الدموع!

وثالث: يعرض علينا مأدبة إفطاره في غير رمضان، ويحدّثنا عن استغفاره بالأسحار!

ورابع: يُنزلُ على صفحته تغطية شاملة لزياراته للفقراء والمساكين، ويعرض بالتفصيل أنواع صدقاته للمحتاجين![1].

وخامسٌ: يُخبرنا كم يحفظ من المتون، وكم حصّل من الإجازات في شتّى الفنون!

وسادسٌ: يقف مع بعض الناس لدعوة المقصّرين، فيأمر حاشيته بتصوير المشهد وعرضه على الناظرين!

وسابعٌ: يكشف لنا أنه من الأبطال الذين ينصرون الدين، ويُنزل صُوره وهو يُقاتل مع المجاهدين!

فمتى سنتوب من هذه العادة الأجنبية، التي فضحتنا على المواقع الإلكترونية؟

ألم نسمع أيّها الأحبّة بحديث «أولئك الثلاثة، أوّل خلق الله الذين تُسْعَرُ بهم النار يوم القيامة»، وليس فيهم: القاتل ولا الزاني ولا السارق! وإنما هم «عالم أو قارىء ومتصدّق ومجاهد!!!» لبّس عليهم الشيطان، فورّطهم في الشرك الأصغر (الرياء). فتعلّم أحدهم العلم الشرعي، ليُقال له: (الشيخ/ الإمام/ العلامة/ الدكتور/ الداعية)، وحفظ الآخر القرآن، وأتقن التجويد، وحصّل القراءات، ليُلقب بـ(شيخ المقرئين/ والحافظ المتقن..)، والآخر أنفق مالا كثيرا، ليُقال (جواد/ كريم..)، والأخير مات يقاتل في ساحة الوغى، ليُقال (جريء/ بطل!..) فيسألهم ربّهم يوم القيامة –وهو أعلم– عن مقاصدهم، فيدّعون ابتغاء وجهه سبحانه، فيكذّبهم علاّم الغيوب، ويُعْلِمُهم أنهم ما صنعوا كل هذه الأعمال إلا «ليُقال، فقد قيل!!!».

---

(1) قلتُ: الإسرارُ بالأعمال هو الأصل، وهو أفضلُ وأسلم من إظهارها وإعلانها، لأنه أبعدُ عن الرّياء؛ إلّا إذا ترتّبَت عن الإظهار مصلحةٌ راجحة من اقتداء الناس بالعامل، وتشجيعهم على الخير. وهذا الاستثناء لا يكونُ إلاّ لمَنْ أَمِنَ على نفسه الفتنة، وكان قُدوةً لغيره، وترجّحت المصلحة بإظهار عمله.

وهذا أشدّ الأحاديث النبوية ترهيبا وتخويفا من الرياء المحبط للأعمال، حتى أن راويه: الصحابي الجليل أبا هريرة ﵁، كان كلّما همّ بروايته «نَشَغَ نَشغَةً»[1] حتى يُغشى عليه مرّات من هوله، ثم يفيق فيمسح وجهه بالماء ليقدر على التحديث به!

فإلى متى -أحبّتي في الله- ونحن نلعب بالدّين، ونُهدر الإخلاص لربّ العالمين، ألم نسمع وصيّة سيّد المرسلين ﷺ: «إنّ الله لا يقبل من العمل إلاّ ما كان له خالصا وابتُغي به وجهه»[2]، ومتى سنتوب من هذه البليّة، ونخلص لله النيّة، ونُطهّر السريرة والطوية، ونقتدي بالسلف الصالح الذين كانوا يسترون أعمالهم كما يسترون عيوبهم؟

فهاهو الإمام الحَسَن البصري يلخّص لنا حال سلفنا الصّالح في حُسن معاملتهم لربّهم فيقول رحمه الله: «إِنْ كَانَ الرَّجُلَ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ جَارُهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فَقِهَ الْفِقْهَ الْكَثِيرَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ الطَّوِيلَةَ فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ الزُّوَّرُ وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي سِرٍّ فَيَكُونَ عَلانِيَةً أَبَدًا، وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ، إِنْ كَانَ إِلا هَمْسًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: 55)، ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا وَرَضِيَ قَوْلَهُ، فَقَالَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ (مريم: 3)»[3].

2. شرط المتابعة: وهي موافقة العمل للشرع الذي أمر الله تعالى أن لا يُعبَدَ إلاّ به، وحقيقتها متابعة نبينا محمّد ﷺ فيما صحّ عنه قولا أو فعلا أو تقريرا، والتزام هديه ﷺ الذي هو خير الهدي.

---

(1) نشغ: أي شهَق، والحديث أصله في صحيح مسلم (1905) وبيان قصته في الترمذي (2382).

(2) أخرجه النسائي (4013) وهو في السلسلة الصحيحة (52).

(3) الزهد والرقائق، لابن المبارك: رقم (139).

وقد أمرنا ربّنا بذلك حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: 7).

وقال جلّ شأنه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: 31). قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادّعى محبّة الله، وليس هو على الطريقة المُحَمّديّة، فإنه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمّدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، قال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يُحبّون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية»[1]. وهذه الآية دليل على أن سنّة النبي ﷺ هي الطريق الموصلة إلى الله سبحانه وتعالى، والضمانة لنيل محبّته، والفوز بغفرانه.

وفي آية عظيمة يقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 65). وفسّرها العلامة ابن كثير بقوله: «يُقسمُ تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة، أنه لا يُؤمنُ أحد حتى يُحكّمَ الرسول ﷺ في جميع أموره، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الإنقياد له باطنا وظاهرا. أي: إذا حكَّمُوكَ يُطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حَكَمْتَ به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيُسلّمون لذلك تسليما كُليّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمن أحدكم حتى يكون هَوَاهُ تبعًا لما جئتُ به»»[2].

وحذّر ربّنا جلّ جلاله من مخالفة أمر رسوله ﷺ، وترك سُنته، وتنكّب منهاجه القويم، بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: 63). وفي إحدى القواعد النبويّة العظيمة، يقول رسولنا ﷺ:

---

(1) تفسير القرآن العظيم: (2/ 25).

(2) المرجع نفسه: (2/ 306).

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[1]. ويُعلّق الحافظ ابن رجب رحمه الله بقوله: «هذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أنّ حديث «إنما الأعمال بالنيات» ميزان للأعمال في باطنها، فكما أنّ كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسولهُ، فهو مردود على عامله، وكل مَنْ أحدَثَ في الدّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدين في شيء»[2].

وقد أمرنا نبينا ﷺ باتباع سنته والتزام هديه بقوله: «عليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي عضّوا عليها بالنّواجذ» وحذّرنا من البدع فقال: «وإيّاكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[3].

وسُئِل الحَسَنُ الجَوْزَجَانِيُّ[4]: «كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَىَ اللهِ؟»، فَقَالَ: «الطُّرُقُ إِلَىَ اللهِ كَثِيرَةٌ، وَأَوْضَحُ الطُّرُقِ وَأَبْعَدُهَا عَنِ الشُّبَهِ اتِّبَاعُ السُّنَّةِ قَوْلاً وَفِعْلاً وَعَزْماً وَعَقْدًا وَنِيَّةً، لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾»، فَقِيلَ لَهُ: «كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى السُّنَّةِ؟»، فَقَالَ: «مُجَانَبَةُ البِدَعِ، وَاتِّبَاعُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الأَوَّلُ مِنْ عُلَمَاءِ الإِسْلاَمِ، وَالتَّبَاعُدُ عَنْ مَجَالِسِ الكَلاَمِ وَأَهْلِهِ؛ وَلُزُومُ طَرِيقَةِ الاقْتِدَاءِ»[5].

3 . **الشرطان يُسأل عنهما الإنسان:** ذكر الإمام ابن القيّم أن للمسلم في كل وقت هجرتان:

هجرة إلى الله تعالى بالإخلاص والعُبُوديّة، وهي مقتضى شهادة (أن لا إله إلاّ الله).

---

(1) رواه البخاري (2697) ومسلم (1718).

(2) جامع العلوم والحكم: (1/ 176).

(3) صحيح سنن الترمذي: (2157).

(4) هو أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني، أحد كبار مشائخ الزهد بخراسان، وهو من أعلام القرن الرابع الهجري. ترجمته: (طبقات الصوفية، للسلمي: ص 196، وطبقات الأولياء، لابن الملقّن: ص 244).

(5) الاعتصام، للشّاطبيّ: (1/ 62).

وهجرة إلى رسول الله ﷺ بالموافقة لشرعه، واتباع سنته، وهي مُقتضى شهادة (أن محمّدا رسول الله).

وبيّن رحمه الله أنه عن هاتين الهجرتين يُسأل كلّ عبد في البرزخ ويوم القيامة، كما يطالب بهما في الدنيا[1].

وهو يشير بكلامه هذا إلى ما رواه الإمام الطبري رحمه الله بسنده إلى أبي العالية[2]، الذي فسّر قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: 92-93) بقوله: «يُسأل العبادُ كُلّهم عن خُلّتين يوم القيامة: عمّا كانوا يعبُدون، وماذا أجابو المرسلين؟»[3].

وفصّل الإمام ابن القيّم هذا المعنى قائلا: «قال بعض السلف: ما مِنْ فِعلة -وإن صغرت- إلاّ ويُنشَرُ لها ديوانان: لمَ؟ وكيفَ؟ أي: لِمَ فَعَلتَ؟ وكَيفَ فعلتَ؟

فالأوّل: سُؤال عن علّة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظّ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبّة المدح من النّاس أو خوف ذمّهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل؟ أم الباعث على الفعل: القيام بحق العبوديّة، وطلب التودّد والتقرّب إلى الربّ سبحانه وتعالى، وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحلّ هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلتَهُ لحظّك وهواك؟

---

(1) الرسالة التبوكيّة: (ص51).

(2) هو الإمام المقرئ الحفظ المفسّر: أبو العالية، رُفيع بن مهران الرياحي البصري، أحد أعلام التابعين الكبار. أدرك زمن النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، سمع من كثير من الصحابة رضي الله عنهم، وأخذ القراءة عن أُبَي وزيد وابن عبّاس. قال أبو بكر بن أبي دواد: «ليس أحدٌ بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جُبير». كان من الموالي ورفع الله قدره بالقرآن حتى صار يُجلسه ابن عبّاس على سريره وهو أمير البصرة. وتوفي رحمه الله سنة (93هـ). أنظر ترجمته: (طبقات ابن سعد 7/ 112 وسير أعلام النبلاء 4/ 207).

(3) انظر: تفسير الطبري (7/ 548) وتفسير ابن كثير (4/ 468).

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول ﷺ في ذلك التعبّد، أي هل كان ذلك العمل ممّا شَرَعْتُهُ لك على لسان رسولي، أم كان عملا لم أُشرّعه ولمْ أرضَهُ؟

فالأوّل: سؤال عن الإخلاص.

والثاني: سؤال عن المتابعة.

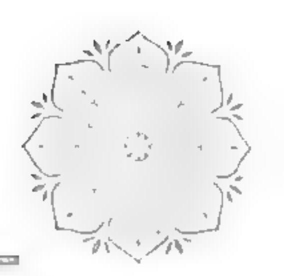
فإنّ الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما.

فطريق التخلّص من السؤال الأوّل: بتجريد الإخلاص.

وطريق التخلّص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة وسلامة القلب مِنْ إرَادةٍ تُعارِضُ الإخلاص، وهَوًى يُعارِضُ الإتباع»[1].

---

(1) إغاثة اللهفان: (1/ 14).



اللوحة الثالثة

ما لا يسع المتقدّم جهله

التقدّم إلى الله المعبود: هو أشرف ما يقوم به العبد في هذا الوجود، وحتى تحقق -أخي- مبتغاك، وتصل بسلام إلى ربّك ومولاك، فلا بدّ لك أن تعرف طريقه، وكيفيّة التقدّم إليه على بصيرة. فإن جَهِلَ أحدُنا ذلك وفَقَدَ الدليل، فقد غلطَ في سَيْرِهُ وضلّ السّبيل، وتأخر -حتما- عن ربّه الجليل.

الإشارة الأولى: فقه الطريق إلى الله

إنّ فقه السّير إلى الله تعالى، وفقه الطريق إليه: من أشرف المعارف التي على المسلم تعلّمها؛ لأجل ذلك حثّ علماء السلوك على تحصيلها، وحذّروا من التفريط فيها.

قال خُلَيْدُ العَصْرِي[1]: «إنّ كلّ حبيب يُحبُّ أن يلقى حبيبه، فأحبّوا ربّكم وسيروا إليه سيْرًا جميلاً، لا مُصعدًا ولا مُميلاً، فغاية السير يُوصلُ المؤمِنَ إلى ربّه، ومن لا يعرف الطريق إلى ربّه لم يسلك إليه فيه، فهو والبهيمة سواء»[2].

---

(1) هو أبو سليمان خُليد بن عبد الله العصري، مَوْلى لأبي الدرداء ﷺ، أحد التابعين الزهّاد، وذكره ابن حبّان في الثقات. انظر: تهذيب التهذيب رقم (302).

(2) حلية الأولياء، لأبي نعيم: (2/ 232).

وقال ذو النون المصري[1]: «السفلة: من لا يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرّفه»[2].

وقال الإمام ابن القيم: «الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود، يُوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة، فإن صاحبه إمّا أن يجتهد في نفلة مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجوارح لم يواطئْهُ عمل القلب، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيّد بالإقتداء... أو عمل لم يُوفّه حقَّهُ من النُّصح والإحسان وهو يَظنُّ أنه وفّاه، فهذا كلّه ممّا يُنقصُ الثمرةَ مع كثرة التعب»[3].

وحتى يتعرّف العبدُ طريقَه إلى الله، فلابدّ له من هداية سيّده ومولاه، لأجل ذلك اشتدّت حاجة الإنسان إلى نعمة الهداية والتوفيق، حتى يستقيم سيره ولا يضلّ الطريق.

1. **استكمال القوتين العلميّة والعمليّة:** لابُدّ لكلّ مُسلم أن يستكمل قوّته العلميّة ثمّ العمليّة، حتّى ينجح في تقدّمه إلى الله ربّ البريّه.

أمّا استكمال القوة العلميّة، فإنما يكون بخمس معارف:

- معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى.
- معرفة الطريق التي تُوصل إليه سبحانه.
- معرفة آفات هذه الطريق وكيفية اجتنابها.
- معرفة النفس المطالَبة بالتقوى.
- معرفة عيوب هذه النفس وطرق تزكيتها.

(1) هو أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم المصري، أحد أعلام الزهد العارفين. له حكم كثيرة، وتوفي رحمه الله سنة (245 هـ). انظر: طبقات الأولياء (ص318) والحلية: (9/ 341).

(2) حلية الأولياء: (9/ 372).

(3) الفوائد: (ص223).

قال الإمام ابن القيم: «فبهذه المعارف الخمس يُحصّل كمال قوّته العلميّة، وأعْلَمُ الناس: أعرفهم بها وأفقهُهم فيها. واستكمال القوة العمليّة الإراديّة لا يَحْصُلُ إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد إخلاصا وصدقا ومتابعة»[1].

ولا سبيل للعبد إلى استكمال هاتين القوتين إلاّ بمعونته سبحانه، فكلّ سائر إلى الله مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصّته، وأن يجنّبه الخروج عن ذلك الصراط، إمّا بفساد في قوته العلميّة فيقع في الضلال، وإمّا في قوته العمليّة فيُوجب له الغضب.

2 . **كمال الإنسان في فاتحة القرآن**: قال الإمام ابن القيم: «فكمال الإنسان وسعادته لا تتمّ إلاّ بمجموع هذه الأمور، وقد تضمّنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

• فإنّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يتضمّن.

الأصل الأول: وهو معرفة الربّ تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

• والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحُسنى، وهي: اسم (الله) و(الربّ) و(الرحمن). فاسم (الله) متضمّنٌ لصفات الألوهيّة، واسم (الربّ) متضمّن لصفات الربوبيّة، واسم (الرحمن) متضمّن لصفات الإحسان والجود والبرّ، ومعاني أسمائه سبحانه تدور على هذا.

• **وقوله**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتضمّن معرفة الطريق الموصولة إليه، وأنها ليست إلاّ عبادته وحده بما يحبُّه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

• **وقوله**: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمّن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلاّ باستقامته على الصراط المستقيم، وأنّه لا سبيل له إلى الاستقامة إلاّ بهداية

(1) الفوائد: (ص30).

ربّه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلاّ بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلاّ بهدايته.

• **وقوله:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يتضمّن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فمن تحقق بمعاني الفاتحة علما ومعرفة وعملا وحالا، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عُبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبّدين، والله المستعان»[1].

3. **طريق الآخرة روحاني:** إذا كان سَيْرُ الدنيا يُقطعُ بالأقدام والأبدان، فإنّ سَيْرَ الآخرة يُقطَعُ بالقلب والوجدان.

وهذا يُبيّن لنا عظمة الأحوال القلبية في تقدّمنا إلى ربّ البريّة، مع أهميّة الجهود الجسديّة في أداء التكاليف الشرعية. قال يحيى بن معاذ: «مَفاوزُ الدنيا تُقطعُ بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطعُ بالقلوب»[2].

ويوضّح لنا هذا المعنى أحد العارفين بطريق ربّ العالمين، وهو الإمام الغزالي رحمه الله، إذ يقول تحت عنوان «فَصْلٌ في أنّ طريق الآخرة رُوحاني تسلكُهُ القُلوب»: «ثمّ اعلمْ ما هو التحقيق في هذا الباب، وهو أنه ليس هذا الطريق في طوله وقصره مثل المسافات المكانيّة التي تسلكها الأنفس، فتقطعها بالأقدام، إنما هو طريق رُوحاني، تسلكه القلوب، فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر. أصله نورٌ سماويٌّ ونظرٌ إلاهيّ، يقعُ في قلبِ العبْد ينظُرُ نظْرَةً فيرَى بها أمرَ الدَّاريْنِ بالحقيقة.

(1) الفوائد: (ص30-31) باختصار.

(2) صفة الصفوة، لابن الجوزي: (4/ 63)، و(مفاوز) جمع (مَفازة): وهي الأرض المُقفرة، وسُمّيت كذلك تفاؤلا بالفوز، كما في (المعجم الوسيط).

ثم هذا النُّور رُبّما يطلبُهُ العبدُ مائة سنة فلا يجدْهُ ولا أثرًا منهُ، وذلك لخطئه في الطلب، وتقصيره في الاجتهاد، وجهله بطريق ذلك.

وآخر بجدُهُ في خمسين، وآخر في عَشرٍ، وآخر في يوم، وآخرُ في ساعة ولحْظة بعناية ربّ العالمين[1]، وهو تعالى وليُّ الهداية، لكن العبد مَأمُورٌ بالاجتهاد»[2].

ويُؤكّد لنا الإمام ابن القيم رحمه الله هذه الحقيقة بقوله: «فاعلم أن العَبْدَ إنّما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمّته لا ببدنهِ. والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح. فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج: 32)، وقال النبيّ ﷺ: «التقوى هَهُنَا، وأشار إلى صدره»[3].

وهذا الحافظ ابن رجب، أحد أئمة السلوك، يزيدُنا بيانًا لهذه القضيّة قائلا رحمه الله: «فإنّ سَفَرَ الآخرة يُقطَعُ بسير القلوب، لا بسير الأبدان قال أبو يزيد[4]: رأيتُ ربّ العزّة في المنام، فقلتُ له: يا ربّ كيف الطريق إليك؟ قال: اتْرُكْ نفسك وتعَال»[5].

---

(1) وضرب الإمام الغزالي على ذلك مثلا -في موضع آخر- فقال: «أما تذكُرُ سحَرَةَ فرعونَ؟ ما كانت مُدّتهم إلا لحظة حيثُ رَأَوْا مُعجزة مُوسى عليه السلام قالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (الأعراف: 122)، فأبْصرُوا الطريق وقطعُوهُ بحقه، فصاروا من ساعة إلى ساعة، بل أقلّ، من العارفين بالله، الرّاضين بقضاء الله تعالى، الصابرين على بلائه، الشاكرين لآلائه، المشتاقين إلى لقائه، فنادَوْا. ﴿لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: 50)» (منهاج العابدين: ص410).

(2) منهاج العابدين: (ص413).

(3) الفوائد: (ص186). والحديث رواه مسلم (2564).

(4) هو طيفور بن عيسى البسطامي، أحد كبار الزهاد العارفين. من حكمه قوله: «لو نظرتم إلى رجل أُعطِيَ من الكرامات حتى يُرفع في الهواء، فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة». وقوله: «ليس العجب من حُبّي لك وأنا عبد فقير، وإنّما العجبُ من حُبّك لي وأنت مَلِكٌ قدير!» قال الذهبي: وله نُكَتٌ مليحة، وجاء عنه أشياء مُشكلة لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه، أو أنه قالها في حالة الدهشة والغيبة تُطْوَى ولا يُحتج بها. وتوفي البسطامي رحمه الله سنة (261 هـ). انظر: حلية الأولياء (10/ 33) والسير (13/ 86).

(5) المحجة، لابن رجب (ص415). وأمّا رُؤية الله في المنام فجائزة عند جمهور العلماء. قال القاضي عياض (الإكمال 7/ 220): «لم يختلف العلماء في جواز صحة رؤية الله تعالى في المنام». وقال ابن تيمية (الفتاوي

وجاء رجُلٌ إلى الزّاهد أبي علي الدقاق[1] يشتاق إلى مواعظه فقال: قطعتُ إليك مسافة، فقال: «ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة يُوصِلُكَ إلى مَقصُودك»[2].

وإليك مثال جميل، ضربه الأديب مصطفى صادق الرافعي في سبق القلوب للأبدان عند رجوعها إلى ربّها الرحمان، إذْ يقول رحمه الله عن الذي قتل مائة نفس ثم تاب إلى الله[3]: «فهذا الرجل لمّا مشى بقلبه إلى الله، حُسبت له الخطوة الواحدة بل الشبر الواحد. ولو أنه طوّف بقدميه، ولم يكن له ذلك القلب، لكان كالعظام المحمولة في نعشه، قبرها في المشرق هو قبرها في المغرب، وليس لها من الأرض، ولا للأرض منها إلا معنى واحد لا يتغيّر، هو أنه بجملته ميّت، وأنها بجملتها حُفرة»[4].

إنّ سَيْرَ القلب هو سير أصحاب رسول الله ﷺ، ذوي الأعذار في غزوة تبوك، الذين قال عنهم النبي ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سِرْتُمْ مسيرًا، ولا أنفقتُمْ من نَفَقَةٍ،

= (5/ 251): «من رأى الله عزّ وجلّ في المنام فإنّه يراه في صورة من الصور بحسب حال الرائي، إن كان صالحا رآه في صورة حسنة، ولهذا رآه النبي ﷺ في أحسن صورة». وقال ابن حجر (الفتح 19/ 469): «جوّز أهل التعبير رُؤية الباري في المنام مطلقا». وقد بيّن العلماء أن من رأى الله سبحانه وتعالى في منامه لم يرهُ حقيقة، لأنّ الله ليس كمثله شيء، وإنّما رأى الله صورة تناسب اعتقاده فيه».

(1) هو أبو علي الحسن بن علي النيسابوري الدقاق، أحد أقطاب الصوفية، صحب الأستاذ أبا القاسم النصر آباذي، وكان شيخ أبي القاسم القشيري صاحب الرسالة تفقه وبرع في العربيّة والأصول، ثمّ سلك طريق الزهد والتصوّف. له حكم وكرامات وتوفي سنة (405 هـ). انظر: (السير 19/ 474) و(شذرات الذهب 5/ 40).

(2) المُدهش، لابن الجوزي: (ص179).

(3) هذه من قصص بني إسرائيل الشهيرة التي أخبر بها النبي ﷺ لما فيها من العبر وعمامها -كما في الصحيحين- أنّ هذا القاتل التائب قد سأل أحد العلماء، فقال له: «انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سُوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاهُ الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مُقبلا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنّه لم يَعْمَل خيرًا قطُّ، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي فجعلوهُ بينهم -أي حكما- فقال: قيسُوا ما بين الأرضيْن، فإلى أيّهما كان أدْنى فهو له. فقاسُوا فكان إلى الأرض الصالحة أقرب بشبْرٍ، فغُفرَ له».

(4) وحي القلم (1/ 238).

ولا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إلاّ كانوا مَعَكم فيه وهم بالمدينة، حَبَسَهُم العُذر»، وفي رواية: «إلاّ شَرَكوكم في الأجر، حبسهم المرض»[1].

جسمي معي غير أنّ الرّوح عندكم فالجسمُ في غربة والروح في وطن.

إنّ سير القلوب أبلغ من سير الأبدان، فكم من واصلٍ ببدنِهِ إلى البيت، وقلبُهُ مُنقطعٌ عن ربّ البيت، وكم من قاعد في بيته على الفَرْش، وقلبُهُ يَطُوف بالعرش. قال الحافظ ابن رجب: «القاعدُ لعذرٍ شريكُ السّائر، وربما سبق السَائرُ بقلبه السائرين بأبدانهم.

يا سـائرين إلى البيـت العتيق لقد سِرْتُم جُسُومًا وسِرْنَا نحن أرْوَاحًا
إنّـا أقمْنَـا على عُـذْرٍ وقـد رَحَلُوا ومَنْ أقامَ على عُذرٍ كَمنْ راحَا»[2].

4. **بين صراط الدنيا وصراط الآخرة:** إن الطريق المُوصلة إلى جنّة الدّنيَا، هي نفسها الموصلة إلى جنّة الآخرة، ولذلك أُطلِق عليهما نفس الاسم (الصراط).

فمن استقام في الدّنيَا وثبت على صراط الدين حتى عرف ربّ العالمين، نجَا في الآخرة وثبت قدمُه على الصّراط حتى يسْكُن الجنة مع النبيئين والصّديقين والشهداء والصالحين. قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «الصّراطُ المستقيم: تَركَنَا محمّدٌ ﷺ في أدنَاه، وطرَفُهُ في الجنة»[3].

والصراط المستقيم: هو دين الإسلام الذي بعث الله به رسُولَهُ محمّد ﷺ وسائر المرسلين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 161).

(1) رواه البخاري رقم (2627).

(2) لطائف المعارف: (ص477).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (12/ 230) برقم (14168).

ونظرا إلى حاجة العبد الأكيدة إلى هذه الهدَاية، فهو مأمورٌ بطلبها عدّة مرات في اليوم والليلة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: 6). ومعناها: «أي دُلّنَا وأرشدنا ووفقنا إلى الصّراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، فاهدنا إلى الصّراط واهدنا في الصّراط.

فالهداية إلى الصّراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان.

والهداية في الصّراط: تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا»[1].

فطريق السائر إلى ربّه في الدنيا تُشبه طريقهُ إلى الجزاء في الآخرة. وعن هذا التشابُه يُحدّثنا الإمامُ الغزالي فيقول رحمه الله: «ومثالُ هذا الطريق في الدنيا: الصّراط في الآخرة، في عقباته ومسافاتها ومقاطِعِها، واختلاف أحوال الخلائق فيها. فمنهم من يمرّ عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمُرُّ عليه كالرّيح العاصف، وآخر كالفرسِ الجَواد، وآخر كالطائر، وآخرُ يَمشِي، وآخر يَزْحَف حتّى يصيرَ فحْمَة، وآخر يسمَعُ حسِيسَهَا، وآخرُ يُؤخَذُ بكلاليبَ فيُطْرَحَ في جهنّم[2].

وكذلك حال هذا الطريق مع سالكيه في الدنيا، فهُما صراطان: صراط الدنيا، وصراط الآخرة، فصراط الآخرة للأنفس، يرى أهوالها أهل الأبصار، وصراط الدنيا

---

(1) تفسير السعدي: (ص 37–38). وقال الإمام ابن حزي في تفسيره (التسهيل 33) «(اهدنا): دُعاءٌ بالهُدَى. فإن قيل: كيف يطلب المؤمنون الهُدَى وهو حاصل لهم؟ فالجواب: أنّ ذلك طلب للثبت عليه إلى الموت، أو الزيادة منه، فإن الارتقاء في المقامات لانهاية له».

(2) نؤمن – في عقيدتنا الإسلامية – بالصّراط، وهو جسر دقيق ينصب يوم القيامة على ظهر جهنّم ويمرّ النّاس عليه بحسب أعمالهم في الدنيا. وهو عقبة كَأْداء في طريق الذاهبين إلى الجنّة. وقد فُسّر ورود النّس النّار يوم القيامة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم:71]. بأنه المرور على الصّراط. وفي حديث النبي ﷺ عن يوم الحساب وصف دقيق لهذا الحسر بقوله: «فيُضرب الصّراط بين ظهرانيْ جهنم فأكون أوّل من يجوزُ من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلاّ الرسل وكلام الرُسل يومئذ اللهم سلم سلّم. وفي جهنم كلاليب [وفي رواية: خطاطيف وكلاليب وحُسَك] تخطفُ الناس بأعمالهم فمنهم من يُوبق بعمله ومنهم من يُخردل ثم ينجو»، انظر: (البخاري (806) ومسلم (299).

للقلوب، يرى أهوالها ذوو البصائر والألباب. وإنّما اختلفت الأحوال للسالكين في الآخرة، لاختلاف أحوالهم في الدنيا، فتأمّلْ ذلك حقهُ، فهذه هذه»[1].

ويكشف لنا العلاّمة ابن القيّم هذا السرّ اللطيف في اشتراك طريقي الدنيا والآخرة في اسم (الصّراط) بقوله رحمه الله: «من هُدِيَ في هذه الدّار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسَلَ به رُسلَهُ، وأنزَلَ به كُتبَهُ، هُدِيَ هُناك إلى الصراط المستقيم المُوصل إلى جنته ودار ثوابه.

وعلى قدر ثبُوت قدم العَبْد على هذا الصراط الذي نصَبَهُ الله لعباده في هذه الدّار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنّم.

فلينظر العبدُ سَيْرَهُ على ذلك الصراط من سيْره على هذا، حِذْوَ القُذَّةِ بالقُذّة[2]، جزاءً وفاقًا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: 90). ولينظر الشبهات والشهوات التي تعُوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنّها الكلاليب التي بجنبَتَي ذلك الصراط، تخطفه وتعُوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت، فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصّلت: 46)»[3].

5. **الطريق إلى الله واحد:** على من أردَ التقدّم إلى ربّه سبحانه وتعالى أن يجتهد في طلب الحق، فإذا وجده لزمه وثبت عليه حتى يصل إلى مقصوده بعون الله تعالى؛ وقد كثرت في هذا الزمان الفتن والشبهات حتى اختلطت الأمور على كثير من الناس. والمخرَج منها: هو الاستعانة بالله واستهدائه واستخارته في الأمور كلّها، مع طلب الحق من أهل الذكر الثقات الصالحين، والله ولي المتقين.

---

(1) منهاج العابدين (ص 412-411).

(2) القُذّةُ: تُطلَقُ على ريشة السّهم، وهذا مَثَلٌ يُضرَبُ للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. فهو كناية على التشابه والتتابع.

(3) مدارج السالكين (1/ 23).

وقد كان النبي ﷺ يفتتح صلاة قيام الليل أحيانا بقوله: «اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

ومهما تعدّدت وتشعّبت وتكاثرت طرق الباطل وتزيّنت، فإنها لا تُوصل إلى الله جلّ في عُلاه، فاجتنبها ولا تغتر بها. قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ (المائدة: 100)، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «الزمْ طريق الهُدَى ولا يَغْتَرّكَ قلّة السالكين، وإيّاك وطُرُق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين»[2].

أمّا طريق الحق، فهي أقوم الطرق وأصلحها وأطيبها في سيرنا إلى الله تعالى، لأجل ذلك نسبها سبحانه لنفسه وأفردها عن سائر الطرق، وضَمِنَ لأهلها السعادة في الدّارين. قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: «الطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدّد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبَهُ مُوصلاً لمن سلكه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: 153). فوحّد سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعداد فيه، وجمع السُبل المخالفة لأنها كثيرة مُتعدّدة.

وثبت[3] أنّ النبيّ ﷺ خطّ خطا ثمّ قال: «هذا سبيل الله»، ثم خطّ خُطوطًا عن يمينه وعن يساره، ثم قال: «هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ:

---

(1) رواه مسلم برقم (770).

(2) الاعتصام، للشاطبي: (1/ 112).

(3) الحديث صحيح، أخرجه أحمد (1/ 435)، وابن حبّان في صحيحه (6)، وحسنه محقّقه شعيب الأرناؤوط، وابن أبي عاصم في السنة (17) وصححه محققه الألباني.

«﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ إلى آخر الأية»[1]. و«المقصودُ أنّ طريق الحق واحد، إذ مردّهُ إلى الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة ومُتعددة»[2].

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت:69)، فليس المقصود بالسبل فيه الصراط الأصلي المستقيم، وإنّما المقصود بها سُبُل الخير وطُرُق الطاعات المتنوّعة، مثل قول النبيّ ﷺ: «الإيمان بضع وسبعُون شُعبة»[3].

فسُبُلُ الخير وشُعَب الإيمان مثل: الصلاة والصدقة والدعوة إلى الله تتعدّد وتتنوّع، ولكن أصل المنهج، وطريق الله، والصراط المستقيم الذي هو دين الإسلام واحد لا يتعدّد.

وبهذا المعنى نفهم سرّ إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (الأنعام:1). قال الشيخ السعدي رحمه الله: «ذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادّها وتنوّع طرقها. ووحّدَ النّور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدّد فيها، وهي الصراطُ المتضمّنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾»[4].

الإشارة الثانية: فقه مراتب الأعمال

قد تشكل على بعض السائرين إلى ربّ العالمين: قضيّة التفاضل بين الطاعات، التي يحتاج فيها العبد إلى شيء من فقه الأولويّات.

---

(1) طريق الهجرتين: (ص322).

(2) بدائع الفوائد: (1/ 127).

(3) رواه مسلم برقم (161).

(4) تيسير الكريم الرحمان (ص254).

٦. **موقف العلماء من أحاديث تفضيل الأعمال:** قد ثبتت عن الرسول ﷺ أحاديث متنوّعة، تذكر أفضل الأعمال وأحبّها إلى الله تعالى، فمن ذلك: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِها»، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[1]. وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «عليْكَ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَا عِدْلَ لَه»[2]. وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث وغيرها، التي اختلفت فيها أجوبة النبي ﷺ عن أفضل الأعمال: بأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال أو باختلاف الأشخاص، فمن الأشخاص من يكون الصيام أفضل له، ومنهم من يكون الجهاد أفضل له، وذلك يكون بحسب الحال، وبحسب استعداد الشخص المعيّن، وقدرته.. إلخ.

قال الحافظ ابن حجر -عند شرحه لحديث ابن مسعود المتقدم-: «مُحَصَّلُ مَا أَجَابَ بِهِ الْعُلَمَاءُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ مِمَّا اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْأَجْوِبَةُ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ: أَنَّ الْجَوَابَ اخْتَلَفَ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ السَّائِلِينَ، بِأَنْ أَعْلَمَ كُلَّ قَوْمٍ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، أَوْ بِمَا لَهُمْ فِيهِ رَغْبَةٌ، أَوْ بِمَا هُوَ لَائِقٌ بِهِمْ. أَوْ كَانَ الِاخْتِلَافُ بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ، بِأَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ، فَقَدْ كَانَ الْجِهَادُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّهُ الْوَسِيلَةُ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا وَالتَّمَكُّنِ من أَدَائِهَا، وَقَدْ تَضَافَرَتِ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَفِي وَقْتِ مُوَاسَاةِ الْمُضْطَرِّ تَكُونُ الصَّدَقَةُ أَفْضَلَ. أَوْ أَنَّ أَفْضَلَ لَيْسَتْ عَلَى بَابِهَا، بَلِ الْمُرَادُ بِهَا الْفَضْلُ الْمُطْلَقُ، أَوِ الْمُرَادُ: مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، فحذفت «من» وَهِي مُرَادة»[3].

---

(1) رواه البخاري (527)، ومسلم (85).

(2) رواه النسائي (2222)، وصحّحه ابن حبان (3426).

(3) فتح الباري (9/ 2).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «قد يكون العمل المعيّن أفضل منه في حق غيره: فالغني الذى له مال كثير، ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه: فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة. والشجاع الشديد الذى يهاب العدوُ سطوتَه: وقوفُه في الصف ساعة، وجهادُه أعداءَ الله: أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع. والعالِمُ الذى قد عرف السنة، والحلال والحرام، وطرق الخير والشر: مخالطتُه للناس وتعليمُهم ونصحُهم في دينهم: أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح.

ووليُّ الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده: جلوسُه ساعةً للنظر في المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإقامة الحدود، ونصر المحق، وقمع المبطل: أفضل من عبادة سنين من غيره.

ومن غلبت عليه شهوة النساء: فصومُه -له- أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته.

وتأمل تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله، وترك تولية أبى ذر، بل قال له: «إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرن على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم». وأمر غيره بالصيام وقال: «عليك بالصوم فإنه لا عِدل له»، وأمر آخر بأن لا يغضب، وأمر ثالثا بأن لا يزال لسانه رطبا من ذكر الله. ومتى أراد الله بالعبد كمالا، وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له، قابل له، قد هُيئ له، فإذا استفرغ وسعه، علا غيره وفاق الناس فيه.

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا، إذا استعمل دواء ذلك الداء: انتفع به، واذا استعمل دواء وجع الرأس: لم يصادف داءه. فالشح المطاع -مثلا- من المهلكات، ولا يزيله صيام مائة عام، ولا قيام ليلها!! وكذلك داء اتباع الهوى، والإعجاب بالنفس: لا يلائمه كثرة قراءة القرآن، واستفراغ الوسع في العلم والذكر

والزهد، وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده. ولو قيل: أيها أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب: «أن هذا في موضعه أفضل، وهذا في موضعه أفضل»[1].

وقال العلاّمة ابن دقيق العيد: «وقد اختلفت الأحاديث في فضائل الأعمال، وتقديم بعضها على بعض، والذي قيل في هذا: إنها أجوبة مخصوصة لسائل مخصوص، أو مَن هو في مثل حاله، أو هي مخصوصة ببعض الأحوال التي ترشد القرائن إلى أنها المراد، ومثال ذلك: أن يُحمل ما ورد عنه ﷺ من قوله: «ألا أخبركم بأفضل أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم؟». وفسّره بذكر الله تعالى على أن يكون ذلك: أفضل الأعمال بالنسبة إلى المخاطَبين بذلك، أو مَن هو في مثل حالهم، أو مَن هو في صفاتهم، ولو خوطب بذلك الشّجاع الباسل المتأهّل للنّفع الأكبر في القتال لقيل له: «الجهاد». ولو خوطب به من لا يقوم مقامه في القتال، ولا يتمحّض حاله لصلاحية التبتل لذكر الله تعالى، وكان غنياً ينتفع بصَدقة ماله، لقيل له: «الصدقة». وهكذا في بقية أحوال الناس، قد يكون الأفضل في حق هذا مخالفاً في حق ذاك، بحسب ترجيح المصلحة التي تليق به»[2].

2. **أفضل الأعمال في التقدّم إلى الله**: للإمام ابن القيم -في هذه القضية- تفصيل جميل وإرشادٌ جليل، يروي الغليل ويشفي القلب العليل، إذْ يقول رحمه الله: «والناس -في أفضل العبادات وأنفعها وأحقّها بالإيثار والتخصيص- على أربعة أصناف:

الصّنف الأوّل: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقّها على النفوس وأصعبها.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرّد، والزهد في الدنيا، والتقلّل منها، وعدم الاكتراث بها.

---

(1) عدة الصابرين: (ص 114-115).

(2) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، تحقيق: أحمد شاكر، ط. عالم الكتب، 1987، القاهرة.

الصنف الثالث: رأوْا أنّ أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفعٌ مُتعَدٍّ بخدمة الناس وقضاء حوائجهم.

الصنف الرّابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الربّ في كلّ وقت بما هو مُقتضى ذلك الوقت ووظيفته[1].

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترْكِ إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حقّ [الوالدين] والزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السَحَر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجدّ والنّصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بَعُد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلواتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعيّة القلب والهمّة على تدبّره وتفهّمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه وتدبّره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعيّة قلب من جاءَهُ كتاب من السلطان على ذلك.

---

(1) وهذا ما يُسميه البعض: واجب الوقت.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرّع والدعاء والذكر دون الصوم المُضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام ذي الحجّة: الإكثار من التعبّد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيّن.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزُوم المسجد فيه، والخلوة والاعتكاف دون التصدّي لمخالطة النّاس والاشتغال بهم، حتى أنّه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خُلوتك وجمعيّتك[1].

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداءُ واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يُؤذُونَه[2]. والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه. واعتزالهم في الشرّ، هو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كلّ وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه»[3].

قال الإمام ابن القيم: «وهؤلاء هم أهل التعبّد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبّد المقيّد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه يرى

(1) المقصود بهذه الجمعية -حسب الإمام ابن القيم- هو: «عكُوف القلب على الله، وجمع الهمّة عليه سبحانه، وتفريغ القلب لمحبته، ودوام ذكره بالقلب واللسان والانشغال بمراقبته» (مدارج السالكين: 1/ 86).

(2) ونص الحديث يقول: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يُخالط النّاس ولا يصبرُ على أذاهم». رواه الترمذي وأحمد، وهو في صحيح الجامع رقم (6651).

(3) مدارج السالكين: (1/ 85-89) باختصار.

نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبّد المطلق ليس له غرض في تعبّد بعينه يُؤثِرُهُ على غيره، بل غرضه تتبّع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبّده عليها.

فهو لا يزال متنقّلا في منازل العبوديّة، كلما رُفعت لَهُ منزلة عمل على سيره إليه، واشتغل بها حتى تلُوح له منزلة أخرى. فهذا دأبُه في السير حتّى ينتهي سيرُه. فإن رأيت «العبّاد» رأيته معهم، وإن رأيت «المجاهدين» رأيته معهم، وإن رأيت «الذاكرين» رأيته معهم، وإن رأيت «أرباب الجمعيّة وعكوف القلب على الله» رأيته معهم، فهذا هو العَبْدُ المطلقُ، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تُقيّدْهُ القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذّتها وراحتها من العبادات[1]، بل هو على مُراد ربّه، ولو كانت راحة نفسه ولذاتها في سواه. فهذا هو المتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقا»[2].

3. **العُبوديّات الخاصّة في التقدّم**: من فضل الله تعالى على عبده أن يُبَصّرهُ بطُرُق الخير الموصلة إليه، ويفتح عليه في القيام بجملة من العبوديات الخاصّة التي توافق المنزلة والقُدرة والتخصّص، والتي قد يغفل عنها الكثير من الناس.

ويكشف لنا الإمام ابن القيم رحمه الله أنواع هذه العُبوديات الخصة بقوله: «لله سُبحانه على كلّ أحد عُبُوديّة بحسب مرتبته، سوى العُبوديّة العامّة التي سوّى بين عباده فيها:

فعلى العالم من عُبوديّة نشر السنّة والعلم الذي بعث الله به رسوله ﷺ ما ليس على الجاهل، وعليه عُبوديّة الصّبر على ذلك ما ليس على غيره.

---

(1) قال الإمام ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة -قدّس الله روحه- يحكي عن بعض العارفين أنه قال: «النّاس يعبدون الله، والصوفيّة يعبدون أنفسهم» (مدارج السالكين: 2/ 17). قلتُ: وهذه العبارة البليغة تلخّصُ حال الكثير من أتباع الطرق الصوفيّة الذين انحرفوا عن الجادّة.

(2) مدارج السالكين: (1/ 89-90).

وعلى الحاكم من عبوديّة إقامة الحقّ وتنفيذه وإلزامه من هُو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي.

وعلى الغني من عبُوديّة أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير.

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز فيهما.

وتكلّم يحيَى بن مُعاذ الرازي[1] يومًا في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأة: هذا واجبٌ قد وُضع عنّا -تعني: معشر النّساء- فقال: هَبِي أنه قد وُضع عنكنَّ سلاحُ اليد واللسان، فلم يوضع عنكُنّ سلاحُ القلب، فقالت: صدقْتَ جَزَاكَ الله خيرًا.

وقد غرّ إبليسُ كثيرًا من الخلق بأن حسّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزّهد في الدنيا والانقطاع! وعطّلوا هذه العُبوديّات فلم يُحدّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء -أي العلماء الصادقين- ممّن لا غناء فيهم للدّين! فإنّ الدين هو القيامُ لله بما أمر به، فتاركُ حقوق الله التي تجبُ عليه أسوأُ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي.

وأضاف الإمام ابن القيّم قوله: ومن له خبرةٌ بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه: رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين -أي من أولئك المتزهّدين المنقطعين- هم أقلّ الناس نصرة لدين الله، والله المستعان.

وأيّ دين وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنهكُ، وحدُودَه تُضاعُ، ودينه يُتْرَكُ، وسُنّةَ رسوله ﷺ يُرغبُ عنها، وهو باردُ القلب ساكت اللّسان شيطان أخرس؟!

---

(1) هو أبو زكرياء الواعظ، أحد كبار الزهّاد المعروفين بالحِكَم الغزيرة النافعة، ومنها قوله: «مفاوز الدنيا تُقطعُ بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطعُ بالقلوب». وتوفي رحمه الله بنيسابور سنة (258 هـ).

وهل بليّة الدين إلاّ من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستُهم فلا مبالاة لهم بما جرى على الدين، وخيارهم المتحزّنُ المتباكي!

ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهه أو مَالِهِ بذَلَ وتبذَّلَ، وجَهَدَ واجتَهَدَ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه! وهؤلاء -مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم- قد بُلُوا في الدنيا بأعظم بليّة تكون وهم لا يشعرون، وهي: موتُ القلوب! فإنّ القلب كلما كانت حياته أتمّ كان غضبه لله ولرسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيرُه أثراً أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا ربّ كيف وفيهم فلان العابد؟ فقال: «به فابدأ فإنه لم يتمعّر وجهه -أي لم يتغيّر- فيَّ يوما قط».

وذكر أبو عُمر بن عبد البرّ في كتاب «التمهيد» أنّ الله سبحانه أوحى إلى نبيّ من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: «أمّا زهدُك في الدنيا فقد تعجّلت به الراحة لنفسك، وأما انقطاعك إليّ فقد اكتسبتَ به العزّ، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا ربّ وأيّ شيء لك عليَّ؟ قال: هلْ واليتَ فيَّ وليّا أو عاديتَ فيَّ عَدُوًّا؟!»[1].

فكن أيّها المتقدّم فقيها في سَيرِكَ، ذا قلب حيّ، وفِكرٍ نَقيٍّ، يعيشُ عصرَه، ويُؤدّي واجب وقته. يبتغي في كلّ خطوة مرضاة مولاه، ولا يتخيّر ما يريحُ نفسه ويُوافق هواه.

ينصر الدين ويُوالي عباد الله الصالحين، يُخالط الناس ويصبر على الأذى، كما كان يفعل نبيّنا المصطفى ﷺ.

4. **قاعدة في التفاضل بين الأذكار**: قد وضع الإمام ابن القيم قاعدة تقول: «قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء».

---

(1) أعلام الموقعين: (2/ 157-158) بتصّرف يسير.

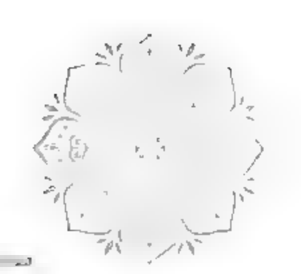
ثمّ فصلها قائلاً: «هذا من حيث النظر لكل منهما مجردا، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يُعيّنُهُ، فلا يجوز أن يُعدلَ عنه إلى الفاضل. وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة. وكذلك التسميع والتحميد في محلهما أفضل من القراءة، وكذلك التشهد، وكذلك «رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذكر عُقيب السلام من الصلاة -ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد- أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة، وكذلك إجابة المؤذن، والقول كما يقول أفضل من القراءة وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه، لكن لكلّ مقام مقال، متى فات مقاله فيه وعُدلَ عنه إلى غيره اختلت الحكمة، وفاتت المصلحة المطلوبة منه وهكذا الأذكار المقيّدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذّكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن، مثاله: أن يتفكر في ذنوبه فيحدث ذلك له توبةً واستغفاراً، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصنه وتحفظه. وكذلك أيضا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها، اجتمع قلبه كله على الله تعالى، وأحدث له تضرّعا وخشوعا وابتهالا، فهذا يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرا»[1].

(1) الوابل الصيب: (ص 168-169).

المحطّة الخامسة

قواعد التقدّم إلى الله

- القاعدة الأولى: الأعمال بالنيات
- القاعدة الثانية: العبادات توقيفية
- القاعدة الثالثة: بادر قبل أن تُغادر
- القاعدة الرابعة: لا تحقرنّ من المعروف شيئاً
- القاعدة الخامسة: قليلٌ دائم خيرٌ من كثير منقطع



القاعدة الأولى

الأعمال بالنيات

وهي أعظم القواعد[1] الفقهيّة الكليّة الكُبرى، حيث أنها تشكل الأساس الضروري لصحة وقبول سائر أعمال الملّكف. وتُعرفُ كذلك بلفظ «الأمور بمقاصدها»[2].

1. **تأصيل القاعدة:** وأصلها حديث النبيّ ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى»[3]. قال الحافظ بن رجب رحمه الله: «هذا الحديث: أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها، فرُوي عن الشافعي أنه قال: «هذا الحديث ثلثُ العِلم، ويدخُل في سبعين بابًا من الفقه». وعن الإمام أحمد قال: «أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عُمر: «الأعمال بالنيّات»، وحديث عائشة: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ»، وحديث النعمان بن بشير «الحلال بيّن والحرام بيّن»»[4].

---

(1) إنّ للقواعد أهّمية بالغة. وتُعرفُ لدى الفقهاء بأنها «مبادىء وأُسس فقهية يتضمّن كلّ منها حُكمًا عامّاً». (انظر: شرح القواعد الفقهية، لمصطفى أحمد الزرقا: (ص 34))، وقال الإمام القرافي: «مَن ضبطَ الفقهَ بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات، لاندراجها في الكلّيات». (الفروق: (2/ 1 3))، لأجل ذلك حرصتُ على جمع جُملة من «القواعد السلوكيّة» تضبط سير المتقدّمين إلى ربّ العالمين.

(2) الأشباه والنظائر، للسيوطي: (ص8 – 9) والقواعد الفقهيّة، للندوي: ص(136).

(3) أخرجه البخاري (54) ومسلم (1907).

(4) جامع العلوم والحكم: (1/ 61).

2. **معاني النيّة**: والنيّة في كلام العلماء تقع بمعنيين:

أحدهما: بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلا، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغُسل من الجنابة من غسل التبرّد والتنظيف، ونحو ذلك، وهذه النيّة هي التي توجدُ كثيرا في كلام الفقهاء.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو الله وحدَه لا شريك له، أم غيره، أم الله وغيره ؟

وهذه النيّة هي التي يتكلّم فيها العارفون في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي يتكرّر ذكرها في كلام النبي ﷺ تارة بلفظ النيّة، وتارة بلفظ الإرادة، وتارة بلفظ مُقارب لذلك، وقد جاء ذكرها كثيرا في كتاب الله عزّ وجلّ بغير لفظ النيّة أيضا من الألفاظ المقاربة لها.

فجاءت مثلا بلفظ الإرادة، كما في قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ (آل عمران: 152)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الأنعام: 52).

وقد يُعَبَّرُ عنها في القرآن بلفظ «الابتغاء»، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: 272). وقوله جلّ شأنه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: 265).

ولازال السلف يُعظمون أمر النيّة ويحثون على إخلاصها، حتى يعتني بها السائرون إلى ربّ العالمين، ويغتنمها المتقدّمون في سائر الميادين.

قال يحي بن أبي كثير: «تَعلّمُوا النيّة، فإنّها أبلغُ من العمل»[1].

(1) حلية الأولياء: (3/ 70).

وعن عبد الله بن المبارك قال: «رُبَّ عَمَلٍ صغير تُعظِّمُهُ النيّة، ورُبّ عَمل كبير تُصغِّرُهُ النيّة»[1].

وعن زُبيْدٍ اليامي، قال: «إنّي لأُحبُّ أن تكون لي نيّةٌ في كلّ شيء، حتى في الطعام والشراب»[2].

3. أهميّة النيّة: والنيّة مُحوِّل عجيبٌ للأعمال، تَقْلِبُ المباحات إلى طاعات وقُرُبات، فيُثابُ عليها العَبدُ عند ربّ الأرض والسماوات، حتى قيل «نيّةُ المؤمنِ خيرٌ من عَمَلِه»[3].

فهذا الصحابي الجليل معاذ بن جبل -أعلم الصحابة بالحلال والحرام، والمقدّم على العلماء يوم القيامة- يتفنّنُ ﷺ في استحضار النيّة في كافة حركاته، حتّى قال: «أمّا أنا فأنام وأقُومُ، فأحتسبُ نومتي كما أحتسبُ قومتي»[4]. فكان ﷺ يحتسب الأجر في النّوم، كما يحتسبه في قيام الليل، لأنّه أراد بالنوم التقوّي على الطاعة. قال الحافظ ابن حجر: «ومعناه: أنه يطلبُ الثواب في الراحة كما يطلبه في التعب، لأنّ الرّاحة إذا قُصِدَ بها الإعانة على العبادة حصّلت الثواب»[5].

فعلى المتقدّم إلى ربّه أن يحرص على اصطحاب نيّة فعل الخير، والتقرّب إلى الله تعالى في كل عمل ولو كان من المباحات، فالمباح بالنية الصالحة يصيرُ قربةً يُنالُ بها الأجر.

(1) جامع العلوم والحكم: (1/ 71).

(2) المرجع نفسه: (1/ 70).

(3) وهو حديث ضعيف، رواه مجموعة من الصحابة، وقد أخرجه البيهقي في الشعب (5/ 343)، وابن عبد البّر في التمهيد (4/ 114)، وأبو نعيم في الحلية (3/ 255) وهو في مسند الشهاب (148)، وضعفه الحافظ في الفتح (4/ 219) والألباني في ضعيف الجامع (5988) وذهب الحافظ السخاوي إلى تقويته بمجموع طرقه في المقاصد الحسنة رقم (1260).

(4) أخرجه البخاري (4342).

(5) فتح الباري: (8/ 62).

وعندما تحسّر بعض فقراء الصحابة رضي الله عنهم على عجزهم عن إدراك مرتبة أغنيائهم بقولهم: يا رسول الله، ذهبَ أهل الدثور بالأجور، يصلّون كما نُصلّي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم. قال ﷺ: «أوليس قد جَعَلَ الله لكم ما تصدّقون، إنّ بكلّ تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكلّ تهليلة صدقة، وأمرٌ بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضعِ أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتُم لو وضَعَهَا في حرام، أكان عليه فيها وِزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].

قال الإمام النووي رحمه الله: «قوله ﷺ «وفي بُضع أحدكم صدقة»: يُطلق على الجماع... وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهمّ به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة»[2].

ويحثنا رسول الله ﷺ على احتساب الأجر في سائر الأعمال قائلا: «إنّك لن تُنْفِقَ نَفَقَةً تبتغي بها وجهَ الله إلاّ أُجِرْتَ عليها حتى ما تَجْعَلُ في فمِ امْرَأتكَ»[3]. قال الإمام النووي -معلقا-: «وضع اللقمة في في الزوجة يقع غالبا في حال المداعبة، ولشهوة النفس في ذلك مدخل ظاهر، ومع ذلك إذا وجّه القصد في تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله»[4].

4. **تأثيرات النيّة**: وهذا الإمام ابن جُزَي الغرناطي يزيدنا فِقْهًا في مسائل النيّة، فيقول رحمه الله: «واعلم أنّ الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات، ومنهيات، ومباحات.

---

(1) رواه مسلم (1674).

(2) شرح النووي لمسلم: (7/ 92).

(3) رواه البخاري (56).

(4) فتح الباري: (1/ 137).

فأمّا المأمورات، فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله، بحيث لا يشوبها بنيّة أُخرى، فإن كانت كذلك، فالعمل خالص مقبول، وإن كانت النيّة لغير وجه الله من طلب منفعة دنيويّة أو مدح أو غير ذلك، فالعمل رياء محض مردود.

وأما المنهيات، فإن تركَهَا دون نيّة، خرج عن عهدتها ولم يكن له أجر في تركها. وإن تركها بنية وجه الله حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر.

وأما المباحات، كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإن فَعَلَهَا بغير نية لم يكن له فيها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر. فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة، ويقصد بالجماع التعفّف عن الحرام»[1].

أما الإمام الغزالي فيُصَحِّحُ مفهومًا خاطئًا في مباحث النيّة، فيقول رحمه الله: «قوله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات» يختصّ من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأمّا المعصية فلا تنقلبُ طاعة بالقصد أصلا... وذلك أنّ المعاصي لا تتغيّر عن موضعها بالنيّة، فلا ينبغي أن يَفْهَمَ الجَاهلُ ذلك من عُمُوم قوله ﷺ «إنّما الأعمال بالنّيات»، فيظنّ أن المعصية تنقلب طاعة بالنيّة، كالذي يغتابُ إنسانًا مُراعاةً لقلب غيره، أو يُطْعِمُ فقيرًا من مال غيره، أو يَبْني مدرسة أو مسجدًا أو رباطًا بمال حرام، وقصد الخير!

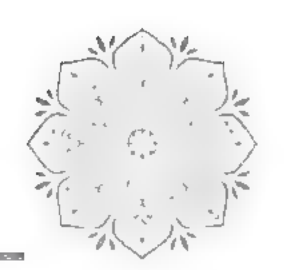
فهذا كله جهل، والنيّة لا تُؤثّر في إخراجه عن كونه ظُلْمًا وعُدوانًا ومعصية، بل قصدُه الخير بالشرّ على خلاف مقتضى الشرع، شر آخر، فإن عرفَهُ فهو مُعاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»[2].

---

(1) التسهيل لعلوم التنزيل: (ص802).

(2) إحياء علوم الدين: (4/ 368).

فاحرص أيّها المتقدّم إلى الله على استحضار النيّة الصالحة، في سائر الأقوال والأعمال، حتى تفوز بحُسن المآل، وتنَال مرضاة ربّك ذي الجلال.



القاعدة الثانية

العبادات توقيفية

وهذه قاعدة جليلة يضبط بها السائر إلى ربّه سائر طاعاته. ومعناها أنّ «مَبْنَى العبادات على التوقيف»[1]، أي: لا يُجوزُ التعبُّدُ لله تعالى بعبادة إلّا إذا كانت هذه العبادة قد ثبت في نصوص الكتاب والسنّة أنّها عبادة مشروعة لله تعالى.

1 ـ **تأصيل القاعدة**: فما استند من العبادات إلى توقيف فهو عبادة مشروعة، وما سوى ذلك من العبادات فهو عبادة باطلة مردودة، كما دلَّ على ذلك قول النبيّ ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[2]. وهذا معنى قولهم «الأصل في العبادة التوقيف»[3]، يعني أن العبادات في الشرع لا تُؤخذ ولا تثبتُ بطريق الرأي والاجتهاد، وإنّما تُؤخذُ من جهة الوحي المجرّد[4]. قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «وبذلك كله يُعلَمُ من قصد الشارع: أنه لمْ يكِلْ شيئا من التعبّدات إلى آراء العباد، فلم يَبْقَ إلاّ الوقوف عند ما حدَّهُ»[5].

---

(1) انظر: فتح الباري (3/ 54)، شرح الزرقاني على الموطأ (1/ 434)، نيل الأوتار، للشوكاني (2/ 20).

(2) أخرجه البخاري (2697) ومسلم (1718).

(3) توضيح الأحكام، للبسّام: (1/ 62)

(4) دراسة وتحقيق قاعدة الأصل في العبادات المنع، للجيزاني: (ص44).

(5) الاعتصام، للشاطبي: (2/ 135).

2. **تفصيل القاعدة:** ويُفصّلُ لنا الإمام ابن تيمية رحمه الله هذه المسألة قائلا: «تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم، وعبادات يحتاجون إليها في دنياهم. فباستقراء أصول الشريعة نعلم أنّ العبادات التي أوجبها الله أو أحبّها لا يثبتُ الأمر بها إلاّ بالشرع. وأمّا العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم ممّا يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا حظر منه إلاّ ما حظره الله سبحانه وتعالى. وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لابدّ أن تكون مأمورا بها. فما لم يثبت أنه مأمورٌ به كيف يُحكمُ عليه بأنه عبادة؟!

ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث يقولون: «إنّ الأصل في العبادات التوقيف»، فلا يُشرعُ منها إلاّ ما شرعه الله تعالى. وإلاّ دخلنا في معنى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (الشورى: 21). والعادات الأصل فيها العفو. فلا يُحظر منها إلاّ ما حرمه، وإلاّ دخلنا في معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ (يونس: 59). ولهذا ذمّ الله المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، وحرّموا ما لم يحرمه»[1].

فلا يجوز للعبد أن يُقدم على عبادة من العبادات في زمان أو مكان أو بكيفية معيّنة أو عدد مُحدّدٍ إلاّ بتوقيف وأمر من الشارع.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:3)، وقال نبينا ﷺ: «ما بقي شيءٌ يُقرّبُ من الجنّة ويباعد من النار إلاّ وقد بُيّن لكم»[2]. فما لم يشرعه الله ولا نبيه ﷺ فليس من الدين.

وعن ابن الماجشون قال: «سمعتُ مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة، يراها حسنة، فقد زعم أنّ محمدًا ﷺ خان الرسالة، لأنّ الله يقول (اليوم أكملت لكم

---

(1) مجموع الفتاوي: (29/ 16-17).

(2) رواه الطبراني في الكبير (1647) وهو في السلسلة الصحيحة (1803).

دينكم)، فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا»[1]. وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «الأصل في العبادات الحظر والمنع، فلا يجوز لأحد أن يتعبّد الله بشيء لم يشرّعه الله: إما في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ، ومتى شك الإنسان في شيء من الأعمال هل هو عبادة أو لا، فالأصل أنه ليس بعبادة حتى يقوم الدليل على أنه عبادة»[2].

3. **الأخطاء المترتّبة على الإخلال بالقاعدة:** وقد يتورّط بعض العُبّاد –بحسن نيّة– في ابتداع جملة من العبادات، ما أرادوا بها إلاّ الخير، غير أنّ حسن النيّة وإرادة الخير لا يشفع للعبد في مخالفة هدي النبيّ ﷺ وإحداث البدع في الدين. وقصة إنكار الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أولئك الذي يذكرون الله بطريقة محدثة مشهورة، وحين قالوا له: «والله يا أبا عبد الرحمان ما أردنا إلاّ الخير»، ردّ عليهم قائلا: «كم من مُريد للخير لن يُصيبه»[3].

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ (الأعراف: 3)، وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلمّا أُخبروا بها كأنهم تقالّوها، وقالوا: أين نحنُ من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر! قال أحدهم: أما أنا فإنّي أصلّي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصومُ الدهر ولا أفطر، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتُم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكُم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منّي»[4].

(1) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم (6/ 791)، والاعتصام، للشاطبي: (1/ 49).

(2) فتاوى نور على الدّرب (1/ 169).

(3) أخرجها الدارمي في سننه (210) والطبراني في الكبير (8636) والألباني في الصحيحة (2005).

(4) رواه البخاري (5063) ومسلم (1401).

وهكذا قطع النبي ﷺ دابر الابتداع في عهده منذ أن لاحظ بعض بوادره؛ ومن أمثله تربيته ﷺ للصحابة على حسن الاتباع والتزام مبدإ التوقيف في العبادات: ما حدث للبراء بن عازب رضي الله عنه حين علّمه النبي ﷺ دُعاء النوم قائلا: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وُضوءك للصلاة، ثمّ اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهمّ أسلمتُ نفسي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، ووجهتُ وجهي إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلاّ إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ، وبنبيّكَ الذي أرسلتَ». فلما ردّدها الصحابي أخطأ فقال: «وبرسولك»، فقال النبي ﷺ: «لا، وبنبيّك الذي أرسلتَ»[1].

وقد فسّر سرّ هذه الدّقة في ضبط كلمات الدعاء الحافظ ابن حجر بقوله رحمه الله: «ألفاظ الأذكار توقيفيّة، ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس، فيجب المحافظة على اللفظ الذي وردت به. وهذا اختيار المازري قال: فيُقتصَرُ فيه على اللفظ الوارد بحروفه، وقد يتعلّق الجزاء بتلك الحروف، ولعلّه أُوحي إليه بهذه الكلمات فيتعيّنُ أداؤها بحروفها»[2].

4. **نماذج من البدع**: ونلاحظ أنّ معظم الذين يقعون في البدع الإضافية[3]، يعتمدون -عن جهل- أدلة عامة لا تدلّ على ثبوت العبادة المُقيّدة. ومعلوم أنّ هذه العبادات المقيّدة تفتقر إلى أدلة خاصة معيّنة، ولا يكفي في ثبوتها النصوص العامة المطلقة.

---

(1) أخرجه البخاري (244) ومسلم (2710).

(2) فتح الباري: (11/ 112).

(3) ذهب الإمام الشاطبي إلى أنّ البدع الإضافية، إنّما تقع في العبادات الثابتة من جهة أصلها، والتي تستند إلى نصوص عامّة، غير أنّ سببها، أوزمانها، أو مكانها، أو عددها، أو كيفيتها محدثة لا دليل عليها. انظر الاعتصام: (1/ 250).

ومن أمثلة ذلك: ذكر الله تعالى باسم مُفرد: كترديد بعض الصوفية لاسم الجلالة (الله، الله، الله...) أو ذكره باسم مُضمَرٍ مثل (هو، هو، هو) أو (ياهو، ياهو) بعدد مُعيّن، أو الاقتصار على نداء اسم من أسماء الله الحسنى، كقول بعضهم: (يالطيف، يالطيف، يالطيف...) مائة مرّة مثلا!

ومع أنّ ظاهر هذه الطريقة: طاعة وقربة من القربات، ولكنها في الحقيقة ممّا أحدثه الناس من البدع والضلالات!

وذلك أنّ الذكر والدعاء من أجلِّ العبادات التي نتقرّب بها إلى الله تعالى، ولأجل ذلك وجب على الذاكر أن يلتزم هدي النبي ﷺ في هذه العبادة.

وبعد التتبّع والتحقيق لا نجد في السنّة النبويّة أثرا لاقتصار النبي ﷺ على ذكر الله أو دعائه باسم مفرد مثل (الله، الله)، أو (هو، هو) أو (ياهو، ياهو) أو (يالطيف، يالطيف)!

قال الإمام ابن تيمية: «وأمّا الاسم المفرد - مظهرا أو مُضمرًا- فَليس بكلام تام، ولا جُملة مُفيدة، ولا يتعلّق به إيمان ولا كفر. ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحدٌ من سلف الأمّة، ولا شرع ذلك رسول الله تعالى ﷺ»[1].

وقد حاول بعضهم الاستدلال بنصوص خاصة من الكتاب والسنة على هذه البدعة في الذكر. قال ابن تيميّة: «كثيرًا ما يذكر بعض الشيوخ أنّه يحتج على قول (الله) بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ (الأنعام: 91)، ويظن أنّ الله أمر نبيّه بأن يقول الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم. فإنّ قوله تعالى [قل الله] معناه الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، وهو جوابٌ لقوله سبحانه ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به مُوسى، ردّ

(1) مجموع الفتاوي: (10/ 226).

بذلك قول من قال: (ما أنزل الله على بشر من شيء) فقال: (من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟) ثم قال: قل الله أنزلهُ ثمّ ذر هؤلاء المكذبين في خوضهم يلعبون»[1].

ومن السنة استدل بعض شيوخ التصوّف بحديث أنس بن مالك ﷺ أن النبيّ ﷺ قال: «لا تقومُ الساعة حتى لا يُقال في الأرض: الله، الله»[2]. قال الشيخ شُعيب الأرنؤوط رحمه الله: «وقوله ﷺ «حتى لا يُقال في الأرض: الله، الله»، أي: لا يبْقى في الأرض مسلم يقول كلمة التوحيد «لا إله إلاّ الله» كما جاء مُفسّرًا في رواية: «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: لا إله إلاّ الله»[3]، وأخطأ من استنبط من المتأخرين من هذا الحديث مشروعيّة الذكر بالاسم المفرد، وذلك:

لأنّه لم يُشرع في كتاب ولا سنة، ولاهو مأثور عن سلف الأمّة، والذكر نوع من العبادة، فلا مجال للرأي فيه.

ولأنّ الذكر ثناء، وهو لا يكون إلاّ بجملة تامّة يحسنُ السكوت عليها مثل: «لا إله إلاّ الله» ومثل «الله أكبر»، ومثل «سبحان الله، والحمد لله»، ومثل «لا حول ولا قوة إلاّ بالله»، وما إلى ذلك من الأذكار المأثورة عنه ﷺ، والاسم وحده لا يحسن السكوت عليه، ولا هو جملة تامّة، ولا كلام مفيد كما هو معلوم عند أهل العلم بالعربيّة»[4].

وأمّا حديث أسماء بنت عُميس ﷺ قالت: علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهنّ عند الكرب: «الله، الله ربيّ لا أُشرك به شيئا»[5]، فاسم الجلالة فيه ليس مُفردًا، بل هو مضاف، إمّا تقديرًا أو تصريحًا[6].

---

(1) مجموع الفتاوي: (10/ 227-228).

(2) رواه مسلم (148).

(3) أخرجه الهيثمي في المجمع (12599) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(4) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان (15/ 263 هامش/ 1).

(5) صحيح ابن ماجة رقم (3132).

(6) معجم المناهي اللفظيّة (ص121).

وهكذا تقع البدع عادة بين المسلمين، إمّا بتأويل فاسد للنّصوص من قبل بعض المتعالمين، أو بدافع الحرص على الخير لدى بعض الجاهلين. وكلاهما مذموم في دين ربّ العالمين.

5. **تصدّي السلف للمحدثات**: لأجل ذلك تصدّى أهل العلم -قديما وحديثا- لمثل هذه المحدثات.

فعن نافع أن رجُلاً عطس إلى جنب ابن عمر رضي الله عنهما فقال «الحمد لله، والسلام على رسول الله! فقال ابن عمر: وأنا أقولُ: الحمد لله والسلام على رسول الله، وليس هكذا علّمنا رسول الله ﷺ، علمنا أن نقول: الحمد لله على كلّ حال»[1].

وعن سعيد بن المسيّب رحمه الله أنه رأى رجلاً يصلّي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين يُكثر فيهما الركوع والسجود، فنهاه. فقال: يا أبا محمّد يُعذبني الله على الصلاة؟ فقال: «لا، ولكن يعذّبُك على خلاف السنّة»[2].

وقال سفيان بن عُيينة: سَمِعْت مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ، وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مِنْ أَيْنَ أُحْرِمُ؟ قَالَ: مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ مِنْ حَيْثُ أَحْرَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنْ الْمَسْجِدِ. فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ. قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنْ الْمَسْجِدِ مِنْ عِنْدِ الْقَبْرِ. قَالَ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ. قَالَ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ فِي هَذَا؟ إِنَّمَا هِيَ أَمْيَالٌ أَزِيدُهَا. قَالَ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَرَى أَنَّك سَبَقْت إِلَى فَضِيلَةٍ قَصَّرَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِنِّي سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: 63)[3].

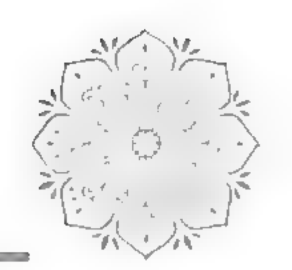
---

(1) رواه الترمذي (2738) والحاكم (4/ 1265).

(2) رواه البيهقي في الكبرى (2/ 466) والدارمي (1/ 16).

(3) أحكام القرآن، لابن العربي (3/ 432)، والاعتصام (1/ 174)، والحلية (6/ 326).





بادر قبل أن تغادر

هي حكمة إسلامية نافعة، من الحكم المشهورة الشائعة. يجدُرُ بنا أن نتخذها قاعدة أساسيّة في تقدّمنا إلى الله ربّ البريّة.

أمّا معنى المبادرة، فهي كلمة مشتقة من: بادر إلى الشيء، مُبادرة، وبدارًا: أي أسرع إليه، وعاجل إليه.

وابتدرَ القومُ أمرًا: أسرعُوا إليه وتسابقوا[1].

1. **تأصيل القاعدة**: وقد أمر الله تعالى عباده الصالحين بالمسارعة إلى الطاعات والمسابقة في عمل الخيرات، فقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (البقرة: 148) وقال جلّ شأنه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ (آل عمران: 133)، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الحديد: 21). ووصف سبحانه عباده المتّقين بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون: 61)، ومدح الله من أسلمَ من أهل الكتاب بقوله سبحانه: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾

(1) المعجم الوسيط: مادة (بدر).

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران 113-114).

وحدثنا ربّنا سبحانه عن مسارعة نبيه مُوسى ﷺ إلى مرضاته بقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه: 84)، وأثنى الله عزّ وجلّ على نبيّه زكرياء ﷺ فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ (الأنبياء: 90).

وكان نبينا ﷺ إمام السابقين، يحثُّ أمّته على المبادرة إلى الطاعات، والمسارعة إلى مرضاة ربّ الأرض والسماوات، «فطُوبى لمن بادر عُمره القصير، فعمَّر به دار المصير، وتهيأ لحساب الناقد البصير، قبل فوات القُدرَة وإعراض النّصير»[1].

ومن هذه الوصايا النبويّة، قوله ﷺ: «بادرُوا بالأعمال سبعًا: هَلْ تنتظرون إلاّ فَقرًا منسيًا، أو غنًى مُطغيًا، أو مرضًا مُفسدًا، أو هَرَمًا مُفَنِّدًا، أو مَوتًا مُجْهِزًا، أو الدجّالَ فشرٌّ غائبٌ ينتظرُ، أو السّاعة فالسّاعةُ أدهى وأمرُّ»[2]. قال المناوي: «قال العلائي: مقصودُ هذه الأخبار: الحثُّ على البداءة بالأعمال قبل حلول الآجال، واغتنام الأوقات قبل هجوم الآفات»[3].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله قال لرجل وهو يعظُهُ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمِكَ، وصحّتَكَ قبل سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قبل فَقْرِكَ، وفَراغِكَ قبل شُغلِكَ، وحياتَكَ، قبل مَوْتِكَ»[4].

---

(1) مواعظ ابن الجوزي: (ص57).

(2) أخرجه الترمذي (2306) وقال: حسن غريب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (2314)، وأخرجه أبو يعلى (6542) من طريق آخر، وصححه الحاكم (4/ 320) ووافقه الذهبي وكذلك السيوطي في الجامع الصغير.

(3) فيض القدير: (3/ 236).

(4) أخرجه الحاكم (4/ 341) وصححه وكذلك الألباني في صحيح الجامع (1077).

ويحثّنا نبينا ﷺ على المبادرة إلى الخيرات والسبق إليها، والاستعجال في أدائها، وعدم تأخيرها لأنّها من عمل الآخرة، فيقول ﷺ: «التُّؤدَة في كلّ شيء خيرٌ، إلاّ في عمل الآخرة»[1].

2. **مبادرة السلف إلى الخير**: وقد كان الصحابة ﷺ يلتزمون بهذا التوجيه النبوي الكريم، فيسابقون في الطاعات، ويتنافسون في الصالحات، كما أرشد إلى ذلك ربّ الأرض والسماوات، بقوله سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين: 26).

أ. **عُمر يسابق أبا بكر**: فهذا الفاروق عُمر بن الخطاب ﷺ يحدثنا عن مسابقه مع أبي بكر الصدّيق ﷺ، فيقول: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدّق، فوافق ذلك عندي مالا، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر، إن سبقتُهُ يومًا.

قال: فجئتُ بنصف مالي.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلكَ؟».

فقلت: مثله.

قال: وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عندهُ.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلكَ؟».

قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله !

قلتُ: لا أسبقه إلى شيء أبدًا[2].

هكذا كان التنافس بين الصحابة ﷺ بالإنفاق والصدقة، والمرءُ لا يصِلُ إلى هذه المنازل إلاّ إذا كانت ثقته بالله عظيمة، وبما عنده كبيرة... ووالله لا أدري ممَّ أعجب !! فإن موقف عمر ﷺ ليس بالموقف الهيّن، أن يتصدّق الإنسان بنصف ما

(1) رواه أبو داود (4810) وهو في صحيح الجامع (3009).

(2) رواه الترمذي (3675) وقال: حسن صحيح.

يملك لله تعالى. إلاّ إن أبا بكر الصديق هو الأسبق دائما، فقد تصدّق ﷺ بكل ما يملكه لله تعالى، وأبقى لأهله الله ورسوله، وهما أعظم أمرين ففيهما الغنى المطلق، وهذه العقيدة هي التي تحرّك الإنسان لعمل الخير والسباق إلى الله تعالى[1].

ب. **أبو بكر في طليعة المتسابقين**: ويُواصل الصدّيق حيازته لقصب السباق، وتألّقه في طاعة الخلاّق؛ فقد سأل النبيّ ﷺ يومًا صحابته ﷺ: «مَنْ أصبحَ منكم اليوم صائمًا؟» فقال أبو بكر: أنا. قال: «فمن تَبعَ منكُمُ اليومَ جنازة؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعَمَ منكم اليومَ مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عادَ منكم اليومَ مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمَعْنَ في امْرِئٍ إلاّ دخل الجنة»[2].

ج. **طريقة الخولاني في المسابقة**: وعلى هذا الهدي من الانضباط والمسارعة إلى الخيرات، سار سلفنا الصالح. فهذا: الإمام أبو مسلم الخولاني (ت 62هـ) أحد كبار التابعين الأجلاء، كان رحمه الله يجاهد نفسه في طاعة الله، ويسابق صحابة رسول الله، حتى بلغ به الأمر أن «علّقَ سَوطًا في مسجد بيته يُخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي، فوالله لأزحَفنَّ بك زحفًا حتى يكون الكلل منك لا منّي، فإذا غلبه النوم تناول سوطه، وضرب به ساقه، ويقول: أنتِ أَوْلَى بالضرب من دابتي» وكان يقول: «أيظنُّ أصحابُ محمّد ﷺ أن يستأثروا به دوننا ؟ ! كلا، والله لنزاحمنهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلّفوا وراءهم رجالا»[3].

فلم لا نكون من هؤلاء الرجال، الذين يُزاحمون القوم دون كلال؟؟

د. **فقه اغتنام الفرص**: فيا أيّها المتقدّم إلى ربّك الرحيم، والطامع في الفوز بجنات النّعيم، احرص على اغتنام اللحظات والمسارعة إلى الخيرات قبل فوات الأوقات.

---

(1) الوقت عمار أو دمار للمطوع (2/ 45).

(2) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (4/ 1480) رقم (12).

(3) تاريخ دمشق، لابن عساكر (27/ 204) وإحياء علوم الدين (4/ 411).

وصدق الشاعر حين قال:

إذا هبّت رياحُك فاغتنمها ... فإنّ لكلّ خافقة سكون
ولا تغفَل عن الإحسان فيها ... فما تدري السّكُونُ متى يَكون
وإنْ دَرَّتْ نِيَاقُكَ فاحْتلبْهَا ... فما تدري الفصيلَ لمن يكونْ.

واعلم -أيّها الفاضل- أنّ السّابق إلى الطّاعات في الدنيا هو السّباق إلى الجنات في الآخرة، فإن السبق هناك على قدر السبق هنا، والجزاء من جنْس العمل، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (الواقعة: 10-12).

قال خالد بن معدان: «إذا فُتح لأحدكم باب خير فليُسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه»[1]. وقال ابن القيم -رحمه الله-: «إذا حضرت للرجل فُرصةُ القُربة والطاعة، فالحزمُ كُلُّ الحزم في انتهازها، والمبادرةِ إليها، والعجزُ في تأخيرها، والتسويفِ بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعةُ الانتقاض قلّما ثبتت، والله سُبحانه يُعاقب مَنْ فتح له باباً من الخير فلم ينتَهِزْه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يُمَكّنه بعد من إرادته عقوبةً له»[2].

هـ. كيف سبق عكّاشة: وقد عرف الإسلام لأهل الفضل فضلهم، ولأهل السبق سبقهم، فرفع درجتهم وأعلا منزلتهم، وأعطى كل ذي حق حقّه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «يدخُلُ من أمتي الجنّة سبعون ألفًا بغير حساب»، فقالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتَوُون، ولا يسترْقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربّهم يتوكّلون». فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «اللهمَّ اجلعه منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقال: «سَبقكَ بها عُكاشة»[3].

---

(1) السير (4/540).

(2) زاد المعاد: (3/574).

(3) رواه البخاري (6542) ومسلم (218).

ومن أعظم الدروس التي نستخلها من هذه القصّة: أن المبادرة والمسارعة إلى الخيرات من أعظم الأولويات. فعلى المسلم أن يغتنم الفُرَصَ لاكتساب الحسنات، ولا يتأخّر عن إدراك أعلى الدرجات.

وهذا ما وُفق إليه عكاشة رضي الله عنه، حيث دأبَ على استباق الخيرات، وجاءته هذه الفرصة العظيمة فاغْتَنَمَها، فصار بفضل الله العزيز الوهاب، من الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا سابقة عذاب.

فمتى سنلحق بركب هؤلاء السابقين، ونتنافس في طاعة ربّ العالمين ؟ ألم نعلم أنّ الرّاحة لا تُنال بالراحة، ومعالي الأمور لا تُنال بالفتور، ومن زرع حصد، ومن جدّ وجدَ. ورحم الله الإمام ابن الجوزي حيث نصح قائلا: «أيّها العبدُ: إذا عزمتَ فبادر، وإذا هَمَمْت فثابر، واعلم أنه لا يُدركُ المفَاخِر، من كان في الصف الآخر»[1].

3 . **مقترحات عمليّة للمبادرة:** من الحكمة أن يسارعُ المسلم إلى الأعمال الصالحة، لأنّه لا يدري ما يعرضُ له من الموانع والعوائق، كالمرض والفقر والعجز والموت... إلخ.

فالمبادرة إلى الصلاة في أوّل وقتها أفضل من تأخيرها، إلاّ لمن استثناه الدليل؟[2] ولمّا سُئل النبي ﷺ عن أحبّ الأعمال إلى الله تعالى ؟ قال: «الصلاة على وقتها»[3] وفي رواية «الصلاة في أوّل وقتها»[4]. وحثنا النبي ﷺ على المسارعة إلى الجماعة وإدراك الصف الأوّل بقوله: «لو يعلم الناس ما في النّداء والصف الأوّل ثم لم يجدُوا إلا أن

(1) مواعظ ابن الجوزي: (ص81).

(2) مثل صلاة العشاء خارج المسجد فالأفضل تأخيرها إلى ثلث الليل، وكذلك صلاة الظهر عند اشتداد الحرّ، فالأفضل تأخيرها إلى أن يبرد الوقت خاصة في البوادي.

(3) أخرجه البخاري (504) ومسلم (85).

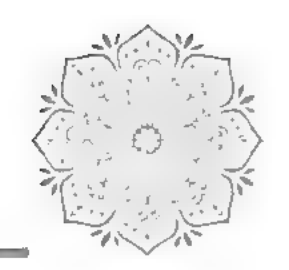
(4) أخرجها الحاكم في المستدرك (1/ 189) وهو في صحيح الجامع (1093).

يستهموا عليه، لاستهموا». وذمّ ﷺ التأخّر عن هذه المقامات قائلا: «لا يزالُ قومٌ يتأخّرون حتى يُؤخرهم الله»[1].

وإذا توفرت الاستطاعة، فعلى المسلم أن يُبادر إلى أداء فريضة الحج لأنّ في هذه المسارعة إبراء للذمّة من هذه الفريضة، فقد أمرنا بذلك النبي ﷺ حيث قال: «من أراد الحج فليتعجّل، فإنّه قد تضلّ الضالة، ويمرَض المريض. وتكونُ الحاجة»[2].

(1) رواه مسلم (438).

(2) رواه أحمد (3/ 450) وهو في «صحيح أبي داود» (1522) وقال المباركفوري في (عون المعبود: 3/ 422): «وفيه دليل على أن الحج واجب على الفور».



لا تحقرنّ من المعروف شيئا

هذه القاعدة العظيمة، إذا التزمها المتقدّم إلى ربّه نال خيرا كثيرا.

1 . **تأصيل القاعدة:** وهي مقتبسة من حديث نبوي شريف، وتمامه: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلقٍ»[1]، يقول الحافظ ابن حجر: «فينبغي للمَرْء ألا يَزْهد في قليلٍ من الخير أَنْ يأتِيَه، ولا في قليلٍ من الشر أَنْ يجتَنِبَه؛ فإنَّه لا يَعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيِّئة التي يَسْخط عليه بها»[2].

فالمتقدّم إلى الله تعالى، حريصٌ على أن يضرب بسهم في جُملة القربات، ولا يستهين بأي نوع من الطاعات. قال أبو الدرداء ﷺ: «إنّ الله تبارك وتعالى اسمه، قد بيّن للعباد الذي هو يصيّرهم إليه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: 7-8). فلا تحقرنّ شيئًا من الشرّ أن تتقيه، ولا شيئا من الخير أن تفعله»[3].

(1) رواه مسلم (2626).

(2) فتح الباري (11/ 321).

(3) الحلية (1/ 212) الزهد الكبير للبيهقي (ص325).

2. فقه القاعدة: وقد حثّ عُلماؤنا على تنويع أبواب الخير، وعدم احتقار أي وجه من وجوه القربة. فهذا الإمام النووي رحمه الله يقول -تحت قاعدة «يُستحبُّ المشاركة في جميع الطاعات»-: «اعلم أنّه ينبغي لمن بَلغهُ شيءٌ من فضائل الأعمال أن يعمل به ولَو مرّة واحدة، ليكون من أهله. ولا ينبغي أن يتركه مطلقا، بل يأتي بما تيسّرَ منه، لقول النبي ﷺ -في الحديث المتفق على صحته-: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[1].

وعندما سُئل العلامة ابن حزم الأندلسي عن أفضل الأمور في النوافل: (الصلاة، أم الصيام، أم الصدقة؟) فأجاب -رحمه الله- بقوله: «إنّي أُحبُّ للمؤمن أن يَضربَ في كلّ هذه الثلاثة بنصيب، ويأخذ بحظه من كلّ واحد منها وإن قلَّ، فذلك إن شاء الله خيرٌ له بلا شكّ من أن يأخذ بإحداهنّ ولا يأخذ من الباقين نصيبا.

وبيانُ ذلك: أنه قد صحّ عن النبي ﷺ أنّ المصلّين يُدْعَون من باب الصلاة، والصائمين يُدعونَ من الباب الصيام، وأصحابُ الصدقة يُدعَوْنَ من باب الصدقة. فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله ! ما على من يُدعَى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعَى أحدٌ من تلك الأبواب كُلّها ؟ فقال: «نعم! وأرجو أن تكون منهم»[2]. فإنّما اخترنا ما بشّرَ به النبي ﷺ أبا بكر. وحسبُك بهذا اختيارًا فاضلاً. جعلنا الله وإياكم من أهله، آمين»[3].

3. **تعظيم السلف للسنن والآداب الإسلاميّة**: كان السلف الصالح حريصينَ على إحياء السنن والفضائل، وتعظيم شعائر الدين؛ وإليك صُور مُشرقة لهذا السلوك الإسلامي الفريد:

* فهذه أمُّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، تروي لنا حديثاً سَمِعَتْهُ من زوجها

(1) الأذكار: (1/ 63).

(2) رواه البخاري (1897) ومسلم (1027).

(3) التلخيص لوجوه التخليص: (ص147).

رسول الله ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»، ثم تقول أُمُّ حَبِيبَةَ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيقتدي الرّواة بعدها بهذا الاتّباع، فيقولُ عَنْبَسَةُ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، وَيقولُ عَمْرُو بْنُ أَوْسٍ: مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَنْبَسَةَ، وَيقولُ النُّعْمَانُ بْنُ سَالِمٍ: مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ[1].

* وقال عبد الرحمن بن مَهدي: سمعتُ سفيان [الثوري] يقول: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قَطّ، إلاّ عَمِلتُ بها ولو مرّة»[2].

* وعن المرّوذي قال لي أحمد: «ما كتبتُ حديثاً إلاّ وقد عَملتُ به، حتى مَرّ بي أنّ «النبي ﷺ احتجمَ وأعطَى أبا طيبةَ ديناراً»، فاحتجَمْتُ وأعطيتُ الحجّامَ ديناراً»[3]. والدينار أربعة غرامات وربع من الذّهب، والحجّام -في هذا العصر- يكفيه عُشره أو أقلّ، ومع ذلك بذلهُ الإمام أحمد كاملاً تطبيقاً للحديث النبوي، وإحياءً للسنّة!

* وذكر ابن الجوزي -في ترجمة الإمام العارف أبو بكر الشبلي رحمه الله- أنّ «جعفر بن بكير سأل بكران الدينوري -وكان يخدم الشبلي-: «ما الذي رأيت منه عند وفاته؟ فقال: طَلب منّي أنّ أوضّأه للصلاة ففعلت، فنسيت تخليل لحيته، وقد أمسك على لسانه، فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثمّ مات!» فبكى جعفر وقال: ما تقلون في رجل لم يَفُتْهُ في آخر عمره أدبٌ من آداب الشريعة؟»[4].

من تلبيسات الشيطان على الإنسان: أن يُصغّر بعض الأعمال في عينه فيزهد فيها، ويُعلّق قلبه بما يعجز عنه أحيانا. وهكذا يتذبذب العبد بين معالي الأمور التي يتقاصر عنها، وصغار الأعمال التي يحتقرها، ويضيع العمر دون فائدة!

(1) رواه مسلم (728).

(2) سير أعلام النبلاء، للذهبي: (7/ 242).

(3) المرجع نفسه: (11/ 296).

(4) صفة الصفوة: (1/ 278).

والحكمة تقتضي أن يحرص المؤمن على كلّ أنواع الخير. ويقصد إلى فعلها جهده، فما تيسّر منها أتمّهُ، وما عجز عنه أو تأخّر لسبب قاهر مع حرصه، كُتبَ له - بفضل الله - ثوابه، إذ الأعمال بالنيّات، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

4. **نماذج من الطاعات**: من فضل الله علينا في دين الإسلام، أنّ أبواب الخير أمامنا متنوّعة، فالعمل الصالح واسع مجاله، شاملٌ عُنوانه، كثير فضله وإحسانه.

ومن ذلك ما جاء في حديث النبي ﷺ حيث قال: «من أبواب الصدقة: التكبير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وأستغفر الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعزل الشوك عن طريق الناس والعظم والحجر، وتهدي الأعمى، وتُسمع الأصمّ والأبكم حتى يفقه، وتدلّ المستدّل على حاجة له قد علمتَ مكانها، وتسعى بشدّة ساقيك على اللهفان المستغيث، وترفع بشدّة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك»[1].

وقد جمع لنا نبينا ﷺ في هذا الحديث الشريف جملة من الطاعات الفرديّة القاصرة والطاعات المتعديّة النفع، كأن رسول الله ﷺ يريد أن يقول لنا: هذه أبواب كثيرة للخير لا يلتفت إليها الكثيرون، فاذكروها ولا تهملوها، واعملوا بها سواءً بسواء مع التسبيح والتحميد والتهليل[2].

فلا تكن في سيرك إلى الله تعالى ضيّق الأفق قاصر الإحسان، بل كن واسع الفصل حتى يكون من حسناتك: الرفق بالحيوان.

فقد غفر الله لمومسة بذلك، فكيف لا يغفر لك؟! قال ﷺ: «غُفرَ لامرأة مومسة من بني إسرائيل، مرّت بكلب يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خُفّها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فغُفر لها بذلك»[3].

(1) رواه أحمد والنسائي وهو في صحيح الجامع (4038).

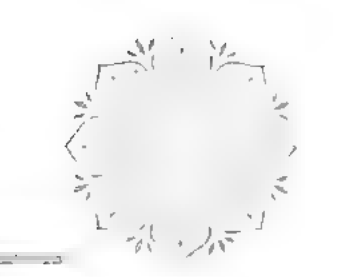
(2) سباق نحو الجنان: ص(132).

(3) أخرجه البخاري (3321) ومسلم (2245).

بل إنّ احتقار الغير وسُوء معاملتهم لهُوَ باب من أبواب النار، ولو كان هذا الغير «هرّة». قال نبيّنا: «دخلت امرأة النار في هرّة ربطتها، فلم تُطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[1].

(1) رواه البخاري (3318) ومسلم (2629).





قليل دائم خير من كثير مُنقطع

وهو مثلٌ قديم[1]، اتخذناه -لأهميته- قاعدة سلوكيّة في التقدّم إلى الله تعالى.

1 . **تأصيل القاعدة:** وأصلها حديث النبي ﷺ: «أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى: أدومها وإن قلّ»[2]، وقول عائشة رضي الله عنها: «كان أحبُّ الدّين إليه ﷺ ما داوم صاحبه عليه»[3].

ونقل ابنُ حجرٍ عن النوويِّ قوله: «بدوامِ القليل تستمرُّ الطاعة بالذِّكر والمراقبة والإخلاص والإقبال على الله بخِلاف الكثير الشاقِّ، حتى ينمو القليل الدائم بحيث يزيدُ على الكثير المنقطِعِ أضعافًا كثيرة.

وقال ابن الجوزي: إنما أحبُّ الدائم لمعنيَيْن:

أحدهما: أنَّ التاركَ للعمل بعد الدُّخول فيه كالمُعرِض بعد الوصل، فهو مُتعرِّض للذَّمِّ؛ ولهذا ورَدَ الوعيد في حقِّ مَن حفظ آيةً ثم نسيها، وإنْ كان قبلَ حفظِها لا يتعيَّنُ عليه.

---

(1) أُثِرَ عن الأديب الشاعر عمرو بن مسعدة من العصر العباسي (ت217هـ)، كما في ترجمته بوفيات الأعيان لابن خلكان (3/ 476).

(2) رواه البخاري (6099) ومسلم (2818).

(3) أخرجه البخاري (43) ومسلم (784).

ثانيهما: أنَّ مُداوم الخير مُلازمٌ للخدمة، وليس من لازمِ الباب في كلِّ يوم وقتًا ما؛ كمَن لازَمَ يومًا كاملاً ثم انقطع»[1].

وعندما سُئلت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أيّ العمل كان أحبّ إلى النبيّ ﷺ؟ قالت: «الدّائم»[2]. ولخّصت لنا هَدْي النبيّ ﷺ في الطاعات بقولها: «كان عملُه ديمة»[3]. قال النووي -في شرحه-: «أيّ يدُومُ عليه ولا يقطعه».

وقال ابن حجر: «قال أهل اللغة: «الدّيمة» مَطرٌ يَدُومُ أيّامًا، ثمّ أُطلقت على كلّ شيء يستمر»[4].

فالمحافظة على الأعمال الصالحة، والمواظبة على السنن والنوافل مستحب مندوب إليه، لأنّ ذلك فعل النبيّ ﷺ وهديه الكريم، وهو الذي حضّ عليه في أكثر من حديث.

ومن ذلك قوله ﷺ: «مَنْ ثابر على ثنتَيْ عشْرَةَ ركعةً من السنّة بَنَى الله له بيتًا في الجنّة»[5] وقوله ﷺ: «من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حرّمه الله على النّار»[6].

2. **فقه المداومة على الأعمال:** فهذه المداومة والمثابرة والمحافظة على العمل الصالح وإن كان قليلا، أفضل وأنفع في التقدّم إلى الله من كثرة الاجتهاد ثمّ الانقطاع والترك. ويكشف لنا سرّ هذه القضيّة العلامة المناوي بقوله: «لأنّ النفس تألفه فيدُوم

(1) فتح الباري: (1/ 103).

(2) رواه البخاري (6461) ومسلم (741).

(3) أخرجه البخاري (1987) ومسلم (783).

(4) فتح الباري: (4/ 236).

(5) رواه الترمذي (414) وصححه الألباني.

(6) رواه الترمذي (428) وصححه الألباني.

بسببه الإقبال على الحقّ، ولأنّ تارك العمل بعد الشروع كالمُعرض بعد الوصل، ولأنّ المواظب مُلازم للخدمة، وليس من لازَمَ الباب كَمَنْ جدَّ ثمّ انقطع عن الأعتاب»[1].

فعلى السائر إلى ربّه أن يلتزم بقاعدة «القليل الدّائم»، لأنّ من حبائل الشيطان التي ينصبها للإنسان: «أن يستغلّ قوّة الانطلاق التي بدأ بها المتسابق سباقه، فيحمله من الأحمال والأثقال ما يُقعدُهُ ويحبسُه عن إكمال الطريق، فيرجع من حيث أتى.

ومثل هذا المتسابق لم يعلم أنّ سباقنا لا يعرف أسلوب الطفرة، وإنّما هو ارتقاء مدارج السالكين درجة درجة، ومعنى هذا: استكمال الفرائض أوّلا، ثمّ من بعد الفرائض تُستكملُ النوافل نافلة نافلةً في ارتقاء مُتأنٍّ مع ثبات راسخ، وهذا هو نهج النبي ﷺ حيث «كان إذا عمل عمَلاً أثبته»[2].

أمّا مَنْ أبَى إلاّ المخالفة فيُخشَى عليه الفتور بعد المجاهدة، والقعُودُ بعد النشاط، ولهذا كانت وصيّة النبيّ ﷺ لعبد الله بن عمرو: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يَقومُ من الليلَ فترك قيام الليل»[3]»[4]. قال ابن حجر – في شرحه –: «وفيه استحباب الدوام على ما اعتاده المرء من الخير من غير تفريط، ويُستنبطُ منه كراهة قطع العبادة وإن لم تكن واجبة»[5].

3. **وصايا بالتوسط في العبادة:** ومن الأحاديث العظيمة التي جعلها نبينا ﷺ منهاجا للسالكين إلى ربّ العالمين: قوله ﷺ: «سدّدُوا وقاربُوا، واغدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ من الدُّلْجَة، والقصْدَ القصْدَ تبلُغُوا»[6]. وفي شرح القاعدة الأخيرة من هذه

(1) فيض القدير: (1/ 214).

(2) رواه مسلم برقم (746).

(3) أخرجه البخاري (1152) ومسلم (1159/ 185).

(4) سباق نحو الجنان: (ص131).

(5) فتح الباري: (3/ 38).

(6) أخرجه البخاري (6463).

الوصيّة النبويّة يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وقوله ﷺ: «القصد القصد تبلغوا» حثٌّ على الاقتصاد في العبادة والتوسط فيها بين الغلوّ والتقصير، ولذلك كرّرهُ مرّة بعد مرّة.

وكان لُمطرّف بن عبد الله بن الشخيّر (ت 75هـ) ابنٌ قد اجتهد في العبادة، فقال له أبوه: «خيرُ الأمور أوسطها، الحسنةُ بين السيّئتين، وشرُّ السير الحقحقة»[1]. قال أبو عبيدة: «يعني أنّ الغُلُوّ في العبادة سيئة، والتقصير سيّئة، والاقتصاد حسنة. قال: «والحقحقة» أن يُلِحَّ في شدّة السير حتى تقوم عليه راحلته وتعطب فيبقى مُنقطعا به سفره. اهـ ويشهد لهذا المعنى الحديث المروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: «إنّ هذا الدين متين فأوغِلوا فيه برفق»[2]»[3].

وقد نقل العلامة المناوي -في شرحه- عن الإمام الغزالي قوله: «أراد بهذا الحديث: أن لا يكلّف نفسه في أعماله الدينيّة ما يخالف العادة، بل يكون بتلهف وتدرّج. فلا ينتقل دُفعةً واحدة إلى الطرف الأقصى من التبدّل، فإن الطبع نفُورٌ»[4].

وقال الحسن البصري: «ياقوم، المداومة المداومة، فإنّ الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6). وقال أيضا: نفوسكم مطاياكم، فأصلحوا مطايكم تُبلّغُكم إلى ربكم عزّ وجلّ. والمرادُ بإصلاح المطايا: الرفق بها في سيرها، وتعاهدها بما يصلحها من قوتها والرفق بها في سيرها، فإذا أحسّ بتوقف في سيرها، تعاهدها تارة بالتشويق وتارةً بالتخويف حتى تسير»[5].

(1) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (ص 205)، وعزاه لابن جرير الطبري في التفسير، وكذا للبيهقي من قول مطرّف.

(2) أخرجه أحمد (3/ 199) وهو في صحيح الجامع (2246) بسند حسن.

(3) المحجّة في سير الدلجة: (ص 68-69).

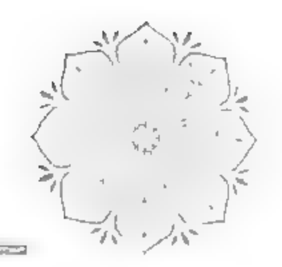
(4) فيض القدير (2/ 675).

(5) المحجة: (ص 71).

المحطّة السادسة

عقبات التقدّم إلى اللّه

- اللوحة الأولى: عقبة الملهيات
- اللوحة الثانية: عقبة الشهوات
- اللوحة الثالثة: عقبة الابتلاءات



مدخل

لمّا كانت الجنّة محفوفةً بالمكاره، فإن الطريق المؤدّية إليها ستكون وعرةً بالضرورة، وفيها الكثير من العقبات والعوائق. لأجل ذلك فإنه يتوجّبُ على السالك أن لا يغفل عن الاستعانة بالله جلّ في عُلاه، وأن يُعدّ العدّة لمواجهة هذه الصعاب، وتخطّي هذه العراقيل التي تعيقه عن الوصول إلى ربّه الجليل. قال الإمام ابن القيّم: «الوصول إلى المطلوب موقوفٌ على هجْر العوائد وقطع العوائق. فالعوائد: السكون إلى الدّعة والراحة وما أَلِفَهُ الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع.. وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوقُ القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه. وهذه العوائق[1] لا تتبينّ للعبد حتى يأخذ في أُهبة السفر ويتحقّق بالسير إلى الله والدار الآخرة. فحينئذٍ تظهر له هذه العوائق ويُحسُّ بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرّده للسفر، وإلا فما دام قاعداً لا تظهر له كوامنها وقواطعها.

ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور ورفضها إلا بقوة التعلّق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلّقه بمطلوبه مُمتنعٌ. فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا

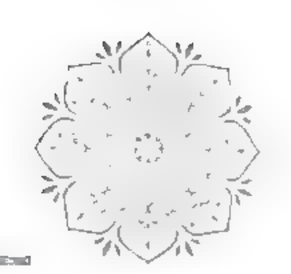
---

(1) وقد جعلها الإمام الغزالي أربعة، وهي: الدنيا والخَلْق والشيطان والنفس. بينما جمعها الإمام ابن القيم في ثلاثة أمور: شركٌ وبدعة ومعصية.

لمحبوب هو أحبّ إليها منه وآثر عندها منه. وكلما قوي تعلّقه بمطلوبه ضَعُفَ تعلّقه بغيره، وكذا بالعكس. والتعلّق بالمطلوب هو شدّة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه»[1].

قُلْتُ: ورأيتُ أن هذه العقبات التي تعوقنا عن «**التقدّم إلى الله**» تعالى ثلاثة أنواع: (**مُلهيات، وشهوات، وابتلاءات**).

(1) الفوائد، لابن القيم: (ص 201-202).



عقبة المُلهيات

وهي التي تُلهي العبدَ عن ربّه سبحانه وتوقعه في الغفلة، فيتباطأ في سيره ويتعطّل، أو يُصرَفُ عن الصراط فينحرفُ ويتأخّر. وقد جاء التحذير من هذه الملهيات في الكتاب والسنة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (المنافقون: 9)، وفي الحديث النبوي: «ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُرَ وألْهَى»[1].

وما أكثر الملهيات في هذا العصر، خاصّةً وقد كثرت الفتن وضعف الإيمان، وقلّ فينا أهلُ الفضل والإحسان. أمّا أقسامها فيمكن إجمالها في ثلاثة أنواع، وهي: (الدنيا، والخلق، والماجَرَيات).

الإشارة الأولى: فتنة الدنيا

التي هي: دار ابتلاء وليست دار جزاء، دار مَمَرّ وليست دار مَقرّ، دار فناء وليست دار بقاء!

(1) أخرجه أحمد (5/ 197)، وهو في السلسلة الصحيحة (974).

1. **ذمّ الدنيا في القرآن والسنّة:** قد مدح الله تعالى في كتابه العزيز الزهدَ في الدنيا، وذمّ الرغبةَ فيها، فقال عزّ مِن قائل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (الأعلى: 16-17)، وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (الرعد: 26)، وقال جلّ شأنه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ (الأنفال:67). وقد حذّرنا الله سبحانه من فتنتها، وكشف لنا عن حقيقتها في عدّة آيات منها: قوله جلّ شأنه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: 20). وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان:33). وثبتَ عن نبينا ﷺ التعوّذُ بالله من شرّها دُبُر الصلوات بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من الجُبن، وأعوذ بك أن أُرَدّ إلى أرذل العُمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»[1]. وبينّ ﷺ حقارة هذه الدنيا بقوله: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء»[2]. ويحذّرُ ﷺ أمّته من خطر هذه الدنيا بقوله: «إن الدنيا حُلوة خَضِرة، وإن الله مُسْتخْلِفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[3].

2. **الزهد النبوي:** لمّا كان الزهد في الدنيا من المقامات العلية، فقد اجتهد الصالحون في التحلّي به، لأنه لا نجاة للعبد من فتن الدنيا إلا بالزهد فيها. وأسوتنا في ذلك إمام الزاهدين ﷺ، حيث كان عَيشُه كفافاً. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البُرِّ ثلاثَ ليالٍ تباعًا حتى قُبض»[4]. وعنها رضي الله عنها

(1) رواه البخاري رقم (2822).

(2) رواه الترمذي برقم (232) وهو في صحيح الجامع (2592).

(3) رواه مسلم رقم (314).

(4) رواه البخاري (5416)، ومسلم (2970).

قالت: «إن كنَّا آلَ محمد ﷺ لَنمكثُ شهرًا ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمر والماء»[1].

وقالت: «لقد مات رسولُ الله ﷺ وما شَبع من خبزٍ وزيت في يوم واحد مرتين»[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: نام النبي ﷺ على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وما للدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»[3]. ودخل عليه عُمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يوماً، فرآه على رمال حصير قد أثّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال: يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه ! وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فجلس وقال: «أَوَ في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ: «أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتُهم في الحياة الدنيا» وفي رواية «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!»[4].

وكان النبي ﷺ يوصي أصحابه بالتقلّل من الدنيا وزينتها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وخُذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[5].

وقد فضّل نبينا ﷺ حياة الزهد والتقلّل من الدنيا اختياراً وإيثاراً لما عند الله عز وجل، وادّخاراً لثوابه في الآخرة، ولتتأسى به أمته ﷺ. قال الحافظ ابن حجر: «كان ﷺ يختار ذلك مع إمكان حصول التوسّع والتبسّط في الدنيا له، كما أخرج الترمذي في حديث أبي أمامة: «عَرَضَ عليّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكّة ذهباً، فقلتُ: لا يا رب، ولكن أشبعُ يوماً وأجوعُ يوماً، فإذا جُعتُ تضرّعتُ إليك، وإذا شَبعتُ شكرتُكَ»[6].

---

(1) رواه البخاري (6458)، ومسلم (2972).

(2) رواه مسلم (2974).

(3) رواه الترمذي (2377) وقال حسن صحيح.

(4) رواه البخاري برقم (4913)، ومسلم برقم (1479).

(5) رواه البخاري رقم (6416).

(6) فتح الباري: (11/ 292).

3. **لماذا التحذير من الدنيا؟**: قد يتساءلُ بعضهم قائلاً: أليست الدنيا مزرعة للآخرة، ولا يُقامُ الدين إلاّ فيها، ولا يكون الحصادُ يوم القيامة إلا عليها، فلِمَ كلّ هذا التحذير منها؟!

فنقولُ: نعم، الدنيا محلّ العمل للآخرة، وموطن تحصيل الزّاد ليوم المعاد، ولكن معظم الناس يغترّون بما فيها من الزينة والشهوات، وينشغلون بها عليها من اللّهو واللذّات، فيغفلون عن ربّهم وما أمرهم به من الطاعات، ويزهدون في الآخرة وما أُعِدّ فيها من النعيم والجنّات. وذلك أن السائر إلى ربّه إذا أَنِسَ بهذه الدنيا، ونسي أنها ممرّ وليست مقرّاً اتخذها قراراً لا داراً، وثقل عليه مفارقتها، فلا يفكّر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، ولا يقدّر قربه، وإن خطر له الموت يوماً سوّفَ، وقال: الأيام بين يديك، عِشْ شبابك. وما تزال الأيام تمضي حتى يكبر، فإذا كبر سوّف وقال: حتى تفرغ العمارة، أو ترجع من هذه السفرة، وفجْأَةً... هَجَم الموتُ.. وهنا يعلو الصراخ في القبور الذي يصكّ الآذان، ويسمعه كل الخلائق إلا الإنس والجان: «ربّ لا تُقم الساعة.. رب لا تقم الساعة»، وتكون مشاهد الحسرة وهم يتقلبون في نار الآخرة.. فهذا يصرخ: [يا حسرتى على ما فرّطتُ في جنب الله]، وهذا يعوي: [لو أن الله هداني]، وثالث يُصَبّ عليه العذاب فيجْأر: [لو أن لي كرّة]، ولكن هيهات.. هيهات.. قُضي الأمر، ذهبت حلاوة البطالة وبقيت مرارة الأسف، ونضب ماء الكسل وبقيت رواسب الندامة، تركتم البكاء في الدار التي يُرحمُ فيها من بكى، وبكيتم في دار لا ينفع فيها البكاء ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ (فصلت: 24)[1].

النفسُ تبكي على الدنيا وقد علمَت	**أنَّ السَلامَةَ فيها تَركُ ما فيها**
لا دارَ لِلمَرءِ بَعدَ المَوتِ يَسكُنُها	**إِلّا الَّتي كانَ قَبلَ المَوتِ يبنيها**
فَإِن بَناها بِخَيرٍ طابَ مَسكَنُها	**وَإِن بَناها بَشَرٍّ خابَ بانيها**

(1) سباق نحو الجنان، لأبي شادي: (ص 109).

وذكر الإمام ابن الجوزي عن بعض الصالحين أنه قال: «رأيت في المنام رجلا وهو في بريّة وأمامه غزالة، وهو يجري خلفها وهي تفر منه، وأسدٌ كأعظم ما يكون خلفه وقد همّ أن يلحقه، والرجل يَردُّ رأسَه وينظر إلى الأسد فلا يجزع منه، ثم يجري خلف الغزالة حتى لحق به الأسد فقتله، فوقفت الغزالة تنظر إليه وهو مقتول، إذ جاء رجل آخر قد فعل ما فعله المقتول فقتله الأسد ولم يدرك الغزالة، فخرج آخر ففعل كذلك، قال: فما زلت أعدّ واحداً بعد واحدٍ حتى عددتُ مائة رجل صَرْعَى والغزالة واقفة، فقلت إنّ هذا لعجبٌ!

فقال الأسد: مِمّ تعجَب؟ أَوَ ما تدري من أنا ومن هذه الغزالة؟

فقلت: لا،

فقال: أنا مَلَكُ الموت، وهذه الغزالة الدنيا، وهؤلاء أهلها يجدّون في طلبها، وأنا أقتلهم واحداً بعد واحد حتى آتي على آخرهم! فاستيقظتُ فزعا مرعوباً»[1].

حتى متى وإلى متى تتوانى؟ … وتعبّ من كأس الهوى ألوانا
والموت يطلبنا حثيثاً مسرعا … إن لم يزُرنا بكرةً مسّانا
إنا لنُوعظ بُكرةً وعشيّة … وكأنّما يُعنى بذاك سوانا

أمّا سببُ هذه الغفلة عن الله والدار الآخرة، فهو طول الأمل في الحياة واستبعاد الفناء والممات. وهذا داءٌ عضال يورث جملةً من الأمراض، قال الحافظ ابن حجر: «ويتولّدُ من طول الأمل: الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب، لأن رقّته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحديد: 16)»[2].

(1) بستان الواعظين، لابن الجوزي: (ص 134).

(2) فتح الباري، لابن حجر: (11/ 237).

ورحم الله الحسن البصري حين اختصر العبارة قائلاً: «ما أطالَ عبدٌ الأمل إلاّ أساء العمل»[1].

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلْ ... قَدْ غَرَّهُ طُولُ الْأَمَلْ
الْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً ... وَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَلْ
وَلَمْ تَزَلْ فِي غَفْلَةٍ ... حَتَّى دَنَا مِنْكَ الْأَجَلْ

ونحن في هذه الدنيا مسجونون ومكلّفون، كما جاء في حديث نبينا ﷺ: «الدنيا: سجنُ المؤمن وجنّة الكافر». قال الإمام النووي: «معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغّصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد»[2].

ورحم اللهُ القائل:

إن لله عباداً فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطناً
جعلوها لجّة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا.

4. **حقيقة الزهد:** أمّا في اللغة فالزهدُ يعني: الإعراض عن الشيء، وارتفاع الهمّة عنه، وأمّا في اصطلاح مشائخ الفقه والسلوك فقد اختلفت التعريفات وتنوّعت:

- فقال مالك بن أنس: الزهد هو طِيبُ الكسب، وقِصر الأمل.
- وقال سفيان بن عُيينة: هو الشكر عند السرّاء، والصبر عند الضراء.

(1) البيان والتبيين، للجاحظ: (3/ 47).

(2) شرح النووي على مسلم: (18/ 93).

- وقال أبو سليمان الداراني: هو ترك ما يُشغلُ عن الله[1].

- وقال ابراهيم بن الأدهم: الزهد ثلاثة أصناف: -زهدٌ فرض: وهو الزهد في الحرام. -وزهد فضل: وهو الزهد في الحلال. -وزهد سلامة: وهو الزهد في الشبهات[2].

- **التعريف المختار**: الزهدُ هو ألاّ تكون الدنيا أكبرَ همّنا ولا مبلغَ علمنا، بل هي متاعٌ نأخذُ منه ما يكفي من الحلال، مع القناعة والرضا، دون الغفلة عن الآخرة وعبادة الله جلّ وعلا.

ويمكن أن نستدلّ على هذا التعريف بجملة من النصوص منها: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: 7)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون: 9)، وكان من دعاء المصطفى ﷺ: «ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا»[3]،وقال ﷺ: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأَتَتْهُ الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[4].

---

(1) الحلية: (9/ 258).

(2) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: (2/ 179).

(3) وتمام الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا» رواه الترمذي رقم (3502)، وصححه الألباني.

(4) رواه الترمذي (2465)، وهو في السلسلة الصحيحة رقم (949).

وأمام هذه النصوص قد تختلط على العبد الأمور، ويظن أن المطلوب هو: ترك الدنيا، والقعود عن طلب الرزق، وحرمان النفس من شهواتها المباحة جُملةً!

فنقول: لا، بل حقيقة الزهد أن تكون الدنيا في يديك لا في قلبك. تأخذ منها ما يكفيك من الحلال، لتستعين به على طاعة الله تعالى، دون لهفة وتوسّع ونسيان للآخرة. وهكذا فهم سلفنا الصالح حقيقة الزهد في الدنيا: فقد جاء في «مختصر منهاج الصالحين»: «اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للإنسان فيها حظّ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكنُ الآدمي، وما عليها ملبسٌ ومطعم ومشربٌ ومنكح، وكل ذلك عَلَفٌ لراحلة بدنه السائر إلى الله عز وجلّ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يُصلحُهُ على الوجه المأمور به مُدِحَ، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشّره وقع في الذم»[1]. فالمسلم مطالبٌ من ناحية بالسعي على نفسه وأهله وأولاده، ومن ناحية أخرى يريد أن يسعى لآخرته والقيام بحقوق ربّه سبحانه!

والموفّق: هو من نجح في الجمع بين واجباته الدينية، وحقوقه الدنيويّة دون إفراط أو تفريط كما جاء في الأثر: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدًا»[2]، قال ابن الأثير في شرحه: «أمّا في الدنيا فلِلْحَثِّ على عمارتها، وبقاء الناس فيها حتّى يسكن فيها، وينتفع بها من يجيء بعدك كما انتَفَعْتَ أنت بعمل من كان قبلك. وأمّا في جانب الآخرة: فإنّه حثّ على إخلاص العمل، وحضور النيّة والقلب في العبادات والطاعات، والإكثار منها، فإن من يعلم أنّه يموت غدا يكثر من عبادته، ويخلص في طاعته، كقوله في الحديث الآخر «صلّ صلاة مودّع»»[3].

---

(1) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة: (ص 213).

(2) أثر مشهور عن بعض الصحابة ﭫ، ولا يصحّ رفعه إلى النبيّ ﷺ كما في السلسلة الضعيفة (1/ 63).

(3) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (1/ 927).

الإشارة الثانية: فتنة الخَلْق

وذلك أن مخالطة الناس والانشغال بشؤون الحياة، وكسب المال لقضاء الحاجات: من أعظم المُلهيات التي تصيبُ القلب بسيل من الغفلات، فوجب الاحتياط في هذه الأمور والعمل على اجتناب ما فيها من شرور.

1. **فتنة الأموال والأولاد:** وأكثر الأشياء شغلاً للقلب والوجدان: المال والولدان، لأجل ذلك حذّرنا ربّنا سبحانه من هذا الافتتان في عدّة مواضع من القرآن. فقال جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ (المنافقون: 9)، قال الشيخ السعدي رحمه الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدّمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، وهذا قال تعالى: [ومن يفعل ذلك] أي: يُلهه مالُه وولدُه عن ذكر الله، فأولئك هم الخاسرون للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنَى على ما يبقى»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن: 15)؛ أي: هذه الأموال والأولاد لديكم إنما هي فتنة واختبار مِن الله لكم: هل تُحسنون التصرُّف فيهم فلا تَعصوا الله لأجلهم، أو تُسيئون التصرُّف فيَحملكم حبّهم على التفريط في دين الله أو التقصير في طاعته سبحانه. وفتنة المال والأولاد في هذه الدنيا: من أعظم العقبات التي تشغل قلب العبد، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: 46). قال الشيخ الشعراوي رحمه الله: «تلك هي العناصر الأساسية في فتنة الناس في الدنيا: (المال والبنون)، وكلمة (زينة) أي: ليست من ضروريات الحياة، فهي مجرّد شكل وزخرف، لأن المؤمن الراضي بما

---

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 873).

قُسم له يعيشُ حياته سعيداً بدون مال وبدون أولاد. ثم يقول تعالى: (والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثوابا وخير أملاً) لأن المال والبنين لن يدخلا معك القبر، ولن يمنعاك من العذاب، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات»[1].

قلتُ: وكلام الشيخ يذكّرنا بحديث النبي ﷺ: «يتبعُ الميِّت إلى قبره ثلاثة: أهْله، ومالُه، وعملُه، فيرجعُ اثنان ويبقى واحدٌ، يرجعُ أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه»[2].

ولا يُفهَمُ ممّا سبق أننا ندعو إلى ترك الزواج وإهمال العيال، وإنما نحذّر من الانشغال بهم إلى حدّ الغفلة عن الله، والوقوع بسببهم في ما لا تُحمدُ عُقباه. فعلى العبد أن يقوم بواجبه في رعاية أهله وأولاده، ووقايتهم من الشرور، وتوفير ما يلزمهم من الحاجات لمعاشهم، والعناية بما ينفعهم في معادهم، وذلك بإصلاحهم وتربيتهم وتوجيههم إلى طاعة الله. وقد جاء في ذلك جملة من النصوص، منها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ (التحريم: 6)، وقال ﷺ -كما في الصحيحين-: «كُلّكم راعٍ وكُلكم مسؤول عن رعيته..، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، والمرأة راعية على بيت بعلها، وهي مسؤولة عنهم».

ولا يحلّ للمسلم -بدعوى الزهد والتفرّغ للعبادة- أن يترك طلب الرزق الحلال ويهملَ العيال، ويعيش في خصاصة وذلّة وهو قادرٌ على كسب الحلال! فقد جاء النهي عن ذلك، حيث قال النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يُضيّع من يقوت [وفي رواية: من يعول]»[3]. وهذا الشيخ الزاهد أبو سليمان الدّاراني رحمه الله يوصي السائرين إلى ربّ العالمين قائلاً: «ليس العبادة عندنا أن تصفّ قدميكَ وغيرك يفتّ لك، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزها ثم تعبّد، ولا خير في قلب يتوقّع قرعَ الباب،

(1) تفسير الشعراوي: نسخة إلكترونية.

(2) رواه البخاري (6514) ومسلم (2960).

(3) رواه أبوداود رقم (1692) وهو في صحيح الجامع (4481).

يتوقعُ إنساناً يجيئهُ يعطيه شيئاً»[1]. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «نعمَ المالُ الصالح للمرء الصّالح»[2]. قال الملا علي قاري: «(المرء الصالح) وهو من يراعي حق الله وحق عباده»[3]. ويقول ابن الجوزي: «وأما من قصد جمعه [أي المال] والاستكثار منه من الحلال نظرنا في مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته وادّخرَه لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء وفعل المصالح، أُثيبَ على قصده»[4].

وأما من ساء قصده فصار همّه من جمع المال: المباهاة والتعالي على الناس والإنفاق في المعاصي والمحرمات، فإن هذا المال سيصبح من المهلكات. ولن يفلتَ صاحبه من المسائلة والعقوبات، قال ﷺ: «لا تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عن أربعٍ: عَن عُمُرِه فيما أفناهُ، وعن جسدِهِ فيما أبلاهُ، وعن عِلمِهِ ماذا عَمِلَ فيهِ، وعن مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفيما أنفقَهُ»[5].

2. **فتنة المخالطة:** التي شغلت الكثير من العلماء حتى عقدوا لها فصولا في مصنفاتهم، وألّفوا فيها كتباً مستقلّة تحت عنوان «العزلة والمخالطة»، واختلفت أنظارهم في المفاضلة بينهما:

أ. **مواقف العلماء حول المخالطة:** استحسن العديد من الفقهاء مخالطة الأفاضل ومجالسة الصالحين، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ [يعطيك] وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا

(1) صفة الصفوة، لابن الجوزي: (4/ 160).

(2) رواه أحمد (4/ 197)، وصححه الألباني على مشكاة المصابيح (3756).

(3) مرقاة المفاتيح (7/ 296).

(4) تلبيس إبليس (ص 221).

(5) رواه الترمذي (2417) وصححه الألباني.

خَبِيثَةً»[1]. قال النووي رحمه الله: «فِيهِ فَضِيلَةُ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ وَأَهْلِ الْخَيْرِ وَالْمُرُوءة وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالْوَرَعِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، وَالنَّهْيُ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الشَّرِّ وَأَهْلِ الْبِدَعِ وَمَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ أَوْ يَكْثُرُ فُجْرُهُ وَبَطَالَتُهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الْمَذْمُومة»[2].

وأمّا ما ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلى أَذَاهُمْ»[3]. فهذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومخالطتهم لأجل ذلك، وإسداء النصح لهم، لا لمجرد المجالسة والمؤانسة. فمن خالط الناس، ودعاهم إلى الله، ونصحهم، وذكّرهم، وصبر على أذاهم، فهو خير مِمّن لا يخالطهم ولا يدعوهم، ولا يصبر على أذاهم. قال الصنعاني: «فِيهِ أَفْضَلِيَّةُ مَنْ يُخَالِطُ النَّاسَ مُخَالَطَةً يَأْمُرُهُمْ فِيهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَيُحْسِنُ مُعَامَلَتَهُمْ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ الَّذِي يَعْتَزِلُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْمُخَالَطَةِ»[4]. وفصّل الإمام ابن تيمية المسألة قائلًا: «(الْخُلْطَةَ) تَارَةً تَكُونُ وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً، وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا بِالْمُخَالَطَةِ تَارَةً وَبِالِانْفِرَادِ تَارَةً. وَجِمَاعُ ذَلِكَ: أَنَّ (الْمُخَالَطَةَ) إنْ كَانَ فِيهَا تَعَاوُنٌ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، فَهِيَ مَأْمُورٌ بِهَا. وَإِنْ كَانَ فِيهَا تَعَاوُنٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَهِيَ مَنْهِيٌّ عَنْهَا. فَالِاخْتِلَاطُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي جِنْسِ الْعِبَادَاتِ: كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَصَلَاةِ الْكُسُوفِ وَالِاسْتِسْقَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ: هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ. وَكَذَلِكَ الِاخْتِلَاطُ بِهِمْ فِي الْحَجِّ وَفِي غَزْوِ الْكُفَّارِ وَالْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ، وَإِنْ كَانَ أَئِمَّةُ ذَلِكَ فُجَّارًا، وَإِنْ كَانَ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ فُجَّارٌ. وَكَذَلِكَ الِاجْتِمَاعُ الَّذِي يَزْدَادُ الْعَبْدُ بِهِ إيمَانًا: إمَّا لِانْتِفَاعِهِ بِهِ، وَإِمَّا لِنَفْعِهِ لَهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ أَوْقَاتٍ يَنْفَرِدُ بِهَا بِنَفْسِهِ، فِي دُعَائِهِ

(1) رواه البخاري (5534)، ومسلم (2628).

(2) شرح النووي على مسلم (16/ 178).

(3) رواه الترمذي (2507)، وهو في صحيح الجامع (6651).

(4) سبل السلام، للصنعاني: (4/ 416).

وَذِكْرِهِ وَصَلَاتِهِ وَتَفَكُّرِهِ وَمُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِ قَلْبِهِ، وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ فَهَذِهِ، يَحْتَاجُ فِيهَا إلَى انْفِرَادِهِ بِنَفْسِهِ؛ إمَّا فِي بَيْتِهِ، كَمَا قَالَ طاوس: نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ، يَكُفُّ فِيهَا بَصَرَهُ وَلِسَانَهُ، وَإِمَّا فِي غَيْرِ بَيْتِهِ. فَاخْتِيَارُ الْمُخَالَطَةِ مُطْلَقًا خَطَأٌ، وَاخْتِيَارُ الِانْفِرَادِ مُطْلَقًا خَطَأٌ»[1].

وقد فضّل الكثير من أهل العلم العزلة لفساد أزمانهم، فهذا الإمام ابن الجوزي يحذّر من الاختلاط بالناس قائلاً: «وجمهور العالَم على غير الجادّة، والمخالطة لهم تضرّ ولا تنفع. فالعجَبُ لمن يترخص في المخالطة، وهو يعلم أن الطبْع لصٌّ يسرق من المخالطة. وإنما ينبغي أن تقع المخالطة للأرفع والأعلى في العدم والعمل ليستفاد منه. فأما مخالطة الدّون فإنها تؤذي، إلا أن يكون عاميّاً يقبلُ من معلّمه، فينبغي أن يُخالط بالاحتراز. وفي هذا الزمان إن وقعت المخالطة للعوام عكّرت الفؤاد، فهم ظُلمة مستحكمة. فإذا ابتُلِيَ العالِمُ بمخالطتهم، فليشمّر ثيابَ الحذر، ولتكُن مجالسته إياهم للتذكرة والتأديب فحسب»[2].

ب. المخالطة بين الإفراط والتفريط: أمرُ مخالطة الناس يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان قادراً على دعوتهم وإصلاحهم، فلا يحلّ له أن يهجرهم تحصيلاً للسّلامة واجتناباً للمشاكل، بل عليه أن يذكّرهم ويُوطّن نفسه على الصبر والتحمّل، مقتدياً في ذلك بنبيّنا محمد ﷺ الذي لقيَ في سبيل الدعوة إلى الله صنوفاً من الأذى، ومع ذلك صبر واحتسب.

ولنتذكّر قصّة نبي الله يونس عليه السلام، كيف ذهب مغاضباً مغتاظاً من قومه كما قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ (الأنبياء: 87)، فامتحنه الله بالحوت في البحر ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ (الصافات: 142)، ثمّ استجاب تضرّعه ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنبياء: 88)، وأعاده إلى قومه فدعاهم مجُدّداً،

(1) مجموع الفتاوى: (10/ 425).

(2) صيد الخاطر، لابن الجوزي: (ص 353).

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الصافات: 139-148).

فلا ينبغي أن نترك الناس في غفلة وضياع، بل علينا أن نخالطهم ونشاركهم بعض همومهم، ونساعدهم -إن أمْكنَ- على حلّ مشاكلهم، مع التوقّي من شرورهم، والحرص على تذكيرهم وهدايتهم ودعوتهم إلى طاعة الله، قال عليٌّ ﵁: «خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم»[1].

ج- **خطر المبالغة في المخالطة**: أمّا الإكثار من مخالطة الناس لغير دعوة أو صلة أو إصلاح، فإنه مضيعةٌ للوقت ومَجلبةٌ للمقت، خاصة في هذا العصر الذي كثر فيه الفساد وشرّ العباد. فعلى المسلم أن يعتزل مجالس اللغو ومواطن الفتنة: كالاجتماع في المقاهي والجلوس على الطرقات، وحضور الأعراس المختلطة وفاسد الحفلات. وإذا ابتُلِيَ العبدُ بضرورة حضور بعض المجالس والاجتماع بالناس، فليقلل الكلام إلا فيما ينفع، وليذكر وصيّة النبي ﷺ لعُقبة بن عامر -عند الفتن-: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[2]. يقول الإمام الخطابي: «ولو لم يكن في العزلة إلا السلامة من آفة: الرياء والتصنّع للناس وما يدفع إليه الناس إذا كان فيهم من استعمال المداهنة معهم والخداع والمواربة في رضاهم، لكان في ذلك ما يُرغّبُ في العزلة ويُحرّكُ إليها»[3].

فعليك أيها السائر إلى ربّك أن تقلّ من خلطة الناس، لأنها تُقسّي القلب، وتشغل عن ذكر الرب، ورضي الله عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ حيث قَالَ: «نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ

(1) رواه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس رقم (28)، والبيهقي في الزهد الكبير (189).

(2) رواه الترمذي (2406)، وهو في صحيح الترغيب (3331).

(3) العزلة، للخطابي: (1/ 16).

بَيْتُهُ، يَكُفُّ فِيهِ نَفْسَهُ، وَبَصَرَهُ، وَفَرْجَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَالمَجَالِسَ فِي السُّوقِ، فَإِنَّهَا تُلْغِي، وَتُلْهِي»[1]. وقال الفضيل بن عياض: «من خالط الناس لا ينجو من إحدى اثنتين: إما أن يخوض معهم إذا خاضوا في الباطل، أو يسكت إن رأى منكراً أو يسمع من جليسه شيئاً فيأثم فيه»[2].

وكان أئمّة السلف يحذّرون من الخلطة لما فيها من الغفلة، فهذا وكيع بن الجرّاح يحدّثنا عن الشيخ أبي سنان كيف أنه يأمر بعض طلبته بالافتراق بعد الدرس قائلاً: «فإنكما إذا كنتما جميعاً تحدّثتما، وإذا تفرّقتما ذكرتما الله عزّ وجلّ»[3]. وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: «كان أبي أصبرَ الناس على الوحدة، لم يرهُ أحدٌ: إلا في مسجد، أو حضور جنازة، أو عيادة مريض؛ وكان يكره المشي في الأسواق»[4].

قلتُ: كانوا يحرصون على اعتزال الناس واجتناب دخول الأسواق مع أنهم في القرون الأولى المباركة، فماذا نقول نحن في هذا الزمان؟!

الإشارة الثالثة: فتنة الماجَرَيات

إن لفظة «الماجَريَات» مُشتقّة من كلمة «مَا جَرَى» التي تعني: الأحداث والأخبار والوقائع الجارية، وقد استعملها بعض الأدباء والمؤرّخين قديماً، وخصّها في عصرنا الأستاذ إبراهيم السكران بكتاب مُستقل. وإنّ ما يجري في عصرنا: دولياً وإسلامياً ومحلياً يشغل بال الكثير منّا، وتتالي هذه الأحداث المثيرة حولنا صارَ يدفعُ عامّة المسلمين إلى الاهتمام والمتابعة، وقد يبالغ بعضهم في هذا الاهتمام إلى حدّ الانغماس فيما لا ينفع من الأخبار والمعلومات، فترى العديد من المسلمين يتابعون كلّ صغيرة

(1) رواه الخطابي في العزلة: (ص18)، والبيهقي في الزهد الكبير: رقم (128).

(2) رواه البيهقي في الزهد الكبير رقم (129).

(3) المرجع نفسه: رقم (130).

(4) حلية الأولياء، لأبي نعيم: (9/ 184).

وكبيرة من هذه (الماجَرَيات) سواءً منها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية والرياضية.. وغيرها!

وقد ساعدت ثورة المعلومات، واستعمال الوسائل الإلكترونية، على الغرق في بحر هذه الأحداث التي لا تنقطع، فصار معظم الناس في شُغلٍ دائمٍ بما يَنزِلُ على صفحات تواصُلهم، وفي شوق مستمرّ إلى ما تبثّه الفضائيات، وما تنشره مواقع الأنترنات. لا تفوتهم صغيرةٌ ولا كبيرة من الأخبار، ولا يفارقون هواتفهم الذكيّة في ليل أو نهار! وكأنّهم من السياسيين والإعلاميين الكبار!

ويقضي هؤلاء الفضوليّون الساعات، وهم يتابعون هذا السيل من الأخبار والصور والأحداث بغثّها وسمينها، ويتكلّفون التعليق عليها، وتوزيعها على الأصدقاء، والدخول -أحياناً- في مناقشات فارغة، والسّقوط في مهاترات من سبابٍ وشتائم ومناهي لفظيّة لا تليق بالمسلمين.

هذا زيادة على التورّط في النظر إلى المحرّمات، وانتهاك الأعراض والحُرُمات، وذلك بفتح العلاقات بين الأولاد والبنات! وقد شاع هذا التساهل حتى بين المتزوجين والمتزوجات، فخربت البيوت ووقعت الخيانات حتى في صفوف الملتزمين والملتزمات!

لأجل ذلك وجب التحذير من فتنة هذه الوسائل الاتصالية، التي صارت لدى بعضهم أعظم بليّة، فهي -وإن كانت نعمةً من النعم- إلاّ أن النفوس الضعيفة صيّرتها نقمةً من النّقم. تسمعُ ببعضهم يقضي الساعات وهو يعاكس الفتيات ويشاهدُ المحرّمات! ألا يخاف هذا المسكين من غضب ربّ العالمين، الذين خلقنا لعبادته وحذّرنا من الشيطان اللعين؟

نعم، على المسلم أن يعيش عصره، وأن يواكب الأحداث ويهتمّ بأمر المسلمين، ولكن دون إفراط إلى حدّ الغفلة وارتكاب المخالفات، وإضاعة العُمُر في التّرّهات!

1. **تحذير العلماء من الماجَريات**: قد ذمّ أهلُ العلم قديماً وحديثاً انشغال المسلم بما لا ينفع من الماجَرَيات اليومية، وإضاعة الأوقات في تتبّع الأخبار الفارغة التي لا خير فيها. فهذا الإمام ابن تيمية رحمه الله يصفُ لنا حال من استحوذ عليه الشيطان وقصّر في حقّ الديّان، قائلاً: «فإن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبعَ هواه... فيستريحُ إلى المحرّمات: من فعل الفواحش، وشرب المحرّمات، وقول الزور، وذكر ماجَريات النفس، والهزل واللعب، ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك»[1].

ويحدّثنا تلميذه العلاّمة ابن القيّم رحمه الله عن صفات كبار السالكين، وشدّة نفورهم ممّا يشغلهم عن ربّ العالمين، فيقول: «وأهل هذه الطبقة، أثقلُ شيء عليهم: البحثُ عن ماجَريات الناس، وطلب تعرّف أحوالهم. وأثقلُ ما على قلوبهم: سماعها، فهم مشغولون عنها بشأنهم، فإذا انشغلوا بها لا يعنيهم منها فاتهم ما هو أعظم عناية لهم»[2].

ويكشفُ لنا الإمام ابن الجوزي عن افتتان الناس قديماً بهذه (الماجَرَيات)، وانشغالهم -تقريباً- بنفس القضايا، فيقول رحمه الله: «ولقد شاهدتُ خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسّب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس.. ومنهم من يقطعُ الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين، والغلاء والرخص، إلى غير ذلك»[3].

وفي عصرنا هذا يشيرُ الشيخ السعدي إلى فتنة هذه الماجَريات - عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: 6): فيقول رحمه الله: «[لهو الحديث] أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصّادّة لها عن أجلّ مطلوب. فدخلَ في هذا: كلّ كلام محرّم، وكل لغو وباطل... ومن غيبة ونميمة

(1) مجموع الفتاوى: (1/ 54).

(2) مدارج السالكين: (2/ 359).

(3) صيد الخاطر: (241).

وكذب وشتم وسبّ، ومن غناءٍ ومزامير الشيطان، ومن المَاجَريات المُلهية، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا»[1].

2. **الماجَريات بين الانضباط والانفلات:** لا يُفهمُ من كلامي أنّني أدعو المسلمين إلى تجاهل ما يحدثُ للأمّة، والبعد عن الواقع، والانبتات عن مجتمعاتنا! بل لا بُدّ من فقه الواقع، وأن نعيش عصرنا، ونتحلّى باليقظة لما يدور حولنا. ولا يستقيم دين المسلم الاّ بمشاركة إخوانه همومَهم، وتتبّعه لأحوالهم، وتعاطفه معهم في مُلِمّاتهم، وتلك علامة وحدتهم وشعار أخوّتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: 10)، وقال نبينا ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2]. فمن مقتضيات الإيمان: العمل بما تستلزمه الأخوّة الإيمانية من التراحم والتواصل والتعاطف والتناصر، وإنّ التقصير في ذلك من علامات ضعف الإيمان. قال الإمام ابن تيمية: «ولهذا كان المؤمنُ يسُرّهُ ما يسرّ المؤمنين، ويَسُوءُه ما يسوءهم، ومَن لم يكن كذلك لم يكن منهم»[3].

وعدمُ العناية بالشأن العام، وتجاهل أحوال المجتمع، والانصراف عن متابعة أوضاع المسلمين بالكلّية: نقيصةٌ في شخصيّة المسلم، وتقصيرٌ بيّنٌ في حق إخوانه من أهل الإيمان الذين شبّههم النبي ﷺ بالبنيان، حيث قال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[4].

وتتأكّدُ هذه المتابعة للقضايا الكبرى من قبل المسؤولين وأصحاب الولايات، والناشطين السياسيين وأعضاء الجمعيات، وكذلك أهل العلم والدعوة والفكر

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 657).

(2) رواه البخاري (6011) ومسلم (2586).

(3) مجموع الفتاوى: (2/ 373).

(4) أخرجه البخاري (2446) ومسلم (2585).

الذين يوجّهون الرأي العام، ولهم كلمة وحضور في المنابر والفضائيات. وقد كان النبي ﷺ يتتبّع -بصفة الإمامة- أخبار المسلمين ويرعى شؤونهم، وكانت له عيون وأرصاد داخل المدينة وخارجها، تَجمع له المعلومات وتأتيه بأخبار العَدُوّ.

أمّا المذمومُ في أمر هذه الماجَرَيات فهي: شدّة الانغماس في تتبّع الأحداث اليومية، والاستغراق التام في الأخبار السياسية، والخوض في الشؤون المعيشيّة، وتحليل القضايا الاقتصادية والإجتماعية، وتناول تفاصيل الأنشطة الفنية والرياضية...، وكأنّنا قادة أحزاب سياسية، أو محلّلون في إحدى وكالات الأنباء الدولية!

فهل لهذا خُلقنا، وبهذا كُلّفنا؟! لنحاسب أنفسنا: ماذا حصّلنا بإنفاق عشرات الساعات في تتبّع هذه «الماجَرَيات»؟

كم أضعنا من تلاوة الآيات، وصلاة الركعات، والأذكار والتسبيحات...؟

كم ضيّعنا من الحقوق الدينية والدنيوية، بانشغالنا المُفرط بما تعرضه صفحات المواقع الإلكترونية، وكم سهرنا الليالي ذوات العَدَد قعوداً بين يدي هذه الهواتف الذكية، التي صارت في حياتنا أعظم بليّة!

أينَ حفظ القرآن وطلبُ العلوم الشرعية، أين التهجّد والقيام والأوراد اليومية، أين برّ الوالدين وصلة الأرحام والعناية الأسريّة، أين نُصرة الإسلام وخدمة المشاريع الدعويّة؟!

إذا كان كثير من أهل العلم قد حذّروا من الانشغال بفضول العلوم الشرعية، ومُلَحها، والتزهيد بالعلم الذي لا يتبعه عملٌ: كالاستكثار من أسانيد الأحاديث الثابتة، ووَحشي اللغة، والفروع النادرة، مع أنها مُتّصلة بعلوم الشريعة، فكيف بتتبّع تفاهات ومُهاترات شبكات التواصل الاجتماعية!

والأسلمُ -والله أعلم- أن يخصّص المُسلمُ -في ليله أو نهاره- نصف ساعةٍ مثلاً، يطوفُ فيها بعجالة على أبرز المواقع العلمية والإخبارية الجادّة، حتى يستفيدَ أو

يُفيد. ولا بأس -إن كان له علم- أن يُساهم في إرشاد الناس وتذكيرهم بما ينفعهم. وتُستحسنُ هذه المخالطة الإلكترونية من قبل أصحاب الكفاءات، ويتأكّدُ حضورهم في هذه الفضاءات، خاصّة في عصرنا هذا الذي كثرت فيه الشبهات، وأدمن فيه الناس متابعة ما يُنشرُ ويوزّعُ على هذه الصفحات. فمشاركةُ الدعاة والمشائخ وطلبة العلم المتميّزين ضرورية، ولكن يجب تحديد مُدّتها الزمنية، مع إحاطتها بالضوابط الشرعية.

وخلاصة القول في أمر هذه «الماجَريات» التي تُعَدّ من العقبات: أن لا يكثر المسلم من الاهتمام بها، ويحذرَ الإدمان على تتبّعها، والاستغراق في تفاصيلها، إذْ «مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1] كما في الحديث. قال ابن القيّم: «فهذا يعمّ الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه كلمةٌ شافية في الورع»[2]. وقد تتالت صيحات الفزع من الدول الغربية تحذّر من خطر الإدمان على استعمال المواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعية، التي صارت مثل الأفيون والمخدّرات القاتلة، واللبيبُ من اتّعظ بغيره!

فعلى المتابعين للشأن العام أن يعتمدوا قاعدةً منهجية في هذه المتابعة تقوم على:

1. التمييز بين فقه الواقع والغَرَق في الواقع.
2. التمييز بين المتابعة المتفرّجة والمتابعة المُنتجة.
3. التمييز بين توظيف الآلة والارتهان للآلة[3].

ورحم الله أبا سليمان الدّاراني حيثُ قال: «كلُّ ما شغلكَ عن الله: من أهل، أو مال، أو ولد، فهو مشئومٌ»[4].

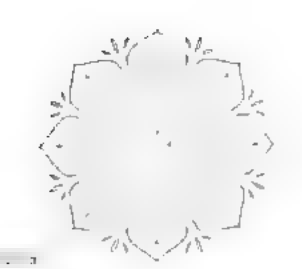
---

(1) رواه الترمذي (2317) وصحّحه ابن حبّان (229).

(2) مدارج السالكين: (2/ 22).

(3) الماجريات، لابراهيم السكران: (ص 24-33).

(4) حلية الأولياء، لأبي نُعيم: (9/ 264)، والزهد الكبير، للبيهقي: (ص 107).



عقبة الشّهوات

يتركّب الإنسان من عقل وجسم وروح، وهو في كدحٍ متواصل للسيطرة على الصراع القائم بين أشواقه الروحية التي تسمو به إلى السماء، وشهواته الجسديّة التي تنحطّ به إلى الأرض. وأعظم ما يُهدّد استقامة العبد وتقدّمه إلى الله تعالى: هوى النفس وشهوات البدن، التي إذا غَلبَت ضَعُفَ الإيمان، وتأخّر العبدُ عن ربّه الرّحمان، وصار في قبضة عدوّه الشيطان.

فكيف يمكننا الآن تجاوز هذه العقبة الكأداء، والفوز بقلب سليم يوم العرض والجزاء؟

الإشارة الأولى: أحوال النّفس البشرية

قد اعتنى الإسلام بالنفس عنايةً فائقة، فبيّن حقيقتها، وكشف أسرارها، وحدّثنا عن أحوالها وخصائصها، وصفاتها المحمودة والمذمومة، وبيّن لنا أنّ الله خالقها قد أودع فيها خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والاستعداد لهما، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: 7-8)، وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(البلد:10). وهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن طبيعة الإنسان

قابلة للخير والشر، وأنه مُزوّد باستعدادات لعملهما، وقادر على التمييز بينهما، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر، وهو مسؤول ومحاسب بما منحه الله من عقل فيه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه[1].

وقد اتصفت النفس بأن لها أحوالاً، فهي تارةً تسوّل وتوسوس وتُغوي وتأمرُ صاحبها بالمعاصي، وتارةً تلوم على فعل الشرّ وتأمره بالخير، وتارةً تكون ساكنةً مطمئنّة، وهذا التقسيم الثلاثي قد كشفه لنا الله تعالى من خلال القرآن الكريم[2].

1. **النفس الأمّارة بالسوء:** وهي التي ضعفت أمام الهوى والشهوات، فانحطّت إلى درك الحيوانات، وانتكست فطرتها السليمة حتى صارت أقلّ من البهيمة، تأمُرُ صاحبها بالشرّ وتُسوّلُ له الإقدام على المخالفات، وتُغويه بارتكاب المحرّمات. وقد عرّفها العلاّمة الجرجاني بقوله: «هي التي تميلُ إلى الطبيعة البدنية، وتأمرُ باللذّات والشهوات الحسّية، وتجذبُ القلب إلى الجهة السُفلية، فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة»[3].

ونجدُ ذكر هذه الحالة المَرَضية للنفس البشرية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (يوسف: 53)، وقوله تعالى –على لسان السامري الذي صنع لبني إسرائيل عجلاً يعبدونه–: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه: 96)، ووصفُ النفس في هذه الحالة بالإمّارة بالسوء، يفيدُ المبالغة في أمرها لصاحبها بالشرّ وإبعاده عن الخير. وكلّ واحدٍ منا قد أحسّ في كثير من الأحيان: كيف تلحُّ عليه نفسه هذه باركاب بعض المحرّمات، وتبالغ في مطاردته والضغط عليه حتّى يتورّط في الزلاّت، ولولا رحمة الله وحفظه لوقعنا في المخالفات! وقال الحق تعالى

(1) في ظلال القرآن، لسيد قطب: (6/ 3918)، بتصّرف.

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس، لأنس كرزون: (1/ 42-58).

(3) التعريفات، للجرجاني: (ص 243).

-في ذكر قصّة قابيل-: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: 30)، أي: زيّنت له الإقدام على هذه الجريمة وحسّنت له فعلها[1].

وهذه الصفات النفسية الخبيثة التي يُبتلى بها الإنسان، تقتربُ كثيراً من صفات الشيطان، الذي أمرنا ربّنا سبحانه بالتعوّذ من شرّه: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس:4-5)، وحول هذه المؤامرة والتحالف الخطير بين الشيطان والنفس الأمّارة للإنسان، يقول الإمام ابن القيم: «أمّا النفس الأمّارة، فالشيطان قرينها وصاحبها، فهو يَعدُها ويُمنّيها ويقذفُ فيها الباطل، ويأمرها بالسوء ويزيّنه لها.. في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدّها بأنواع الإمداد والباطل من الأماني الكاذبة والشهوات المُهلكة، ويستعينُ عليها بهواها وإرادتها، فمنه يدخلُ عليها كلّ مكروه»[2].

ولخطورة انحراف هذه النفس كان النبي ﷺ يستعيذُ بالله من شرورها، كما ثبت في مطلع خُطَبه قوله: «إن الحمدَ لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا»[3].

2. **النفس اللّوّامة**: وهي التي تطهّرت من شرورها، وعادت إلى نقاوة فطرتها، فزالت عنها غشاوة الغوايات، وزكت حتى صارت تلومُ صاحبها على ارتكاب الزلاّت، وتدعوه للتوبة من كل المخالفات. وقد عرّف الجرجاني هذه النفس اللّوّامة قائلاً: «هي التي تنوّرت بنور القلب، قدر ما تنبّهت به عن سِنَة الغفلة، فكلما صدرت عنها سيّئة بحكم جِبِلّتها الظلمانية، أخذت تلومُ نفسها»[4].

---

(1) تفسير ابن كثير: (2/ 45).

(2) الروح، لابن القيم: (ص 227).

(3) رواه أبو داود (2118) والترمذي (1105) وقال: حديث حسن.

(4) التعريفات، للجرجاني: (ص 243).

وتعظيماً لشأن هذه النفس الطيّبة: أقسمَ اللهُ تعالى بها، كما أقسم بيوم القيامة، فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: 1-2)[1]. وقد نقل الإمام القرطبي عن جمعٍ من السلف أن هذه (النفس اللوّامة): هي نفسُ المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ماذا أردتُ بكذا؟ فلا تراه إلا يعاتب نفسه[2].

قال الحسنُ البصري: «هي والله نفس المؤمن، ما يُرى إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردتُ بأكلي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسبُ نفسه»[3].

وقال مجاهد: «هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشرّ لِمَ فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه»[4].

وقال ابن القيم -في حديثه عن النفس اللوّامة-: «هي التي لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملامَ اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلّصت من لوم الله، وأمّا من رضيت بأعمالها ولم تلُم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللّوام، فهي التي يلومها الله عزّ وجلّ»[5].

ولن يفوز بهذه النفس اللّوامة إلا من عمل على تزكيتها وتعويدها بالطاعات، حتى أَلِفَتْها وصارت قوتها اليومي، وجنّبها المعاصي حتى كرهتها واستوحشت منها. فكلما قصّر المسلم في حق الله، قامت هذه النفس تعاتب صاحبها على معصيته واتباعه لهواه، فهي ضمير حيٌّ يراقب العبد ويحاسبه ويسدّد خُطاه.

---

(1) قال الإمام محمّد الطاهر بن عاشور: «وصيغةُ (لا أُقسم): صيغةُ قَسَم، أُدخِلَ حرفُ النفي على فعل (أقسم) لقصد المبالغة في تحقيق حُرمة المُقسَم به، وذلك كناية عن تأكيد القسم»: (التحرير والتنوير: 30/ 338).

(2) الجامع لأحكام القرآن: (19/ 92-93).

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

(5) الروح، لابن القيم: (ص 226).

3. **النفس المطمئنّة**: وهي أشرفُ حالات النفس البشرية، حيث تجدها طاهرةً ساكنةً زكيّة، قد رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولاً. صدّقت بوعد الله فذاقت حلاوة الإيمان، وبلغت درجةَ الإحسان، حتى نالت رضا الرحمن، وصارت أهلاً للجِنان، فيقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: 27-30). وقد عرّفها الجرجاني بقوله: «هي التي تمّ تنوّرها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلّقت بالأخلاق الحميدة»[1].

والفرقُ بين النفس اللوّامة والنفس المطمئنّة: أنّ النفس اللوامة تقف في وجه النفس الأمّارة وتكبحُ جماحها فتَغلبُ أو تُغلب، وتقوى أو تضعف، ولكن النّفس المطمئنّة حالة مستقرّة من حالات النفس وصفةٌ راسخة تكون معها النفس الأمارة في ضعف شديد لا تقوى معه علو التغلّب، وإنما يصبح الخير ملكةً مستقرّة في النفس لا تحتاج معها إلى مجاهدة طويلة.

وعلى ذلك فالملكة صفة راسخة في النفس، وهي قبل رسوخها كانت سريعة الزوال، فلما تكرّرت ومارستها النفس وصارت بطيئة الزوال أصبحت ملكةً. ويؤكّدُ ذلك الجرجاني في تعريفه لها، فيقول: «هي صفة راسخة في النفس... وتُسمّى حالة مادامت سريعة الزوال، فإذا تكرّرت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال، فتصير مَلَكةً، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادةً وخُلقاً»[2]. ولا شكّ أنّ الطريق لإدراك هذه المرتبة من حالات النفس: هو ذكرُ الله تعالى بالقول والعمل، ومراقبته في السرّ والعَلَن، حتى يطمئنّ القلبُ بالإيمان وتخشع الرّوح لربّها الديّان. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28).

---

(1) التعريفات: (ص 243).

(2) المرجع نفسه: (ص 229).

والوصول بالإنسان إلى هذه الطمأنينة هو: الثّمرة الكبرى لتزكية النفس، التي رتّب الله على القيام بها الفوزَ والفلاح، حيث قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:7-10)، وبشّر الله جلّ جلاله مَن تزكّى بالدرجات العُلى، إذ يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (طه: 75 - 76). ومعلومٌ أنّ النجاة يوم القيامة لا تكون إلاّ لصاحب القلب السليم، كما قال جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: 88-89).

والعلاقة وطيدة بين الأنفس والقلوب، فالقلب الميّتُ والمريض: يقابلهما النفس الأمّارة، والقلب الذي استنار بنور الإيمان ولكن خالطته بعض الشهوات، فللشيطان عليه إقبال وإدبار، وهو يقابل النفس اللوّامة.

وأمّا القلب السليم العامر بالإيمان، فهو يقابل النفس المطمئنّة. وهكذا ترتبط أحوال النفس بأقسام القلوب باعتبار أن القلب دائرة من دوائر النفس تشترك معها في كثير من الخصائص والصفات[1].

الإشارة الثانية: شهوات النفس البشرية

ركّبَ الله سبحانه في الناس هذه الغرائز والشهوات لحكمة غالية، وجعلها جُزءاً من تكوينهم ليؤدّوا دورهم في هذه الحياة. وهذه الطاقة الشهوانية نعمةٌ من النعم لمن أحسن استعمالها وضبطها بميزان الشرع، إذْ بها تتحقّق مصالح الإنسان وتتمّ عمارة الأرض. وقد تنقلب نقمةً من النّقم إذا أطلق لها الإنسان العَنان، وتركها بلا لجام، حتى تفتنه وتوقعه في الحرام. قال الإمام ابن تيمية: «إن الله تعالى خلقَ فينا الشهوات

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس، لأنس كرزون: (1/ 57-58).

واللذّات لنستعين بها على كمال مصالحنا، فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به، فإن ذلك في نفسه نعمة، وبه بقاء جسومنا في الدنيا، وكذلك شهوة النّكاح واللذة به هو في نفسه نعمة، وبه يحصل بقاء النّسل، فإذا استُعينَ بهذه القُوَى على ما أمَرنا كان ذلك سعادةً لنا في الدنيا والآخرة، وكُنّا من الذين أنعم الله عليهم نعمةً مطلقة، وإن استعملنا الشهوات فيما حظَرَهُ علينا بأكل الخبائث في نفسها، أو كسبها كالمظالم. أو بالاسراف فيها.. كُنا ظالمين مُعتدين غير شاكرين لنعمته»[1].

وقد ذكر لنا الله جلّ جلاله في كتابه الكريم فتنة الشهوات في هذه الحياة، حيث قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ ثمّ ذكّرنا ربّنا سبحانه بنِعَم الآخرة الباقية، حتى لا نغتر بمتاع الدنيا الفانية، فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (آل عمران: 15) ولا شكّ أن الذي يجعل الآخرة نصب عينيه، فإنه يسعى دائما لتسخير هذه الشهوات في مرضاة ربّه عز وجل.

وأمّا من تعلّقت نفسه بالدنيا وامتلأ قلبه بحبّها، فإنه سيجعل من شهواتها هدفاً ومقصداً حتى يكون عبداً لها، وعندها سيحرص عليها، ويلهثُ وراءها بكل ما أوتي من قوة، ويبيع دينه بِعَرَضٍ من أعراضها الزائلة[2]. ومن يستسلمُ لشهواته وهواه، ويُعرِضُ عن طاعة ربّه ومولاه، ينطبقُ عليه قول الله جلّ في عُلاه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: 59).

(1) الاستقامة: (1/ 341).

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس: (2/ 578).

وإذا كان طريقُ الجنّة: هو الطاعات، فإنّ طريق النار: هو الشهوات المحرّمات. قال ﷺ: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[1]. قال الإمام النووي: «هكذا رواه مسلم، ووقع في البخاري «حُجبَت»، وكلاهما صحيح، ومعناه: لا يوصل الْجَنَّةَ إِلَّا بِارْتِكَابِ الْمَكَارِهِ وَالنَّارَ بِالشَّهَوَاتِ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحْجُوبَتَانِ بِهِمَا، فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَى الْمَحْجُوبِ، فَهَتْكُ حِجَابِ الْجَنَّةِ بِاقْتِحَامِ الْمَكَارِهِ، وَهَتْكُ حِجَابِ النَّارِ بِارْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ، فَأَمَّا الْمَكَارِهُ فَيَدْخُلُ فِيهَا الِاجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَاقِّهَا وَكَظْمُ الْغَيْظِ وَالْعَفْوُ وَالْحِلْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيءِ وَالصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الَّتِي النَّارُ مَحْفُوفَةٌ بِهَا فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَةُ كَالْخَمْرِ وَالزِّنَا وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ وَالْغِيبَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْمَلَاهِي وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الْمُبَاحَةُ: فَلَا تَدْخُلُ فِي هَذِهِ لَكِنْ يُكْرَهُ الْإِكْثَارُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَجُرَّ إِلَى الْمُحَرَّمَةِ أَوْ يُقَسِّي الْقَلْبَ أَوْ يَشْغَلَ عَنِ الطَّاعَاتِ أَوْ يُحْوِجَ إِلَى الِاعْتِنَاءِ بتحصيل الدنيا»[2].

والشهوات التي تفتننا كثيرة، وأخطرها ثلاث: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة الشهرة.

1 . **شهوة البطن**: وهي من أعظم المهلكات، وبها أُخرِجَ آدمُ عليه السلام من الجنة. ومن شهوة البطن تحدُث شهوة الفَرْج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطر الشبع. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «المؤمن يأكلُ في معيّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»[3].

(1) رواه البخاري (6487) ومسلم (2822).

(2) شرح النووي على مسلم: (17/ 165).

(3) رواه البخاري (5393) ومسلم (1631). وقال القرطبي في (التفسير7/ 192): «وهذا منه ﷺ حضٌّ على التقليل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلغة..، وقيل: إن القلب لَمّا تنوّر بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوّي على الطاعة، فأخذ منه قدر الحاجة، وحين كان مظلماً بالكفر كان أكله كالبهيمة»، وقال ابن كثير في (التفسير 7/ 294) لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ (محمد: 12): «أي:

وفي حديث آخر: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه، حسب ابن آدم أُكلات يُقمنَ صُلبَه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[1].

وقال عُقبة الراسبي: «دخلتُ على الحسن البصري وهو يتغذّى، فقال: هلم، فقلتُ: أكلتُ حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله، أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!»[2].

أ. **ذمّ تجويع النّفس**: قد يُفهمُ ممّا سبق أنّ الإسلام يأمرنا بترك المباح من الطعام، وحرمان النفس من طيّبات الرزق ! فنقول: قد نفى القرآن هذا الوهم، إذْ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: 32)، قال الشيخ السعدي «يقول تعالى منكرا على من تعنّت، وحرّم ما أحل الله من الطيبات: [قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده] من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، و[الطيبات من الرزق]، من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، أي: مَن هذا الذي يُقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيّق عليهم ما وسّعه الله؟»[3].

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته وأمّا ما وقع في تاريخنا من مبالغات في تجويع النفس، والتربية على شظف العيش، فهو من غلوّ بعض المتصوفة الذين لم يفهموا حقيقة الزهد. وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي: «وقد بالغ جماعة من الزهّاد والصوفية في التقلّل والصبر على الجوع، وأمروا

- في دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضْما وقضْما وليس لهم همّة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في معيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

(1) أخرجه الترمذي (2380) وقال: حديث حسن صحيح.

(2) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة: (ص 180).

(3) تفسير السعدي: (ص292).

به وحثّوا عليه، وكل ذلك من سوء الفهم للمقصود[1]، وقد بيّنّا عيبَ ما سلكو في كتابنا المسمّى «تلبيس إبليس». ثم إنّ الدوام على التقلّل يُضعفُ القوى، فإن عَرَض جهادٌ لم يَجد قوّةً، وإن كانت له زوجة لم يُمكن قضاء حقّها، وإن افتقر إلى كسبٍ لم يقدر على القيام به. وقد قلّل أقوامٌ مطاعمهم حتى قصّروا عن الفرائض، وظنّوا بجهلهم أن ما فعلوه فضيلة، وليس كذلك، فإنها حالة ما سلكها رسول الله ﷺ ولا أصحابه ﷺ، وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا، وربما وجدوا وآثروا، وكانوا لا يشبعون إذا أكلوا ويذمّون البِطنة»[2].

وطريقة الرياضة[3]. في كسر شهوة البطن: أنّ من تعوّد استدامة الشّبع، فينبغي له أن يقلّل من مطعمه يسيراً يسيراً مع الزمان، إلى أن يقف على حدّ التوسّط وخير الأمور أوساطها، وذلك ألاّ يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه. **فالأوْلَى**: تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوّة، فلا يحسّ المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصحّ البدن، وتجتمع الهمّة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطّي مكان الفكر وموضع الذكر، ويجلبُ أمراضاً أُخَر[4].

---

(1) وكأنّ المصنّف يقصد بكلامه هذا الإمام الغزالي، الذي عقد في أصل هذا المختصر «إحياء علوم الدين» فصلًا كاملاً لبيان «فضيلة الجوع، وذمّ الشّبع»! وقد سبقه الإمام ابن أبي الدنيا بتأليف «كتاب الجوع»، وبعدهم الإمام النووي حيث وضع في «رياض الصالحين» باب «فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات»! وكان الأولى بهؤلاء رحمهم الله اختيار كلمة الزهد أو التقلّل والتقشّف، أمّا «الجوع» فليس له فضلٌ ولا يُمدحُ، خاصّةً وأنّ النبي ﷺ قد استعاذ منه -كما ثبت في أبي داود (1547)- أنه قال: «اللّهمّ إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئسَ الضّجيع»، وقد شُرعَت لنا عبادة الصيام فلا نبتدعُ في دين الإسلام.

(2) منهاج القاصدين، لابن الجوزي: (628-630) و(البطنة): امتلاء البطن من الطعام، وفي المثل: «البِطنة تذهب الفطنة».

(3) يعني: ترويض الروح، وتدريب النفس وتهذيبها.

(4) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة. (ص 181).

ب. الأكل بين الإفراط والتفريط: إنّ تحصِيلَ القوّةِ البَدَنيّة مِن مقاصدِ ديننا الحنيف، وفي سبيلِها كان تحرِيمُ الخبائثِ: كالخمرِ والميتَة ولحمِ الخنزير، وفي سبيلِها كانَت عِناية الإسلام بحفظ الأجسام ورياضتها، ومن أجلِ الصحّة والعافيةِ حثّ الإسلام على أنواع الطهارة والنظافة، وأمر عند المرض بالتّداوِي والعِلاج.

والأمّة الإسلامية مُطالبة بأن تكون قويةً، مُهابة الجانب، حتى تنجح في نشر رسالتها ورَدْع أعدائها. لأجل ذلك قال ربّنا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ (الأنفال: 60)، قال الشيخ السعدي: «أي: وأعدّوا لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم [ما استطعتم من قوة] أي: كل ما تَقْدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك ممّا يعينُ على قتالهم»[1]. وفي الحديث: «المُؤمن القوي خيْرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف»[2]. والقوّة المقصودة في الحديث تدخل فيها قوة: (الإيمان، والعلم، والرأي، والإرادة، والطاعة، وكذلك البدن). ولا سبيل إلى تحصيل هذه القوة إلا بالعناية بالصحة، وتناول الأغذية النافعة للجسم.

نعم، الأكل والشرب والتنعّم بالطيبات أمرٌ مشروع، وقد يصبح واجباً أحياناً[3]، غير أن الإفراط والإسراف فيه، والمبالغة في الشّرَه وشهوة الأكل، حتى نصيرَ «عُبّاد بطون» كما هو مشاهدٌ الآن عند كثير من المسلمين، فهذا هو الخطر المبين!

وقد نهى ربّنا سبحانه عن هذا الانحراف كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف: 31). قال الإمام القرطبي: [ولا تسرفوا]

---

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 331).

(2) أخرجه مسلم برقم (2644).

(3) يقول الإمام ابن القيم: «أمّا الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت، فإن تركه حتى مات، مات عاصيا قاتلا لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطرّ إلى أكل الميتة فلم يأكل حتّى مات، دخل النار. ومن هذا تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك، وإن ظنّ الشفاء به. (مدارج السالكين: 1/ 111). قلت وبهذا تعلم أنّ بدعة «إضراب الجوع» التي جاءتنا من الغرب، عمل محرّم!

أي في كثرة الأكل، وعنه يكون كثرة الشرب، وذلك يثقل المعدة، ويُثبّط الإنسان عن خدمة ربه والأخذ بحظه من نوافل الخير. فإن تعدّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حرُم عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه. روى أسد بن موسى من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: أكلتُ ثريدا بلحم سمين، فأتيت النبي ﷺ وأنا أتجشّى، فقال: «اكْفُفْ عنّا من جشائك أبا جحيفة، فإن أكثرَ الناس شِبعاً في الدنيا أطولُهم جُوعًا يوم القيامة»[1].

فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدّى لا يتعشّى، وإذا تعشى لا يتغدّى»[2].

فالمذموم: هو كثرة الانشغال والتعلّق بشهوة البطن إلى حدّ التقديس، كما قال ﷺ: «تعسَ عبد الدّرهم، تعس عبد الدينار»[3]. حيثُ تُصبح هذه الشهوة التي استعبدت صاحبها من أكبر العقبات التي تعيقه عن التقدّم إلى ربّه سبحانه، وخاصّة إذا:

- أصبح تحصيل «الفيتامينات» أعظم لديه من تحصيل الحسنات.
- وإضاعة مواعيد «الوِجْبات» أعظم مصيبة من فوات الصلوات.
- وقوّة الأبدان والعضلات أكثر شغلاً لقلبه وعقله من قوة الإيمان والطاعات!

وقد بلغ ببعض المستسلمين لشهوات بطونهم: أن يغضبوا على فقد الطّعام أو تأخّره، فيعقّوا أمّهاتهم، ويُعنّفوا زوجاتهم بل ويطلّقوهن أحياناً!

يا خادمَ الجسمِ كَمْ تشقى بخدمته ... أتطلبُ الربحَ فيما فيه خُسرانُ
أقبلْ على النّفس واستكملْ فضائلها ... فأنتَ بالرّوح لا بالجسم إنسانُ.

---

(1) أخرجه الترمذي (2478) وهو في السلسلة الصحيحة (343) للألباني.

(2) الجامع لأحكام القرآن: (7/ 194).

(3) رواه البخاري برقم (2886).

وغابت القضايا الهامّة والمصيرية عن مجالسنا، وحلّت محلّها نقاشات فارغة حول الشهوات، وفقه أصناف الأطعمة والحلويات، والفواكه والمشروبات! وانتشرت بسبب شهوة البطن المفرطة أمراض «السمنة» التي تنبّأ بها الرسول ﷺ حيث قال: «خيركم قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يكون بعدهم قومٌ يَشهدون ولا يُستَشهدون، ويخونون ولا يُؤتمَنون، ويَنذِرون ولا يُوفون، ويَظهرُ فيهم السِّمَنُ»[1]. وتلك هي نتيجة الانحراف عن المنهج الإسلامي الذي كان عليه سلفنا الصالح.

ويلخّص لنا الإمام ابن القيم الهدي النبوي في هذه القضيّة، فيقول: «كان هديُه ﷺ وسيرتُه في الطعام: لا يَرُدُّ موجوداً، ولا يتكلفُ مفقوداً، فما قُرِّبَ إليه شيءٌ من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافَه نفسُه، فيتركَه من غير تحريم، وما عاب طعاماً قطُّ، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، وأكَلَ الحلوى والعسل، وكان يُحبّها. وأكل لحم الجَزور، والضأن، والدّجاج، ولحم الحُبارى، ولحم حِمار الوحش، والأرنب، وطعام البحر، وأكل الشّواء، وأكل الرُّطبَ والتمرَ... ولم يكن يردُّ طَيِّباً، ولا يتكلفه، بل كان هديه أكلَ ما تيسر، فإن أعوزه صَبَرَ حتى إنه ليربِطُ على بطنه الحجَر من الجوع، ويُرَى الهلالُ والهلالُ والهلالُ ولا يُوقد في بيته نارٌ»[2].

فخيرُ الأمورِ الوسطُ الوسيطُ وشرّها الإفراطُ والتفريطُ.

2 . **شهوة الفَرْج**: تُعدُّ الغريزة الجنسيّة من نِعم الرحمن على بني الإنسان، إذْ بدافع هذه الشهوة تحصُلُ المودّة والألفة بين الزوج وزوجته، ويتواصل النوع البشري. قال ابن قدامة: «اعلم أن شهوة الوقاع سُلّطت على الآدمي لفائدتين: إحداهما: بقاء النّسل، والثانية: ليُدرك لذّةً يقيسُ عليها لذّات الآخرة، فإن ما لم يُدرَك جنسُهُ بالذّوق لا يعظمُ إليه الشوق، إلا أنه إذا لم تُردّ هذه الشهوة إلى الاعتدال جَلَبت آفات كثيرة ومحناً. وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تُصرفَ همّة الرجل إلى كثرة التمتّع

(1) رواه البخاري (2651) ومسلم (2535).

(2) زاد المعاد: (1/ 147).

بالنساء، فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات»[1].

أ. **خطر الشّهوة الجنسيّة**: نظراً إلى خطورة هذه الغريزة، فقد حماها الإسلام بعدّة ضوابط وأحكام، فشرع الزواج وحضّ عليه ويسّر أسبابه، وحرّم الزنا وسدّ سبُلَه وأبوابه. فكما منع الرهبانية والتبتّل، حرّم كذلك الرذيلة والتفسّخ. ولكن الهوى المستحكم في النفوس المريضة، قد أوقعها في حبائل الشيطان، فأفرطت في هذه الشهوة حتى صار بعضها كالحيوان، فعَمِيَت القلوب وضعف الدّين، وتأخّرنا عن ربّ العالمين.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم: «أمّا مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة فمشهد الجُهّال، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان، ليس همّهم إلا مجرّد نيل الشهوة بأيّ طريق أفضت إليها، فهؤلاء نفوسهم نفوسٌ حيوانية لم تترقّ عنها إلى درجة الإنسانية فضلاً عن درجة الملائكة»[2].

وقد سمّى الله سبحانه الانحراف في هذه الشهوة: (مرضاً)، فقال تعالى محذّراً نساء النبي ﷺ من هؤلاء (المرضى): ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ (الأحزاب: 32-33). فنهى الله سبحانه نساء النبي -والنساء عموماً من باب أولى- من ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، كما أمرهن بأن يلزمن بيوتهن فلا يخرجن إلا لحاجة شرعية، فإن خرجن فليحذرن من التبرّج وليلتزمْنَ السّتر والحجاب صيانةً لهن من الأذى، ودرءاً لما قد يقع لمرضى القلوب من طمع بهن أو فتنة تتسرّبُ إلى نفوسهم فتزيدها مرضاً وانحرافاً[3].

---

(1) مختصر منهاج القاصدين: (ص 181).

(2) مدارج السالكين: (1/ 400).

(3) منهج الإسلام في تزكية النفس، لأنس كرزون: (2/ 628).

وبناءً على ذلك يتضح أن بداية الانحراف في هذه الشهوة سببه الأساسي: مرض القلوب وضعف الإيمان، وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية: «قوله تعالى: [فيطمع الذي في قلبه مرض] هو: مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرّضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميلُ إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوّة المرض وضعفه»[1].

فالقلب إذا ذاقَ حلاوة الإيمان، وعظّم ربّه الديّان، لن ينصاعَ لوساوس الشيطان، ويقبلَ بدرك الحيوان. وأمّا إذا رقّ لديه الدين، واستحوذ عليه الشيطان اللّعين، فقد حُرم نور اليقين، ومصداق ذلك ما قاله سيّد المرسلين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرقُ السّارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن»[2]. فأصحابُ الكبائر يُنزعُ منهم نور الإيمان ويضعف تعظيم الله سبحانه في قلوبهم، إذْ لو استشعروا تعظيم ربّهم لما تجرّؤوا على معصيته! قال ﷺ: «إذا زَنَى العبدُ خَرجَ منه الإيمانُ، فكان فوق رأسه كالظُّلَّة، فإذا خرج من ذلك العمل رَجَعَ إليه الإيمان»[3].

ويقول الإمام ابن القيّم: «مِن عقوبات الذنوب أنها تُضعف في القلب تعظيم الربّ جلّ جلاله، وتُضعفُ وقاره في قلب العبد ولا بُد.. فإنّ عظمَة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب.. وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحلّ من قلبه تعظيم الله جلّ جلاله وتعظيم حرماته»[4].

وبيّن رحمه الله كيف تُعيق هذه المعاصي التقدّم إلى الله قائلاً: «ومن عقوبات المعاصي: أنها تُضعفُ سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تُعَوّقُهُ أو توقفه وتقطعه

(1) مجموع الفتاوى: (10/ 95).

(2) رواه البخاري (2475) ومسلم (57).

(3) رواه الترمذي (2625)، وصحّحه ابن حجر في الفتح (12/ 61)، والألباني في الصحيحة (509)

(4) الجواب الكافي: (ص 74).

عن السير، فلا تدَعه يخطو إلى الله خطوةً، هذا إنْ لن تردّه عن وجهته إلى ورائه. فالذنبُ يحجبُ الواصل ويقطعُ السائر ويُنكّسُ الطالب، والقلبُ إنما يسيرُ إلى الله بقوّته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوّة التي تُسيّرُه، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعدُ تداركه، والله المستعان»[1].

ب. الوقاية من طغيان الشهوة: شرع الإسلام العديد من التدابير الوقائيّة لتحصين شهوة الفرج وحمايتها من الانحراف، وقد جُمعت خلاصة هذه التدابير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: 32)، قال الشيخ السعدي: «والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرّد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدّماته ودواعيه فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنا وقبّحه بأنه [كَانَ فَاحِشَةً] أي: إثماً يُستفحشُ في الشرع والعقل والفِطَر لتضمّنه التجرّؤ على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها، وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله: [وَسَاءَ سَبِيلًا] أي: بِئْس السبيل سبيل من تجرّأ على هذا الذنب العظيم»[2].

وأهمّ هذه التدابير الوقائية للحماية من طغيان شهوة الفرج:

- **غضّ البصر:** قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ (النور: 30). قال الإمام ابن كثير: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يَغُضّوا أبصارهم عما حَرُم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتُّفِق أن وقع بَصرٌ على مُحرّم من غير قَصْد فليَصْرفْ بَصرَه عنه سريعاً»[3].

---

(1) الجواب الكافي: (ص 78).

(2) تيسير الكريم الرحمن: (ص 469).

(3) تفسير ابن كثير (3/ 282).

ويقول تعالى -في شأن زوجات النبي وأمّهات المؤمنين المحرّمات- ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: 53). وغيرهن من النساء -الغير محرّمات- أوْلى بهذا الاحتياط.

وعن جرير بن عبد الله قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفُجاَة فأمرني أن أصرفَ بصري»[1]. قال النووي: «ومعنى «نظر الفجأة»: أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صَرَف في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث، فإنه ﷺ أمره بأن يَصْرِفَ بصره مع قوله تعالى [قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم]... ويجب على الرجال غضّ البصر عنها في جميع الأحوال إلا لغرض صحيح شرعي وهو: حالة الشهادة، والمداواة، وإرادة خطبتها، أو شراء الجارية، أو المعاملة بالبيع والشراء وغيرهما ونحو ذلك، وإنما يباح في جميع هذا قدر الحاجة دون ما زاد، والله أعلم»[2].

وهذه وصفةٌ نافعة من الإمام ابن القيم حيث يقول رحمه الله: «وفي غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذى لعل فيه هلاكه إلى قلبه[3].

(1) رواه مسلم (2159).

(2) شرح مسلم (14/ 139).

(3) يشيُر رحمه الله إلى حديث: « لنظرةُ سهمٌ من سهام إبليس مسمومةٌ، فمن تركها من خوفِ الله أثابهُ الله إيماناً يجدُ حلاوتَه في قلبه» صحّحه الحاكم (4/ 313)، وضعفه غيره.

الثالثة: أنه يورث القلب أُنساً بالله، وجمعيّةً على الله، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويُبعده من الله، وليس على العبد شيء أضرّ من إطلاق البصر، فانه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يُقوّي القلب ويُفرحُه، كما أن إطلاق البصر يُضعفه ويُحزنه.

الخامسة: أنه يُكسب القلبَ نورا، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾ (النور: 30) ثم قال إثر ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ (النور: 35) أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه. وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب. كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان»[1].

وقال العلاّمة ابن القيّم رحمه الله: «قد جعل اللهُ سبحانه العينَ مرآةَ القلب فإذا غضّ العبدُ بصرَه غضّ القلبُ شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق شهوته»[2]. ويقولُ أيضاً: «النظرةُ تفعلُ في القلب ما يفعلُ السّهم في الرّميّة، فإن لم تقتُلْه جرَحته، وهي بمنزلة الشّرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس، فإنْ لم تُحرقهُ كلّه أحرقت بعضه، وقد قيلَ:

كل الحـوادثِ مبداهـا مـن النّظر ومُعظمُ النار من مُسـتصغر الشّرر
كَمْ نظرةٍ فَتكت في قلب صاحبها فتكَ السّهام بلا قوسٍ ولا وتَر»[3].

● **اجتناب الاختلاط والخلوات:** وذلك لما يجرّهُ الاختلاط المحظور بين الإناث والذكور من الفتن والشرور. ويزدادُ الأمرُ سوءاً إذا أدّى إلى الخلوةِ بين الجنسين،

(1) الجواب الكافي (ص 125).

(2) روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، (ص 109).

(3) المرجع نفسه: (ص 114).

كما هو شائعٌ الآن في كثير من مكاتب الإدارات، وأقسام المستشفيات والجامعات، وخلال التنقّل -أحياناً- في السفرات!

والعجبُ أنّ بعض البلدان الغربية -التي اكتوت بنار الاختلاط- قد اجتهدت في التقليل من شرور هذه الفتنة التي عمّت بها البلوى، فأحدثت معاهد وجامعات ونزل وحافلات غير مختلطة، وذلك لما وجدته في الفصل بين الجنسين من النتائج الإيجابية، حيث كشفت التجارب أن طلبة المؤسسات التربوية الغير مختلطة: متوازنون، ومتفوّقون، ومنضبطون، والكثير من الناس -بفطرتهم السليمة- يكرهون الاختلاط بالجنس الآخر! وفي الإسلام نجدُ العناية الشديدة بحفظ الأعراض، حيث جاءت النصوص تُحذّرُ من التساهل في أمْرِ هذا الاختلاط المُشين، وذلك لما في اجتماع الرجال والنساء ومزاحمة بعضهم لبعض من الفتنة وإثارة الشهوات، التي تؤدّي إلى الوقوع في الفواحش المهلكات، المُدمّرة للأسَر والمجتمعات.

وقد حرص نبيّنا ﷺ على منع هذا الاختلاط في أقدس الأماكن وأشرفها: ألا وهي المساجد، وذلك باتخاذ عدّة تدابير وقائيّة، ومنها:

- فصل صفوف النساء عن الرجال، حيث يقف بينهم عادةً الأطفال، يقول ﷺ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[1].

وهذا من أعظم الأدلة على منع الشريعة للاختلاط، وأنه كلّما كان الرّجل أبعد عن صفوف النساء كان أفضل، وكلّما كانت المرأة أبعد عن صفوف الرّجال كان أفضل لها.

- المُكثُ في المسجد حتى ينصرفَ النساء، فعن أمّ سَلمة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَلَّمَ قَامَ النِّسَاءُ حِينَ يَقْضِي تَسْلِيمَهُ وَمَكَثَ يَسِيرًا قَبْلَ أَنْ يَقُومَ»،

(1) رواه مسلم رقم (664).

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «فَأُرَى -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ مُكْثَهُ لِكَيْ يَنْفُذَ النِّسَاءُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُنَّ مَنْ انْصَرَفَ مِنَ الْقَوْمِ»[1].

- تخصيص باب للنساء، وذلك حتى لا يختلط الرجال بالنساء ولا يزاحم بعضهم بعضاً في الدخول والخروج من المسجد، فعن عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّسَاءِ»، قَالَ نَافِعٌ: «فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابْنُ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ»[2]. وكان عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول: «باعدوا بينَ أنفاس الرجال والنّساء»[3].

وقد يوقع الاختلاط في خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه، وهو فعلٌ مُحرّمٌ رغم شيوعه بين الناس، قال ﷺ: «لا يخلونّ رجلٌ بامرأة إلاّ كان ثالثهما الشيطان»[4]. وقال ﷺ: «لا تلِجُوا على المُغيّبات، فإنّ الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدّم»[5]. ومعناه: أي لا تدخلوا على النساء اللآتي غاب عنهن أزواجهن، وهذا التحذيرُ مُوجّهٌ من النبي ﷺ إلى أطهر الناس بعده، ألا وهم: صحابته الكرام رضي الله عنهم، فما بالك بأصحاب النفوس الضعيفة في زماننا!

ويجدر التحذير -في هذا السياق- ممّا يحصلُ عادة في الاختلاط والخلوات من تساهل الكثير من الرجال في لمس النساء الأجنبيات بالمصافحة، بل بالتقبيل والمداعبة أحيانا عياذا بالله! وإذا عاتبتَ أحدهم على ذلك، قال: إنها زميلتي، فكيف أردّها، وأكّد لك أنها مثل أخته تماماً، ونيّته صافية، وقد يدعم موقفه بحرصه على تجميل صورة الإسلام وإبعاد تهمة التشدّد والتطرّف عنه!

---

(1) رواه البخاري رقم (793). ورواه أبو داود رقم (876) في كتاب الصلاة، باب انصراف النساء قبل الرجال من الصلاة.

(2) رواه أبو داود (571).

(3) رواه عبد الملك بن حبيب في «أدب النساء» (ص: 244)، وابن القاص الطبري في «أدب القاضي»: (1/ 165) رقم (116).

(4) رواه الترمذي (2165) وصححه الألباني.

(5) صحيح الترمذي رقم (1172).

وهذا من التلاعب بالدين، والاستهانة بمعصية ربّ العالمين: إذْ كيف يُلبّسُ علينا الشيطان حتى نستحلّ المحرّمات بهذه الدعاوى الباطلة؟! ألم يحذّرنا نبينا ﷺ بقوله: «لَأَنْ يُطعَنَ في رأس أحدكم بمخيط من حديد، خيرٌ له من أن يَمَسّ امرأةً لا تحلّ له»[1]. وقال ﷺ عند مبايعة النساء: «إني لا أصافحُ النساء»[2]. وقالت أمّنا عائشة رضي الله عنها: «والله ما مسّت يدهُ ﷺ يدَ امرأة قطّ في المبايعة»[3].

فعلى المسلم أن يلتزم الأدب والخلق الحسن في معاملة الناس، ولكن دون تنازل عن المبادىء وتحريفٍ لأحكام الدين، فقد قال سيّد المرسلين ﷺ: «مَن التمَسَ رِضَى الله بسَخَط الناس، رضي الله عنه، وأرْضى الناسَ عنه، ومَن التمس رضى الناس بسَخَط الله، سَخط الله عليه، وأسخط عليه الناس»[4].

ومن القصص المعبّرة: ما ذكره الشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة في تعليقه على (رسالة المسترشدين: 118) حيث قال رحمه الله: «وكَمْ ساقَ إطلاقُ البصر والاختلاط المحظور إلى مهالك وعارٍ ومخازي لا تُمْحَى ولا تُنسى؟! «قيل لِهنْد بنتِ الخُسّ -وقد زَنَت بعبدها، وكانت شريفةَ قومها-: لِمَ زنيت بعبدك وأنتِ سيّدةُ قومِكِ؟!! فقالت: قُرْبُ الوِساد، وطولُ السِّواد!» تعني: أنّ كثرة المخالطة بينها وبينه (قُربُ الوساد)، وطول المحادثة والمناجاة معه (طول السِّواد): هي التي خرجت بها قليلاً قليلاً عن حشمتها، ثمّ عن شرفها، حتى وقعت في عار الزنى! نسألُ الله تعالى السلامة والعافية. يُقالُ في اللغة: ساودَ الرجلُ المرأةَ سِواداً، إذا سارّها فأدنى سوادَه من سوادها أي شخصَه من شخصها»[5].

---

(1) رواه الطبراني، وهو في صحيح الجامع (5045).

(2) رواه الترمذي والنسائي وهو في صحيح الجامع (2513).

(3) رواه البخاري رقم (4891).

(4) رواه الترمذي (2414)، وصحّحه ابن حبّان (276).

(5) لسان العرب، مادة [سود]، وأعلام النساء، لكحّالة (5: 231-234).

• **الاحتياط في التواصل الإلكتروني**: خاصّةً وقد نتج عن التساهل والتسيّب في هذا التواصل: كوارث اجتماعيّة وفضائح أخلاقية، لأجل ذلك وجبَ على المسلمين مراعاة جُملة من الضوابط، أهمّها:

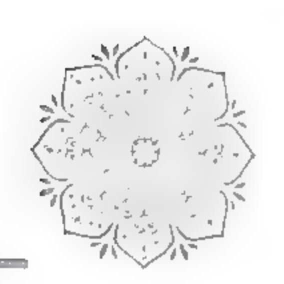
- عدم عرض صور النساء، حتى ولو كانت مزيّفة لما في ذلك من إثارة للشهوات وكشف للأعراض والعورات. وقد أخلّ الكثير منّا بهذا الأدب، فترى بعض الإخوة يعرضُ صُوَرَ خطيبته أو زوجته وهي متزيّنة، وبعضهم يعرض صور بناته بثوب السباحة على شاطىء البحر، فأين الغيرة أيها المؤمنون، وإنّا لله وإنا إليه راجعون.

-رفض قبول دعوات الصداقة بين الجنسين لغير ضرورة على صفحات التواصل، ويتأكّد هذا في شأن الأزواج الحريصين على صيانة أعراضهم وحماية أُسَرهم، فكم من زوجة طُلّقت بسبب تساهلٍ أشعل نار الغَيرة والشكوك في قلب زوجها، وكم من رجلٍ صالحٍ استدرجته فتاةٌ لَعُوب عبر هذا الفضاء الأزرق فقلبت حياته رأساً على عقب!

-إذا اضطُرّ المسلمُ للتواصل مع الجنس الآخر، فعليه بالتزام الجدّيّة في التخاطب وتناول القضايا الهامّة، وعدم الاسترسال في المواضيع التافهة، والحرص على الانضباط والتزام الأدب الإسلامي.

- عدم استعمال التواصل المصوّر عبر ما يُسمّى (السكايب، الماسينجر، والفايبر)، واجتناب عرض الفيديوهات الشخصية المصوّرة، سواء كانت مسجّلة أو مباشرة، لما في ذلك من فتنةٍ وإثارةٍ، زيادة على كشف الأسرار، وهتك الأستار.

- الاكتفاء -خلال التواصل- بالخط والكتابة، دون المحادثة الشفوية، وإذا احتيجَ إلى المحادثة فيجبُ مراعاة الأمر الإلاهي: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ (الأحزاب: 32)، وإذا كان هذا لزوجات النبي ﷺ وأمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ، فكيف بغيرهن من النساء؟ وإذا كان هذا في عهد النبوّة الذّهبي، فكيف بعصور الانحطاط والفتنة والشهوات!



عقبة الابتلاءات

الإشارة الأولى: فقه الابتلاء

1. **الابتلاء علّة وجودنا**: أخبر الله سبحانه وتعالى أنَّه زيَّن الأرض بما عليها لحكمة عظيمة في ذلك، ألا وهي: «ابتلاء عباده وامتحانهم أيُّهم أحسن عملاً»، فقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:7)، كما أخبر جلَّ في عُلاه أنَّه خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة لهذه الحكمة أيضاً، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود:7)، وقال جلّ شأنه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:1 – 2).

ومعنى هذه الآية: [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا] أي: ليختبركم فينظر أيّكم له -أيها الناس- أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع. فهذه (اللاّم) في قوله تعالى: [ليبلوكم] هي (لام التعليل)، يعني علّة وجودنا في هذه الدنيا هي: (الابتلاء).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فهو سبحانه وتعالى إنما خلق السموات والأرض، والموت والحياة وزين الأرض بما عليها: ليبلو عباده أيهم أحسن عملا، لا أَكْثَرُ عَمَلا.

وَالْعَمَلُ الأَحْسَنُ هُوَ: الأَخْلَصُ وَالأَصْوَبُ وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَرْضَاتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، دُونَ الأَكْثَرِ الْخَالِي مِنْ ذَلِكَ»[1].

ويُحدّثنا القرآن الكريم عن حقيقة خَلْق الإنسان، وما حُفّ به من ابتلاء ومكابدة ومعاناة، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: 2)، ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البلد: 4): أي في شدّة ومشقّة، لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجة اللذّات بالآلام، وما يعانيه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف، التي تنوء بحملها السموات والأرض والجبال، وما يعانيه من الناس من حدّة اللسان وأذى اليد وحسد النفس.

وإذا كان هذا شأن الإنسان بصفة عامّة، فأهل الإيمان -على وجه خاص- أشدّ تعرّضاً للأذى والمحن والابتلاء في أموالهم وأنفسهم وكلّ عزيز لديهم، فقد اقتضى نظام الكون أن يكون لهم أعداء يمكرون بهم ويكيدون لهم ويتربّصون بهم الدوائر، كذلك جعل الله لآدم إبليس، ولإبراهيم النمروذ، ولموسى فرعون، ولمحمّد أبا جهل وأمثاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان: 31)، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: 112).

وكذلك يكون المؤمنون من أتباع الأنبياء، هم أشدّ الناس بلاء بعد الأنبياء: الأمثل فالأمثل. ومن ظنّ أن طريق الإيمان مفروشة بالأزهار والرياحين، فقد جهل طبيعة الإيمان بالرسالات، وطبيعة أعداء الرسالات.

ولعلّ هذا الحسبان أو الوهم داخَلَ نفوس بعض المؤمنين في العهد المكي بعد أن أصابهم من العذاب ما أصابهم، فنزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟

(1) المنار المنيف: (ص 30-31).

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت: 1-3). بل في العهد المدني تجدُ القرآن ينفي مثل هذا الحسبان الواهم، في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: 214).

الجنّة إذاً لا بدّ لها من ثمن، وهي سلعةٌ غالية، فلا مفرّ من الثمن. وقد دفعه أصحاب الدعوات من قبل، فلا بدّ أن يدفعه إخوانهم من بعد، وهذا هو ثمن الجنة: الصبر على البأساء تصيبُ الأموال، والضرّاء تصيب الأبدان، والزلزلة تصيب النفوس[1].

فنحن جميعاً الآن في دار امتحان، خاضعين لأنواع من الاختبارات لا بدّ من خوضها، فمن فَقِهَ أن هذه الدنيا الفانية هي: دار ابتلاء وليست دار جزاء، دار ممرّ وليست دار مقر، دار عُبور وليست دار سرور، فقد عرف حقيقتها حقّ العرفان، وتقدّم إلى ربّه في ثبات وأمان. فتراه صابراً محتسباً، لا يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، مستعينا -في كل ذلك- بربّ الأرض والسماء.

2. **الابتلاء سنة جارية**: الإيمان ليس مُجرّد كلمة تُردّدها الألسنة، بل هو أمانة عُظمى ذات تكاليف، ومسئولية كُبرى ذاتُ أعباء والتزامات. ويظهر معدن هذا الإيمان بالفتنة والابتلاء، الذي جعله الله أصلاً ثابتاً، وسُنّةً جارية، وميزان اختبار، يتميّز به الطيّب من الخبيث، ويظهر الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت: 3).

وينقسم هذا الابتلاء إلى قسمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:35):

الأول: الابتلاء بالشرّ، وهو مناط الصبر.

---

(1) الصبر في القرآن الكريم، للقرضاوي: (ص 14-15).

والثاني: الابتلاء بالخير، وهو مناط الشّكر. وقد جُمعا في حديث النبي ﷺ، الذي قال فيه: «عجباً لأمْرِ المُؤمن إنّ أمرَه كلّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكَرَ فكان خيراً له، وإنْ أصابتهُ ضرّاءُ صبرَ فكانَ خيراً لَهُ»[1]. قال الإمام ابن القيّم: «إن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس، ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيّبها من خبيثها، ومن يصلُح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليمحّص النفوس التي تصلح له ويخلّصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلُص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذا الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذّب العبدُ ونُقّي، أُذن له في دخول الجنة»[2].

والابتلاء يكون بالسرّاء والضرّاء، ولا بد أن يُبتلى الإنسان بما يَسُرّه وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: 168)[3]. فالله سبحانه يختبرُ عباده تارةً بالسّراء ليشكروا، وتارةً بالضّراء ليصبروا، فصارت المحنةُ والمنحةُ جميعاً: بلاء، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، وهكذا أصبحت المنحةُ أعظم البلائين، ولذلك قال عُمر رضي الله عنه: «بُلينا بالضّرّاء فصبرنا، وبُلينا بالسرّاء فلم نشكُر»[4].

3. **عناصر الابتلاء الخمسة**: وقد أخبرنا ربّنا سبحانه بأنّه سيبتلينا بشيء من هذه الأشياء الخمسة، فقال جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ

(1) أخرجه مسلم رقم (2999).

(2) زاد المعاد: (3/ 18).

(3) الفوائد: (ص 271).

(4) الزهد، لابن المبارك (ص 182).

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: 155-156). قال الشيخ السعدي: «أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن، ليتبيّن الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده، لأن السرّاء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصُل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المِحَنْ، فأخبر سبحانه في هذه الآية أنه سيبتلي عباده [بشيء من الخوف] من الأعداء [والجوع] أي: بشيء يسير منهما، لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحّص لا تهلك.

[ونقص من الأموال] وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظّلمة للأموال من الملوك الظّلمة وقُطّاع الطريق، وغير ذلك. [والأنفس] أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، [والثمرات] أي: الحبوب وثمار النخيل والأشجار كلها والخضر، ببرْدٍ أو بَرَدٍ أو حَرق أو آفة سماوية من جراد ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين.

فالجازع، حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر. ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفّقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبَسَ نفسه عن التسخّط، قولا وفعلا، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه؛ لأنها صارت طريقا

لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: [وبشر الصابرين] أي: بشرهم بأنهم يُوَفّون أجرهم بغير حساب، فالصابرون، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة»[1].

4. **أشد الناس بلاءً**: ولم يسلم أهل الإيمان عبر التاريخ من الخضوع لسنّة الابتلاء، التي جرت على الجميع حتى أشرف الخلق من الرّسُل والأنبياء. فما من نبيٍّ ولا رسول إلاّ وتعرّض للمحنة والأذى، وانظر إلى خطاب المواساة من قبل الله تعالى إلى نبيّه ﷺ بعد سلسلة الابتلاءات، وما لقيه من أذى المشركين، حيث يقول له ربّه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ (الأنعام: 34)، ويقول له جلّ شأنه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: 35). وقد ثبت من حديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: أيّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثمّ الصالحون، ثمّ الأمثلُ فالأمثلُ من الناس، يُبتلى الرّجلُ على حَسَب دينه، فإن كان في دينه صلابةٌ زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رِقّةٌ خُفّف عنه، وما يزالُ البلاءُ بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئةٌ»[2].

وبعد اشتداد المِحَن على الصحابة رضي الله عنهم، وتضجّر بعضهم من استمرار هذه الابتلاءات، يأتي الخطاب النبوي لتذكيرهم بأن هذا الأمر: سنّة الله في خلقه، لا يسلمُ منه السابق ولا اللاحق، فعن خبّاب بن الأرت قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟، فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»[3].

(1) تفسير السعدي: (ص 76).

(2) رواه الترمذي (2398)، وقال: حسن صحيح، وهو في صحيح الجامع (992).

(3) رواه البخاري برقم (6458).

وهذه موعظة موقظة من الإمام ابن القيم لكلّ من جهل حقيقة الابتلاء، وطبيعة التقدّم إلى ربّ الأرض والسماء، حيث يقول رحمه الله: «يا مُخنّث العزم أين أنت، والطريقُ: طريقٌ تَعِبَ فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُميَ في النار الخليل، وأُضجعَ للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، وقاسى الضّرّ أيّوب، وزاد على المقدار بُكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محُمّد ﷺ، وتَزهَا أنتَ باللّهو واللّعب»[1].

5. **حكمة الابتلاء:** لما فهم السلف الصالح الحكمةَ الشرعية للبلاء، كانوا أفضل منّا حالاً معه، وضربوا لنا أروع المثل في الصبر والعزاء والاحتساب، ومِن أجمل ما استنبطه علماؤنا في فقه الابتلاء: ما رواه البيهقي في شُعب الإيمان من طريق الشعبي أن شُرَيحاً القاضي رحمه الله قال: «إنّي لأُصابُ بالمصيبة فأحمدُ الله عليها أربع مرات: أحمدُه إذْ لم تكُن أعظمَ ممّا هي، وأحمدُه إذْ رزقني الصّبْرَ عليها، وأحمدُه إذ وفّقني للاسترجاع لِمَا أرجو فيه من الثواب، وأحمدُه إذْ لم يَجْعَلْها في دِيني»[2]. ولمّا أُصيب عروة بن الزبير رحمه الله في قَدَمِه؛ فقرّر الأطباء قطعها، فقُطعت. فما زاد على أن قال: «اللهم لك الحمد، فإن أخذتَ فقد أبقيت، وإن ابتليتَ فقد عافيت»! فلما كان من الغد ركلت بغلةٌ ابنه محمداً -وهو أحبّ أبنائه إليه- فمات من حينه، فجاءه الخبر بموته، فما زاد على أن قال مثل ما قال في الأولى، فلما سُئِل عن ذلك قال: «كان لي أربعة أطراف فأخذ الله مني طرفاً وأبقى لي ثلاثة، وكان لي سبعةٌ من الولد فأخذ الله واحداً وأبقى لي ستة. وعافاني فيما مضى من حياتي ثم ابتلاني اليوم بما ترون، أفلا أحمده على ذلك»![3] وقد نبّهت نصوص الوحيين على جمُلة من المعاني والحِكَم لسُنّة الابتلاء، أبرزها:

(1) الفوائد: (ص 56).

(2) كتاب الشكر، لابن أبي الدنيا (1/ 30)، تحقيق: بدر البدر، ط: الكويت.

(3) سير أعلام النبلاء: (4/ 429)، البداية والنهاية: (9/ 101)، وفايات الأعيان، لابن خلّكان: (2/ 418).

أ. **تطهير الصفّ الإسلامي**: من أدعياء الإيمان من المنافقين والخونة المندسّين، فعند العافية والسرّاء يختلط الحابل بالنابل والطيّب بالخبيث، وإنّما يقع التمييز بين الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء، كما يتميّز الذهب الحقيقي من الزّائف بالامتحان بالنار. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179]، يقول الشيخ السعدي -رحمه الله-: «أي: ما كان في حِكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز حتى يُميّز الخبيثَ من الطيّب، والمؤمنَ من المنافق والصادقَ من الكاذب»[1]. وصدق الفضيل بن عياض إذْ يقول رحمه الله: «الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه والمنافق إلى نفاقه». فالابتلاء يفرز الطيّب من الخبيث، ويكشف معادن الناس وحقائقها المخفيّة، كما قال ربّنا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ (الحج: 11).

ب. **التربية والتمحيص**: إذْ الابتلاء يُخرجُ العُجبَ من النّفوس، ويطهّرها من الغرور، ويجعلها أقرب إلى الله تعالى وأكثر توكّلاً عليه، قال العلاّمة ابن القيّم: «فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذّبه ونقّاه وصفّاه: أهّله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه»[2]. ومن الدروس المستخلصة من غزوة حُنين -التي اغترّ فيها بعض الصحابة بكثرة عددهم-: قول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قَوْله تعالى: (وَيَوْم حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتكُمْ) رَوَى يُونُس بْن بُكَيْرٍ فِي «زِيَادَات الْمَغَازِي» عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس قَالَ: قَالَ رَجُل يَوْم حُنَيْنٍ:

(1) تفسير السعدي: (ص 158).

(2) زاد المعاد: (4/ 195).

لَنْ نُغْلَب الْيَوْم مِنْ قِلَّة، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَتْ الْهَزِيمَة..»[1]. وقال ابن القيم: «واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكَسْرة مع كثرة عَدَدِهم وعُدَدِهم وقوة شوكتهم، ليضع رؤوسا رُفعت بالفتح، ولم تدخل بلدَه وحرَمه كما دخله رسول الله واضعاً رأسه مُنحنياً على فَرَسِهِ، حتى إنّ ذقنه تكادُ تمسّ سَرجه تواضعاً لربّه وخضوعا لعظمته واستكانة لعزته»[2]. وعند عرض أحداث غزوة أُحُد، وما نالَ المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النّصر بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ، توالت الآيات الكريمة ببيان الدروس والعبر من هذا الابتلاء، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 141]، قال الشيخ جمال الدين القاسمي: «أي ليُنقّيهم ويخلّصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس»[3].

ج. **محو الزلات ورفع الدرجات:** حيث يتمّ بالابتلاء: زيادة رصيد المُبتلَى، ورفع مقامه عند الله، فتتضاعف الحسنات، أو على الأقلّ تُكفَّرُ عنه الخطايا والزلاّت. وفي الحديث: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»[4]. وإذا كانت الخطايا لازمةً للبشر، لأنهّم ليسوا ملائكة مطهّرين، ولا أنبياء معصومين، فإنّ من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يتعهّدهم بالابتلاء، لتتحات عنهم الخطايا بالصبر والاحتساب، كما يتحات ورق الشجر، فتغسلهم المحن غسلاً وتطهّرهم الشدائد تطهيراً. وفي الصحيح: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلاهَمٍ، وَلا حَزَنٍ وَلا غَمٍّ، وَلا أَذًى، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلا كَفَّرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا من

(1) فتح الباري: (8/ 27).

(2) زاد المعاد: (3/ 477).

(3) تفسير القاسمي: (4/ 239).

(4) رواه مسلم برقم (2572).

خَطَايَاهُ»[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ما يزالُ البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة في نفسِه، وولدِه، ومالِه، حتى يَلْقى اللهَ وما عليه خطيئة»[2].

الإشارة الثانية: فتنة الأعداء

وهي الفتنة التي لم ينجو منها حتى الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ (الأنعام: 112)، قال الشيخ السعدي: «ومن حكمة الله تعالى، في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى. ومن حكمته أن في ذلك بيانا للحق، وتوضيحا له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون»[3].

1. **شياطين الجن**: إن عداوة الشيطان لبني الإنسان قديمة جدّاً، فقد حذّر الله تعالى من شرّه منذ أن أُدخل آدم وحوّاء إلى الجنة، حيث قال سبحانه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ (طه: 117). وقد بدأت فتنته منذ ذلك الحين، حيث جاء الشيطان إلى آدم وزيّن له الأكل من الشجرة المحرّمة، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (طه: 120)، فأطاعه آدم يظنّه صادقاً، فكانت هذه أوّل مخالفة بشرية، تعلّمنا منها: (خطر المعصية، وعظمة التوبة، وكذلك شدّة عداوة الشيطان للإنسان)، قال تعالى:

---

(1) رواه البخاري (5318)، ومسلم برقم (2573).

(2) رواه الترمذي رقم (2399) وهو في السلسلة الصحيحة (2280).

(3) تيسير الكريم الرحمن: (ص 1274).

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (طه: 121-123).

وقد حذرنا الله تعالى من طاعة الشيطان فقال جلّ شأنه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ (الأعراف:27)، وأخبرنا بأنه عدوّ لنا، فقال سبحانه. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: 6)، وكشف لنا ربّنا سبحانه عن مخطّطات هذا العدوّ، فقال تعالى حاكيًا عنه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: 16 - 17)، وحذّرنا جلّ جلاله من السير خلف الشيطان واتباع خطواته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ (النور: 21).

أ. **المكائد الشيطانية:** وهي كثيرة لا تُحصى، وأعظمها: الوساوس الباطنة، التي تدعوا الخلق إلى الكفر والفسوق والعصيان، وتثبّطهم عن الاستقامة وطاعة الدّيّان. إذْ يُزين لهم الشيطان المعاصي، ويُغريهم بالمحرمات والخبائث، ويأمرهم بالسوء والفحشاء والمنكر، فانخدع بذلك أكثر الناس، ووقعوا في حبائله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: 20).

وكل ما يقع بين بني آدم من الكفر والقتل والعداوة والبغضاء، وانتشار الفواحش والزنا، وتبرّج النساء وشرب الخمور، وعبادة الأصنام واقتراف الكبائر، فذلك كله من عمل الشيطان ليصدّ عن سبيل الله ويفسد الناس ويجرّهم معه إلى نار جهنم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: 90-91).

وقد فصّل الإمام ابن القيّم في بيان أنواع المكر الشيطاني الذي قلّما يسلم منه بشر، فبيّن أنّ الشيطان يقف للانسان في سبع عقبات: أوّلها عقبة الكفر. فإن نجا منه

العبد وقف له في عَقبة البدعة، ثم في عقبة فعل الكبائر، ثم في عقبة فعل الصغائر. فإن سلم من هذه العقبات، وقف له في عقبة الإكثار من المباحات حتى تشغله عن الطاعات، فإن غلبه المؤمن بإيمانه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة التي لا يسلم منها مؤمن، إذْ لو نجا منها أحدٌ لنجا منها رُسلُ الله وأنبياؤه، وهي: تسليط حزبه وجنوده من الأعداء الفجرة على المؤمن بأنواعِ الأذى، وهذه العقبة لا حيلة للعبد في التخلّص منها، وما عليه إلاّ أن يُراغم أعداءه، فمن تعبّد اللهَ بمراغمة عدوّه فهو من أهل الاستقامة[1].

ب. **المسئولية الإنسانية**: ولا يعني وقوف الشيطان وراء هذه الفتن أنّ الإنسان غير مسؤول عن جرائمه التي دفعه إلى ارتكابها هذا العدو، لأن الله سبحانه منحنا عقولاً، وأقام علينا الحجّة ببعثة الرّسل، ونهانا عن اتباع خطوات الشيطان التي لا تزيد -بفضل الله- على الوسوسة والتزيين، وبعض النخس والتخدير أحياناً[2].

وتأمّل فضيحة أَتْبَاع الشيطان يوم القيامة: كيف يتبرّأ منهم، بعد أن استقرّوا معه في النّار، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم:22)، قال الشيخ السعدي: «[وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ] أي: من حجة على تأييد قولي، [إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ

(1) مدارج السالكين: (238/ 1-240)، باختصار.

(2) أمّا (النّخس) فدليله ما ثبت في الصحيحين، أنّ النبي ﷺ قال: «ما مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلاَّ نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ» ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36]. وأمّا (التخدير) فهو معلومٌ لدى عامّة الناس، ويظهر عادةً بكثرة التثاؤب وغلبة الفتور، مع العجز عن الحركة أحياناً. ولذلك أمرنا النبي ﷺ بكظم التثاؤب، كما ثبت في الصحيحين «التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليردّه ما استطاع»، وكان ﷺ يتعوّذ بالله من «العجز والكسل» كما في صحيح ابن حبّان.

لِي] أي: هذا نهاية ما عندي أنّي دعوتكم إلى مرادي وزيّنتُه لكم، فاستجبتم لي اتباعاً لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة [فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ] فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، [مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ] أي: بمُغيثكم من الشدّة التي أنتم بها [وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ] كل له قسط من العذاب. [إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ] أي: تبرأت من جعلكم لي شريكا مع الله فلست شريكا لله ولا تجب طاعتي، [إِنَّ الظَّالِمِينَ] لأنفسهم بطاعة الشيطان [لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] خالدين فيه أبدا. وهذا من لطف الله بعباده، أن حذّرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم [ولا ينبئك مثل خبير] واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى [إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون] فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشّبَه والتّزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلّط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يُؤزّهم إلى المعاصي أزّا، وهم الذين سلّطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»[1].

ولمّا كان الإنسانُ صاحبَ عقل وإرادةٍ، وعلى بصيرة من أمره، فإنه مسئول ومحاسبٌ على طاعته للشيطان، والخضوع لوساوسه، والانقياد لنزغاته. ولذلك يأتي التوبيخ يوم القيامة لأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان ولعب بعقولهم فأطاعوه، وقد سمّى الله سبحانه طاعة الشيطان عبادة لأنها انقيادٌ واستجابة، حيث قال جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ (يس: 60-

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص436).

62). قال الشيخ السعدي: «وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له»[1].

ج. **مداخل الشيطان:** قد كشفت لنا نصوص الكتاب والسنة عن أساليب الشيطان في الغواية والمكر والإضلال، ومن المداخل الخفية التي استخلصها العلماء.

- **استغلال النفوس الضعيفة:** وذلك أن القلوب المريضة التي تحكّمت فيها الشهوات والأهواء، سرعان ما تتأثّر بوساوس الشيطان وتستجيب لفتنته، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج: 53)، ويقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 43). فالنفوس التي غرقت في الشهوات، والقلوب التي غلبت عليها الغفلات، هي التي يسهل توظيفها من قبل الشيطان، وتكون أكثر عرضةً للافتتان. ولذلك يكيد هذا العدوّ بالليل والنهار، ليوقع الناس في معصية الجبّار، حتى إذا غرقوا في حمأة الذنوب، وابتعدوا عن ربّهم علاّم الغيوب، استفرد بهم الشيطان اللعين، وأوقعهم في الضلال المبين!

وصدق الإمام البوصيري رحمه الله، إذْ يقول في بردته:

وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِما وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ
وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلاَ حَكَمًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ وَالحَكَمِ

- **التزيين والخداع:** ويكون بتغيير حقائق الأشياء، حيث يحوّل الشيطان صورتها القبيحة إلى جميلة جذّابة، ويضخّم ما فيها من محاسن موهومة، ويغطّي ما تحتويه من شرورٍ معلومة، حتى يقع المرء في شراكه ويستسلم لوسواسه. قال الإمام ابن القيم: «ومن مكايده أنه يسحر العقل دائما حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزيّن له الفعل الذي يضُرّه حتى يُخيَّل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفّرُ من الفعل

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 707).

الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يُخيّل له أنه يضرّه، فلا إله إلا الله كم فَتن بهذا السحر من إنسان!»[1].

وقد حذّرنا ربّنا سبحانه من هذه الخدعة الشيطانية، وذلك في قوله تعالى -مُخبراً عن خطّة إبليس الماكرة-: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: 39). فبالتزيين والخداع يزيّف الشيطان حقائق الأشياء، وهذا ما فعله في وسوسته لآدم ﷺ وزوجته، كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (الأعراف: 20-21). فلقد زيّن لهما المعصية بمكره وخديعته، وأقسم بالله كذباً ليؤكّد خداعه وأنه ناصحٌ أمين يدلّ على الخير، وما كان آدم ﷺ يظنّ أن أحداً يحلفُ بالله كذباً فاغترّ به. وهكذا يستهوي الشيطان بني آدم بالأماني الكاذبة والحيل الماكرة، وفي ذلك يقول الله سبحانه مُخبراً عن هذا الكيد الشيطاني: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: 120)[2].

- **الإيقاع في الإفراط أو التفريط**: وذلك أنّ الغالبُ على الخلق: عدم التوسّط في السلوك، حيث يلبّسُ عليهم الشيطان بتضخيم جانب على جانب آخر، وقلّ من يلتزم الصراط المستقيم، وصدق من قال:

وخيرُ الأمور الوسط الوسيط   وشرّها الإفراطُ والتفريط!

ومن هذا الانحراف الذي يوحي به الشيطان، يحذّرنا لإمام ابن القيّم رحمه الله قائلاً: «وما أمرَ الله عزّ وجلّ بأمر إلاّ وللشيطان فيه نزغتان: إمّا تقصيرٌ وتفريط، وإما إفراطٌ وغلوّ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين.

(1) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: (1/ 110).

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس: (2/ 662-663).

فإنه يأتي إلى العبد فيشامّه، فإن وجد فيه تقصيراً أو فتوراً أو توانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطّة، فثبّطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبدُ المأمور جُملةً!

وإن وجد عنده حذراً وجدّاً، وتشميراً ونهضةً، وأيس أن يأخذه من هذا الباب، أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له: أنّ هذا لا يكفيك، وهمّتك فوق هذا. وينبغي لك أن تزيد على العالمين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرّات، فاغسل أنت سبعاً، وإذا توضّأ للصلاة، فاغتسل أنت لها... ونحو ذلك من الإفراط والتعدّي! فيحمله على الغلوّ والمجاوزة وتعدّي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير.. وقد فتنَ بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلاّ علم راسخٌ، وإيمان وقوّة على محاربته ولزوم الوسط، والله المستعان»[1].

وعادةً ما نقعُ في هذه الورطة، بسبب الجهل وقلّة التوفيق، والتعصّب، وانعدام الرؤية المتكاملة لشموليّة الإسلام. فقلّ مَن رُزقَ (فقه الأولويات والموازنات)، فترى في بعض المتعبّدين: مَن يبالغ في الزّهد والتفرّغ للعبادة، حتى ينقطع عن الحياة، ويضيع حقوق أهله وتربية أولاده والسعي في التكسّب! وآخر يجتهدُ في الاشتغال بطلب الرزق، فينغمس في أعمال الدنيا، ويستغرق أوقاته في تحصيل الأموال، حتى ينسى آخرته ويضيع نفسه وهو يظن أنه يحسن صُنعاً!

وسمعتُ ببعض الإخوة المجتهدين في الدعوة والتبليغ، كيف يخرجون في سبيل الله شهوراً، ويتركون أهاليهم في فاقة وضياع! ورأيت آخرين يتابعون الشأن العام بدعوى نُصرة الإسلام، وينشغلون بالسياسة، ويرابطون في الاجتماعات والملتقيات، مع إضاعة الصلوات والغفلة عن كثير من الواجبات!

(1) الوابل الصيّب: (ص 48).

وكلّ هذه المبالغات بسبب تضخيم جانب بعض الأعمال على حساب جوانب أخرى، والأخطر من ذلك: تسويغ هذا الانحراف أحياناً بأدلة شرعية في غير محلّها، حتى يجعل أحدهم ما لديه من غلوّ أو تقصير هو الصواب وغيره سراب!

وهذا من التنطّع الذي حذّر منه نبيّنا ﷺ قائلا: «هلكَ المتنطّعون... قالها ثلاثاً»[1] والمتنطّعون هم: المتشدّدون في غير موضع التشدّد، والذين بلغ بهم الغلوّ إلى مجاوزة الحدّ في القول والفعل.

وقد يُصابُ هذا المتنطّعُ بالعُجب والغرور، ويستحلّ ما هو فيه من انحراف، ويتكبّر عن قبول الحق، حتى يستحوذ عليه الشيطان ويصير من أهل الأهواء، عياذاً بالله! وقد أشار الإمام الشوكاني إلى هذا الخطر، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران: 135)، فذكر أنه لمّا نزلت هذه الآية صاح إبليسُ بجنوده، وحثا على رأسه التراب، ودعا بالويل والثبور، حتى جاءته جنوده من كلّ بَرّ وبحر، فقال لهم: نزلت آيةٌ في كتاب الله، لا يضرّ بعدها أحداً من بني آدم ذنبٌ، فقالوا: وما هي؟ فأخبرهم، قالوا نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يرون إلاّ أنهم على الحق»[2].

- **التثبيط عن الطاعة**: كما قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 268). قال الإمام البغوي: وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ الشَّيْطَانَ يُخَوِّفُكُمْ بِالْفَقْرِ، وَيَقُولُ لِلرَّجُلِ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ مَالَكَ فَإِنَّكَ إِذَا تَصَدَّقْتَ بِهِ افْتَقَرْتَ، وَ[يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ]، أَيْ: بِالْبُخْلِ وَمَنْعِ الزَّكَاةِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كُلُّ الْفَحْشَاءِ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ الزِّنَا إِلَّا هَذَا، [وَاللَّهُ

(1) رواه مسلم برقم (2670).

(2) فتح القدير، للشوكاني: (1/ 382).

يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ]، أي: لذنوبكم [وَفَضْلًا] أي: رزقا وخلفا، [وَاللهُ واسِعٌ] غَنِيٌّ [عَلِيمٌ]»[1].

• **ومن أنواع التثبيط:** «**الحرب النفسية**» التي يشنّها الشيطان وأعوانه على أهل الإيمان، قال الإمام ابن القيم: «ومن كيد عدوّ الله تعالى: أنه يخوّف المؤمنين من جُنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:175).

والمعنى عند جميع المفسّرين: أي يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: «يُعظّمهم في صدوركم»، ولهذا قال: [فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين]، فكلما قوي إيمان العبد، زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»[2].

والشيطان لا ينفكّ عن تثبيط العبد عن الطاعات، فيقعدُ له على سائر الطرقات، ينفّرهُ منها، ويذكُر أخطارها وصعوباتها، لعلّه يثنيه عن عزمه ويصدّه عن التقدّم إلى الله، وقد ذكر لنا النبي ﷺ أمثلةً على ذلك حيث قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ، وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ، فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[3].

---

(1) معالم التنزيل: (1/ 268).

(2) بدائع التفسير: (1/ 257-258)، ط. دار ابن الجوزي.

(3) رواه النسائي (3134) وهو في السلسلة لصحيحة (2979).

• **ومن أنواع هذا التثبيط عن طاعة الله**: ما يجده الكثير من الناس من فتور وتثاؤب عند القيام للصلاة، وحضور مجالس الذكر وتلاوة القرآن، وذلك أن الشيطان الذي «يجري من ابن آدم مجرى الدم» -كما في الحديث-[1] يكرهُ الطاعات، ويحبُّ المعاصي والغفلات. فتجده عادةً ما يُبغّضُ لنا الأُولى، ويُحبّبُ إلينا الثانية! فما يصيبُ الكثير من المسلمين من وهن وعجز عن قيام الليل مثلاً، فإنما هو: تثبيط شيطاني، وقد أخبرنا نبينا ﷺ بذلك حيث قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ، يضرب كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقُدْ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عُقَدُه كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[2] وزاد في رواية: «فحلّوا عُقدَ الشّيطان عليكم»[3].

وذُكر عند رسول الله ﷺ رجلٌ نام ليلة حتى أصبح -أي لم يصلّ قيام الليل-، فقال: «ذاك رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذُنيه»[4].

- **إلقاء الشبهات**: قال الشيخ عمر سليمان الأشقر: «ومن أساليبه في إضلال العباد: زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات، وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التي يلقيها، ففي حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ»[5].

(1) رواه البخاري برقم (2035).

(2) رواه البخاري (3096) ومسلم (776).

(3) أوردها الحافظ عبد الحق الإشبيلي، في كتاب التهجّد (ص 178) من رواية الدولابي.

(4) رواه البخاري (3097) ومسلم (774).

(5) رواه البخاري (3277) ومسلم (134).

ولم يسلم الصحابة -رضوان الله عليهم- من شبهاته وشكوكه، وجاء بعضهم إلى الرسول ﷺ يشكون ما يعانونه من شكوكه ووساوسه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به! قال: «أو قد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان»[1]. وصريح الإيمان دفعهم وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها، وقد سئل الرسول ﷺ عن الوسوسة فقال: «تلك محض الإيمان»[2].

وانظر إلى شدّة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه، روى أبو داود في سننه[3] عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه -يعرض بالشيء- لأن يكون حممةً أحبّ إليه من أن يتكلم به، فقال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والمؤمن يُبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر، التي يضيق بها صدره. كما قالت الصحابة: «يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به». فقال «ذاك صريح الإيمان». وفي رواية: «ما يتعاظم أن يتكلم به». قال: «الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة». أي: حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له، ودفعه عن القلوب هو من صريح الإيمان، كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه، فهذا عظيم الجهاد»، إلى أن قال: «ولهذا يوجد عند طُلاّب العلم والعباد من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم، لأنه [أي الغير] لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل هو مُقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه، وهذا مطلوب الشيطان

(1) رواه مسلم (132).

(2) رواه مسلم (133).

(3) صحيح سنن أبي داود (4271).

(4) عالم الجن والشياطين: (ص 79).

بخلاف المتوجّهين إلى ربهم بالعلم والعبادة، فإنه عدوّهم يطلب صدّهم عن الله تعالى»[1].

وهذه الوساوس لن تضرّ المُؤمن بإذن الله تعالى، ما دام قائماً بواجب مجاهدتها واستنكارها والإعراض عنها. والله قد علم أمرها، ورفع عنّا الحرج في شأنها ما لم نُعلنها. وبشارة نبينا ﷺ تُطمئن القلب بقوله: «إنّ الله تعالى تجاوز عن أمّتي: ما وَسْوَسَت به صدورها، ما لم تعمَلْ أو تتكلّم»[2].

د. الحكمة من فتنة الشيطان: إنّ الله الحكيم سبحانه، قد ابتلى الإنسان بعداوة الشيطان، وجعله محكّاً يمتحنُ به الخلق، ليتبيّن خبيثهم من طيّبهم. وهذا الابتلاء -مع ما في ظاهره من الشرّ- فإنه من أعظم أسباب الخير، إذْ به يستيقظ العبدُ من غفلته، ويتخلّى عن كبره وطغيانه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق:6-7)، وتضطرّه هذه المحنة إلى اللّجوء إلى ربّه، وإكمال مراتب العبودية: بالاستعانة بالله، والاستعاذة به، والتوكّل عليه، ومجاهدة النفس في سبيله[3].

ومن فضل الله وعدله ورحمته بعبده، أن جعل كيد عدوّه محدوداً، حيث قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء:76)، وأمدّ الانسان بجنود خفيّة، تحميه من فتن الشيطان. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيّم رحمه الله: إنّ الله سبحانه وتعالى خلق هذا الآدمي، واختاره من سائر البرية، وجعل قلبه محلّ كنوزه من: الإيمان والتوحيد والإخلاص، والمحبّة والحياء والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله، وهو النظر إلى وجهه، والفوز برضوانه، ومجاورته في جنته. وكان مع ذلك

(1) كتاب الإيمان: (ص 147) من الطبعة الهندية./ قلت. وفي الفتاوى الكبرى (22/ 609): قال الإمام ابن تيمية: «قِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: إنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: لَا نُوَسْوَسُ، فَقَالَ: صَدَقُوا، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِالْبَيْتِ الْخَرَابِ».

(2) أخرجه البخاري (2528) ومسلم (127).

(3) انظر: باب (طرق إثبات حكمة الرب تعالى في خلقه) من كتاب «شفاء العليل» للإمام ابن القيم.

قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوّه إبليس لا يفتر عنه، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد: ثلاثة مسلّطون آمرون! فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر، وأمدّه بِمَدَدٍ آخر، يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله، وأنزل عليه كتابه، وأيّده بمَلَكٍ كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمرٍ، أمره الملك بأمر ربه، وبيَّن له ما في طاعة العدو من الهلاك. فهذا يُلِمُّ به مرة، وهذا مرة، والمنصورُ من نصره الله عز وجل، والمحفوظُ من حفظه الله تعالى. وجعل له مقابل نفسه الأمَّارةِ نفساً مطمئنة، إذا أمرته النفسُ الأمَّارة بالسوء نَهَتْهُ عنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمَّارة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة. فهو يطيع هذه مرة، وهذه مرة، وهو للغالب عليه منهما، وجعل له مقابل الهوى الحاملِ له على طاعة الشيطان والنفس الأمَّارةِ نوراً، وبصيرةً، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى؛ فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذر الحذر!؛ فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامِيَّة، وقُطَّاعِ الطريق؛ إن سرت خلف هذا الدليل[1].

وثبت في الحديث أن الله تعالى -كما امتحن العبد بقرين من الجن- وكّل به كذلك ملكاً كريماً يلهمه الرشد ويدلّه على الخير، فقد قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإيّاك يا رسول الله؟ قال: وإيّاي، إلاّ أنّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاّ بخير»[2].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: «اعلم أنّ الله تعالى وكّل بقلبِ ابن آدم ملكاً يدعوه إلى الخير، يُقالُ له المُلهِمُ، ولدعوته إلهامٌ، وسلّط في مقابلته شيطاناً يدعو العبد إلى الشرّ، يُقالُ له وسواسٌ، ولدعوته وسوسةٌ، فالملهم لا يدعو إلا إلى الخير،

(1) الوابل الصيب: (ص 49-50)

(2) رواه مسلم (2814)، وقد ذكر الإمام النووي في شرحه أن كلمة «فأسلم» وردت بضمّ الميم، وفتحها، فهي بالضمّ بمعنى: أسلمُ من شرّه وفتنته، وبالفتح بمعنى: أنه صار مسلماً، أو أنه استسلم وانقاد.

والوَسواس لا يدعو إلا إلى الشرّ في قول أكثر علمائنا»[1]. وفي الحديث: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ: فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ: فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ الآية...»[2].

هـ. **التحصّن من الشيطان**: نجد في ديننا الإسلامي -والحمد لله- أعظم وسائل الحفظ والتحصين من كيد الشياطين، وهي وسائل ناجعة وقويّة بإذن الله، ونافعة لكلّ مؤمن مُتوكّل على الله، وأهمّها:

- **توحيد الله وتقواه**: وهو أعظم أسباب القوّة التي يلزم إعدادها في هذه الحرب المتواصلة، فعلى العبد أن يحصّل: قوة الإيمان بالله وتوحيده، والتوكّل عليه، والاعتصام به، وإخلاص كل العبادات له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:99)، وقال سبحانه حاكيا عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: 39-40)[3].

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان لما أوعد بأنه سيُضلّ أكثر بني آدم، استثنى من ذلك عباد الله المخلصين، معترفا بأنه لا قدرة له على إضلالهم، ونظيره قوله في (سورة ص: 82-83) أيضا: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وعباد الله المخلصون هم

---

(1) منهاج العابدين: (ص 135).

(2) رواه الترمذي (2988)، وصححه ابن حبان (977).

(3) قال الإمام ابن عاشور رحمه الله: «وقرىء [المخلصين] بفتح اللام لنافع وحمزة وعاصم والكسائي على معنى: الذين أخلصتَهم وطهّرتهم. وبكسر اللام لابن كثير وابن عامر وأبي عمرو، أي: الذين أخلَصوا لك في العمل».(التحرير والتنوير: 10/ 264).

المرادون بالاستثناء في قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 62)، وقوله في (سبأ:20): ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم الذين احترز منهم بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف:17)، وبيّن تعالى في مواضع أخر أن الشيطان لا سلطان له على أولئك المخلصين»[1].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «أي: فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم، فقرّر اللهُ عزوجل ذلك أتمّ تقرير بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الحجر: 41)، وأخبر أن الإخلاص: صراطٌ عليه مستقيم [أي صراطٌ موصلٌ إليه]. فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراطٌ عليّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحَوم حول ساحته، فإنه محروسٌ محفوظٌ بالله، فلا يصل عدُوّ الله إلى أهله»[2].

وهذا الإيمان بالله تعالى وتوحيده، يُدخل الإنسان في حمى ربّ العالمين، ومن حصّل هذه الحصانة الإلهية والرعاية الربانية، فهو في حصن حصين، وهذا التوحيد والإيمان يورث الإنسان الشعور بالأمن والأمان، ويجعله في حرز من عوادي الإنس والجان، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (سورة الحج: 38)، قال الحافظ ابن كثير: «يُخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شرّ الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ (الزمر:36)، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:3)»[3].

وقال الشيخ السعدي: «هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدفع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر -بسبب إيمانهم- من شر الكفار،

(1) أضواء البيان (2/ 277).

(2) التفسير القيم، لابن القيم: (ص 14).

(3) تفسير القرآن العظيم: (5/ 433).

وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره، ما لا يتحملون، فيُخفّفُ عنهم غاية التخفيف»[1].

وقد كان في سلفنا الصالح مَن تهابه الشياطين وتفرّ منه، وذلك لقوّة إيمانه وشدّة استقامته، فقد ثبت في فضائل سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له يوماً: «يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لَقِيَكَ الشيطانُ سالكاً فجّاً قطّ إلا سلك فجّاً غير فجّك»[2]. وقال الحافظ ابن حجر: «فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضي أن الشيطان لا سبيل له عليه، ووقع في حديث حفصة عند الطبراني في «الأوسط» بلفظ: «إن الشيطان لا يلقى عمر منذ أسلم إلا خرّ لوجهه». وهذا دالّ على صلابته في الدين، واستمرار حاله على الجدّ الصّرف والحقّ المحض. وقال النووي: هذا الحديث محمول على ظاهره وأن الشيطان يهرب إذا رآه»[3].

ومن القصص المعبّرة في بيان أهمّية الإخلاص لله في صراعنا مع الشيطان: ما ذكره إمام التابعين الحسن البصري رحمه الله: أنّ عابداً عبد الله تعالى دهرًا طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إنّ ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك، فأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله، قال: وما أنت وذاك؟ تركت عبادتك والاشتغال بنفسك وتفرّغت لغير ذلك؟ فقال: إنّ هذا من عبادتي، فقال له: إني لا أتركك تقطعها، قال: فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره، فلما رأى إبليس أنه لا طاقة له به ولاسلطان له عليه قال: يا هذا هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع من هذا الأمر الذي جئت تطلبه؟ قال: وما هو؟ قال: قُم عنّي أخبرك به، فأطلقه العابد فقال له إبليس: أنت رجل فقير

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 551).

(2) رواه البخاري (3683).

(3) فتح الباري: (7/ 47).

لا شيء لك إنما أنت كَلّ على الناس يعولونك. وإنّي أعرضُ عليك امرأً هو خيرا لك، فارجع عن قطع الشجرة، وسوف تجد عند رأسكَ كلّ يومٍ دينارين.

قال: فتفكر العابد فيما قال له وقال: صدق الشيخ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله تعالى أن أقطعها فأكون قد عصيت بتركها. وإنما هو شيء تفضّلت به، وماذا يضرّ الموحدين من بقائها وهذا الذي ذكره أكثر منفعة لعموم الناس. قال: فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد إلى متعبّده فبات ليلته فأصبح فإذا ديناران عند رأسه فأخذهما، ثم كذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث فلم يرَ شيئًا، ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد فغضب وأخذ فأسه على عاتقه وخرج يؤم الشجرة ليقطعها وقال: إن فاتني أمر الدنيا لا أتركنّ أمر الآخرة، قال: فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد؟ قال: أقطع تلك الشجرة، قال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليه، قال: فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أول مرة فقال: هيهات قال: فأخذه إبليس فصرعه فإذا هو كالعصفور بين يديه، قال: وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهينَ عن هذا الأمر أو لأذبحنك، فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا قد غلبتني فحلّ عني وأخبرني عنك كيف قد غلبتك أول مرة فصرعتك والآن غلبتني فصرعتني؟ فكيف ذلك؟ قال له إبليس: لأنك أول مرة غضبت للهّ تعالى وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك فغلبتني، وهذه المرة جئت مغاضباً لنفسك وكانت نيتك الدنيا فسلطني الله تعالى عليك فصرعتك[1].

فمن وحّدَ اللهَ تعالى وعظّمه، وأخلص في عبادته، وأناب إليه، وأقبل عليه بالكلّيّة، وخافه في السرّ والعلانية، صار أقوى الناس وأسعد الناس، وقلّ أن يهزمه الوسواس الخنّاس. وأمّا من فسدت نيّته، وخلّط في عباداته، ونافق في معاملاته، وخان الله تعالى في خلواته، وتجرّأ على معصيته، فقد مكّن العدوّ من نفسه، وصار

(1) قوت القلوب، لأبي طالب المكي (2/ 162) وتلبيس إبليس: (ص 33).

أسيراً في قبضته، لا فكاكَ له إلاّ بالتوبة إلى الله، واستمداد العون والقوّة من سيّده ومولاه! وصدق الإمام ابن القيّم حيث قال: «تالله ما عدا عليك العدوّ إلاّ بعد أن تولّى عنك الوليّ، فلا تظنّ أن الشيطان غلب ولكن الحافظ أعرض»[1].

- **ذكرُ الله ودعاؤه:** بعد تجريد التوحيد الخالص لله تعالى وإفراده بالعبادة، على العبد ألاّ يغفل عن أعظم التحصينات والحروز التي تحفظه من شرّ الشياطين، ألا وهي: ذكر الله جلّ في عُلاه والالتجاء إليه بالأدعية المأثورة، وهذا أعظم الأسلحة التي يقاوم بها العبد عدوّه، وذلك أنّ الشيطان لا يتسلّط على العبد إلاّ إذا غفل عن ربّه سبحانه.

وذِكرُ الله كثيراً يطرد الغفلة، ويورث اليقظة التامّة للمؤمنين، ويجعلهم دائماً في حالة تذكّر، فلا يفلح الشيطان في التسلّط عليهم وإضلالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: 201).

وأمّا من غفل عن ربّه سبحانه، فقد فقـدَ المناعة الرّوحية، وبدأ في هدم حصونه الإيمانية، وهكذا يستحوذ عليه الشيطان، حتى ينسيه ذكر ربّه الرحمان، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ (المجادلة: 19).

ومن الكلمات الخمس التي أمر الله بها نبيّه يحي بن زكرياء ﷺ، وذكرها نبيّنا ﷺ قوله: «وآمركم: أَن تَذكرُوا الله تَعَالَى، فَإِن مثل ذَلِك: كَمثل رجل خرجَ الْعَدوّ فِي أَثَره سِرَاعًا، حَتَّى أَتَى على حصن حَصِين فأحرزَ نَفسه مِنْهُم، كَذَلِك العَبْد لَا يحرز نَفسه من الشَّيْطَان إِلَّا بِذكر الله تَعَالَى»[2].

قال الإمام ابن القيم: «فقد ذكر ﷺ في هذا الحديث العظيم الشأن -الذي ينبغي لكلّ مسلم حفظه وتعقّله- ما يُنجي من الشيطان، وما يحصل للعبد به من الفوز

(1) الفوائد: (ص 90).

(2) رواه الترمذي (2863) وقال: حسن صحيح، وهو في صحيح الجامع (1724).

والنجاة في دنياه وأخراه»[1]، وأضاف رحمه الله قوله: «فلو لم يكن في الذكر إلّا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقاً بالعبد أن لاّ يفتر لسانه عن الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوّه إلاّ بالذّكر، ولا يدخل عليه العدوّ إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر، وانقمع، حتى يكون كالوصع [طائر صغير] وكالذباب، ولهذا سُمّي [الوسواس الخنّاس]، أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالى خنس، أي: كفّ وانقبض. وقال ابن عبّاس: الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس»[2].

وقد بيّن لنا الإمام ابن القيم رحمه الله عظمة سلاح الذكر، فقال: «ذكرُ الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مضني مما يعذبه ويقمعه به من ذكر الله وطاعته كما جاء في هذا الحديث.. لأنه كلما اعترضه صبَّ عليه سياط الذكر، والتوجه والاستغفار والطاعة. فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر، الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قويا عاتيا شديداً.. فمن لم يُعَذّب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته، عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه»[3].

بل أخبرنا الإمام ابن القيم بأمر عجيب، حيث قال رحمه الله: «بالذكر يَصرعُ العبدُ الشيطانَ، كما يصرعُ الشيطانُ أهل الغفلة والنسيان»[4]. وعن ابن مسعود ﷺ قال: «إن شيطان المؤمن يلقى شيطان الكافر فيرى شيطان المؤمن شاحبا أغبر مهزولاً

(1) الوابل الصيّب: (ص 53).

(2) المرجع نفسه: (ص 83).

(3) بدائع التفسير: (3/ 447).

(4) مدارج السالكين: (2/ 424).

فيقول له شيطان الكافر: مالكَ ويحكَ قد هلكت؟ فيقول شيطان المؤمن: لا والله ما أَصِلُ معه إلى شيء، إذا طَعِمَ ذكر اسم الله، وإذا شرب ذكر اسم الله، وإذا نام ذكر اسم الله، وإذا دخل بيته ذكر اسم الله.. فيقول الآخر: لكني آكلُ من طعامه، وأشربُ من شرابه، وأنامُ على فراشه»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ المؤمنَ لَيَنضي شيطانه، كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[2]. قال العلّامة المُناوي رحمه الله: «"لينضي شيطانه" أي: يهزله ويجعله نضواً، أي: مهزولاً لكثرة إذلاله له وجعله أسيراً تحت قهره وتصرّفه، ومن أعزّ سلطان الله، أعزّ اللهُ سلطانه، وسلّطه على عدوّه.. قال قيس بن الحجّاج: قال لي شيطاني: دخلتُ فيك وأنا مثل الجزور، وأنا الآن كالعصفور. قلتُ: ولم ذا ؟ قال: أذبتني بكتاب الله!»[3].

- **أذكار التحصين:** وقد ثبتت العديد من الأذكار والأدعية النبوية التي تُحصّنُ العبد من الشيطان، وتحفظه من مكائده، ومنها:

• **التهليل والبسملة:** قوله ﷺ: «من قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ لَهُ الْملك وَله الْحَمد وَهُوَ على كل شَيْء قدير مائَة مرّة، كَانَت لَهُ عِدْل عَشر رِقَاب، وَكُتب لَهُ مائَة حَسَنَة، ومُحيت عَنهُ مائَة سَيِّئَة، وَكَانَت لَهُ حِرْزاً من الشَّيْطَان يَوْمه ذَلِك حَتَّى يُمْسِي، وَلم يَأْتِ أحد بِأَفْضَل مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أحد عمل أَكثر من ذَلِك»[4].

وقوله ﷺ: «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمْ الْخَلَاءَ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ اللهِ»[5].

(1) مصنف عبد الرزاق (10/ 419) والطبراني (9/ 156) بسند صحيح.

(2) رواه أحمد (2/ 380) وهو في السلسلة الصحيحة رقم (3586).

(3) فيض القدير (2/ 479)

(4) البخاري (3293) ومسلم (2691).

(5) رواه الترمذي (606) وصححه الألباني في إرواء الغليل (1/ 90).

وفي رواية: «سِتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ، وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا وَضَعُوا ثِيَابَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللهِ»[1].

• **وأفضل الذكر**: هو كلام الله تعالى «القرآن الكريم»، فهو الذكر الحكيم، والنور المبين، وفيه الشفاء من جميع الأمراض، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:82)، وأعظم سوره التي تُحصّن من الشيطان «سورة البقرة»، التي قال فيها نبينا ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»[2].

• وأعظم آية تقمع الشياطين وتحفظ الإنسان بإذن الله تعالى: «آية الكرسي»، لحديث أبي هريرة الشهير، والذي جاء فيه أن الشيطان الذي جاء يسرق تمر الصدقة عرض عليه نصيحة مقابل إطلاق سراحه، وقال له: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح»، فلمّا أخبر بها النبي ﷺ قال: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»؟ قَالَ: لَا. قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»[3].

• ومن الآيات الحافظة كذلك: «أواخر سورة البقرة»، لما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[4]. وقال الإمام النووي: «قِيلَ مَعْنَاهُ كَفَتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقِيلَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ مِنَ الْآفَاتِ، وَيَحْتَمِلُ مِنَ الجميع»[5].

(1) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (273-274)، وأورده النووي في الأذكار (ص 18).

(2) رواه مسلم برقم (780).

(3) رواه البخاري (2311)

(4) رواه البخاري (4008) ومسلم (807).

(5) شرح مسلم (6/ 91).

- **الاستعاذة بالله**: وهي الالتجاء والتحصّن والاعتصام بالله لدفع شرور الشيطان. وهذه الاستعاذة -في الحقيقة- اعترافٌ من الانسان بافتقاره إلى خالقه العظيم سبحانه، قال الحافظ ابن كثير: «وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعةً ولا يُدارَى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان.. ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان»[1].

وحكى الإمام ابن الجوزي رحمه الله عن بعض السلف أنه «قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده!! قال: هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبُها أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأردّه جهدي.. قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يَكُفّهُ عنك»[2]، ولله المثل الأعلى.

● وقد أمرنا ربّنا سبحانه أن نتعوّذ به في عدّة آيات من كتابه، فقال جلّ شأنه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:200)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (النحل:98)، وقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون: 97-98).

● وأرشدنا نبينا ﷺ إلى الاستعاذة بالمعوذتين، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه: بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ، وَالْأَبْوَاءِ، إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ، وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِأَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَأَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، وَيَقُولُ: «يَا عُقْبَةُ، تَعَوَّذْ بِهِمَا فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا»[3].

---

(1) تفسير القرآن العظيم: (1/ 114).

(2) تلبيس إبليس (ص35).

(3) رواه أبو داود (1463) وصححه الألباني.

• ومن الأذكار الشرعية النافعة في الاستعاذة: قوله ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[1].

• وكان النبي ﷺ يُعوّذُ الحسن والحسين بقوله: «أعيذكُما بكلمات الله التمة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامة»[2].

• وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ، قَالَ: قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وإِذا أَخذْتَ مَضْجِعَكَ»[3].

تنبيه: أجاب الدكتور عمر الأشقر عن هذه الشبهة الشائعة: «يقول بعض الناس: إننا نستعيذ بالله، ومع ذلك فإننا نحس بالشيطان يوسوس لنا، ويُحرّضنا على الشر، ويشغلنا في صلاتنا!

والجواب: أن الاستعاذة كالسيف في يد المقاتل، فإن كانت يده قوية، أصاب من عدوه مقتلاً، وإلا فإنه قد لا يؤثر فيه، ولو كان السيف صقيلاً حديداً. وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقيّ ورع كانت ناراً تحرق الشيطان، وإذا كانت من مُخلّط ضعيف الإيمان فلا تؤثر في العدو تأثيراً قوياً. قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: واعلم أن مثل إبليس مع المتقي والمخلط، كرجل جالس بين يديه طعام ولحم، فمرّ به كلب، فقال له: اخسأ، فذهب. فمرّ بآخر بين يديه طعام ولحم فكلّما أخسأه (طرده) لم يبرح.

(1) رواه مسلم (2708).

(2) رواه البخاري (3371).

(3) رواه الترمذي (3529) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (2753).

فالأول مَثَلُ المتقي يمر به الشيطان، فيكفيه في طرده الذكر، والثاني مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه، نعوذ بالله من الشيطان. فعلى المسلم الذي يريد النجاة من الشيطان وأحابيله أن يشتغل بتقوية إيمانه، والاحتماء بالله ربه، والالتجاء إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

قلت: ومن أعظم ما يُحقّق الاستعاذة: تقوى الله بالتزام الفرائض والمواظبة على النوافل، وقد ثبت في الحديث القدسي أنّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[2].

2. **شياطين الإنس**: إنّ أعداء الإسلام والمسلمين من بني الإنسان من الكثرة بمكان، ولكن أبرزهم: ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (آل عمران: 186). وهنا عدّة ملاحظات في هذه الآية الكريمة جديرة بالانتباه والتسجيل:

الأولى: أنّ الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة [أذى كثيراً]، وهذا يدلّ على أن حرباً كلامية ستُعلن على أهل الإيمان، لتشويه دعوتهم، وتلويث سمعتهم، والتشكيك في سيرتهم وسريرتهم، وهي حربٌ أسلحتها الدسّ والتحريف والافتراء، فلا بدّ أن يوطّن المؤمنون أنفسهم على احتمال مكارهها، ويصبروا على تجرّع غصصها، حتى يحق الله الحق ويُبطلَ الباطل.

---

(1) عالم الجن والشياطين: (ص 134).

(2) رواه البخاري برقم (6502).

الثانية: أنّ الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى، فلم تكتف من المؤنين بالصبر وحده حتى يجمعوا على تقوى الله تعالى، ومعنى التقوى هنا: التعفّف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الدنيئة، فلا يواجَهُ الدسّ بالدسّ، ولا الافتراء بالافتراء، لأن المؤمنين تحكُمهم قيمهم الأخلاقية في السلم والحرب والرخاء والشدّة.

الثالثة: أنّ الآية قرنت كذلك بين الذين أوتوا الكتاب -من اليهود والنصارى- وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب ومَن على شاكلتهم، هذا مع اختلاف الفريقين في الدين والوجهة. وفي هذا إشارة إلى أن عداوتهم لأهل الإسلام وحّدت بينهم على ما بينهم من اختلاف. وهذا ما أثبته التاريخ قديماً، وأثبته الواقع حديثا. أثبته التاريخ حينما وجدنا اليهود -وهم أهل الكتاب- ينضمّون إلى جهة المشركين عُبّاد الأوثان من قريش وغطفان وغيرهما في حرب النبي ﷺ، إلى غير ذلك من وقائع التاريخ. وأثبته الواقع المعاصر، حيث وجدنا اليهودية العالمية، والشيوعية الدولية، والصليبية الغربية والشرقية تختلف فيما بينها أشدّ الاختلاف، ثم تتناسى هذا كلّه حين يكون العدو هو: الإسلام، فتجتمع كلمتها على حرب أمة الإسلام ودعوة الإسلام. وهذا مصداق ما جاء في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ (الأنفال: 72)، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ (الجاثية: 19)، ومن هنا قرّر فقهاؤنا: أن «الكفرَ ملّةٌ واحدة»[1].

والتدافع بين الحق والباطل: سنة جارية إلى يوم القيامة، وقد ابتُلِيَ رسولُ الله ﷺ وصحابته الأخيار ﭫ بصنوف من الأذى، ولا زال المسلمون -عبر التاريخ- يعانون من عداوة أهل الكفر والنفاق، ولولا صبرهم ومجاهدتهم لأهل الباطل لما رُفعت لهم راية. وهذه الحرب ستتواصل على الإسلام ابتلاءً وتمحيصاً، كما قال ربّنا سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ (البقرة: 217)،

(1) الصبر في القرآن، للقرضاوي: (ص: 17-18)

قال الإمام محمّد الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «والمعنى أن فتنتهم وقتالهم يدوم، إلى أن يحصل غرضهم، وهو أن يردّوكم عن دينكم» وقوله [إن استطاعوا]: «تعريضٌ بأنهم لا يستطيعون ردّ المسلمين عن دينهم»[1].

أ. **غربة الإسلام**: يعيشُ المسلمُ في هذا العصر غُربةً مريرةً، حيث لا يرى للإسلام وجوداً إلاّ في بعض الشعائر التعبّدية لدى أفراد من الناس. وهذه القلّة الملتزمة غريبة بدينها، ولا تسلم -غالباً- من ظلم أهل الباطل! ومَن تأمّل أحوال المسلمين في العالم يصيبه الحزن الشديد، لما يعانيه إخوانه في الدين من أنواع الأذى والتعدّي. وقد تنبّأ رسول الله ﷺ بهذا الأمر حيث قال: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطُوبى للغرباء»[2]. وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان: الصّابر فيهم على دِينه كالقابض على الجمر»[3].

وحقيقة هذه الغربة: أن يكون العبد على حال من الاستقامة والالتزام بالدين، والتعلّق بسنة سيّد المرسلين، رغم غلبة الضلاّل وكثرة المنحرفين والمبتدعين. فتراه يعاني فتن الشبهات والشهوات، وقد تطاله حملات التشويه والازدراء، زيادة على الإذاية والإقصاء. قال الإمام ابن القيم: «فهو غريب في دينه؛ لفساد أديانهم، غريب في تمسُّكه بالسنَّة؛ لتمسُّكهم بالبِدَع، غريب في اعتقاده؛ لفساد عقائدهم، غريب في صلاته؛ لسوء صلاتهم، غريب في طريقه؛ لضَلال وفساد طُرُقِهم. وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مسعداً ولا معيناً. فهو: عالمٌ بين جُهّال، صاحب سنة بين أهل بدع، داعٍ إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع. آمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر، بين قومٍ المعروف لديهم منكر والمنكر معروف»[4].

---

(1) التحرير والتنوير (2/ 331).

(2) رواه مسلم برقم (208).

(3) رواه الترمذي (2260) وهو في صحيح الجامع (8002).

(4) مدارج السالكين: (2/ 374).

وقد وصف نبينا ﷺ زمن الفتنة هذا بأيام الصبر، وشبّه الملتزم بدينه فيه بالقابض على الجمر، فقال: «إن من ورائكم أياما الصبر: الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله»، قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال: «بل أجر خمسين منكم»[1]. وفي بعض الروايات زيادة: «لأنكم تجدون على الخير أعوانا، وهم لا يجدون على الخير أعوانا»[2].

ب. **فضل الغرباء**: على المسلم الغريب -في هذا الزمان أن يتفاءَل بالخير، خاصّة بعد سماع البشارة النبوية السابقة، التي ترفع الهمم والمعنويات. ولا يحلّ له أن يستسلم للضّغوط، فيستحوذ عليه اليأس والاحباط. ولِتَعْلَم أخي الفاضل أن: هذه الأمّة عزيزة ومرحومة رغم آلامها وجراحها، وأن دينها منصورٌ بإذن الله تعالى. قال الحق سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: 8-9)، وبشّرنا نبينا بسيطرة الإسلام على سائر المعمورة، فقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ تعالى زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[3]. ويؤكّد انتشار هذا الدين في كافّة العواصم والبوادي قول النّبي ﷺ: «ليَبلُغنّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزاً يُعزّ الله به الإسلام وذلاً يذلّ الله به الكفر»[4].

فعلى المسلم أن يصبرَ على أذى الخلق، ويحتسبَ الأجر في مخالطتهم وإصلاحهم.

لكن عليه أن يكون إيجابيّاً، فلا يستسلم للجاهليّة، ولا يتراجع عن التزامه بشرع الله. وليعملْ على إنكار المنكر على قدر الطاقة، ورفع راية الإسلام، ونشر

(1) رواه أبوداود (4341) والترمذي (3058) وهو في صحيح الجامع (2234).

(2) مجمع الزوائد: (7/ 282).

(3) رواه مسلم (2889)، ومعنى «زَوَى» أي: جَمَع.

(4) أخرجه أحمد (4/ 103)، وهو في السلسلة الصحيحة (3).

السنن، وإماتة البدع، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، حتى يكثر أهل الدين، وتتقلّص غربة المسلمين، ويكون من الصالحين المصلحين، الفائزين ببشارة سيد المرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم، القائل فيها: «إنَّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا، فطوبى للغرباء»، قالوا: ومَن الغُرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»[1].

والغُرباء في أول الزمان وآخره لهم منزلة عالية عند الله تعالى؛ لأنهم تمسّكوا بدينهم ولم ينحرفوا كما انحرف غيرهم خوفاً أو طمعاً، وهو معنى «فطُوبَى للغُرَبَاء» أي العاقبة الطيبة لهم عند الله؛ وفسّرت «طوبى» بأنها: الجنّة، وقيل شجرة عظيمة في الجنة. وقد نالوا هذه المكرمة لثباتهم على الحق وصبرهم، فهم في شجاعتهم وقوتهم كالقابضين على الجَمر، وفي إصلاحهم ما أفسده الناس من الدين أبطالٌ مَغَاوير في ميدان الجهاد، يعانون ويقاسون مُحْتَسِبين أجرهم عند الله سبحانه. وقد أخبر النبي ﷺ عن هؤلاء الغرباء في آخر الزمان بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[2]. ويقول الإمام ابن القيم: «وهذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشدُّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا؛ فوليُّه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجَفَوْه»[3].

الإشارة الثالثة: فتنة المرض والفقر

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: 155). فيخبرنا ربّنا سبحانه في هذه الآية، أنه لا بُدّ أن يمتحننا في هذه الحياة الدنيا. وهذا الابتلاء يكون تارةً بالسرّاء وتارةً بالضرّاء،

(1) رواه الطبراني في الأوسط (3056)، وصححه الألباني في الصحيحة (1273).

(2) رواه مسلم (1920).

(3) مدارج السالكين: (3/ 196).

من: موت، ومرض، وخوف، وجوع... وهذه الابتلاءات قد كتبها الله علينا، ومن فضل الله تعالى ورحمته: أن ابتلانا سبحانه بالقليل من المصائب [بشيء من الخوف والجوع]، فلو امتحننا بالخوف كلّه والجوع لهلكنا. فإذا وقعت المصيبةُ انقسم الناس -عادةً- إلى قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع، حَصُلت له المصيبتان، فوات المحبوب بحصول هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر، فرجع بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران. وأما من وفّقه الله للصبر عند نزول المصيبة، فحبس نفسه عن التسخّط باطناً وظاهراً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يُدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، فهذا قد انقلبت محنته إلى منحة، وشدّته إلى شهدة، ومصيبته إلى نعمة، فلهذا قال تعالى: [وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ] أي: بشّرهم بأنهم يُوَفَّوْنَ أجورهم بغير حساب.

1. **فتنة المرض:** ومن الابتلاءات التي قد تؤثّرُ أحياناً على تقدّم العبد إلى ربّه سبحانه: محنة المرض، حيث يجزع بعض الناس، ولا يطيق معاناة هذا الابتلاء، وقد يسيىء الظنّ بالله جلّ في عُلاه، فينتكس ويتأخّر عن ربّه ومولاه!

فعلى المسلم أنّ يعلمَ أنّ هذا الابتلاء: سنّةٌ جارية، قد أصابت أشرف الخلق. قال ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون»[1]. فنبينا محمد -ﷺ- سيد الأولين والآخرين، والمغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ابتُلِيَ بالمرض رِفعَةً لدرجاته، فعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَمَسَسْتُهُ بيدي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»، فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَجَلْ»[2]. بل إن النبي ﷺ اشتدّ عليه الأمر في مرضه الذي

(1) رواه ابن ماجة (4024)، وهو في السلسلة الصحيحة (144).

(2) رواه البخاري (5667) ومسلم (2571).

مات فيه، وأُغمي عليه ثلاث مرات، حتى قالت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

وأما الحكمة في ابتلاء الأنبياء؛ فقد أشار الإمام ابن القيم إلى بعضها قائلاً: «فإنه سبحانه كما يحمي الأنبياء ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم:

1. ليستوجبوا كمال كرامته.

2. وليتسلّى بهم مَن بَعدهم من أُممهم وخُلفائهم إذا أُوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسّوا بهم.

3. ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أُعِدّ لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم. فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة، لا إله غيره، ولا رب سواه»[2].

فإذا تأمّل المسلم حال الأنبياء والصالحين من قبله، وما أصابهم من الشدائد والمحن، ازداد صبراً وإيماناً. وقد كان السلف يفرحون بالبلاء كما نفرح نحن بالرخاء، وكانوا يقولون رحمهم الله: «لولا المصائب لوردنا يوم القيامة مفاليس»!

فاصبر أيها المسلم على الأمراض والأسقام، واعلم أنها كفّارات ورفع للدرجات، فقد قال ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[3]. وبشّرنا بأنّ أهل البلاء يحسدهم أهل العافية يوم الحساب، لعظيم الأجر والثواب، فقال ﷺ:

(1) رواه البخاري (5646) ومسلم (2570).

(2) بدائع الفوائد: (2/ 452).

(3) رواه البخاري (5642) و(2573).

«يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ، لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ»[1].

وعادة ما تضطرّ المحنُ العبدَ إلى الاجتهاد في طاعة ربّ العباد، فيكثرُ من التضرّع والدعاء، فيزدادُ قرباً من ربّ الأرض والسماء. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ (الزّمَر: 8) يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «الله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرّعه ودعاءه، وقد ذمّ سبحانه من لم يتضرّع اليه ولم يستكِن له وقت البلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون: 76)، والعبدُ أضعفُ من أن يتجلّد على ربه، والربّ تعالى لم يُردْ من عبده أن يتجلّد عليه، بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرّع إليه»[2]. ويضيفُ قوله رحمه الله: «وأحبّ خلقه إليه أكثرهم وأفضلهم له سؤالا، وهو يحبّ الملحّين في الدعاء، وكلما ألحّ العبدُ عليه في السؤال، أحبّه وقرّبه وأعطاه»[3].

2. **فتنة الفقر**: وهي محنة شائعة، يُبتلى بها مُعظم أهل الإيمان، وتشتدّ خاصة على الدعاة والمصلحين، الذين يستهدفهم عادة الطّغاة والمفسدون، الذين عُرفوا منذ القدم بممارسة «سياسة التجويع» لخصومهم! وهي إحدى الجرائم التي ارتكبها المشركون في حق المؤمنين خلال العهد المكّي. فبعد الجهر بالدعوة الإسلامية، انطلقت سلسلة الإذايات والتشويه والتعذيب لأهل الإيمان، ثمّ صعّد كفّار قريش في حملتهم على المسلمين، فعمدوا إلى مقاطعتهم، ومحاصرتهم في شِعْبٍ من شعاب مكّة، فأصابهم الفقر وشظف العيش حتى أكلوا العشب وأوراق الشجر، وظلّت هذه المقاطعة ثلاث سنوات! ومن صور هذه الظروف الصعبة التي ألّمت بالمسلمين: ما حصُل للصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حيثُ قال: «لقد رأيتُني مع

(1) رواه الترمذي (2402) وحسنه الألباني (1960).

(2) عدة الصابرين: (ص36).

(3) حادي الأرواح: (ص: 91).

رسول الله ﷺ بمكة، فخرجتُ من الليل أبول؛ فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي، فنظرت فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها، فرضضتها بين حجرين ثم استففْتُها، فقويتُ بها ثلاثاً!»[1]. ولو كان المسلمون الأوائل موظفين أو مستخدَمين في دولة تخالفهم فيما يدعون إليه، للجأت تلك الدول إلى فصلهم من أعمالهم كوسيلة من وسائل الحرب التي تتخذها ضدّهم[2].

ومن ابتُلي بالفقر والحاجة، فعليه أن يتعاطى أسباب الكسب الحلال، ويستعين بالله ولا يعجز. ولْيُكثر من الدعاء والاستغفار، فقد قال ﷺ: «من لزم الاستغفار: جعل اللهُ له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل همٍّ فرجًا، ورزقهُ من حيث لا يحتسب»[3]. وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يُقال له أبو أمامة، فقال: «يا أبا أُمامة مالي أَرَاك جالِسًا في المسجد في غير وقت صلاة؟» قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، قال: «أفلا أُعلّمك كلامًا إذا قُلتَهُ أذْهَبَ الله همّك وقضى عنك دينك؟»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»، قال: ففعلتُ ذلك، فأذهب الله تعالى همّي وقضى عني ديني»[4].

وليتفاءل العبدُ خيراً، فإن رحمة الله قريبٌ من المحسنين، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5-6)، ورُويَ في تفسيرها عن الحسن أنّ رسول الله ﷺ خرج يوماً مسروراً فرحاً، وهو يضحكُ ويقول: «لن يغلبَ عسرٌ

---

(1) سيرة ابن إسحاق (1/ 173).

(2) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، للدكتور مهدي أحمد: (ص 221).

(3) رواه أبو داود (1518)، وأحمد (1/ 284) وصحّحه الشيخ أحمد شاكر في تخريجه.

(4) رواه أبوداود (1555)، وحسنه الأرناؤوط على جامع الأصول (4/ 296).

يُسرين»[1]. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «قوله تعالى: [فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً- إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً]، فالعسر -وإن تكرر مرتين- فتكرر بلفظ المعرفة، فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة، فهو يسران، فالعسر محفوفٌ بيُسرين، يُسرٌ قبله، ويسرٌ بعده، فلن يغلب عسرٌ يُسرين»[2].

والتوكّلُ على الله تعالى: هو أعظمُ ما يُستعانُ به في طلب الرّزق الحلال؛ فقد قال ﷺ: «لو أنّكُم تتوكّلون على الله حقّ توكّله، لرزقكم كما يرزُقُ الطيرَ، تغدو خِماصاً وتروحُ بطاناً»[3]. فهذه الطيور مع أنّها حيوانات غير عاقلة، ولكن عندها حقيقة التوكّل، وهو: «الثقةُ بما عند الله، وصدقُ اعتماد القلب على الله». فهي تقفزُ صباحاً من أعشاشها خِماصاً، أي فارغة البطون، ثم تعودُ بعد ذلك مليئةً بالطعام! كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: 3).

فتأمّل -أخي الفاضل- كيف توكّلَت هذه الطيور على الله تعالى، وأيقنت أنه سبحانه سيرزقها، فتعاطت الأسباب وانتشرت في الجوّ تجتهدُ في طلب رزقها، مع أنه لا شيءَ مضمونٌ لديها؛ فهي لا تملكُ وظيفةً في إدارة، ولا عملاً في مُؤسّسة، ولا دكّاناً في سوق!

فاستعن بالله -أيها المسلم- ولا تعجز، وسيكشف الله غمّك ويفرّج كربك، ويجعل لك من أمرك يسرا، فأَرِهِ من نفسك خيرا، فقد قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: 2-3).

(1) رواه ابن جرير (30/ 151).

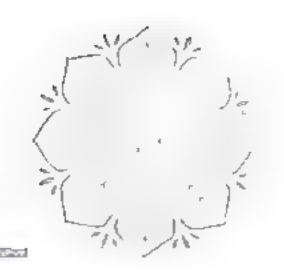
(2) بدائع الفوائد (2/ 155).

(3) أخرجه أحمد (1/ 30)، وهو في السلسلة الصحيحة (310).

المحطّة السابعة

مُحرّكات التقدّم إلى اللّه

- اللوحــة الأولى: محــرّك الخوف
- اللوحــة الثانية: محــرّك الرجاء
- اللوحــة الثالثة: محــرّك المحبّة



مدخل

«**المُحرّكات**» -في اللّغة- جمعُ مُحرِّكٍ، وهو اسم فاعل من حرّكَ الشّيءَ: أي جعله ذا حركةٍ، أو أخرجه عن سكونه. فالمحرّك: هو الباعث، أو الدافع، أو المثير(1). وحسب علماء السلوك، فإنّ «المحبّة» و«الخوف» و«الرجاء»: هي أعظم المحرّكات، التي توقض غفلة الغافلين، وتثير شوق العاملين، وتدفع المتقدّم إلى ربّ العالمين.

أمّا الخوف والرَّجاء للمؤمن، فهما: كالجناحيْن بالنِّسبة للطائر، لكنَّه يطير بهما في سماء التعبُّد إلى الله سبحانه وتعالى. ولابدَّ -في هذا التقدّم- من تَحقيق التّكافؤ والتّوازُن بين الخوْف والرَّجاء؛ حتّى تستقيمَ حياة المؤمن في الدُّنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة؛ إذ إنَّ تغليب الخوف دون حاجةٍ إليْه يُفضي إلى القنوط، كما أنَّ تغليب الرَّجاء دون حاجة إليه يُفضي إلى الأمن المؤدِّي إلى التفريط.

وخيرُ الأمور الوسط الوسيط وشرّها الإفراط والتفريط.

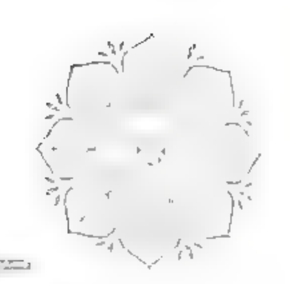
قال الإمام ابن القيم: «القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيّد الطيران، ومتى قُطع الرأسُ مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عُرضة لكل صائد وكاسر،

(1) المعجم الوسيط، مادة [حرك].

ولكن السلف استحبّوا أن يُقوّيَ في الصحّة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يُقوّي جناح الرجاء على جناح الخوف»[1].

---

(1) مدارج السالكين: (1/ 421).



محرّك الخوف

قال بعض العارفين: «الخوفُ سوط الله تعالى، يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى»[1]، والخوف من الله: هو الذي يكفّ الجوارح عن المعاصي ويقيّدها بالطاعات.

الإشارة الأولى: شأن الخوف

ما أحوجنا إلى الخوف من الله تعالى، خاصة في هذا العصر: الذي كثرت فيه الفتن والخطوب، وقَسَت فيه القلوب، حتى غفلت عن ربّها علاّم الغيوب.

1. **حقيقة الخوف وحُكمه:** قال الإمام الغزالي رحمه في تعريفه: «اعلم أنّ الخوفَ: عبارة عن تألّم القلب واحتراقه، بسبب توقّع مكروه في الاستقبال»[2]. وقال عنه الحافظ ابن حجر: «هو من المقامات العليّة، وهو من لوازم الإيمان»[3].

(1) إحياء علوم الدين، للغزالي: (5/ 6).

(2) المرجع نفسه: (5/ 3).

(3) فتح الباري (11/ 313).

ومن فضل الله على المسلم أن يوفّقه -في سيره- لإدراك هذه المنزلة، التي يقول عنها الإمام ابن القيم: «وهي من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 175). وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (البقرة: 40)، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة: 44)، ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون:57-61) إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ وفي «المسند» و«الترمذي» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، قول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «لا يا ابنةَ الصدّيق، ولكنه الرجل يصوم ويُصلي ويتصدق، ويخافُ أن لا يُقبل منه»[1]. قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُردَّ عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا.

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة، غير أنّ «الخشية» أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر:28)، فهي خوف مقرونٌ بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»»[2].

وفي بيان فضيلة هذا الخوف، يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُوهُ وَيَعْبُدُوهُ وَيَخْشَوْهُ وَيَخَافُوهُ، ونَصَبَ لَهُمُ الأَدِلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ لِيَهَابُوهُ وَيَخَافُوهُ خَوْفَ الإِجْلاَلِ، وَوَصَفَ لَهُمْ شِدَّةَ عَذَابِهِ ودَارَ عِقَابِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِمَنْ عَصَاهُ لِيَتَّقُوهُ بِصَالِحِ الأَعْمَالِ، وَلِهَذَا كَرَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ ذِكْرَ النَّارِ وَمَا أَعَدَّهُ فِيْهَا لأَعْدَائِهِ مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الزَّقُّومِ والضَّرِيعِ والحَمِيمِ والسَّلاَسِلِ وَالأَغْلاَلِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْعَظَائِمِ وَالأَهْوَالِ، ودَعَا عِبَادَهُ بِذَلِكَ

(1) رواه الترمذي (3175)، وأحمد في (6/ 159)، وهو في السلسلة الصحيحة (162).

(2) مدارج السالكين: (1/ 416)، والحديث رواه البخاري (6101) ومسلم (2356).

إِلَى خَشْيَتِهِ وَتَقْوَاهُ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى امْتِثَالِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَاجْتِنَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ. فَمَنْ تَأَمَّلَ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ وَأَدَارَ فِكْرَهُ فِيهِ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ الْعَجَبَ الْعُجَابَ، وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي هِيَ مُفَسِّرَةٌ وَمُبَيِّنَةٌ لِمَعَانِي الْكِتَابِ، وَكَذَلِكَ سِيَرُ السَّلَفِ الصَّالِحِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، مَنْ تَأَمَّلَهَا عَلِمَ أَحْوَالَ الْقَوْمِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالإِخْبَاتِ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي رَقَّاهُمْ إِلَى تِلْكَ الأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَقَامَاتِ السَّنِيَّاتِ، مِنْ شِدَّةِ الاجْتِهَادِ فِي الطَّاعَاتِ، وَالانْكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ الأَعْمَالِ وَالْمَكْرُوهَاتِ فَضْلاً عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ»[1].

2. **ثمرات الخوف**: إنّ الخوف من الله تعالى ليس مقصوداً لذاته، بل هو وسيلة تدفع المسلم نحو تعظيم الله وتقواه، والاجتهاد في طاعته ونيل رضاه، والعمل على محاسبة النفس ومقاومة الهوى. ولو كان الخوف مقصوداً لذاته لما ذهب عن أهل الجنة، وذلك لأنّ مرادهم قد تحقّق من وراء خوفهم في الدنيا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ (الطور: 26-27)، فارتاحوا -بعد الحساب- في دار السعادة حيث انقطعت الأعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأحقاف: 14)، فلا حاجة لهم -حينئذ- إلى ترغيب أو ترهيب، وقد قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (البقرة: 112). وللخوف ثمرات كثيرة نافعة في الدنيا والآخرة، أهمّها:

أ. **الخوف يبعث على العمل الصالح**: وذلك أنّ الخائف يدفعه خوفه إلى الاجتهاد والمسارعة في طاعة الله والإخلاص في عبادته، كما جاء في وصف الأبرار الذين فازوا بجنات النعيم، بعد خوفهم في الدنيا من ربّ العالمين، وإطعامهم الخالص للمساكين، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسًا قَمۡطَرِيرًا﴾ (الإنسان: 8-10). فخوفهم من يوم الحساب وما فيه من أهوال، حثّهم

(1) التخويف من النار: (ص 7-9).

على صالح الأعمال. ومن الآيات في هذا السياق: قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (النور: 36-37). فالخوف هو الذي دفع هؤلاء الرجال إلى الانشغال بطاعة الله، والإعراض عن حطام الدنيا. وفي الحديث النّبوي: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[1]. ومعنى الحديث: أن من خاف أن يهجم عليه عَدُوٌّ يباغته في الليل، فإنه يبادر في المسير، و«أدلج» معناه سار في أول الليل، و«بلغ المنزل» أي: بلغ المكان الذي يأمن فيه. قال المنذري: «ومعنى الحديث: أن من خاف ألزمه الخوف إلى السلوك إلى الآخرة، والمبادرة بالأعمال الصالحة، خوفاً من القواطع والعوائق»[2]. وقال الطيبي: «هذا مَثَلٌ ضربه لسالك الآخرة، فإنّ الشيطان على طريقه، والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانه، فإن تيقّظ في سيره وأخلص في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق»[3]. فالخوف يسوقُ المسلم إلى أن يُشمّر ويجدّ ويجتهد في طاعة الله تبارك وتعالى، ولا يتوانى ولا يتراخى، بل يسارع ويسابق، من أجل أن يصل إلى مطلوبه ومأمنه بإذن الله عزّ وجلّ.

ب. الخوف يقمع المعاصي والمحرّمات: حيث تتكدّرُ اللذّات الممنوعة بتذكّر عذاب الله ووعيده، ولا يتجرّأ المؤمن على ارتكاب المخالفات، لما يترتّبُ عليها من العقوبات. ونذكر في هذا المقام قصة أحد الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وكيف نزلت صخرةٌ فسدّت عليهم فتحة الغار، فتوسّلوا إلى الله بصالح أعمالهم، فانفرجت الصخرة. وقد ذكر أحدهم قصته قائلاً: «اللّهم إنه كانت لي ابنة عمٍّ كانت أحبّ الناس إليَّ، فأردتها على نفسها فامتنعَتْ، حتى ألَمّت بها سنةٌ من السنين، فجاءتني

---

(1) رواه الترمذي (2450) وهو في السلسلة الصحيحة (954).

(2) الترغيب والترهيب: (4/ 175).

(3) فيض القدير: (6/ 152).

فاعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها- قالت: اتّقِ اللهَ ولا تفضّ الخاتَمَ إلا بحقه، فانصرفتُ عنها وهي أحبّ الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها»[1]. فهذا رجلٌ، غلبته شهوته، وكاد يرتكب جريمة الزنا، لولا أنّ الله سبحانه هداه، وأيقظ غفلته بكلمة هذه البنت الصالحة التي ذكّرته بالله، فخاف الله عزّ وجلّ فيها، وضرب مثلاً بالغاً في العفّة، بعد أن تمكّن من حصول مراده. وثبت في الصحيحين أنّ النبي ﷺ حدّثنا عن «السبعة الذين يظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله»، وذكر منهم «رجلاً دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»[2]. فمن ثمرات الخوف: أنه يقمع الشهوات، ويكدّر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سُمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذلّ القلب ويستكين، ويفارقه الكِبْر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهمّ لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة[3].

ج. **الخوف سببٌ للنّجاة في الدنيا والآخرة:** وقد أخبرنا بهذا الأمر نبينا ﷺ حيث قال: «..وَأَمَّا الْمُنَجِّيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الرِّضَى وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»[4]. ومن فضل الله تعالى على العبد: أنه إذا خافه وعظّمه في الدنيا، رزقه الأمن والأمان يوم القيامة. ففي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «وعزّتي وجلالي، لا أجمعُ على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا، أمّنتُه يوم القيامة، وإذا أَمِنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»[5]. وثمن هذا الخوف من

(1) رواه البخاري (2272) ومسلم (2743).

(2) رواه البخاري (629) ومسلم (1031).

(3) مختصر منهاج القاصدين: (ص 324).

(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان (5/ 452) وهو في صحيح الجامع (3039).

(5) صحيح بن حبان (640)، وهو في صحيح الجامع (4332).

الله سبحانه وتعالى في الدنيا: جنّة عرضها السماوات والأرض في الآخرة. قال الحقّ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: 40 41). ويقول سيد قطب في تفسيرها: «والذي يخاف مقام ربه لا يُقْدِمُ على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري، قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة، فظلّ في دائرة الطاعة.

ونهيُ النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة. فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل تجاوز، وكل معصية. وهو أساس البلْوى، ويُنبوع الشرّ، وقلّ أن يُؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى. فالجهل سهلٌ علاجه، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

وقد كتب الله للعبد بهذا الجهاد الشاق، الجنة مثابة ومأوى: [فإن الجنة هي المأوى].. ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد؛ وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى»[1].

ويتضاعفُ - بفضل الله - جزاءُ الخوف في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن 46). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ (سورة البينة: 7-8).

وقال سبحانه: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق: 33-35).

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترى أعينُهم النّارَ يوم القيامة: عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ حرست في سبيل الله، وعينٌ غضّت عن محارم الله»[2].

---

(1) في ظلال القرآن: (6/ 3819).

(2) رواه الطبراني كما في المجمع (5/ 288) وهو في السلسلة الصحيحة (2673).

الإشارة الثانية: الأسباب الجالبة للخوف

هناك العديد من العوامل الباعثة على الخوف والمعينة على تحصيله، وأهمّها:

1. **تعظيمُ الله وإجلاله**: فمن استحضر عظمة الله تعالى، وعرف ربّه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، فلا بُدّ أن يخافه ويخشاه، كما قال أحمد الأنطاكي رحمه الله: «مَن كان بالله أعْرف كان من الله أخْوف»[1]. وقال الفضيلُ بن عياض رحمه الله: «رهبةُ العبد من الله على قدر علمه بالله»[2]. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وكلما كان العبدُ أقربَ إلى ربه كان أشدّ له خشية ممن دونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: 50)، والأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: 39)، وإنما كان خوف المقرّبين أشدّ، لأنهم يُطالَبون بما لا يُطالبُ به غيرهم فيُراعون تلك المنزلة»[3].

على قَدْرِ عِلْـمِ المَرْءِ يَعْظُمُ خَوفُهُ ... فَـلاَ عَالِـمٌ إلاّ مِـنَ الله خائِـــفُ
فآمِـنُ مَـكْـرِ الله بـالله جَـاهــلٌ ... وَخَـائِـفُ مَـكْـرِ الله بالله عَارِفُ[4]

وذكر أهل العلم أنّ الخوف من الله على مقامين:

المقام الأول: الخوف من عذاب الله، وهذا خوف عامّة الناس، وهذا النوع من الخوف يحصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية.

وليس الكلام السابق هذا تقبيلاً من شأن النار، بل الخوف منها واجب.

وأما المقام الثاني: الخوف من الله نفسه عزّوجلّ، وهو خوف العلماء والعارفين، لأنه يكفيهم فقط ثلاث كلمات: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (آل عمران: 28). وهذا

(1) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي: رقم (786).

(2) حلية الأولياء لأبي نُعيم (8/ 110).

(3) فتح الباري (11/ 313).

(4) التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي: (ص95).

يكفي، ولذلك قال النبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدّكم له خشية»[1]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: 28)، لأنه لمّا كمُلت معرفتهم بربهم وأسمائه وصفاته أثمرت الخوف، ففاض الأثر على القلب، ثم ظهر على الجوارح بهذه الأعمال[2].

فعلى العبد أن يعمل - أساساً- على غرس تعظيم الله وإجلاله وتوقيره في القلب، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:13)، وقال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: 13)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لِمَ لا تعظّمون الله حقّ عظمته، أي لا تخافون بأسه ونقمته[3]. وكان نبيّنا ﷺ كثيراً ما يسأل الله تعالى أن يرزقه الخشية، فمن أدعيته ﷺ: «وأسألك خَشيتك في الغيب والشهادة»[4]. أي: أن يخافه ويعظّمه في السرّ والعلانية، وفي الخلوة والجلوة. قال الحافظ ابن رجب -في شرح هذا الدعاء-: «والموجب لخشية الله تعالى في السر والعلانية، أمور منها:

أولا: قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي.

ثانيا: النظر في شدة بطشه وانتقامه وقوته وقهره.

ثالثا: قوة المراقبة لله، والعلم بأنه شاهد ورقيب على قلوب عباده وأعمالهم، وأنه مع عباده، حيث كانوا»[5].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاَءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

---

(1) رواه البخاري (5063) ومسلم (1401).

(2) انظر: مختصر منهاج القاصدين: (ص 328) وسلسلة أعمال القلوب، لمحمد صالح المنجد: (ص 54)

(3) تفسير ابن كثير: (8/ 260).

(4) رواه النسائي (1305) وهو في صحيح الجامع (1301).

(5) مجموع رسائل ابن رجب: (1/ 164).

مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا»[1].

ففي هذا الدعاء العظيم، سأل رسول الله ﷺ ربّه أن يجعل لهم من خشيته وخوفه: «قسماً ونصيباً يحجبهم ويمنعهم من الوقوع في المعاصي، لأنّ القلب إذا امتلأ من الخوف أحجمت الأعضاء عن المعاصي»[2].

2. **التفكّر في الموت والمصير**: فكل إنسان يستحضر هادم اللذّات ومفرّق الجماعات إلاّ ويتزلزل، وكما قيل: «كفى بالموت واعظاً»[3]. وكان سهل بن عبد الله التستري يقول: «المريدُ يخافُ أن يُبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يُبتلى بالكفر»، ولمّا حضرت سفيان الثوري الوفاة جعل يبكي، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الله، أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال: والله لَذنوبي أهون عندي من هذا، ولكن أخاف أن أُسلبَ الإيمان قبل الموت»[4].

فأهلُ الإيمان العارفين أشدّ الناس خوفاً من سوء الخاتمة، وقد كان من دعاء نبينا ﷺ: «وَأَعُوذُ بِكَ أَن يَتَخَبَّطَنِي الشَّيطَانُ عِندَ المَوتِ»[5]. قال الخطابي: «استعاذته ﷺ من تخبّط الشيطان عند الموت، هو أن يستولي عليه الشيطان عند مفارقته الدنيا، فيُضلّه ويَحُول بينه وبين التوبة، أو يَعوقه عن إصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون

---

(1) رواه الترمذي (3502) وصححه الألباني.

(2) تحفة الأحوذي، للمباركفوري (9/ 475).

(3) رُوي مرفوعاً إلى النبي ﷺ بسند ضعيف جداً، والصحيح وقفه على عمّار بن ياسر رضي الله عنه، كما في كتاب اليقين (31)، لابن أبي الدنيا، والزهد (176) للإمام أحمد.

(4) مختصر منهاج القاصدين: (ص 329).

(5) رواه أبو داود (1552) وصححه الألباني.

قِبَله، أو يؤيّسه من رحمة الله تعالى، أو يكره الموت ويتأسف على حياة الدنيا، فلا يرضى بما قضاه الله من الفناء، والنّقلة إلى دار الآخرة، فيُختم له بسوء، ويلقى الله وهو ساخط عليه. وقد رُوي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن ادم منه في حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه بعد اليوم. نعوذ بالله من شره، ونسأله أن يبارك لنا في ذلك المصرع، وأن يجعل خير أيامنا يوم لقائه»[1].

وفتنة الشيطان في تلك الساعة فتنة شديدة، لما يكون عليه المسلم من تعب وكرب، وقد كان النبي ﷺ يتعوذ ويأمر بالتعوّذ منها عند كل صلاة، حيث قال ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُم فَلْيَستَعِذ بِاللهِ مِن أَربَعٍ: يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِن عَذَابِ القَبرِ، وَمِن فِتنَةِ المَحيَا وَالمَمَاتِ، وَمِن شَرِّ فِتنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»[2]. والخوف من سوء الخاتمة قد مزّق قلوب الصالحين، بل قلوب الأنبياء والمرسلين. فهذا نبينا ﷺ يستدرك على الأنصارية أمّ العلاء ﵂، لّما زكّت الصحابي الجليل عثمان بن مظعون ﵁ بعد موته وقالت: رحمة الله عليك أبا السّائب، فشهادتي عليكَ لقد أكرمك الله! فقال النبي ﷺ: «وما يُدريكِ أنّ الله قد أكرمه؟» فقلتُ: بأبي أنتَ يا رسول الله، فمن يُكرمه الله ؟ فقال: «أمّا هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري –وأنا رسول الله– ما يُفعلُ بي»[3].

فتأمّل: كيف أنّ رسول ربّ العالمين، الذي غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، لا يدري ﷺ ما يُفعلُ به، وما هو مصيره يوم القيامة، فكيف بمن دونه من المسلمين المقصّرين!

(1) عون المعبود(4/ 287).

(2) رواه البخاري (1377)، ومسلم (588).

(3) أخرجه البخاري (1243).

وعن البراء ﷺ قال: كُنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر فبكى حتى بلّ الثّرى، ثم قال: «يا إخواني ! لمثل هذا فأعدّوا»[1].

وعَنْ هَانِئٍ، مَوْلَى عُثْمَانَ، قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا ؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[2].

3. **الوجل من عدم قبول العمل:** وهو حال المتّقين الخائفين من ربّ العالمين، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (المؤمنون: 60)، ولمّا سألت أمّ المؤمنين عائشة ﷺ: أَهُمُ الذين يشربونَ الخمرَ ويسرِقون؟ قال: «لا يا بِنتَ الصدّيق، ولكنّهم الذين يصومون، ويصلّون، ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا يُقبلَ منهم، أولئك الذين يُسارعون في الخيرات»[3].

والسرّ في خوف المؤمنين أن لا تُقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم ألاّ يوفيهم الله أجورهم، فإنّ هذا خلاف وعد الله إياهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ (النساء: 173)، وإنما السرّ أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله تعالى، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنّون أنهم قصّروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون أن لا تُقبل منهم.

كل ذلك لأن المؤمن يعمل ويخاف من حبوط عمله ونقصانه، وعدم قبوله؛ ولهذا عقد البخاري في صحيحه «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر»، وأورد

(1) رواه ابن ماجة (4195)، وهو في صحيح الجامع (7844).

(2) رواه الترمذي (2308) وصححه الذهبي، وحسنه ابن حجر في «الفتوحات الربانية» (4/ 192).

(3) رواه الترمذي (3175) وهو في السلسلة الصحيحة (162).

قول إبراهيم التيمي: «ما عرضتُ قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً»، وقول ابن أبي مليكة: «أدركتُ ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلّهم يخاف على نفسه النفاق، ما منهم أحدٌ يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل».

قال الحافظ ابن رجب: «كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمّون بعد ذلك بقبوله ويخافون من ردّه، وهؤلاء الذين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (المؤمنون: 60). رُويَ عن علي رضي الله عنه قال: كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:27)، وعن فضالة بن عبيد قال: لأن أكون أعلم أن الله قد تقبّل منّي مثقال حبّة من خردل أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها، لأن الله يقول: [إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ]، قال ابن دينار: الخوفُ على العمل أن لا يتقبل أشدّ من العمل. وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: أدركتُهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمّ أيُقبلُ منهم أم لا؟. قال بعض السلف: كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يُبلّغهم شهر رمضان، ثم يدعون الله ستة أشهر أن يتقبّله منهم»[1].

وفي هذه الحكاية: صورة رائعة من ورع سلفنا الصالح، وشدّة محاسبتهم لأنفسهم، وخوفهم من التقصير في حق الله تعالى. فعن عبد الله بن المبارك رحمه الله قال: «عَمِلَ أبو الرّبيع مَقنعةً[2]، فمكث فيها أياماً يُحْكِمُ صنعتها حتى فرغ منها، فجاء بها إلى البزّاز، فألقاها إليه يبيعها، فأخرج فيها عيباً وردّها عليه، فقعد ناحيةً يبكي بكاءً حارّاً، فمرّ به إخوانٌ له فقالوا: يا أبا الرّبيع! ما يُبكيك؟ قال: لا تسألوني، قالوا: وكيف لا نسألك وقد سمعنا بكاءكَ؟ قال: فاقعدوا، فقال لهم: إنّ هذه بيدي منذ كذا وكذا، لم آلو أن أُحكمَ صنعتها، فجئتُ بها إلى هذا البزّاز فأخرج عليّ فيها عيباً

(1) لطائف المعارف، لابن رجب: (ص 375-376).

(2) المقنعة: ثوبٌ تغطّي به المرأة رأسها. كما في شرح النووي على مسلم (2/ 542).

وضرب بها وجهي، فكم من عمل لي أنه قد صحّ لي عند ربّي عزّوجلّ، غداً يُخرجُ عليّ عيوبه ويضربُ به وجهي. قال: فقعدوا معه، وجعلوا مأتماً يبكون معه!»[1].

الإشارة الثالثة: الخوف الذي ينقصنا

نعم، ينقصنا -خاصّة في هذا العصر- نوعٌ عزيز من التقوى، ألا وهو: «مخافة الله بالغيب» ومراقبته في الخلوات، خاصّةً وقد سهل الوصول -اليوم- إلى المحرّمات، وشاع بين الناس مشاهدة الفواحش على الفضائيات والجوّالات، وهذه القبائح التي يستهينُ بها البعضُ، تُعدُّ من الموبقات التي تُغضبُ ربّ الأرض والسماوات!

يا كاتِمَ الذنْب أمَا تَسْتَحِي	**واللهُ فـي الخـلـوة ثانيكـا؟**
غَـرّكَ مـن ربّـكَ إمهالُـــهُ	**وستـرُهُ طـولَ مَسَاويـكـا!**

وصدق بعض السلف حين قال: «لا تكن ولياً لله في الظاهر عدواً لله في الباطن!»

هل تعلم -أخي الحبيب- أن اللهَ ابتلى الصحابةَ ﭫ وهم في حال الإحرام -والمُحرم بالحج أو العمرة يحرُم عليه الصيد-؛ ابتلاهم الله بأن جعلَ الصيدَ يقترب منهم ويدخلُ عليهم، حتى إنّ أحدَهم يتمكّن أن يصيد الحيوان بيده دون استخدام آلةٍ للصيد!

تأمّل معي قولَه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (المائدة: 94)[2].

---

(1) كتاب المرض والكفارات، لابن أبي الدنيا (ص 202).

(2) وجاء في تفسير ابن كثير (3/ 181): «أنّ هذه الآية نزلت في عمرة الحُديْبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يَرَوْا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم مُحرمون. (ليعلم الله من يخافه بالغيب) يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرا وجهرا لتظهر طاعة من يطيع منهم في سرّه وجهره».

وفي زمننا هذا يتكرّر ابتلاءٌ عظيمٌ جِدًّا، ولكن بشكل مختلف!

فقبل سنوات كان الحصولُ على الصُّوَر والمقاطع المحرّمه صعبا نوعاً ما، وأمّا الآن -كما يقول بعضهم- فبلمسةٍ خفيفةٍ على شاشة الجوال، أو بضغطة زرّ على الحاسوب، تشاهد هذه الموبقات بسهولة عياذا بالله!

وهنا يأتي الإيمان، وتعظيم الله الديّان، ومرتبتك في مدارج الإحسان!

هل ستستسلمُ للنفس والشيطان، أم ستعظّم وتتّقي ربّك الرحمن؟

إنه جهادٌ عظيمٌ للنّفس الأمّارة بالسوء، وامتحان خطير لإيمان الإنسان: [لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ].

أمّا المُحبُّ لربّه الكريم، والمعادي للشيطان الرّجيم، فإنه سيثبتُ، وسيَصبرُ وسيتحدّى -بعون الله- هذه المعصية، ليفوز بمرضاة الرحمن الرحيم، ويتأهّل لجنّات النعيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (الملك: 12).

وهذا الأمرُ لا يتأتّى إلاّ بمعرفة الله تعالى، وتعظيمه وتوقيره: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ (النازعات: 40-41).

وفي خلوتك، لا يغرنّك -أخي الكريم- صمتُ أعضائك وسكوت غرفتك، فإنّ لها يوماً تتكلم فيه!

قال الحقُّ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (يس: 65). وقال سبحانه عن بعض العصاة الذين استحقّوا النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ (فصلت: 20-21).

فهذا المكان الذي اختبأت فيه عن أعين الناس، وخلوتَ فيه بالمعصية، قد يفضحك يوم القيامة: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝ وَقَالَ

ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزلة: 1-4)، وقد سأل النبي ﷺ: «أتدرون ما أخبارها؟» ثمّ أجاب قائلاً: «فإن أخبارها أن تشهد على كلّ عبد أو أَمَة بما عَمِلَ على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا كذا، فهذه أخبارها»[1].

وصدق الإمام ابن القيم حين قال: «ذنوب الخلوات سببٌ للإنتكاسات»، فخذ حذرك -أخي العزيز- من هذه المخالفات، واتّق الله في استعمال هذه الحواسيب والجوّالات، فإنّ هذه المحرّمات تطعن في خاصرة الثبات، وعليك بعبادة السرّ فإنك تقيك من كلّ شرّ.

إذا ما خلوْتَ، الدّهرَ، يوْماً، فلا تَقُلْ ... خَلَـوْتُ ولكِـنْ قُـلْ عَـلَـيَّ رَقِيبُ

ولاَ تـحْـسَـبَنَّ اللهَ يـغـفِـلُ ساعة ... وَلا أنَ مَـا تُـخـفـيـه عَنهُ يغيـبُ

وعن ثَوْبَانَ ﷺ أَنّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا» فقالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[2].

وقد أورد الحافظ ابن حجر الهيتمي هذا الحديث تحت عنوان: «**الكبيرة السادسة والخمسون بعد الثلاثمائة: إظهار زي الصالحين في الملأ، وانتهاك المحارم، ولو صغائر في الخلوة**»، وعلّق بعده قائلاً:«لأنَّ من كان دأبه إظهار الحسن، وإسرار القبيح: يعظم ضرره، وإغواؤه للمسلمين؛ لانحلال ربقة التقوى، والخوف، من عنقه»[3].

إذا مـا خـلـوتَ بريبـةٍ فـي ظلمـةٍ ... والنفسُ داعــيــةٌ إلـى العصيان

(1) رواه الترمذي برقم (2429).

(2) رواه ابن ماجه (4245)، وصححه الألباني.

(3) الزواجر عن اقتراف الكبائر (2/ 764).

فاستحي من نظر الإله وقُلْ لها إنّ الذي خَلقَ الظلام يراني.

قَالَ رَجُلٌ لِوُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ: عِظْنِي، فقالَ: «اتَّقِ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ»[1].

فاللّهمّ يا مُقلّبَ القلوب: ثبّت قلوبنا على دينك، ويا مصرّف القلوب: صرّف قلوبنا على طاعتك.

(1) الحلية، لأبي نُعيم: (8/142).



محرّك الرّجاء

أمام الفتن والأحزان، قد يضعف الإنسان، ويستحوذُ عليه الشيطان. فينتكسُ -بعد التقدّم- إلى التراجع والهبوط، ويُصابُ -أحياناً- باليأس والإحباط والقنوط! وهنا تأتي الحاجة إلى رَوح الرّجاء، الذي يُعدُّ من أقوى الأسباب المُعينة على الثبات على الدين، والسير إلى ربّ العالمين. فالرجاء محمودٌ؛ لأنه باعثٌ على العمل، واليأس مذمومٌ؛ لأنه قاطع للأمل؛ إذْ من عرف أنّ الأرض سبخة، وأنّ الماء مغور، وأنّ البذر لا ينبت ترك السعي والنشاط، واستحوذ عليه اليأس والإحباط.

الإشارة الأولى: حقيقة الرجاء وفضله

1. **تعريف الرجاء**: يقول عنه الإمام الغزالي رحمه الله: «هو ارتياح القلب لحصول شيء محبوب في المستقبل»[1]. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الرجاء: حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب -وهو الله والدار الآخرة- ويُطيّبُ لها السير»[2].

---

(1) إحياء علوم الدين (6/ 173).

(2) مدارج السالكين (1/ 457). ويُقالُ (حَدَا) الحادِي بِالإِبلِ: أي ساقَها أَمَامَهُ وَغَنَّى لها لِيَحُثَّها على السَّيْرِ بِالحُداءِ.

وحقيقة الرجاء: استبشار العبد بجود الله تعالى، وطمعه في عظيم فضله وإحسانه، وثقته بسعة رحمته سبحانه. والرجاء عبادةٌ قلبية من أعظم العبادات، وعليه وعلى الخوف والحبّ مدارُ السَّير إلى الله تعالى؛ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء: 57)، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبّة، فذكر سبحانه مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء.

وقد مدح الله تعالى أهل الرّجاء الصادقين، وجعله صفةً لعباده المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 218)، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: 110).

2. **الفرق بين الرجاء والتمنّي:** لا يفرّق بعض الناس بين الرّجاء الصادق والأماني الكاذبة، ولتوضيح المسألة نقول: الرجاء: يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل. بينما التمنّي: يكون مع الكسل وترك العمل! فمَن بذل الأسباب بفعل الطاعات وترك المحرَّمات، منتظرًا لرحمة الله تعالى وجوده وكرمه وإحسانه، فهذا هو الراجي، أما مَن انتظر شيئًا بدون بذل الأسباب، فلا يسمى راجيًا بل متمنيًا. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: 123)، فليس الإيمان بالتمنّي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل؛ قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: 110). وفي الحديث: «الكيِّس مَن دان نفسه وعمِل لما بعد الموت، والعاجزُ مَن أتبعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني»[1].

(1) أخرجه الترمذي (249) وحسّنه.

قال ابن القيم رحمه الله: «أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصحّ إلا مع العمل»[1].

وأمّا التّمادي في المعاصي والذنوب، وترك العمل وطاعة الله علاّم الغيوب، فهو: عينُ الغُرور والأماني الكاذبة! قال الحسنُ البصري رحمه الله: «إنّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقول أحدهم: إني أحسنُ الظنّ بربّي، وكذب، ولو أحسن الظنّ لأحسن العمل، ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (فصّلت: 23)»[2].

فمن رجا رحمة الله فعليه أن يطلبها بالأعمال الصالحة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المقصود من الرجاء: أنّ مَن وقع منه تقصير؛ فلْيُحسن ظنّه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندمٍ ولا إقلاع؛ فهذا في غرور»[3]. فالرّجاء مع العمل هو حافزُ المؤمنين، والأماني الفارغة هي شُغل الفارغين؛ وقد ردّ الله على أولئك الذين جعلوا الجنة حكراً عليهم بلا إيمان ولا عمل؛ فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (البقرة:111).

الإشارة الثانية: عوامل الرجاء وثمراته

1. **أسبابُ قوة الرجاء:** يعظُمُ رجاء المسلم على قدر علمه ومعرفته بالله وأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، ولولا رَوح الرّجاء لتعطّلت عبودية القلب، ولما تحرّكت الجوارح بالطاعات، ولما صبرت النّفس على الابتلاءات، لذلك تحقيق الرجاء يقوم أساساً على معرفة الله سبحانه وتعالى. وأمّا العوامل الأساسية للوصول إلى تحقيق هذا الرجاء، فأهمّها:

(1) مدارج السالكين (1/ 458).

(2) تفسير القرطبي (15/ 353).

(3) فتح الباري (11/ 301).

أ. **ذكر سعة رحمة الله تعالى:** من فضل الله تعالى علينا أن جعل رحمتَه سبقتْ غضبَه، بل وسعت رحمتُه كلَّ شيء، وعمَّ بها كلَّ حيٍّ؛ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:156). وَفتَحَ لعباده المذنبين بابًا عظيمًا من أبواب رحمته، وهو بابُ الرجاء فيما عنده سبحانه؛ وهذه نماذج من نصوص الوحيين، التي تقوّي رجاء العبد في ربّه سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53)، قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «هذه الآيةُ أرجى آية في كتاب الله سبحانه؛ لاشتمالها على أعظمِ بشارة؛ فإنه أولاً أضاف العبادَ إلى نفسه؛ لقصد تشريفِهم، ومزيدِ تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقَّب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب؛ فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلبَ عند سماعه ظنٌّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ (الزمر: 53)، فالألف واللام قد صَيَّرت الجمعَ الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده؛ فهو في قوة: إن الله يغفر كلَّ ذنب كائنًا ما كان، إلا ما أخرجه النصُّ القرآني، وهو: الشِّرك؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ (النساء:48)، ثم لم يكتفِ بما أخبر عبادَه به من مغفرة كلِّ ذنب، بل أكَّد ذلك بقوله: [جَمِيعًا]»[1].

وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «يا ابنَ آدمَ، إنّكَ ما دعوتَني ورجوتَني، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغتْ ذنوبُكَ مثلَ عنانَ السماء ثمّ استغفرتني، غفرتُ لك ولا أبالي، يا ابن آدمَ، إنّكَ لو أتيتني بقُرابِ الأرض خطايا ثمّ لقيتَني لا تُشركُ بي شيئاً، لأتيتُكَ بقرابها مغفرةً»[2]. قال العلّامة ابن دقيق

(1) فتح القدير (1287)، ط- دار المعرفة.

(2) رواه الترمذي (3540) وهو في صحيح الجامع (4338).

العبد رحمه الله: «هذا الحديث بشارة عظيمة، وحِلْمٌ وكرم عظيم، وما لا يحصى من أنواع الفضل والإحسان، والرأفة والرحمة والامتنان»[1]، وقال الشيخ الجرداني (ت1331هـ) رحمه الله: «إن هذا الحديث أرجى حديث في السنة، وفيه دلالةٌ على سعة رحمة الله تعالى وكرمه وجوده، لكن لا يجوز لأحد -كما قال بعضهم- أن يغتر به وينهمك في المعاصي، وإنما القصد منه بيان كثرة مغفرته تعالى؛ لئلا ييئس المذنبون منها بكثرة الخطايا»[2].

ب. ذكر نعم الله وسوابق فضله: فقد عوّدنا ربّنا سبحانه بالجميل، ونِعَمُهُ تَتْرَى علينا في كلّ وقت وحين، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ (إبراهيم: 34)، ومن أعظم العبادات المنسيّة: «عبادة ذكر النّعم»، التي غفل عنها معظم الناس، مع أنّ الله تعالى قد أمر بها في عدّة مواطن من كتابه العزيز، ومنها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (فاطر: 3). وبيّن سبحانه أنّ ذكر النّعم هو طريق الفلاح، فقال جلّ شأنه: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 69).

والتحدّث بنعمة الله مأمورٌ به كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:11) وقد امتنّ الله على عباده بما ذكره من النعم الكثيرة في سورة الرحمن، وأقام عليهم الحجّ بهذه السورة العظيمة، حيث تكرّر قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرّة، ومعناها: فبأيّ نعم الله -يا معشر الإنس والجن- تكذّبان؟ أليست نعم الله كثيرة لا تُحصى؟ وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ لَيْلَةَ الجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ

---

(1) شرح الأربعين النووية: (ص131).

(2) الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية، لمحمد الدمياطي (ص352)، تحقيق: عبد الله المنشاوي، ط- مكتبة الإيمان، مصر.

[فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ] قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ»[1].
فلْنذكُرْ ما وهبنا الله تعالى من النّعم التي لا تُحصى، ولْنستحضر في قلوبنا سوابق فضله التي لا حصر لها ولا عدٌّ. أليس الله سبحانه هو الذي أحيانا وهدانا، وأطعمنا وسقانا، ومن كلّ ما سألناه أعطانا، فكيف يخيب فيه رجانا!

ج. **ذكر وعد الله تعالى**: وذلك أنّ المؤمن يُصدّق بوعد ربّه وعهده، وهذا اليقين في وعد ربّ العالمين من أعظم بواعث الرّجاء، لأجل ذلك دعانا ربنا سبحانه إلى تصديق وعده في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ (الروم: 60) قال الشيخ السعدي: «أي: فاصبر على ما أُمِرْتَ به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيتَ منهم إعراضاً فلا يَصُدّنّك ذلك. [إن وعد الله حق] أي: لا شكّ فيه، وهذا ممّا يُعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أنّ عمله غير ضائع بل سيجده كاملا، هان عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسّر عليه كل عسير، واستقلّ من عمله كل كثير»[2].
وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (فاطر: 5)، وفسّرها الشيخ السعدي بقوله رحمه الله: «يقول تعالى: يا أيها الناس إن وعد الله بالبعث والجزاء على الأعمال حق، أي: لا شكّ فيه، ولا مِرْية، ولا تردّد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقا، فتهيّئُوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعُكم عن ذلك قاطع، فلا تغرنّكم الحياة الدنيا بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتُلهيكم عمّا خُلقتُم له، ولا يغرنّكم بالله الغَرور الذي هو الشيطان»[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:111) أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله، فإنه لا يُخلفُ الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ

---

(1) رواه الترمذي (3291) وحسنه الألباني.

(2) تيسير الكريم الرحمن: (ص 655).

(3) المرجع نفسه: (ص694).

مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: 87) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: 122)»[1].
وأمر الله سبحانه بالدعاء ووعد بالإجابة، فقال جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: 60)، وقال رسول الله ﷺ: «ادعوا اللهَ وأنتم موقنون بالإجابة»[2].

فأَحْسِنْ الظنّ بربّك أيها الفاضل، فإنّ الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي»[3]. واجعل كلّ رجائك في الله وحده، قال سيدنا عليّ رضي الله عنه: «لا يخافُ العبدُ إلاّ ذنبه، ولا يرجو إلاّ ربَّه»[4]. ولا تنسى أيها الحبيب أنّ ربّك سبحانه: وعدك بإجابة دعائك، ومغفرة ذنبك، والعفو عنك، وإدخالك جنّات النعيم، والله لا يخلف الميعاد. وهو القائل -وقوله الحق المبين، وهو أصدق القائلين-: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:156)، والقائل جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب:43)، وقد وعد سبحانه بتوفية أجور العاملين وزيادة، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:97)، وقال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ (فاطر: 30)، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: 95).

2. ثمرات الرجاء: وهي كثيرة، وأبرزها:

أ. إظهار العبودية: حيث تتجلّى حاجة العبد إلى ما يرجوه من ربّه الكريم، ويستشرفه من إحسانه العميم، وأنه لا يستغني عن فضله وجوده طرفة عين. والله سبحانه يحبُّ من عباده أن يسألوه ويؤمّلوه ويرجوه، لأنه الملك الحق الجواد، أجودُ

(1) تفسير ابن كثير: (4/ 156).

(2) رواه الترمذي (3479) وهو في السلسلة الصحيحة (594).

(3) رواه البخاري (7405) ومسلم (2675).

(4) شعب الإيمان، للبيهقي رقم (9084).

من سُئل، وأكرم من قُصد، وأوسع من أعطى. وأحبُّ شيء إلى الجواد الكريم أن يسأله الناس ليعطيهم، و«مَن لم يسأل الله يغضب عليه»[1].

ب. **تقوية المعرفة بالله**: وذلك أنّ الرجاء يوجبُ المزيد من التعرّف على أسماء الله الحُسنى وصفاته العُلى، فالراجي عنده مزيد عناية واطلاع على آثار ومعاني أسماء الربّ سبحانه، وخاصّة منها ما تعلقت بها نفسه، كاسمه سبحانه (الرحيم، والغفور، والتواب، والعفوّ، والكريم، والغني، والرزّاق..)، فالعبدُ فقير إلى ربّه سبحانه، طامعٌ في فضله وإحسانه، له ذنوبٌ يريد مغفرتها، وله أعمالٌ يريد قبولها، وله حسنات يريدُ مضاعفة أجرها. وهو كلّما اشتدّ رجاؤه وحصل له ما يرجوه، وذاق حلاوة هذا النعيم، ازداد حُبّاً لربّه الرحيم، وشكراً لسيّده الكريم، ورضاً بإلهه العظيم.

وهكذا يرفع الرجاء العبد إلى أعلى مقامات العبودية. فكلّما حصّل مطلوبه، ازداد طمعاً في فضل ربّه ومعبوده، فلا يزالُ -بهذا الإحسان- في ازديادٍ في الإيمان، وقُربٍ من الرحيم الرحمن.

ج. **الاجتهاد في العبادة**: فلولا هذا الرجاء الذي يُحَفّزُ العبد على الطاعات، لما نشط السائرُ في سيره وتقدّمه إلى الله. والقلبُ يُحرّكه الحبُّ، ويُزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

فالرجاء يورثُ -بعون الله- الثبات على الطاعات والمواظبة عليها كيفما تقلّبت الأحوال. بل يستلذُّ العبدُ بهذا الرجاء التكاليف، فتراه: كثير العبادات، وينافسُ في القربات، ويُسارع دوماً إلى الخيرات، لكسب المزيد من الحسنات، والفوز بمرضاة ربّ الأرض والسماوات.

فالرّاجي يُداومُ على الإقبال على ربّه سبحانه، فيتنعّمُ بمناجاته، ويتلذّذُ بالوقوف ببابه، ويسعدُ بالإلحاح عليه لقضاء حاجاته.

---

(1) وهو نص حديث رواه الترمذي (3373) وهو في صحيح الجامع (2418).

الإشارة الثالثة: الجمعُ بين الخوف والرجاء

ذهب جمهور أهل العلم إلى أنّ المختار للعبد في حال صحّته أن يكون خائفاً- راجياً، وأن يكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يتمحّض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنّة متضافرة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأعراف: 167)، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (الحجر: 49-50).

ومِنْ أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: 82)، فإنه علّق المغفرة على أربعة شروط يبعُدُ تصحيحها![1]

وقال رسول الله ﷺ: «لو يعلمُ المُؤمنُ ما عند الله من العُقوبة ما طمِعَ بجنّته أحدٌ، ولو يعلمُ الكافرُ ما عند الله من الرّحمة ما قنطَ من جنّته أحدٌ»[2].

وللإمام الغزالي رحمه الله تفصيلٌ جميلٌ في هذه المسألة، حيث أورد أثرَ التابعي الجليل وإمام أهل الشام: مكحول الدمشقي (ت 112هـ) رحمه الله، القائل فيه: «مَن عبدَ اللهَ بالخوف والرجاء والمحبة فهو مُوحّد»، ثمّ علّق قائلاً: «فإذاً لا بدّ من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف وهو الأصلح، ولكن قبل الإشراف على الموت. أمّا عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأنّ الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل، وقد انقضى وقت العمل. فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف. فإن ذلك يقطع نياط قلبه، ويُعينُ على تعجيل موته. وأمّا رَوْح الرجاء فإنه يقوّي قلبه، ويُحبّب إليه ربّه الذي هو رجاؤه. ولا ينبغي

(1) مختصر منهاج القاصدين: (ص 329).

(2) رواه مسلم رقم (2755).

أن يفارق أحدٌ الدنيا إلاّ مُحبّاً لله تعالى، ليكون مُحبّاً للقاء الله تعالى، فإنّ مَن أحبّ لقاء الله أحبّ اللهُ لقاءه»[1].

وعن المُزني قال: «دخلتُ على الشافعي أعوده في مرض موته، فقلتُ له: كيف أصبحتَ يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنيّة شارباً، ولا أدري أروحي تصيرُ إلى الجنة فأهنّيها أم إلى النار فأعزّيها، وأنشأ يقول:

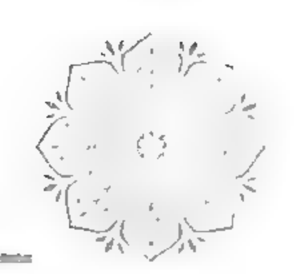
ولمّا قسى قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ الرّجا منّي لعفوك سُلّمَا

تعاظمني ذنبي فلمّا قرنتُهُ ... بعفوكَ ربّي كان عفوكَ أعظمَا»[2].

---

(1) إحياء علوم الدين: (5/ 22)، والجملة الأخيرة هي نص حديث أخرجه مسلم رقم (2683).

(2) الزهد، للبيهقي: (581).



محرّك المحبّة

وهذا في الحقيقة هو أعظم المحرّكات التي تدفع السائر دفعاً حتى يحقّق مبتغاه، ويصل إلى ربّه ومولاه. فإذا كان العبد لا يستقيم تحليقه في سماء العبودية إلاّ بجناحي الخوف والرّجاء، اللذين بهما يتحقّقُ التوازن، فإنّ المحبّة هي رأس القيادة العليا للسير، وبها ينتظمُ التّقدّم، وتكتملُ أصول السعيُ إلى الله والدار الآخرة. قال الحافظ ابن رجب: «إنّ العبادة إنّما تنبني على ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والمحبّة. وكلٌّ منها فرضٌ لازم، والجمعُ بين الثلاثة حتمٌ واجبٌ، فلهذا كان السلف يذمّون من تعبّد بواحدٍ منها وأهمل الآخرين»[1].

الإشارة الأولى: حقيقة المحبّة وفضلها

1. تعريف المحبّة: اختلفت عبارات علماء الزهد والسلوك في تعريف هذا المقام العظيم من أعمال القلوب، حتى ذهب بعضهم إلى عدم الحاجة لتعريف هذا المصطلح. فقال الإمام ابن القيّم: «لا تُحدُّ المحبّة بحدٍّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلاّ خفاءً وجفاءً، فحدّها وجودها، ولا توصفُ المحبّة بوصف أظهر من

(1) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لابن رجب: (ص 19-20).

المحبة. وإنما يتكلّم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها»[1].

ومحبّة الله تعالى لعباده: صفة فعليّة لربّنا سبحانه، نُثبتها على ما يليقُ بجلاله وكماله، قال الإمام ابن تيمية: «إنَّ الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ (البقرة:165)، وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة:54)، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة:24)... وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام»[2].

وأمّا محبّة العبد لربّه سبحانه، فيذكر الإمام الغزالي أنّ «المحبّة: عبارة عن ميل الطبع إلى ما في إدراكه لذّة». ثمّ يُفصّل رحمه الله حقيقة إدراك العبد محبّته لله تعالى، ويُبيّن أنّها لا تُدرَكُ بالحواس الخمس مثل بقيّة اللذائذ، وإنّما تُدرَكُ بحاسّة باطنة سادسة، فيقول: «لمّا كان الحبُّ تابعاً للإدراك والمعرفة، انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس، فلكل حاسّة إدراك لنوعٍ من المُدرَكات. وللطبع بسبب تلك اللذّة ميلٌ إليها، فكانت محبوبات عند الطبع السليم، فلذّة العين في الإبصار وإدراك المبصَرات الجميلة، والصور المليحة الحسنة، ولذّة الأذن في النّغمات الطيّبة الموزونة، ولذّة الشمّ في الروائح الطيبة، ولذّة الذوق في الطعوم، ولذّة اللّمس في اللّين والنعومة. ولما كانت هذه المدرَكات بالحواس مَلذّةً كانت محبوبةً، أي كان للطبع السليم ميلٌ إليها. حتى قال رسول الله ﷺ: «حُبّبَ إليّ من دنياكم ثلاثٌ: الطّيبُ والنّساء، وجُعلت قُرّةُ عيني في الصلاة»[3]. فسمّى الطِّيبَ محبوباً، ومعلومٌ أنه

(1) مدارج السالكين (2/ 226).

(2) مجموع الفتاوى: (2/ 345).

(3) رواه النسائي (3939)، وصححه الحاكم (2/ 174) ووافقه الذهبي، وصححه ابن حجر في الفتح (11 / 345)، ولا وجود لكلمة «ثلاث» في الرّوايات الثابتة، وإن تناقلها بعض الفقهاء. وذكر العلماء أن «الصلاة» ليست من أمور الدنيا.

لا حظّ للعين والسمع فيه، بل للشمّ فقط. وسمّى النساء محبوبات، ولا حظّ فيهن إلاّ للبصر واللّمس، دون الشمّ والذوق والسمع. وسمّى الصلاة قُرّة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلومٌ أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل حسٌّ سادس مظنّته القلب، لا يدركه إلاّ من كان له قلب.

ولذّات الحواس الخمس تشارك فيها البهائمُ الإنسانَ، فإن كان الحبُّ مقصوراً على مدركات الحواس الخمس، حتى يُقالَ إنّ الله تعالى لا يُدرَكُ بالحواس ولا يتمثّل في الخيال فلا يُحَبُّ، فإذاً قد بطلت خاصّية الإنسان وما تميّز به من الحسّ السادس الذي يُعبّرُ عنه إمّا بالعقل، أو بالنور، أو بالقلب، أو بما شئتَ من العبارات، فلا مشاحّة فيه وهيهات. فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلبُ أشدُّ إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذّة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهيّة التي تجلّ عن أن تدركها الحواس أتمّ وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى»[1].

ومن أجمع ما قيل في محبّة الله تعالى: ما أورده الإمام ابن القيم عن أبي بكر الكتاني أنه قال: «جَرَتْ مسألةٌ في المحبّة بمكة أعزّها الله تعالى -أيام الموسم- فتكلّم الشيوخ فيها. وكان الجُنيدُ أصغرهم سنّاً. فقالوا: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه. ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، مُتّصلٌ بذكر ربّه، قائمٌ بأداءِ حقّه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرقت قلبَه أنوارُ هيبته، وصفا شِربُهُ من كأس وُدّه، وانكشف له الجبّار من أستار غيبه، فإن تكلّم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخُ وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين»[2].

---

(1) إحياء علوم الدّين: (5/ 44-45).

(2) مدارج السالكين: (2/ 231).

2. **فضل المحبّة**: قال الإمام الغزالي: «إنّ المحبّة لله هي الغاية القُصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبّة مقامٌ إلاّ وهو ثمرة من ثمراتها، وتابعٌ من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبّة مقام إلاّ وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها»[1]. وقال الإمام ابن القيم عن محبّة الله تعالى: «هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمها شمّر السابقون، وعليها تفانى المحبّون، وبرَوْحِ نسيمها تروّحَ العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون. وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جملة الأموات. والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عُدمه حلّ بقلبه جميع الأسقام، واللّذّة التي من لم يظفر بها فعيشُهُ كله هموم وآلام»[2].

وقد ذكر الله المحبّة باسمها المطلق، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: 54)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: 165). وأصلُ دعوة جميع الرّسُل من أوّلهم إلى آخرهم: إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمّنة لكمال حبّه، وكمال الخضوع والذلّ له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[3]. وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله، والله لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيء إلاّ من نفسي. فقال: «لا يا عُمر حتى أكون أحبّ إليك من نفسك». فقال: والذي بعثك بالحقّ لأنتَ أحبّ إليّ من نفسي. فقال: «الآن ياعُمَر»[4].

---

(1) إحياء علوم الدين: (5/ 40).

(2) مدارج السالكين: (2/ 224).

(3) أخرجه البخاري (15) ومسلم (44).

(4) أخرجه البخاري برقم (6632).

قال العلاّمة ابن القيم: «فإذا كان هذا شأن محبّة عبده ورسوله ﷺ، ووجوب تقديمها على محبّة النفس والوالد والولد والناس أجمعين، فما الظنّ بمحبّة مُرسله سُبحانه وتعالى، ووجوب تقديمها على محبّة ما سواه؟!

ومحبّة الربّ تعالى تختصّ عن محبّة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها. فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحبّ إلى العبد من ولده ووالده سبحانه بها. ومن سمعه وبصره ونفسه التي هي بين جنبيه. فيكون إلهه الحق ومعبوده أحبّ إليه من ذلك كلّه. والشيءُ قد يُحبُّ من وجهٍ دون وجهٍ، وقد يُحبُّ لغيره، وليس شيءٌ يُحبُّ لذاته من كلّ وجهٍ إلاّ الله وحده»[1].

الإشارة الثانية: علامات محبّة الله تعالى للعبد

إنّ محبّةَ الله سبحانه لعبده أمرٌ غيبي لا نعلمه، ولكن قد ذكر أهلُ العلم أنّ لهذه المحبّة الإلهية عدّة علامات، أبرزها:

1. **القبول في الأرض**: إنَّ حبَّ المؤمنين لإنسانٍ، وميلَهم إليه، ورضاهم عنه، هو هبةٌ إلهية ومنحةٌ ربّانيَّة، فلا سبيلَ لتحصيله بجاه أو سلطان. وإذا ما أحبَّ الله تعالى عبدًا من عباده، وضعَ له القبولَ في الأرض، وأحدثَ له في قلوب المؤمنين مودَّةً، وزرع له فيها مَهابةً، فتحبُّه القلوب، وترضى عنه النفوس، من غير توَدُّدٍ منه، ولا تَعَرُّضٍ للأسباب التي تُكتسَبُ بها مَوَدَّاتُ القلوب؛ من قرابة، أو صداقةٍ، أو اصطناع معروفٍ؛ وإنما اختصاص منه سبحانه لأوليائه بكرامة خاصة، كما يَقذِفُ في قلوب أعدائه الرُّعبَ والهيبة؛ إعظامًا لهم، وإجلالاً لمكانهم[2]. وفي هذا يقول الحقُّ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ (مريم: 96)،

(1) الجواب الكافي، لابن القيم: (ص 253-254).

(2) فتح القدير، للمناوي: (2/ 258).

والوُدُّ: هو المودَّة والمحبَّة التي يوجِدُها الله تعالى لهم في قلوب العباد[1]، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»[2]. والمقصود بوضع القبول له عند أهل الإيمان، وإلا فإن أهل الكفر لا يحبّونه، وهكذا كان حال الأنبياء والصالحين عبر التاريخ: يحبّهم أهل الإيمان، ويبغضهم أهل الكفر والطغيان! وقد كان بعضُ السلف يَرْصُدُون محبة الله تعالى لبعض عباده من خلال حبِّ أهل الإيمان لهم، فعن سُهيل بن أبي صالح قال: «كنا بعرفة، فمر عمر بن عبد العزيز وهو على الموسم، فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أبتِ، إني أرى الله يُحِبُّ عُمَر بن عبد العزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لِما له من الحب في قلوب الناس»[3].

2 . **التأييد والنّصرة**: قال الله تعالى -في الحديث القدسي-: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّه، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّه»[4]. ما أعظم هذا الحديث الإلهي الجليل، فقد قال عنه العلّامة الطُّوفِيُّ: «هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللهِ، وَالْوُصُول إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَطَرِيقِهِ»[5]. وقال الإمام ابن تيمية: «وهو أشرفُ حديث رُوِيَ في صفة الأولياء»[6].

(1) تفسير ابن كثير: (5/ 269).

(2) رواه البخاري (7485) ومسلم (2637).

(3) ذكر هذه القصة الإمام مسلم في متابعة الحديث السابق (2637).

(4) رواه البخاري برقم (6502)

(5) نقلًا عن «فتح الباري»: (11/ 345).

(6) مجموع الفتاوى: (18/ 129).

وأمّا معنى الحديث، فالمقصود منه: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل، قَرَّبه الله إليه ورَقَّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله كأنه يراه، فلا تنبعث جوارحه إلا بما يُحبّه مولاه، فإن نطق لم ينطق إلا بما يرضي الله، وإن سمع لم يسمع ما يسخط الله، وإن نظر لم ينظر إلى ما حرم الله، وإن بطش لم يبطش إلا لله، وهكذا. قال الطوفي[1]: «اتفق العلماء ممن يُعتدّ بقوله أن هذا مجازٌ وكناية عن نُصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه يُنزلُ نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها، ولهذا وقع في رواية «فَبِيَ يَسمع، وبي يُبصر، وبي يَبطش، وبي يمشي»»[2]. وقال الخطّابي: «هذه أمثال، والمعنى: توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله: من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحلّ له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله»[3]. وقال الحافظ ابن رجب: «المُرادُ بهذا الكلام: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض، ثم بالنوافل، قرّبه إليه، ورقّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى، ومحبته، وعظمته، وخوفه، ومهابته، وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة.. فحينئذ لا ينطقُ العبد إلا بذكره، ولا يتحرّكُ إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش

---

(1) هو أبو الربيع نجم الدين سليمان بن عبد القويّ الطوفي، أحد فقهاء الحنابلة، عُرف بفرط ذكائه وكثرة تصانيفه، ومنها: «الإكسير في قواعد التفسير» و«معراج الوصول إلى علم الأصول» و«مختصر روضة الناظر»، وتوفّي رحمه الله سنة (716 هـ). ترجمته في: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (2/ 366)، و«شذرات الذهب» (6/ 39).

(2) فتح الباري: (11/ 344).

(3) المرجع نفسه.

به، فهذا هو المراد بقوله: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»»[1].

3. **استجابة الدعاء**: وهذا من أعظم البراهين على محبّة الله تعالى لعبده الصّالح، وقد جاء مصرّحاً به في الحديث: «وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّه»[2].

قال الحافظ ابن رجب: «يعني أنّ هذا المحبوبَ المُقرّب، له عند الله منزلةٌ خاصة تقتضي أنه إذا سأل شيئاً أعطاهُ إيّاه، وإن استعاذ به من شيءٍ أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصيرُ مُجابَ الدعوة لكرامته على ربّه عزّ وجلّ، وقد كان كثير من السلف الصالح معروفاً بإجابة الدعوة»[3]. وعن أنس ﷺ، أنّ النبي ﷺ قال: «كَمْ من ضعيفٍ متضعّف ذي طِمرين لو أقسم على الله لأبرّه، منهم البراء بن مالك»، وأنّ الْبَرَاءَ لَقِيَ زَحْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَوْجَعَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا لَهُ: يَا بَرَاءُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ، ﷺ، قَالَ: إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّكَ، فَأَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، ثُمَّ الْتَقوا مرّةً أخرى، فَأَوْجَعُوا فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا بَرَاءُ أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ، لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلحَقْتِنِي بِنَبِيِّكَ، ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا»[4].

وهذه قصّة أحد أولياء الله الصالحين، المُحبّين لربّ العالمين، وهو خيرُ التابعين بشهادة سيّد المرسلين عليه الصلاة والتسليم، فعن أُسَيْرِ بن جابر قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أتى عليه أمدادُ أهل اليمن[5]، سألهم: أفيكم أُويسُ بنُ عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنتَ أُوَيس بنُ عامر؟ قال: نعم، قال: مِن مُراد ثم من قَرَن؟

---

(1) جامع العلوم والحكم: (2/ 345-347).

(2) رواه البخاري برقم (6502).

(3) جامع العلوم والحكم: (2/ 348).

(4) رواه الحاكم (3/ 292) وصحّحه مع الذهبي، وكذلك الترمذي (3854).

(5) هم الجماعة الغُزاة الذين يمدُّون جيوش الإسلام في الغزو، وأحدهم مَدد.

قال: نعم، قال: فكان بك بَرَصٌ فبرأتَ منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُويس بن عامر، مع أمْداد أهل اليمن، مِن مُراد ثمَّ مِن قرن، كان به برصٌ فبَرَأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرَّه، فإن استطعتَ أن يستغفر لك، فافعل»، فاستغفِرْ لي، فاستغفَرَ له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكونُ في غبراء الناس أحبّ إليّ.

قال: فلما كان من العام المقبل حجّ رجلٌ من أشرافهم، فوافق عمرَ فسأله عن أويس؟ قال: تركتُه رثَّ البيت، قليل المَتاع، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، مِن مراد ثم من قرن، كان به برص فبَرَأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك، فافعل»، فأتى أويسًا فقال: استغفِرْ لي، قال: أنتَ أحدثُ عهدًا بسفر صالح، فاستغفِرْ لي، قال: لقيتَ عمر؟ قال: نعم، فاستغَفَرَ له، ففَطِن له الناس، فانطلق على وجهه»[1]. وقوله: «لو أقسم على الله لأبرّه»: إشارة إلى إجابة دعوة أُويس، وعظيم مكانته عند ربه، وأنه لا يخيِّب أمله فيه، ولا يكذب ظنّه به، ولا يردُّ طلبه.

ونظراً إلى أنه مُجاب الدعوة، فقد دعاهم النبي ﷺ إلى طلب الاستغفار منه رحمه الله. وهذا الحديث أصلٌ في جواز طلب الدعاء والاستغفار ممّن عُرف بالتقوى والصلاح من الأحياء، وها هو خير الأمّة، وأفضل الناس بعد النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر رضي الله عنه، يتتبَّع أخبارَ اليمن، ويسألهم عن أُويس القرني؛ لكي يطلب من هذا الرجل الصالح أن يستغفر له، قال النووي رحمه الله: «وفيه استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح، وإن كان الطالب أفضل»[2].

(1) رواه مسلم في صحيحه رقم (2542).

(2) شرح النووي على مسلم (4/ 194).

وكان سعدُ بن أبي وقاص مجاب الدعوة، فكذب عليه رجل، فقال: «اللهم إن كان كاذبا فاعْمِ بصره، وأطِلْ عُمرهُ، وعَرّضْهُ للفتن». فأصاب الرّجلَ ذلك كلُّه، فكان يتعرّض للجواري في السكك، ويقول شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد[1].

ونازعته امرأة سعيد بن زيد في أرض له، فادَّعت أنه أخذ منها أرضها. فقال: «اللهم إن كانت كاذبةً، فاعْمِ بَصَرَهَا، واقتلها في أرضها»! فَعَميتْ، فبينما هي ذات ليلة تمشي في أرضها إذ وقعت في بئر فيها فماتت[2].

4. **العناية وحسن الخاتمة**: وهذه من العلامات التي إذا وُجدت في العبد، دلّت على أنّ الله سبحانه يُحبّه. وهي: حُسنُ التدبير له، فيربّيه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينوّر له عقله، فيَجْتبِيه لَمحَبّته، ويستخلصه لعبادته، فيشغل لسانه بذكره وجوارحه بطاعته، فتراه يتبع كلّ ما يقرّبه إلى محبوبه؛ وهو الله عزّ وجلّ. فيتولاه ربّه بتيسير أموره من غير ذلّ للمخلوق، ويسدّد ظاهره وباطنه، ويجعل هَمّه همّاً واحداً، بحيث تشغله محبّة ربّه عن كلّ شيء.

ومن جميل عناية الله تعالى بعبده المحبوب: حمايته له من الدنيا إن كانت تفسده، فحبُّ اللهِ تعالى وحبُّ الدنيا والتعلُّق بها لا يجتمعان في قلب امرئ اختصَّه الله تعالى بالمصافاة والمحبَّة، ومن لُطْف الله تعالى بعبده المؤمن الذي لاحت له بوارقُ المحبَّة والاصطفاء: أن يَقِيَه الدُّنيا وأعراضَها، ويصرفَ عنه مشاغلها[3]، ليبقى قلبُه نقيًا طاهرًا، مستقبلًا لتجليات الله تعالى وفيوضاته، وفي هذا المعنى نستحضرُ حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: «إذا أحبَّ الله عبدًا حماهُ الدنيا؛ كما يَظَلُّ أحدُكم يَحمي سقيمَه الماء»[4]. وفي هذا صيانة للعبد عن حلال الدُّنيا وحسابه، وحرامها وعقابه،

---

(1) رواه البخاري (755).

(2) رواه مسلم (1610).

(3) الإحياء، للغزالي: (4/ 347).

(4) صحيح ابن حبّان رقم (699).

فهو دفع له عن ضررها. وهذا ابتلاء خاصٌّ فيمن تُفسده الدنيا ويُبطره الغنى، أمَّا من كانت الدنيا في يده ولم تَشغله عن الله تعالى، فلا يَضرّه أن يَملِكها، كما كان حال سيدنا سليمان عليه السلام وقد آتاه الله المُلك، وحالُ بعض كبار الصحابة المبشَّرين بالجنة؛ كعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهو ما أكّده رسول الله ﷺ بقوله لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «يا عَمْرو، نِعْمَ المالُ الصالحُ للمَرء الصالح»[1].

ومن إكرام الله تعالى لعبده المحبوب: توفيقه وإلهامه التزوّد من الطاعات وأعمال الخير قبل موته، وذلك من علامات حسن الخاتمة، فيوفّقُ العبدُ قبل وفاته للابتعاد عما يغضب الله سبحانه، والتوبة من الذنوب والمعاصي، والإقبال على صالح الأعمال، ثم يكون موته بعد ذلك على هذه الحال الحسنة. ودليل ذلك قول نبينا ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبدًا عسَله». قالوا: ما عسله يا رسول الله؟ قال: «يُوفّقُ له عملاً صالحاً بين يدي أجله»، وفي رواية: «يَفْتَحُ اللهُ عز وجل لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»[2].

الإشارة الثالثة: الاسباب الجالبة للمحبّة

1. **معرفة الله تعالى**: قال الإمام الغزالي رحمه الله: «والمحبّة ثمرةُ المعرفة، فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها، وتقوى بقوتها، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: مَن عرفَ ربّه أحبّه، ومن عرف الدنيا زهد فيها»[3]. وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «فكلّما قويت معرفة العبد لله قويت محبّته له ومحبّته لطاعته، وحصلت له لذّة العبادات من الذكر وغيره على قدر ذلك»[4].

---

(1) رواه أحمد (4/ 197) وصححه ابن حبان (3210).

(2) رواه ابن حبّان وأحمد، وهو في صحيح الترغيب (3358).

(3) الإحياء، للغزالي: (5/ 52).

(4) استنشاق نسيم الأنس: (ص 50).

فمن أعظم الأمور الجالبة لمحبة الله: معرفة الله سبحانه بأسمائه الحُسنى وصفاته العُليا، وأنّه موصوفٌ بكلّ جمال وجلال وكمال، ومنزّهٌ عن كلّ نُقصان. فإن العبد كلّما كان أعظم معرفة بالله، كان لله أحبّ ولعبادته أطلب، وعن معصيته أبعد، وشاهد ذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: 28).

وقد بيّن علماء السلوك أنّ معرفة الله سبحانه: هي ألذّ الأشياء، وأنه لا لذّة فوقها، ولهذا قال أبو سليمان الداراني: «إنّ لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنّة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله!»، ولذلك قال بعضهم لمعروف الكرخي: أخبرني يا أبا محفوظ أيّ شيء أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت. فقال: ذكرُ الموت؟ فقال: وأيّ شيء الموت! فقال: ذكر القبر والبرزخ؟ فقال: وأي شيء القبر! فقال: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال وأيّ شيء هذا؟ إنّ مَلِكاً هذا كلّه بيده، إنْ أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا»[1].

ومطالعة أسماء الله تعالى وصفاته، لا سيما بتدبُّر آيات القرآن والنظر في هذه الأسماء ومواضعها، وكذلك تلمُّس آثار هذه الأسماء في الكون من حولنا، من أعظم الأسباب المقوية لمعرفة الله والجالبة لمحبّته سبحانه، يقول ابن القيم: «واللهُ سبحانَهُ تَعَرَّفَ إلى عبادِهِ منْ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ بما يُوجِبُ محبَّتَهُم لهُ؛ فإنَّ القلوبَ مَفْطُورَةٌ على محبَّةِ الكمالِ وَمَنْ قامَ بِهِ، واللهُ سبحانَهُ وتَعَالَى لهُ الكمالُ المُطْلَقُ منْ كلِّ وَجْهٍ، الذي لا نَقْصَ فيهِ بِوَجْهٍ ما»[2].

2. **معرفة نِعَم الله تعالى:** فمن الأمور الجالبة للمحبّة: تذكّر نِعَم الله تعالى، وآلائه، وإحسانه، وبِرّه؛ وهذا أعظمُ مظاهر الشكر لله سبحانه، وهو أن يعتقد العبد جازماً بأنّ المُنعم الحقيقي بكلّ النّعم التي نتقلّبُ فيها: إنّما هو الله جلّ في عُلاه ﴿وَمَا بِكُم

(1) إحياء علوم الدّين: (5/ 67).

(2) روضة المحبين: (ص420).

﴿مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ (النحل: 53). والنفوس قد جُبلت على محبّة من أحسنَ إليها، وشُكر من أنعم عليها، ورُوي عن النبي ﷺ: «أَحِبُّوا اللهَ لما يَغْذُوكُم به مِنْ نِعَمِه»[1].

قال العلاّمة المناوي رحمه الله: «أي أحبّوا الله لأجل إنعامه عليكم بصنوف النّعم، وضُروب الآلاء الحسية: كتيسير ما يتغذّى به من الطعام والشراب، والمعنوية: كالتوفيق والهداية ونَصب أعلام المعرفة، وخَلْق الحواس وإفاضة أنوار اليقين على القلب»[2].

وعن أبي عبد الله الجدلي قال: أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود ﷺ: يا داود أحِبّني وأحبّ من يحبّني، وحبّبني إلى الناس. قال: يا رب؛ أُحبّكَ وأُحبُّ من يُحبّك، فكيف أُحبِّبُكَ إلى الناس؟ قال: تُذكّرهم آلائي، ونَعمائي، فلا يذكرون مني إلاّ حسناً[3].

فإذا تذكّرتَ -أخي الكريم- نِعَم الله عليك ومِنَنه المتوالية وعطاياه المتابعة، تحرّكت في قلبك المحبّة وزاد شأنها، وارتفع مقامها. فتأمّل -أيّها الإنسان- مَن الذي خلقكَ في أحسن تقويم، ومنحكَ هذا الجسم السليم، ومَن الذي هداك إلى الإسلام وجعلك من أتباع خير الأنام عليه الصلاة والسلام، ومن الذي أطعمك وسقاك وكفاك وآواك؟ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ (فاطر: 3). وكان من دعاء النبي ﷺ -إذا أوى إلى فراشه كلّ ليلة-: «الحمدُ لله الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا؛ فكَمْ مِمّن لا كافيَ له ولا مُؤْوِي»[4].

---

(1) رواه الترمذي (3789) وضعفه، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(2) فيض القدير: (1/ 228).

(3) استنشاء نسيم الأنس، لابن رجب (ص 46).

(4) رواه مسلم رقم (2715).

3. **اتباع النبي ﷺ**: وهذا من أعظم الطرق الموصلة إلى محبّة الله سبحانه، كما نصّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:31)؛ ولهذا جاء التحذير من مخالفة النبي ﷺ في عدّة نصوص شرعية؛ منها: قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 65). أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكمًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سُنّتك بعد مماتك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تامًّا؛ فالحكم بما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة مِن صميم الإيمان مع الرضا والتسليم[1]. وشرط المحبة لله: الإحسان في العمل واتباع الشرع، فلا تصح المحبة ولا تُقبل الدعوى من أحد إلا بما يوافقها من العمل الصحيح. أما ادعاء المحبة مع عدم التزامٍ بالشرع فدعوى كاذبة وغرور باطل.

4. **الاجتهاد في العبادة**: وذلك أنّ المُحبّ الصادق، يتلذّذُ بخدمة محبُوبه وتصرّفه في طاعته، وكلما كانت المحبّة أقوى كانت لذّة الطاعة والخدمة أكمل. والمحبّة شجرة طيّبة أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب والجوارح كدلالة الثمار على الأشجار والدّخان على النار. وثبت في الحديث أن الاجتهاد في التقرّب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض: هو من أعظم الأسباب الجالبة لمحبّة الله سبحانه، «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ». يقول الحافظ ابن حجر: «إنّ محبّة الله تعالى للعبد تقعُ بملازمة العبد التقرّب بالنوافل، وقد جرت العادة أنّ التقرّب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرّب كالهدية والتُّحفة، بخلاف من يؤدّي ما عليه من خَراج أو يقضي ما عليه من دين»[2].

(1) التفسير الميسّر: (ص88).

(2) فتح الباري (11/ 343).

وقد كان نبينا ﷺ -مع كثرة مسؤلياته- إمامَ المجتهدين في طاعة ربّ العالمين، فهو كثير العبادة: من صلاة وصيام، وذكر ودعاءٍ وقيام، وغير ذلك من أنواع الطاعات. وكان إذا عمل عملاً أثبته وحافظ عليه، فعن عائشة ﵂ قالت: «كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً»[1]. وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطّر قدماه، فلمّا قيل له في ذلك قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً»[2].

والملائكة عبادٌ مُكرمون، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:6)، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء:20). ومع ما وصفهم الله تعالى به من العبادة، والطاعة. وأن مِنهم مَن هو ساجد لله، لا يرفع رأسه منذ خُلق، ومنهم من هو راكع، لا يرفع رأسه من الركوع منذ خُلق إلى يوم القيامة، فإنهم يقولون: «سُبحانك ما عبدناكَ حقّ عبادتك»؛ وذلك احتقارًا منهم لعبادتهم وأعمالهم في جَنْبِ الله تعالى؛ لأنه لا أحد يقدر أن يعبد الله تعالى حق عبادته، ويعرفه حقّ معرفته، ويتقيه حق تقواه، ويُعظّمه حق عظمته حقيقةً.

ولو عبد الإنسان ربّه سبحانه بكل ما يستطيع لما أدّى أقلّ القليل من حقه سبحانه وتعالى؛ وقد جاء في تفسير ابن كثير: «إِنَّ للهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تُرعَد فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقْطُرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، لَمْ يَرْفَعُوا رُؤوسَهُمْ، وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكُوعًا، لَمْ يَرْفَعُوا رُءُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُءُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالُوا: سُبْحَانَكَ! مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»[3]. وعن جابر بن عبد الله ﵁

(1) رواه مسلم (746).

(2) رواه البخاري (1130) ومسلم (79).

(3) التفسير (8/ 297) وقال ابن كثير: إِسْنَاده لاَ بَأْسَ بِهِ.

قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماوات السبع موضع قَدَم ولا شِبْر ولا كَفٌّ إلا وفيه مَلَكٌ قائمٌ، أو ملك ساجدٌ، أو ملَكٌ راكعٌ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سُبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنّا لم نُشرك بك شيئا»[1]. وفي حديث سلمان رضي الله عنه -مرفوعاً-: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»[2]. وقد تأثّر سلفنا الصالح بهذه السِّير والآثار، وضربوا بالحظّ الأوفى في عبادة الله العزيز الغفّار، وأحرزوا قصبَ السّبق في ذلك، حتى كانوا نماذج بشرية حيّة، يقتدي بها الناس، ليتمثّلوا عميق الخوف والرّجاء، وعظيم المحبّة والقرب من الله ربّ الأرض والسّماء، عبر أقوام ليسوا بملائكة ولا أنبياء[3].

5. تدبّر القرآن مع دوام الذكر والدعاء:

أ. **تدبّر القرآن الكريم**: فلا شيء أنفع للقلب وأجْلب لمحبّة الله تعالى من تلاوة كتابه سبحانه بالتدبّر والتفكّر، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:29)، فهذا هو المقصودُ الأعظم والمطلوبُ الأهمّ من إنزال القرآن. وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:1).. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي، فقال: «سَلُوهُ لأيّ شيءٍ يَصْنَعُ ذلك؟». فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أُحبّ أن أقرأ بها، فقال النبي: «أخبروه أن الله يُحِبُّهُ»[4].

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (1/ 160) وسكت عنه ابن كثير (8/ 295)

(2) رواه الحاكم (8739)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (941)، ورجّح وقفَه ابن رجب في «جمع العلوم» (2/ 18).

(3) انظر: صفحات مُضيئة من عبادة السلف، لإبراهيم محمد العبي.

(4) رواه البخاري (7375) ومسلم (813).

نعم.. أحبَّ [قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ]، فأحبَّهُ الرحمن جلّ جلاله. قال ابن القيم: «فتبارك الذي جعل كلامه حياةً للقلوب، وشفاءً لما في الصدور، وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يُورث المحبّة والشوق والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل والرضا، والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله»[1].

ب. **ذكر الله تعالى:** ومن أعظم علامات محبّة العبد لربّه سبحانه: كثرة ذكره، وقد تفضل الله تعالى علينا بذكر من يذكره، وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُهُ في ملإٍ خيرٍ منهم»[2]. قال أحدُ الصالحين: «إني لأعلمُ متى يذكرني ربيّ عزّ وجلّ»، وعندما تعجّب القوم، قال: «إذا ذكرتُه ذكرني»، وتلا قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:152)[3]. وذكر الإمام ابن القيم -من فوائد الذكر- أنه: «يورثه المحبّة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة. وقد جعل الله لكلّ شيئاً سبباً، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله عزوجل، فلْيلْهَجْ بذكره.. فالذكر: بابُ المحبة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم»[4]. وقال ذو النون المصري: «مَنْ شُغِلَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ بِالذِّكْرِ، قَذَفَ اللهُ فِي قَلْبِهِ نُورَ الِاشْتِيَاقِ إِلَيْهِ»[5].

---

(1) مفتاح دار السعادة (1/ 187).

(2) رواه البخاري (7405) ومسلم (2675).

(3) تفسير القرطبي: (2/ 171).

(4) الوابل الصيب: (ص 91).

(5) شعب الإيمان، للبيهقي: (2/ 267).

ج. **الدعاء**: وهو مأمورٌ به وموعودٌ عليه بالإجابة، ودلك بصريح قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: 60)، وفي الحديث: «الدعاء هو العبادة»[1]. أي: هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة، لدلالته على الإقبال على الله والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه.

ونظراً إلى جلالة هذه العبادة، فإن من أعظم المطالب: أن يسأل العبد ربّه محبّته على أكمل الوجوه وأتمّها، ومحبة من يحبه الله، من الرسل والملائكة والصالحين. وفي حديث «اختصام الملأ الأعلى» أن النبيّ ﷺ دعا بقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي، وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ»[2]. وقوله ﷺ: «وأسألك حُبّك»: أي أسألك حبّك إيّاي، وهذا أعظم مطلوب أن يكون العبد محبوباً عند الله عز وجل، وتضمّن سؤاله حبّه تعالى، سؤال محبّة العبد لِرَبّه تعالى، أي وأسألك حبّي إياك، فلا يكون شيء أحبّ إليَّ منك. وقوله: «وحبّ من يحبُّك»، أي: وأسألك حبّ من يحبّك من الأنبياء والعلماء والصالحين. وقوله: «وحُبّ عمل يقرّبني إلى حبّك» أي: وأسألك أن توفّقني إلى أحبّ الأعمال الصالحة التي تُقرّبني إلى حبّك، فمن رُزق هذه المحبّ فاز في الدنيا والآخرة.

وصحّ من رواية نافع عن ابن عُمر رضي الله عنهما، أنه كان يدعو على الصفا والمروة وفي مناسكه فيقول في دعائه: «اللهم اجعلني ممّن يُحبّك، ويحبّ ملائكتك، ويحبّ رسلك، ويحبّ عبادك الصالحين، اللهم حبّبني إليك، وإلى ملائكتك وإلى رسلك وإلى عبادك الصالحين»[3]. ويقول ابن القيم: «ومنْ أفضلِ ما سُئِلَ اللهُ حُبُّهُ، وَحُبُّ

---

(1) الترمذي (2969) وصححه، وكذلك الألباني في صحيح الجامع (3407).

(2) أخرجه الترمذي (3235)، وحسنه، وقال: سألت محمد بن إسماعيل -يعني البخاري- فقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(3) الحلية، لأبي نعيم (1/ 308) واستنشق نسيم الأنس، لابن رجب (ص 41).

مَنْ يُحِبُّهُ، وَحُبُّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إلى حُبِّهِ. ومِنْ أَجْمَعِ ذلكَ أنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَأِ، اللَّهُمَّ حَبِّبْنِي إِلَيْكَ وَإِلَى مَلائِكَتِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ يُحِبُّكَ وَيُحِبُّ مَلائِكَتَكَ وَأَنْبِيَاءَكَ وَرُسُلَكَ وَعِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ أَحْيِ قَلْبِي بِحُبِّكَ وَاجْعَلْنِي لَكَ كَمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أُحِبُّكَ بِقَلْبِي كُلِّهِ، وَأُرْضِيكَ بِجُهْدِي كُلِّهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبِّي كُلَّهُ لَكَ، وَسَعْيِي كُلَّهُ فِي مَرْضَاتِكَ»»[1].

---

(1) روضة المحبين (417-418).

المحطّة الثامنة

أركان التقدّم إلى اللّه

- اللوحة الأولى: رُكن الذكر
- اللوحة الثانية: رُكن الشكر
- اللوحة الثالثة: رُكن الصبر

مدخل

لكلّ نشاط أركان أساسيّة يستندُ إليها، ودعائم قويّة يقوم عليها، ولولاها لما استقام هذا النّشاط، ولما ثبتَ وبلغ غايته وحقّق أهدافه. ولمّا كان التّقدّم إلى الله تعالى: هو أعظم نشاطٍ حيوي للانسان في هذه الدنيا، فلا بدّ أن نتحدّث عن أركان هذا النّشاط الأساسية التي لا قِوام له بدونها، وهي -والله أعلم- ثلاثة: (الذّكر - الشّكر - الصّبر). والسرّ في اجتماع هذه الأركان: أنّها مُتّصلةٌ برباط وثيق، ويُكمّلُ بعضها بعضاً، ولا فلاح للسالك إلاّ برعايتها مجتمعةً، والثّبات عليها طِوَال السير.

أمّا (الذكر والشكر) فكلاهما المُرادُ بالخلق والأمر، قال الإمام ابن القيم: «مَبْنَى الدِّين على قاعدتين: (الذكر والشكر)، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: 152)، وقال النبي ﷺ لمعاذ: «والله إني لأحبّك، فلا تنس أن تقول دُبُرَ كل صلاة: اللّهُمّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1]. وهذان الأمران هما: جِماع الدين، فذِكْرُه مستلزمٌ لمعرفته، وشُكره متضمّنٌ لطاعته. وهذان هما الغاية التي خلقَ لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرّسل»[2].

(1) أخرجه أبو داود (1522)، وصححه الألباني.

(2) الفوائد: (ص 166).

وأمّا (الصبرُ) فهو خادمٌ لهما، ووسيلةٌ إليهما، وعونٌ عليهما، وهو يُشارك الشكرَ في الإيمان مناصفةً، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الإيمان نصفان: نصفٌ صَبر ونصفٌ شُكر»[1]. وقال العلّامة ابن القيم: «ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، في سورة (إبراهيم: 5)، وفي سورة (حم عسق/الشورى:33)، وفي سورة (سبأ:19)، وفي سورة (لقمان: 31)».

وذكر ابن القيّم أنّ لهذا التصنيف جملة من الاعتبارات: «أحدها: أنّ الإيمان مجموعٌ للقول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فعل وترك.

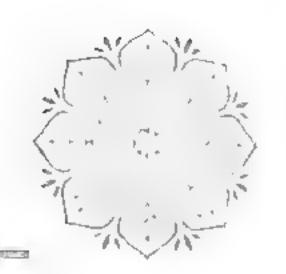
فالفعل: هو العمل بطاعة الله عز وجلّ، وهو حقيقة الشكر.

والترك: هو الصبر عن المعصية.

والدين كلّه في هذين الشيئين: فعل المأمور، وترك المحظور»[2].

(1) رواه الطبراني في الكبير (8544) والبيهقي في شعب الإيمان (48).

(2) عدّة الصابرين (ص 205).



رُكنُ الذكر

«الذكر»: منزلة القوم الكُبرى، التي منها يتزوّدون، وفيها يتّجرون، وإليها دائما يتردّدون. وهو منشور الولاية، الذي مَن أُعطيَهُ اتّصل، ومن مُنِعَهُ عُزل. وهو قوت القلوب، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب[1]. قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: «أوّلُ منازل القوم: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب: 41-42)، وأوسطها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (الأحزاب:43)، وآخرها: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ (الأحزاب: 44)»[2].

وقد ورد في الأحاديث النبوية وآثار السلف وكتب أهل العلم إطلاق كلمة «الذكر» على: التسبيح، والدعاء، وقراءة القرآن، والصلاة، وغيرها من الطاعات؛ وأشهر كتب الأذكار شاهدة على ذلك[3].

---

(1) مدارج السالكين: (2/ 142).

(2) الفوائد: (ص 49).

(3) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: (10/ 163)، وكتاب الأذكار، للإمام النووي.

الإشارة الأولى: شأنُ الذكر

للذّكر شأنٌ عظيم، فهو بابُ الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يُغلقه العبدُ بالغفلة. وهو جِلاءُ القلوب وصِقالُها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالُها. وكلّما ازداد الذاكرُ في ذكره استغراقاً: ازدادَ المذكورُ محبّةً إلى لقائه واشتياقاً[1].

1. **حقيقة الذكر:**

أ. **المعنى اللّغوي:** «ذكرُ الشيء» يعني: حفظهُ، وعدم نسيانه، وجريانه على اللّسان، ويُقالُ: «الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان»، والذكر القلبي: إحضار الشيء في الذهن بحيث لا يغيب عنه، وهو ضدُّ النّسيان، يقال: ما زال مني عى ذكر: أي لم أنسه[2].

ب. **المعنى الإصطلاحي:** «ذكرُ الله تعالى»: يكون بالثناء عليه ودعائه وتلاوة كلامه باللسان، ويكون باستحضار عظمته والانشغال به والشوق إليه بالجَنان، وكذلك بامتثال أمره ونهيه بإقامة الأركان[3].

ج. **تعريفات العلماء:** التعريف السابق الذي وضعتُهُ، قد ورد في كلام أهل العلم بألفاظ متقاربة:

-قال الإمام القرطبي: «وأصلُ الذكر التنبّهُ بالقلب للمذكور والتيقّظ له، وسُمّي الذكرُ باللسان ذكراً لأنه دلالةٌ على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم»[4].

– وقال الحافظُ ابن حجر: «والمرادُ بالذكر: الإتيانُ بالألفاظ التي ورد الترغيب

---

(1) مدارج السالكين: (2/ 143).

(2) انظر: لسان العرب مادة [ذكر]، تاج العروس، للزبيدي: (6/ 440)، ومفردات الراغب: (ص 179)

(3) الجَنان: يعني القلب.

(4) تفسير القرطبي: (2/ 171).

في قولها، والإكثار منها، مثل الباقيات الصالحات، وهي: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة والاستغفار ونحو ذلك، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، ويُطلقُ ذكرُ الله أيضاً ويُرادُ به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، ومدارسة العلم، والتنفّل بالصلاة»[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران:135)، قال الإمام ابن عاشور: «والذكر في قوله (ذكروا الله): ذكر القلب، وهو ذكر ما يجب لله على عبده، وما أوصاه به، وهو الذي يتفرع عنه طلب المغفرة، ومعنى «ذكر الله» هنا: ذكرُ أمره ونهيه ووعده ووعيده»[2].

د. **أقسام الذكر**: ومن العلماء من قسّم الذكر إلى هذه الأقسام:

- ذكر أسماء الله تبارك وتعالى، وصفاته، والثناء عليه بها.
- ذكر أمره ونهيه، وأحكامه إخباراً أو امتثالاً.
- ذكره بكلامه الذي أنزله وتعبّدنا بتلاوته.
- ذكر آلائه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله.
- ذكره بدعائه واستغفاره والتضرّع إليه[3].

هـ. **أنواع الذكر**: ومنهم من توسّع في مفهوم الذكر، ليشمل جملة من الطاعات:

- قال التابعي الجليل سعيد بن جُبير رحمه الله: «الذكرُ: طاعةُ الله تعالى، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطع الله فليس بذاكر وإن أكثر التسبيح وتلاوة الكتاب»[4].

---

(1) فتح الباري: (11/ 212).

(2) التحرير والتنوير: (4/ 92).

(3) الوابل الصيّب، لابن القيم: (ص 178-181).

(4) رواه ابن المبارك في «الزهد»: (ص 35)، وأبو نعيم في «الحلية»: (4/ 276).

- وقال تلميذه عطاء بن أبي رباح رحمه الله: «مجالسُ الذكر: مجالسُ الحلال والحرام، وكيف تُصلّي؟ وكيف تصوم؟ وكيف تَنكح؟ وكيف تُطلّق؟ وتبيع وتشتري؟»[1].

- وقال الإمام النووي: «اعلم أنّ فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالى بطاعة؛ فهو ذاكرٌ لله تعالى»[2].

- وقال الشيخ السعدي: «وإذا أُطلقَ ذكرُ الله شمل كلَّ ما يقرّبُ العبدَ إلى الله من: عقيدةٍ، أو فكرٍ، أو عملٍ قلبي، أو عملٍ بدني، أو ثناءٍ على الله، أو تعلّمِ علمٍ نافع وتعليمه، ونحو ذلك فكلّه ذكرٌ لله تعالى»[3].

2. فضل الذكر:

أ. آيات في فضل الذكر:

- **الأمر بالذكر الكثير:** قال الحقُّ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب: 41 - 42). هكذا ميّز الله تعالى عبادة «الذكر» عن سائر القربات، فأمر بالإكثار منه، ووَعَدَ من يمتثلُ هذا الأمرَ بعظيم الأجر والثواب، فقال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:35).

- **سببٌ لذكر الله لعبده:** قال الله تَعَالَى: ﴿فَٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: 152). نعم، هذه العبادة اليسيرة: سببٌ لذكر الله العظيم لعبده الذاكر الكريم، وأي كرامة أكبر من أن يذكرك الله تعالى في الملإ الأعلى؟! وفي الحديث القدسي يقول الحقّ سبحانه: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي

(1) الحلية (4378)، وسير أعلام النبلاء (6/ 142).

(2) الأذكار: (1/ 69).

(3) الرياض النضرة: (ص 245).

نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[1]. قال أحد الصالحين: «إنيّ لأعْلَمُ متى يذكُرني ربّي عزّ وجلّ»، وعندما تعجّب القوم، قال: «إذا ذكَرتُه ذَكَرني»، وتلاَ قولَه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ (البقرة: 152)[2].

- **ذكرُ الله أكبر**: قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ (العنكبوت: 45) قال الإمام ابن كثير: «يَعْنِي: أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، أَيْ: إِنَّ مُوَاظَبَتَهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ. وَتَشْتَمِلُ الصَّلَاةُ أَيْضًا عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ الْأَكْبَرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) أَيْ: أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ»[3]. والصلاة من أجلّ العبادات التي يتجلّ فيها ذكرُ الله سبحانه. قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه: 14) قال الشيخ السعدي: «قوله: (لِذِكْرِي) اللاّم للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إيّاي، لأن ذكره تعالى أجلّ المقاصد، وهو عبُودية القلب، وبه سعادته، فالقلبُ المعطّلُ عن ذكر الله، مُعطّلٌ عن كلّ خير، وقد خرب كلّ الخراب، فشرَعَ اللهُ للعبد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصا الصلاة»[4].

ب. أحاديث في فضل الذكر:

- **الذكر حياة القلوب**: قال ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّه مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[5]. وقال الحافظ ابن رجب: «الذكرُ لذّة قلوب العارفين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28).. قلوبُ المُحبّين لا تطمئنُّ إلاّ بذكره، وأرواح المشتاقين لا تسكُنُ إلاّ برُؤيته، قال ذو

(1) رواه البخاري (7405)، ومسلم (2675).

(2) تفسير القرطبي: (2/ 171).

(3) تفسير ابن كثير (6/ 280-282).

(4) تيسير الكريم الرحمان (ص514).

(5) رواه البخاري (6407).

النّون المصري: ما طابت الدنيا إلاّ بذكره، ولا طابت الآخرة إلاّ بعفوه، ولا طابت الجنّة إلاّ برؤيته»[1].

- **معيّة الله مع الذّاكر**: يقول الله تعالى -في الحديث القدسي-: «أنا مَعَ عَبْدي إذا هُوَ ذكرني وتَحرّكَتْ بي شَفتاهُ»[2]. ومن يكن الله معه فمعه الفئةُ التي لا تُغلب، والحارسُ الذي لا ينام، والهادي الذي لا يَضلّ، قال بعض السلف لأخيه: «إن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترجو؟»، وهذه هي المعية التي يُدافعُ الله بها عن عباده المؤمنين، وهي المعيّة التي كان الله بها مع نبيه ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه في الغار: «يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهما»[3]. ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:40).

- **وصيّة نبويّة بالذّكر**: قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن آخر كلام فارقتُ عليه رسولَ الله ﷺ أن قلتُ: أي الأعمالُ أحبُّ إلى الله؟ قال: «أن تموتَ ولسانك رَطْبٌ من ذكرِ الله»[4]. وسأل رجلٌ النّبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، إنَّ شرَائع الإسلام قَدْ كثُرتْ عَليَّ، فَأخبِرْني بِشَيْءٍ أَتَشَبَّث بِهِ، قال: «لا يَزال لِسانُك رطْبًا مِنْ ذِكْر اللهِ»[5]. وهذا أمر بالمداومة والإكثار من ذكر الله عزّ وجلّ، لأنّ ما يجري على اللّسان يثبُت في الجَنان والوجدان، وقديما قالوا: **«ما فيك ظهر على فيك»**.

ج. **فوائد ذكر الله تعالى**: وهي عديدة قد ذكرها العلماء[6]، ونختار منها هذه العشَرة:

(1) جامع العلوم والحكم: (2/ 520).

(2) رواه ابن ماجة (3792)، وهو في صحيح الجامع (1906).

(3) رواه البخاري (3653)، ومسلم (2381).

(4) رواه ابن حبّان في صحيحه (818) وصححه الألباني.

(5) رواه الترمذي برقم (3375) وصححه الألباني.

(6) انظر للمزيد: كتاب «الوابل الصيّب» لإمام ابن القيّم.

- أنّه من أيسر العبادات.

- أنه يطرد الشيطانَ ويقمعه.

-أنّه يُرضي الرّحمن عزّ وجلّ.

- أنّه يُزيلُ الهمّ والغم عن القلب ويُقوّيه.

- أنّه يورثُ المراقبة التي تُوصل إلى درجة الإحسان.

- أنّه يورثُ محبّة الله والقرب منه سبحانه.

- أنّه يَحُطُّ الخطايا ويُذهبُها.

- أنّه نورٌ للذّاكر في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة.

- أنّه يَجلبُ الرّزق ونِعم الله تعالى ويدفعُ نِقَمه.

- أنّه من أكبر العون على طاعة الله والثبات على دينه.

3. **آداب الذكر**: لذكر الله تعالى جُملة من الآداب، قد أخلّ بها الكثير منّا، وأهمّها:

أ. **تحرّي الذكر المشروع**: وهذا من الواجبات الشرعيّة التي يتأكّد التذكير بها، خاصّةً في هذا العصر الذي كثرت فيه البدع والتُّرّهات! ومن المعلوم أنّ شرعنا لم يستحب من الأذكار إلاّ ما كان كلاماً مُفيداً، مثل: «لا إله إلا الله» ومثل «الله أكبر» ومثل «سبحان الله والحمد لله» ومثل «لا حول ولا قوة إلا بالله».. وغيرها من الأذكار المشروعة. وأمّا الأذكار المُبتدعة التي أحدثتها بعض الطرق الصوفية واستحبّتها، مثل ذكر اسم من أسماء الله مُفرداً مثل: «الله.. الله» أو «يا لطيف.. يا لطيف» وأخطر منها ما ليس باسم أصلاً مثل: «هو.. هو» أو «آه.. آه» ! فلا يجوز التقرّب بها إلى الله، لأنّها أذكار مُبتدعة. وقد قال نبيّنا ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[1].

(1) أخرجه البخاري (2697) ومسلم (1718).

ب. **المحافظة على اللفظ الوارد**: بأعداده المأثورة، وذلك دون تحريف أو تبديل، خاصّة وأنّ الذكر «عبادة»، والعبادة مبناها على التوقيف. ومن الأدلّة على ذلك: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، حين علّمه النبي ﷺ دعاء النوم، وفيه «..اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ على الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ»، قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغْتُ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: «لَا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أرسلتَ»[1].

قال الحافظ ابن حجر: «وأَوْلَى ما قيل:.. أنّ ألفاظ الأذكار توقيفية، ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس، فتجبُ المحافظةُ على اللفظ الذي وردت به»[2].

ج. **تعظيم الله سبحانه**: إذْ ليس المقصود من الذكر: حركة اللسان في الفم، وإنّما هو استحضار لعظمة الجبّار جلّ جلاله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: 2)، فثمار الذكر من الخشية وزيادة الإيمان لا تكون إلا عن تدبّر وتفكر. فعلينا أن نُحسن ذكر ربّنا سبحانه، وهذا لا يتم إلاّ بشهود القلب، وحركة الفكر، وتيقّظ الوجدان. وإن كان لحركة اللسان من فائدة، فإنّما هي: تنبيه القلب وحجز الفكر عن الأحاديث المُلهية التي قد يُشغَلُ بها إن هو فتر عن ذكر الله تعالى. قال الإمام النووي: «الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتُصِر على أحدهما فالقلبُ أفضل»[3]. وقال الإمام ابن القيم: «أفضل الذكر وأنفعه ما واطأَ فيه القلب واللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكرُ معانيه ومقاصده»[4]. ويضيف قوله رحمه الله: «ذكر القلب يُثمرُ المعرفة، ويهُيج المحبّة، ويُثِرُ

---

(1) رواه البخاري (241) ومسلم (2710).

(2) الفتح: (11/ 116).

(3) الأذكار، للنووي: (1/ 69).

(4) الفوائد: (ص 247).

الحياء، ويبعثُ على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويَزعُ عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات»[1].

د. **خفض الصوت**: ما أمكن مع اليقظة التامّة، وذلك حتى لا نقع في الرياء المُحبط للأجر، ولا نُشوّش على غيرنا من الذاكرين. فينبغي أن يكون الذكرُ خفياً، لأن الأصل فيه هو (الإسرار)، والجهر استثناء لا يكون إلاّ بما ورد به الشرع، مثل: التلبية في الحجّ، والتكبير في العيدين، والحمد عند العُطاس وتشميته...، وأمّا ما أحدثه الناس من المبالغة في رفع الصوت والصياح بالذكر والدعاء، وما يتبعه من الترنّم والتلحين والتحزين، فليس من هدي سيّد المرسلين عليه الصلاة والتسليم ! وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾(الأعراف: 205). قال القرطبي: «ودلّ هذا على أنّ رَفْعَ الصوت بالذكر ممنوع»[2].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا معَ النبيِّ ﷺ في سفَرٍ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال ﷺ: «أيُّها الناسُ اربَعوا على أنفسِكم، فإنكم لا تَدْعونَ أصمَّ ولا غائبًا، ولكنْ تَدْعونَ سميعًا بصيرًا»[3].

هـ. **التأدّب في الذكر**: وذلك بنطق ألفاظ الأذكار نطقاً سليماً، بعيداً عن التحريف واللّحن اللذين نقع فيهما عادةً نتيجة الإسراع القبيح. وإنّ العبد لَيعجبُ من بعض المتسبين للزّهد والتصوف كيف يلعبون بذكر الله عزّ وجلّ في حلقاتهم، حيث يُسرعون بالذكر ويتمايلون، ويهتزّون ويرقصون، حتى لا يُفهَمُ عنهم ما يقولون! ويعدّون ذلك عبادةً، فإنّا لله وإنا إليه راجعون!

---

(1) الوابل الصيب: (ص221).

(2) الجامع لأحكام القرآن: (7/ 355).

(3) رواه البخاري (6384) ومسلم (2704) و«اربعوا» أي ارفقوا بأنفسكم.

ومن الأدب ألاّ نقطع الذكر بكلام دنيوي إلاّ لضرورة، تأدّبا مع الله تعالى واستكمالاً للخشوع المطلوب، وبالله التوفيق.

الإشارة الثانية: شأن القرآن

القرآن الكريم هو: أعظمُ كتاب في هذا الوجود، وهو المعجزة الكُبرى التي كتب الله لها الخلود. ولم يحظ -عبر التاريخ- كتاب سماوي ولا بشري بما حظي به القرآن العظيم من العناية والدرس والرعاية. وهو دستور الأمّة الإسلامية، وسبب عزّتها، ودليل هدايتها، ومفتاح سعادتها. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:57)، وعن القرآن يقول الإمام الشاطبي: هو «كُلّيةُ الشريعة، وعُمدةُ الملّة، ويُنبوعُ الحكمة، وآية الرّسالة، ونُور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره»[1].

1. **حقيقة القرآن:**

أ. **تعريف القرآن:** هو: كلامُ الله تعالى، المُعجِز، المُنزّل وحياً، بلسان عربيٍّ، على خاتم الرُّسُل مُحمّد ﷺ، لهداية العالمين، المحفوظ من التبديل والتحريف، المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب في المصاحف، المقروء مدى الزمان، المتعبّد بتلاوته، المشتمل على مائةٍ وأربَعَ عَشْرةَ سورة: أُولاها الفاتحة، وأُخْرَاها سورة الناس[2].

ب. **أسماء القرآن:** لكتاب الله العزيز عدّة أسماء، تدلُّ على علوّ شأنه وجلالة قدره، وأشهرها:

---

(1) الموافقات: (3/ 346).

(2) جمعتُ -بتوفيق الله- هذا التعريف الجامع، وعزمتُ على شرح كل قطعة فيه، ليخرج -بعون الله- في رسالة مفردة.

- **القرآن**: وهو الاسمُ العَلمُ لكتابِ الله المجيد، وأعظمُ أسمائه وأشهرها على الإطلاق، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ (البقرة: 185)، وقال ﷺ: «خيرُكم مَن تعلّم القرآنَ وعلّمه»[1].

- **كلام الله**: وهذه من أشهر التسميات للقرآن الكريم، ومن أشرفها وأعظمها، وذلك لما لهذه الإضافة من الجلال والجمال. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: 6).

- **الكتاب**: ويُسمّى أيضاً (كتاب الله)، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 2)، قال الشيخ ابن عاشور: «وفي هذه التسمية مُعجزة للرسول ﷺ، بأنّ ما يُوحى إليه سيُكتبُ في المصاحف»[2].

- **الوحي**: كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ (الأنبياء: 45)، وفي الحديث: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَة»[3].

- **الذّكر**: وسُمّيَ القرآن بذلك لما فيه من ذكر الله تعالى، أو من التذكير. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: 9)

ج. أوصاف القرآن: وهي نُعوتٌ جليلة وكثيرة لكتاب الله تعالى، نذكر منها:

- **أحسن الحديث**: كما في قول الحقّ سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: 23). وكان

(1) أخرجه البخاري برقم (3739).

(2) التحرير والتنوير: (1/ 73).

(3) أخرجه البخاري (4696) ومسلم (152).

النبي ﷺ يقول -في مستهلّ خُطبته-: «أمّا بعد، فإنّ خيرَ الحديث: كتاب الله»[1]. وفي رواية: «إنّ أصدقَ الحديث: كتاب الله»[2].

- **المعجزة الخالدة:** وقد اشتهر القرآن بهذا النّعت، حتى صار كاللّقب لكتاب الله تعالى. ولمّا كان الإسلام هو الدين الخاتم للشرائع السماوية، فقد قضى الله سبحانه أن تكون معجزته المُؤيدة لهذا الدين باقيةً معه إلى قيام الساعة. فإذا كانت معجزات الأنبياء السابقين عليهم السلام قد ذهبت بموتهم، فإنّ مُعجزة محمّد ﷺ الكبرى (القران الكريم) باقية بعده، وستبقى خالدة إلى آخر الزمان. ورحم الله أحمد شوقي حين قال:

جاء النّبيون بالآيات فانصَرمَت ... وجِئتنا بكتابٍ غير مُنصَرمِ

آياتُه كلّما طالَ المدَى جُدُدٌ ... يُزيّنُهن جمالُ العِتْقِ والقِدَم.

- **الكريم:** قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ (الواقعة: 77)، قال القرطبي: «أي ليس بسحر ولا كهانة وليس بمُفتَرى، بل هو قرآنٌ كريمٌ محمودٌ، جعله الله عزّ وجلّ معجزةً لنبيّه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين لأنه كلام ربّهم، وشفاء صدورهم، كريمٌ على أهل السماء، لأنه تنزيل ربّهم ووحيه. وقيل: كريم لما فيه من كريم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنه يُكرّمُ حافظه، ويعظّم قارئه»[3].

- **العزيز:** يقول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ (فصلت: 41-42). قال الشيخ الصابوني رحمه الله: «أي إنه لكتابٌ غالبٌ بقوّة الحُجّة، لا نظير له لما احتوى عليه من الإعجاز، يدفع كلّ جاحد، ويقمع كلّ معاند، لا يتطرّق إليه الباطل من جهة من الجهات ولا مجال للطعن فيه، تنزيلٌ من إلاه حكيم محمود من خَلقه»[4].

(1) رواه مسلم برقم (867).

(2) رواه النسائي (1578) بسند صحيح.

(3) تفسير القرطبي: (19/ 224).

(4) صفوة التفاسير: (3/ 125).

- **الهدى والشفاء والرحمة**: والقرآن هو بالأساس كتابُ هداية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: 9). وهو شفاءٌ للقلوب والعقول والأبدان، قال جلّ شأنه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: 82)، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 57).

- ومن أجمل ما وُصف به القرآن حديث سيدنا علي رضي الله عنه المرفوع: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لم تنته الجن حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ (الجن: 1-2)، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

2. فضل القرآن:

أ. **القرآن أعظم النّعم**: لما كان القرآن الكريم النّعمة الكبرى، والآية العُظمى، التي أُنزلت على الإنسانية جمعاء؛ بدأ بها ربُّنا سبحانه، وقدّمها على كل شيء، حتى على خلق الإنسان نفسه، ليرشدنا بذلك إلى الغاية التي خُلق العبدُ من أجلها، ألا وهي معرفة وحي الله والالتزام به، فقال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن: 1-4). قال أبو حيان الأندلسي: «لما عدّد نعمه تعالى، بدأ مِن نِعَمه بما هو أعلى رُتَبها، وهو تعليم القرآن، إذ هو عماد الدين ونجاة

(1) رواه الترمذي (2906) وغيره مرفوعاً ولا يصحّ، والراجح وقفه كما قال المحققون.

من استمسك به. ولما ذكر تعليم القرآن ولم يذكر المعلِّم، ذكره بعد في قوله: (خَلَقَ الإِنْسَانَ)، ليُعلم أنه المقصود بالتعليم»[1].

ب. **التلاوة تجارة رابحة:** قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ (فاطر:29). وفسرها الشيخ السعدي قائلاً: «(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ) أي: يَتّبعُونه في أوامره فيَمْتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يُقدّمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويَتلُون أيضا ألفاظه بدراستها، ومعانيه بتتبّعها واستخراجها. ثم خَصّ من التلاوة بعد ما عَمّ، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنّفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات. [سِرًّا وَعَلَانِيَةً]: في جميع الأوقات. [يَرْجُونَ] بذلك [تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ] أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجلّ التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي: رضا ربّهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه»[2].

ج. **حروفه كنزٌ من الحسنات:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ [الم] حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[3].

د. **القرآن يشفع لأصحابه:** قال النبي ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»[4]. وقال ﷺ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ

(1) البحر المحيط: (10/ 187).

(2) تيسير الكريم الرحمن: (ص 698).

(3) رواه الترمذي (2910) وصححه الألباني.

(4) رواه مسلم (804).

النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ»[1]. والقرآن كما يشفع لأصحابه العاملين به يوم القيامة، فهو أيضا يشهد على مخالفيه بهَجْره وتضييع فرائضه وتعدّي حدوده، فقد ثبت أنّ النبي ﷺ قال: «...وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[2].

هـ. **بركات القرآن**: كما فاض فضلُ القرآن فعمّ الشهر الذي أُنزل فيه فصار أفضل الشهور، والليلة التي أُنزل فيها فصارت أفضل الليالي، فقد عمّ فضلُه أيضاً على الناس فصار خيرهم من تَعَلَّمَهُ وعَلَّمَهُ[3]. وعظم قدْرُ أهل القرآن حتى شرّفهم الله بهذه النسبة، حيث قال النبي ﷺ: «إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنْ النَّاسِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ ؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»[4]. قال الشيخ محمّد صالح المنَجد: «وعلى من أراد أن يكون له حظ من قول النبي ﷺ في أهل القرآن «إنهم أهل الله وخاصته» أن لا يختم القرآن في أكثر من شهر»[5].

3. **آداب القرآن:**

أ. **الإخلاص في الحفظ والتلاوة**: وذلك أنّ قراءة القرآن وتعلّمه وتعليمه من أعظم العبادات، فوجبَ أن نُخلِصَ لله النية وأن نُطهّر السريرةَ والطويّة. وقد أمرنا ربّنا بذلك حيث قال سبحانه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾(الزمر: 2)، وحذّرنا نبيّنا ﷺ من تضييع هذا الأساس، حيث ذكر -في الثلاثة الذين تُسعرُ بهم النار يوم القيامة- قوله: «... وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ،

(1) رواه أحمد (6589) وهو في صحيح الجامع (7329).

(2) رواه مسلم (223).

(3) رواه البخاري (5027) بلفظ «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه».

(4) رواه ابن ماجة (215) وصححه الألباني.

(5) موقع (الإسلام سؤال وجواب) عنوان «من هم أهل القرآن» بتاريخ: 15/ 11/ 2010.

ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهه حتى أُلْقِيَ في النار»[1]. وقال ﷺ: «اقرؤوا القرآن ولا تَغْلُوا فيه، ولا تَجْفُوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»[2].

ب. **الترتيل وتحسين الصوت**: التزاماً بأمر الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزّمّل: 4)، قال القرطبي: «أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مَهَل وبيانٍ، مع تدبّر المعاني». فعلى المسلم أن يحرص على تعلّم قواعد التجويد حتى تستقيم تلاوته، ولْيُحَسِّن صوته ما استطاع، لقول النبيّ ﷺ: «زيّنوا القرآن بأصواتكم»[3]. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لَأَنْ أقرأ البقرة وآل عمران أُرتّلهما وأتدبّرهما، أحبّ إليّ من أن أقرأ القرآن كُلّه هذرمةً»[4]. قال الغزالي: «واعلم أنّ الترتيلَ مُستحبٌّ لا لمُجرّد التدبّر، فإنّ الأعجمي -الذي لا يفهمُ معنى القرآن- يُستحبُّ له في القراءة أيضاً الترتيل والتُّؤَدة، لأنّ ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام؛ وأشدّ تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال»[5].

ج- **التدبّر والتعظيم**: وهذا هو روح التلاوة، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: 29). قال الإمام ابن عاشور: «والتدبّر: التفكّر والتأمّل الذي يبلُغ به صاحبُه معرفةَ المراد من المعاني»[6]. فاقرأ -أخي الصّالح- كلام ربّك بقلبٍ حاضرٍ، وفكرٍ مُستيقظ، واستحضِرْ بأنّ الله تعالى يخاطبك بهذا القرآن العظيم، وقد رُوي عن الحسن البصري رحمه الله: «إذا أردتَ أن تُكلّمَ اللهَ فعليك بالصلاة، وإذا أردتَ أن يُكلّمكَ اللهُ فعليك بالقرآن». قال الإمام

(1) رواه مسلم برقم (1905).

(2) رواه أحمد في المسند (15529) وهو في صحيح الجامع (1168)، وفي الحديث نهيٌ عن الغلوّ في القرآن وتجاوز الحدّ، وتحذير من هجرانه والمتاجرة به.

(3) رواه أبو داود (1468) وصححه الألباني.

(4) الفتح: (9/ 89)، والإحياء (3/ 114).

(5) إحياء علوم الدين: (3/ 114).

(6) التحرير والتنوير (24/ 252).

الغزالي: «وتلاوةُ القرآن حقّ تلاوته: هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب. فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظّ العقل تفسير المعاني، وحظّ القلب الاتعاظ والتّأثّر بالانزجار والائتمار. فاللسان يُرتّلُ، والعقلُ يُترجمُ، والقلبُ يتّعظ»[1].

وممّا يزيدُ في حُسن التدبّر: معرفة معاني الآيات، ويتيسّرُ هذا بمطالعة كتب التفسير، فعليك بها أيها الفاضل، وإيّاك أن تقول في القرآن برأيك. وهذه صورة من تعظيم سلفنا الصالح للقرآن الكريم: قال ابن أبي مليكة: «كان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يأخذُ المصحفَ ويضعه على وجهه، ويبكي ويقول: كتابُ ربّي، كتابُ ربّي»[2].

د. الجهرُ بالقرآن ما لم يخش الإيذاء أو الرياء: وقد دلّت أحاديث كثيرة على استحباب رفع الصوت بالقراءة، منها: قول النبي ﷺ: «ما أذنَ اللهُ لشيءٍ ما أذن لنبيٍّ حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهرُ به»[3]. وقوله ﷺ: «إنّ مِنْ أحسن الناس صوتاً بالقرآن، الذي إذا سمعتموهُ يقرأ حسبتموهُ يخشى الله»[4]. ولكن إذا شوّش القارىء على المصلين في المسجد مثلاً، حَرُم عليه رفع الصوت وإذايتهم، ولمّ سمع النبي ﷺ في اعتكافه- بعض الصحابة يجهرون بالقرآن، كشف السّتْرَ وقال: «ألا إنّ كلّكم مُناجٍ ربّه، فلا يُؤذينّ بعضُكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة»[5]. وفي رواية: «قام رجُلٌ يُصلّي فجهر بالقراءة، فقال له النبي ﷺ: «لا تُسمعني وأَسْمِعْ ربّكَ»[6].

(1) الإحياء: (3/ 131).

(2) أخرجه الدارمي رقم (3228) والبيهقي في شعب الإيمان (2229).

(3) رواه البخاري (5053)، ومسلم (792).

(4) رواه ابن ماجه (1339) وصححه الألباني.

(5) رواه أبو داود (1332) وانظر: السلسلة الصحيحة (1603).

(6) قال ابن حجر: رواه أحمد وابن أبي خيثمة، وسنده حسن. (فتح الباري: 11/ 337)

هـ. **تعهّد القرآن والحذر من هجرانه:** فعلى المسلم المُحبّ لربّه أن يصاحب كلامه في ليله ونهاره، حتى يصير القرآن ربيع قلبه، وجلاء حزنه، وذهاب همّه وغمّه. وتتأكّدْ المواظبة على قراءة القرآن ومذاكرته خاصّةً للحفّاظ، قال ﷺ: «تعاهَدوا الْقُرْآنَ، فو الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[1]. ولْيحذَر المسلم من هجر القرآن، وقد بيّن الإمام ابن القيم أن هجره خمسة أنواع:

«**أحدها:** هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.

والرابع: هجر تدبّره وتفهّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به. وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ (الفرقان: 3)، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»[2].

الإشارة الثالثة: شأن الدُّعاء

للدّعاء منزلة سامية، ودرجة رفيعة، وأهمّية كُبرى، لخّصها لنا النبيّ ﷺ بقوله: «الدّعاءُ هو العبادة»[3]. وقد أمرنا ربّنا سبحانه بالدعاء ووعدنا بالإجابة، تفضّلًا وتكرّماً وإحساناً. وتوعّد مَن استكبر عن دعائه، فقال عزّ مِن قائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:

---

(1) رواه البخاري (5033) ومسلم (791).

(2) الفوائد: (ص 102).

(3) رواه الترمذي (2969)، وهو في صحيح الجامع (3407).

60). وقال ﷺ: «مَنْ لم يسأل اللهَ يغضب عليه»[1]. فالدعاءُ سِمةُ العبودية وعنوان التذلّل والخضوع لله تعالى، وتلبيةٌ للاحتياج والافتقار الذاتي، ودليلُ الصدق في اللّجأ والخوف والرجاء. فهو لُبُّ العبادة ومُخّها وروحها، فصرفُه لله تعالى: عبادةٌ وتوحيد، وصرفه لغير الله سبحانه: شركٌ وتنديد[2].

1 . **حقيقة الدّعاء:**

أ. المعنى اللّغوي: قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي: «الدعاء في اللغة والحقيقة هو الطلب»[3]. وعلى هذا المعنى جمهور العلماء، إذْ هو الأكثر استعمالًا في نصوص الوحيين، ولسان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من العلماء.

ب. المعنى الإصطلاحي: ويُمكن أنّ نُعرّف الدعاء: بأنه «توجّه العبد إلى الله تعالى بالطّلب والسؤال، والاستعانة به سبحانه في جلب المنافع ودفع المضار في جميع الأحوال، والتقرّب إليه بالخضوع والتذلّل والابتهال».

وقال الإمام بن الجوزي: «الدّعاء بابٌ من الأبواب المُدخِلة على العزيز الوهّاب، وطريقٌ من الطّرق الموصلة إلى ذلك الجناب، ووسيلةٌ من أنجح الوسائل، ورسالةٌ من العبد إلى حضرة الربّ من أبلغ الرسائل، فإن كان مدادها الدّمع السائل، فهو الدعاء الواصل»[4].

ج. رُوح الدّعاء: يتجلّى في الدُّعاءِ افتقارُ الإنسان إلى ربّه عزّ وجلّ، وضَعفه أمامَه، وذُلّه بين يَديه سبحانه، وتلك هي حقيقة العبوديّة القائمة على الاعتراف بِغنَى الربّ وافتقار العَبد. وإنّما يستشعرُ الإنسانُ أهمّيّة هذا الدّعاء والتضرّع إلى الله تعالى

(1) صحيح الترمذي (2686) للألباني.

(2) الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية، لجيلان العروسي (1/ 7).

(3) أحكام القرآن: (2/ 815).

(4) التذكرة في الوعظ: (ص 144).

خاصّة عند الشدائد والكُرُبات، حيث يستيقنُ أن لا مُعينَ غير الله سبحانه ولا رجاء إلا منه، فعندئذٍ يتوجّه بكُلّيّته إلى خالقه جلّ جلاله، يسأله بنفسٍ ذليلةٍ وقلبٍ صادق، يرفع يديه إلى السماء ويدعو بملءِ فمهِ وفؤاده: يا رب، يا رب...

2. فضل الدعاء:

أ. **الدعاءُ مأمورٌ به**: حيثُ تعبّدنا الله سبحانه بهذه الطاعة، وجاء هذا الأمرُ بالدعاء في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ (غافر: 60)، وقوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ (النساء: 32)، وقال نبينا ﷺ: «مَنْ لم يسأل اللهَ يغضب عليه»[1]. قال الشيخ القاري: «لِأَنَّ تَرْكَ السُّؤَالِ تَكَبُّرٌ وَاسْتِغْنَاءٌ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ. قَالَ الطِّيبِيُّ: وَذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ مِنْ فَضْلِهِ، فَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَبْغَضُهُ، وَالْمَبْغُوضُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ»[2]. وقال الإمام ابن القيم: «هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رِضَاءَهُ فِي سُؤَالِهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَكُلُّ خَيْرٍ فِي رِضَاهُ، كَمَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ وَمُصِيبَةٍ فِي غَضَبِهِ»[3].

ب. **الدعاءُ محبوبٌ لله تعالى**: قال ﷺ: «لَيْسَ شيءٌ أَكْرَمَ على الله من الدّعاء»[4]. قال العلاّمة الطيبي: «وذلك لدلالته على قدرة الله وعجز الداعي»[5]. فعلى العبد أن يواظبُ على دعاء ربّه سبحانه، وإعلان افتقاره وحاجته إليه دائما. قال ابن القيم: «إِنَّ اللهَ لَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ، بَلْ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَيَغْضَبُ إِذَا لَمْ يُسْأَلْ»[6].

---

(1) صحيح الترمذي (2686) للألباني.

(2) مرقاة المفاتيح (4/ 1530).

(3) الجواب الكافي: (ص 18).

(4) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وهو في صحيح الجامع (5392).

(5) فيض القدير، للمناوي: (5/ 443).

(6) الجواب الكافي: (ص 230).

ج. **الدعاء من أعظم الأسباب**: المشروع أن يأخذ العبدُ بكلّ الأسباب المادية المُوصلة لمطلوبه شرعا وقدراً، ثم لا يركن إلى هذه الأسباب، ولا يكتفي بها وحدها، بل يشفعها بالتوجّه إلى الله بالدعاء وإعلان الافتقار إليه سبحانه، وكأنه لم يأخذ بسبب قط. وهذا هو حقيقة التوكّل، قال ابن القيم: «أحزمُ الناس من أَدلى بالأسباب التي نصَبَها الله تعالى مُفضية إلى المطلوب، وسأل سؤال من لم يُدْلِ بسببٍ أصلاً، بل سؤال مُفلسٍ بائسٍ ليس له حيلة ولا وسيلة»[1]. وأمّا تقصير العبد في تعاطي الأسباب واتكاؤُهُ على الدعاء فحسب، وكأنه ينتظر المعجزات والكرامات، فهو عينُ الجهل والعجز! قال ابن القيم: «فيُذمُّ حيث كانت الأسباب مأموراً بها، فتَرَكَها وأقبل على الدعاء، كَمَن حَصَرَهُ العَدُوّ، وأُمِر بجهاده، فترَكَ جهادَه وأقبل على الدعاء والتضرع أن يصرفه الله عنه، وكمن جَهده العطشُ، وهو قادرٌ على تناول الماء، فتركه وأقبل يسأل الله تعالى أن يرويه، وكمن أَمْكنه التّداوي الشرعي فتركه وأقبل يسأل العافية»[2].

د. **الدُّعاءُ يَردُّ القضاء**: حيثُ مَنحنا الله سبحانه -بفضله وكرمه- سلاحاً عظيماً ندفعُ به عنّا البلاء. فقد ثبتَ في حديث النبي ﷺ: «لا يَرُدُّ القدَرَ إلا الدّعاء»[3]، وقال ﷺ: «إنّ الدعاء ينفعُ ممّا نزلَ وممّا لم ينزل، فعليكم عبادَ الله بالدعاء»[4]. وقد لخّص الإمام ابن القيم العلاقة بين الدعاء والقضاء النازل من السماء بقوله رحمه الله: «والدُّعاء من أنفع الأدويةِ، وهو عدوُّ البلاء، يدافِعه ويعالجه ويمنع نُزولَه، ويرفعه أو يخفِّفه إذا نزل، وهو سلاحُ المؤمن»[5]. وزاد تفصيلًا بقوله: «وله [أي الدعاء] مع البلاء ثلاث مقامات:

(1) بدائع الفوائد: (2/ 188).

(2) المرجع نفسه: (2/ 188).

(3) رواه الترمذي (2139)، وصححه ابن حبّان (872)، والألباني في الصحيحة (154).

(4) رواه الترمذي (3548)، وهو في صحيح الجامع (3409).

(5) الجواب الكافي: (ص 18).

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه،

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصابُ به العبد، ولكن قد يخفّفه وإن كان ضعيفاً،

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كلّ واحد منهما صاحبَه وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُغني حذرٌ من قدر، والدّعاءُ ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإنّ البلاء لينزلُ فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»»[1].

ولعلم سلفنا الصالح بأهمّيّة الدعاء في تغيير بعض ما كُتبَ على العبد من الأقدار، كان الكثير منهم يجتهدون في استعمال هذا السبب لتحصيل سعادتهم. وقد عرض الإمام الطبري رحمه الله مجموعةً من الآثار في هذا السياق، من ذلك ما أسنده عن أبي عثمان النهدي، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت ويقول: «اللهم إن كُنتَ كَتَبْتَني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنتَ كتبتَ عليَّ الذّنب والشِّقوة فامحُني وأثبتني في أهل السّعادة، فإنّك تمحُو ما تشاء وتثبت، وعندك أمّ الكتاب»[2].

هـ. صالح الدعاء لا يضيع: فعلى الدّاعي أن يُحسنَ الظنّ بربّه سبحانه، وأن ويُوقن بالإجابة، ولْيَعْلَمْ أنّ دعواته الصالحة كلّها -إن شاء الله- في «شباك القبول» ولم يتسلّل منها شيء، غير أنّ الله تعالى يصرفها -بحكمته- فيما هو أنفع لصاحبها. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف: 30)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إلا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ:

---

(1) الجواب الكافي: (ص 18) والحديث في صحيح الجامع (7739) وللتوضيح: فإنّ (القضاء والقدَر) - كما بيّنَ العلماء- قِسمان: (مُبرَمٌ ومعلّق)؛ فالمُبرم: هو الذي في اللّوح المحفوظ، وهوالذي لا يتغيّر ولا يتبدّل. والمعلّق هو الذي في صُحف الملائكة التي تَنزل بالأقدار، وهو الذي يتغيّر ويتبدّل ويُمْحَى؛ قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]. وفي هذا النوع الذي يُمحى يؤثّرُ الدعاء والعملُ الصالح بإذن الله تعالى.

(2) رواه الطبري في تفسيره رقم (20481).

إِمَّا أَنْ تُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ»[1]. ومعنى «إِذًا نُكْثِرُ» أَيْ: «مِنَ الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ فَوَائِدُهُ»[2]. وقال ابن علان: «أي: إذا كانت الدعوة بها عدا ما ذُكر مجُابةً، نُكثر من سؤال خَيْرَي الدّارين لتحصيلهما بالوعد الذي لا يُخلَف»[3].

فإيّاك أن تزهد في الدعاء أيها الفاضل، ما دام فضل الله فيه بهذه السعة والخير، قال الحافظ ابن عبد البَرّ -في شرح الحديث-: «فيه دليلٌ على أنه لا بُدّ من الإجابة على إحدى هذه الأوجه الثلاثة»[4]. وقال الحافظ ابن حجر: «كُلّ داعٍ يُستجاب له، لكن تَتنوع الإجابة: فتارةً تقع بعين ما دعا به، وتارة بِعِوضه، وقد ورد في ذلك حديث صحيح»[5].

3. **آداب الدعاء:** وهي جُملة من شروط قبوله:

أ. **التوبة وردّ المظالم:** فعلينا أن نعودَ إلى الله سبحانه وأن نستجيب لأمره ونهيه، وأن نردّ الحقوق إلى أصحابها، وأن نتوب من أكل الحرام، حتى يستجيب اللهُ دعاءنا. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة: 186)، قال الشيخ السعدي: «فمن دعا رَبّه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يَمْنع مانعٌ من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعَدَهُ بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب

(1) أخرجه أحمد في المسند (10947) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (1633).

(2) مرقاة المفاتيح (4/ 1538).

(3) دليل الفالحين (7/ 304).

(4) التمهيد (10/ 297).

(5) فتح الباري» (11/ 95).

للاستجابة»[1]. وقال ﷺ: «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسَلين فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا﴾(المؤمنون: 51)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾(البقرة: 172)، ثم ذكر الرجلَ يطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يستجاب له؟»[2]. قال الإمام الشوكاني: «ووَجْهُ تخصيص المسافر بالذّكر، أنه قد ورد أنّ دعوتَه مُستجابة، فإذا كانت مُلابسته للحرام مانعةً لقبول دعوته، فغيرُهُ بفَحْوَى الخطاب أوْلى»[3].

ب. تحيّن أوقات الإجابة: وقد بيّنها الإمام ابن القيم -مع غيرها من الفوائد- قائلاً: «وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيّته بكلّيّته على المطلوب؛ وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تُقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم؛ وصادف خشوعًا في القلب وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقّة؛ واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار... وألح في المسألة ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقةً. فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرَدُّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنّة الإجابة، أو أنها متضمّنة للاسم الأعظم»[4]. قلتُ: ومن الأوقات الفاضلة كذلك التي ثبتت في السنّة أن الدعاء يُستجاب فيها: (عند نزول

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 87).

(2) رواه مسلم (1015).

(3) تحفة الذاكرين: (ص: 34).

(4) الجواب الكافي: (ص 20-21).

الغيث - عند إفطار الصائم- ليلة القدر..)، ومن الذين تُستجابُ دعواتهم: (دعوة الوَالِد لوَلده - دعوة المظلوم - دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب...).

ج. **استقبال القبلة، ورفع اليدين، وخفض الصوت**: قال الإمام الشوكاني: «قد استقبل ﷺ القبلةَ في دعائه في غير موطن»[1]. وأمّا رفع اليدين في الدعاء فقد فعله النبي ﷺ، وأمر به في أكثر من حديث، ومن ذلك قوله ﷺ: «إذا سألتُم اللهَ فاسألوه ببطون أكُفّكُم، ولا تسألوهُ بظهورها»[2]. وأمّا خفضُ الصوت في الدعاء، فهو أبعد عن الرياء، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾(الأعراف: 55)، قال ابن كثير: «قيل معناه: تَذَلّلاً واستكانة، و[خفية] كما قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: 205)، وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، إن الذي تدعونه سميع قريب» الحديث. وعن ابن عباس في قوله: [تضرعا وخفية] قال: السر. وقال ابن جرير: [تضرّعا] تذلّلا واستكانة لطاعته. [وخفية] يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيّته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاة. وقال الحسن البصري: ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربّهم، وذلك أن الله تعالى يقول: (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين) وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ (مريم: 3)»[3].

د. **الاستفتاح بالحَمْدلَة والتَّصْلِية**: قال الإمام النووي: «أجمع العلماء على استحباب ابتداء الدعاء بالحمد لله تعالى، والثناء عليه، ثم الصلاة على رسول الله ﷺ،

(1) تحفة الذاكرين: (ص 35).

(2) صحيح أبي داود (1318).

(3) تفسير ابن كثير (3/ 423).

وكذلك يُختمُ الدعاء بهما، والآثار في هذا الباب كثيرة معروفة»[1]. ثم أورد رحمه الله حديث فضالة بن عُبيد رضي الله عنه؛ قال سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يُمجّد الله تعالى، ولم يصلّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عَجِلَ هذا !». ثم دعاه فقال: «إذا صلّى أحدُكم ؛ فليبْدَأْ بتمجيد ربّه سبحانه، والثناء عليه، ثم يُصلّي على النبي ﷺ، ثم يدعو بَعدُ بما شاء»[2]. قلت: وهناك عدّة آثار في هذا السياق، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا أراد أحدُكم أن يسأل، فليبدأ بالمِدْحَة والثناء على الله بما هو أهله، ثم لِيُصلّ على النّبي ﷺ، ثم ليَسأل بعدُ، فإنه أجدرُ أن ينجح»[3]. وقال: «عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ»[4]. وقال أبو سليمان الداراني: «من أراد أن يسأل الله حاجته فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، وليسأل حاجته، وليختم بالصلاة على النبي، فإن الصلاة على النبي مقبولةٌ، والله أكرم أن يرد ما بينهما»[5].

هـ- **التوسّل بالأسماء الحُسنى وتحرّي المأثور**: ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: 180)، قال القرطبي: «قوله تعالى: [فادعوه بها] أي اطلبوا منه بأسمائه، فيَطلبُ بكلّ اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رزّاق ارزقني، يا هاد اهدني، يا فتّاح افتح لي، يا توّاب تُبْ عليّ، هكذ»[6]. وفي الآية دليلٌ على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية، قال العلاّمة علاء الدين الخازن: «وقوله سبحانه وتعالى: [فادعوه بها] يعني ادعوا الله بأسمائه التي سَمّى بها نفسه أو سمّاهُ بها رسوله. ففيه دليلٌ على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا

(1) الأذكار: (1/ 327).

(2) أخرجه الترمذي (3486) وقال: حسن صحيح.

(3) رواه الطبراني، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (3204).

(4) رواه الترمذي (486) موقوفاً، وحسّن رفعه الألباني في الصحيحة (2035).

(5) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (14/ 235).

(6) الجامع لأحكام القرآن: (7/ 291).

اصطلاحية، ومما يدلّ على صحة هذا القول ويؤكده: أنه يجوز أن يُقال: يا جوّاد، ولا يجوز أن يُقال: يا سخيّ. ويجوز أن يُقال: يا عالم، ولا يجوز أن يقال: يا عاقل»[1].

ولْتَجتَهد -أخي الفاضل- في التوسّل بما ثبت أنّه (الاسم الأعظم)، ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه، أنه كان جالساً مع النبي ﷺ، ورجلٌ يُصلّي، ثمّ دعا: اللّهُمّ إني أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنّان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حَيُّ يا قيُّوم. فقال النبيُّ ﷺ: «لقد دعا باسمِهِ العظيم، الذي دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِلَ به أعطى»[2].

ولمّا كان الدعاء عبادةً لله تعالى؛ فإنه يتأكّد في حق المسلم اعتماد ما في القرآن والسنة من الدعوات المباركات، فما كلّ أحدٍ يُحسنُ الدعاء، قال القرطبي -في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف: 55)-: «والاعتداء في الدّعاء على وجوه... ومنها: أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة، فيتخيّر ألفاظاً مُقفّاة وكلمات مُسجّعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا مُعوّل عليها، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله ﷺ، وكُلُّ هذا يمنع من استجابة الدعاء»[3].

و. **العزم واليقين والتضرّع**: وهذه أعظم الآداب الباطنة التي إن حصّلها الداعي أدرك الإجابة بإذن الله تعالى.

- **أمّا العزم**: فدليله قول النبي ﷺ: «لا يقولَنّ أحدُكُم: اللهمّ اغفر لي إن شِئتَ، اللهمّ ارحمني إن شِيتَ، ولكن ليعزم المسألة، ولْيُعَظّم الرّغبةَ، فإنّ الله تعالى لا يتعاظمُهُ شيءٌ أعطاهُ»[4]. قال ابن حجر: «وَمَعْنَى قَوْله: «لِيُعَظِّم الرَّغْبَة» أَيْ يُبَالِغ

(1) تفسير الخازن: (3/ 136)، وحاشية الصاوي على الجلالين (ص 299).

(2) صحيح أبي داود (1326)، للألباني.

(3) الجامع لأحكام القرآن: (7/ 226).

(4) رواه مسلم (2679).

فِي ذَلِكَ بِتَكْرَارِ الدُّعَاء وَالْإِلْحَاح فِيهِ، وَيَحْتَمِل أَنْ يُرَاد بِهِ الْأَمْر بِطَلَبِ الشَّيْء الْعَظِيم الْكَثِير، وَيُؤَيِّدهُ مَا فِي آخِر هَذِهِ الرِّوَايَة: «فَإِنَّ الله لَا يَتَعَاظَمهُ شَيْء»»[1]. وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ»[2]. ويعلّق ابن رجب قائلًا: «وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العبادُ جميعَ مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك، كما يسألونه الهداية والمغفرة، وفي الأثر: «لِيسْأل أحدُكم ربّه حاجتَه كلّها حتّى شسع نعله إذا انقطع»، وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه، حتى مِلْحَ عَجينه وعلف شاته»[3].

• **وعلى المسلم أن يُوقن بالإجابة،** لأنّ الله سبحانه قد وعد بها: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: 60)، وقال ﷺ: «ادعوا اللهَ وأنتم مُوقنونَ بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[4].

• **وأمّا التضرّع والخشوع** والتذلّل بين يدي الله تعالى، فهو روح الدعاء، قال الحقُّ سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: 55)، وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: 56). فأَقبِل على ربّك بقلبٍ منكسرٍ مِلْؤهُ اليقين، وتضرّع إليه سبحانه تضرّع المساكين، واستشْعِرْ أخي في دعائك أنّك الفقير إلى الله، لا تملكُ لنفسك نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً، وابْكِ بين يديه واعترف له بذنبك وتقصيرك، وأَلِحَّ عليه في دُعائكَ، فهو وحده سبحانه القادر على تفريج كَرْبك. ولا تستبطىء أخي الإجابة وتترك الدعاء، فقد حذّرنا نبينا من ذلك حيث

(1) فتح الباري: (11/ 118).

(2) رواه مسلم (2577).

(3) جامع العلوم والحكم: (1/ 225).

(4) رواه الترمذي (3479)، وهو في السلسلة الصحيحة (594).

قال ﷺ: «يُستجابُ لأحدكم ما لمْ يَعجَلْ، يقولُ: دعوتُ فلم يُستَجَبْ لي»[1]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «مَنْ يُكثرْ قرعَ الباب يوشكُ أن يُفتَحَ له، ومن يُكثرُ الدعاء يوشكُ أنْ يُستجابَ له»[2].

ز. **المواظبة على الدّعاء في الرّخاء**: والغالبُ على الخَلْقِ أنّهُ لا تنصرفُ قلوبُهم إلى الله تعالى إلاّ عندَ إلمام الحاجة ونزول المصيبة، فإنّ الإنسان إذا مسّهُ الشّرُّ فَذُو دُعاءٍ عريض. إلاّ المؤمنين الحَريصينَ على دوامِ القُربِ من الله، فلا سُلطان للدنيا عليهم، تراهُم مُنيبين إلى الله، مُستعينينَ به في كُلّ الأحوال، عاملين بحديث النبي ﷺ: «احفظ الله يَحفَظْكَ، احفَظ الله تَجِدْهُ أمامَكَ، تَعرّفْ إليه في الرّخاء يَعْرفْكَ في الشّدّة..»[3]. ومُصدّقين بِوَعْدِهِ ﷺ: «مَنْ سرّهُ أن يستجيبَ اللهُ لهُ عندَ الشّدائدِ والكُرَبِ فَلْيُكْثِرْ الدّعاءَ في الرّخاء»[4].

(1) رواه البخاري (6340)، ومسلم (2735).

(2) شرح السنة، للبغوي: (5/ 191).

(3) رواه الترمذي (2516) وقال: حسن صحيح.

(4) رواه الترمذي (3382)، وهو في السلسلة الصحيحة (593).



رُكنُ الشكر

لمّا كان الإيمان نصفين: نصفٌ صبر ونصفٌ شكر؛ كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحبّ نجاتها وآثر سعادتها أن لا يُهمل هذين الأصلين العظيمين، ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم القيامة في خَيْر الفريقين. فالشّكرُ شطرُ الدِّين؛ لأنّ العبد بين حالين: إما أن يكون في سرّاء فيشكُر الله، وإمّا أن يكون في ضرّاء فيصبرُ لله، كما جاء في الحديث: «عجباً لأمْرِ المُؤمن إنّ أمرَه كلّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكَرَ فكان خيراً له، وإنْ أصابتهُ ضرّاءُ صبرَ فكانَ خيراً لَهُ»[1].

والشكر سببه حصول النّعم واندفاع النّقم، فإذا وقع ذلك شُرع في حقّ العبد شكر مولاه المُنعم سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: 114). «أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إيّاه، ولا تَنْسَوا المنعم»[2]. وقد شِرُعَ لنا سجودُ الشكر إذا حصلت لنا نعمة أو تجدّدت كما ثبت في السنة.

(1) أخرجه مسلم رقم (2999).

(2) تيسير الكريم الرحمن: (463).

الإشارة الأولى: شأن الشكر

هو من أعلى مراتب التقدّم إلى الله تعالى، قد أمر الله به ونهى عن ضدّه، فقال سبحانه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: 152). وأثنى على أهله، ووصف به خواصّ خلقه، فقال جلّ شأنه عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ (النحل: 120-121)، وقال عن رسوله نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:3). ووعد أهله بأحسن جزائه حيث قال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: 144)[1].

1. **حقيقة الشكر:**

أ. **المعنى اللغوي:** هو الاعتراف بالإحسان، يُقالُ: شكرتُ اللهَ، وشكرتُ لله، وشكرتُ نعمةَ الله. وأصلُ «الشكر» هو ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيّناً. يُقالُ: دابّة شكور: إذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تأكل وتُعطى من العلف[2].

ب. **المعنى الاصطلاحي:** «الشكرُ» هو ظهور أثر نعم الله تعالى على العبد: في قلبه محبّةً وإيماناً، وفي لسانه حمداً وامتناناً، وفي جوارحه طاعة وإذعاناً.

ج. **الفرقُ بين الشكر والحمد:** قال الإمام ابن جُزي الغرناطي: «الحمد أَعَمُّ من الشكر؛ لأنّ الشكر لا يكون إلاّ جزاءً على نعمة، والحمد يكون جزاءً كالشكر، ويكون ثناءً ابتداءً، كما أنّ الشكر قد يكون أعمّ من الحمد، لأن الحمد باللسان؛ والشكر باللسان والقلب، والجوارح»[3]. وقال الإمام القرطبي: «الحمد ثناءٌ على الممدوح بصفاته من غير سَبْقِ إحسان، والشكر ثناءٌ بما أَوْلى من الإحسان، وهذا قول علماء اللغة»[4].

---

(1) مدارج السالكين: (2/ 5).

(2) الصحاح، للجوهري: (2/ 702)، وعدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين: (ص289).

(3) التسهيل لعلوم التنزيل: (ص 32).

(4) الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى: (341)، وانظر النهج الأسمى: (ص203).

د. الله: **شاكر وشكور**: أمّا الاسم الأول (الشّاكر) فقد ورد في القرآن مرّتين منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 158)، وورد اسم (الشّكور) في أربع مرّات منها: قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: 17). يقول العلاّمة الخطابي: «(الشّكور): هو الذي يشكرُ اليسير من الطاعة فيُثيبُ عليها الكثير من الثواب، ويُعطي الجزيلَ من النّعمة، فيرضَى باليسير من الشكر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: 34). ومعنى الشكر المضاف إليه: الرّضى بيسير الطاعة من العبد والقبول له، وإعظام الثواب، والله أعلم. وقد يحتمل أن يكون معنى الثناء على الله عزّ وجلّ بالشّكور: ترغيب الخلق في الطاعة قلّتْ أو كثرت، لئلاّ يستقلّوا القليل من العمل فلا يتركوا اليسير من جملته إذا أعوزهم الكثير منه»[1]. وقال الحُليمي: «(الشاكر) معناه: المادح لمن يُطيعُه والمُثني عليه، والمثيبُ له بطاعته فضلاً عن نعمته»[2].

قلتُ: وقد حفل القرآن بمدح الله تعالى لأنبيائه المرسلين، وعباده الصالحين، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 29). قال ابن القيم: «فالشكور: لا يُضيعُ أجر محُسن، ولا يعذّبُ غير مُسيء... وهو سبحانه غفورٌ شكورٌ، يغفرُ الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل. ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة، كان أحبّ خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطّلها، أو اتصف بضدّها، وهذا شأن أسمائه الحسنى، أحبّ خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف

---

(1) شأن الدعاء: (ص 65-66).

(2) المنهاج: (1/ 205).

بأضدادها، ولهذا يبغض: الكفور، والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل، والجبان، والمهين واللئيم. وهو سبحانه جميلٌ يحب الجمال، عليمٌ يحب العلماء، رحيمٌ يحبّ الراحمين، مُحسنٌ يحبّ المحسنين، شكورٌ يحبُّ الشاكرين، صبورٌ يحبّ الصابرين، جوادٌ يحبُّ أهل الجود»[1].

2. فضل الشكر:

أ. الشكر يقابله الكفر: إذ قسّم الله سبحانه النّاس إلى (شاكر) و(كفور)، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهل الكفر، وأحبّ الأشياء إليه الشّكر وأهل الشكر، فقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: 3)، فاللّهم اجعلنا من أهل الشكر الشاكرين لنِعَمِك التي لا تُحصى يا ربّ العالمين.

ب. الشكر مقرون بالذكر والإيمان: فقد قرن الله سبحانه شكره بذكره، وكلاهما المُرادُ بالخلق والأمر، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: 152). وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأنه لا غرض له في عذاب الخلق إذا شكروا وآمنوا به، فقال تعالى:﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (النساء:147).

ج. أهل الشكر قلّة في هذه الدنيا: كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13)، وسمع سيدنا عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: «اللّهمّ اجعلني من الأقلّين!» فقال: «ما هذا؟!» قال: «يا أمير المؤمنين: الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود:40)، ويقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ:13)، ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: 24). فقال عمر: صدقتَ»[2].

(1) عدّة الصابرين: (ص 335-337).

(2) الزهد، للإمام أحمد: (1/ 114).

د. **الشاكرون موعودون بالزيادة:** فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:8)، فقطع ربّنا سبحانه بالمزيد مع الشكر، وأطلقَ جلّ شأنه جزاء الشاكرين ولم يوقفه على مشيئته كقوله تعالى مثلاً: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ (التوبة:28)، بل قال جلّ جلاله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: 144)، والمزيد منه سبحانه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره تبارك وتعالى. قال ابن القيم: «والشكر مع المزيد أبداً، لقوله تعالى: [لئن شكرتُم لأزيدنّكُم]، فمتى لم تَرَ حالك في مزيد، فاستقبل الشكر. وفي أثر إلاهي: يقول الله عزّ وجلّ: «أهلُ ذكري أهلُ مُجالَستي، وأهلُ شُكري أهلُ زيادتي، وأهلُ طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقنِّطُهُم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبُهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبُهم، أَبْتليهم بالمصائب، لأطهّرهم من المعايب»»[1].

هـ. **الشكرُ هو الحافظ والجالب:** نعم، كان سلفنا الصالح رحمهم الله يسمّون الشكر «الحافظ»؛ لأنه يحفظ النّعم الموجودة، و«الجالب»؛ لأنه يجلبُ النّعم المفقودة[2]. وقال عُمر بن عبد العزيز: «قيّدوا نعم الله بشكر الله»[3]. وقال الشاعر:

إذا كنتَ في نعمة فارْعَها — فإنّ المعاصي تزيلُ النّعم
وحُطْها بطاعة ربّ العباد — فَربُّ العباد سريعُ النّقم.

3. فقه الشكر:

أ. **الله مصدر كلّ النّعم:** وهذا اعتقاد أهل الإيمان، الذين يُوقنون بأنّ الله تعالى هو وحده «الخالق» و«الرزّاق» و«المُقيتُ» لسائر المخلوقات، إذْ بيده خزائن السماوات والأرض، فكلّ النّعم التي ينتفع بها الخلق منه وحده سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم

---

(1) مدارج السالكين: (2/ 8).

(2) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم: (ص 226).

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (4546).

مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ (النحل:53)، وقال جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ (فاطر:3)، قال الإمام ابن عاشور: «والمقصود من تذكّر النّعمة شكرها وقَدْرُها قَدْرَها. ومِن أكبر تلك النّعم نعمة الرّسالة المحمّدية، التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتّبعونها بالنعيم الأبدي. فالمرادُ بالذكر هنا التذكّر بالقلب وباللسان»[1].

قلت: فكلُّ شخصٍ جرّ إليك منفعةً، فاعتبره معبراً وليس مصدراً لهذه النعمة، نشكرُهُ على جُهده أدباً، غير أنّ شكرنا الأعظم وامتناننا الأكبر للمُنعم الحقيقي: وهو الله جلّ في عُلاه، فهو سبحانه الذي سخّر لنا هذه الأسباب لننتفع بفضله، ونتنعّم بجُوده وكرمه، فله الحمد كلّه، وله الشكر كله، علانيته وسرّه.

ب. انْظُر إلى مَن هو دونك: وذلك أن عامّة الناس ينظرون دائما إلى من هو فوقهم في الصحة والنّفوذ والغِنى...، ولهذا السبب تقلّ نعمة الله في أعينهم، زيادة على تلبيس الشيطان الذي توعّد بصرف الناس عن الشكر، حيث قال -كما حكى عنه القرآن-: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف:17). ولذلك أرشدنا نبينا ﷺ إلى المنهاج السليم حتى لا نحتقر نعمة الله علينا بقوله: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هو أَسفَل مِنكُمْ وَلا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوقَكُم؛ فهُوَ أَجْدَرُ أَن لا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عَلَيْكُمْ»[2].

ج. بين شكر الله وشكر الناس: لا يقدح شكر المخلوق في شكر الخالق سبحانه، وليس هناك تعارض بينهما، لأنّ شكر الربّ عزّ وجلّ: اعتراف بأنه هو وحده مصدر النّعم كلها وصاحب الفضل علينا، مع الخضوع والعبودية والامتنان. بينما شكر العبد: مُجرّد اعتراف بجميله، ودعاء له بالخير على حسن صنيعه. وقد أمر ربّنا سبحانه بشكر مَن أحسن إلينا، وأرشدنا إلى مكافئته، وأوّلهم الوالدين حيث قال:

(1) التحرير والتنوير: (23/ 254).

(2) رواه البخاري (6490) ومسلم (2963).

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ (لقمان:14)، وحذّرنا نبيّنا ﷺ من خُلُق اللّئام، والتقصير في شكر الأنام، فقال: «لا يشكُرُ اللهَ مَن لا يشكُرُ الناس»[1].

د. **الشكرُ لا يكون بتحريم الحلال:** أخطأ بعض الزهّاد والصوفية في فهم شكر ما أسبغ الله علينا من النّعم، لدرجة أنّهم حَرَموا أنفسهم منها بتعلّة عجزهم عن شكرها، والله سبحانه أباحها لنا حيث قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ (الأعراف: 32)، ورضي لنا أن نستمتع بها، وأن نشكره عليها، فقال جلّ شأنه: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: 172). ولو كان شرطاً في الانتفاع بالنّعمة أداء ثمنها شكراً ما وفّت كلّ أعمالنا ولا نعمة واحدة، فالحلّ ليس في الامتناع عنها لعجزنا عن شكرها، بل الصّواب: أن ننتفع بنعم الله تعالى، فنستخدمها فيما يرضيه، ونحمده عليها، ونستغفره من التقصير في شكرها، وهكذا هَدْيُ النبي ﷺ حيث قال في دعائه: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي»[2]. فاعترف ﷺ بنعم الله عليه، واعترف بتقصيره في شكرها، لأننا مهما شكرنا الله تعالى فلا نكافىء نِعمه سبحانه. قال رَوْح بن القاسم: تنسّك رجلٌ فقال: لا آكُلُ الخبيص [نوع من الحلواء]، لا أقومُ بشكرها. فقال الحسن البصري: «هذا أحمق، وهل يقومُ بشكر الماء البارد!»[3].

4. أنواع الشكر:

أ. **شُكرُ القلب:** وهو تصديقه واعترافه وعلمه بأنّ الله تعالى هو المُنعم الأوحد بكل النّعم التي نتقلّبُ فيها. مع محبّته وامتنانه لربّه الذي أنعم عليه بهذه الخيرات التي لا تُحصى، واعترافه بالتقصير في شكرها. ولا بُدّ من غرس هذه العقيدة في قلوب

(1) رواه أحمد (17981) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (3014).

(2) رواه البخاري (6306).

(3) كتاب الشكر، لابن أبي الدنيا (72)، وأحمد في الزهد (1487).

الناس وخاصّة منهم الاطفال، حتى يعرفوا من أين جاءت كلّ هذه النّعم، وإذا نشأ الصغير على ذلك كان شاكراً لله تعالى. قال سليمان التيمي: «إنّ الله تعالى أنعم على العباد على قدره، وكلّفهم الشّكر على قدرهم حتى رضي منهم الشّكر بالاعتراف بقلوبهم بنعمه، وبالحمد بألسنتهم عليها»[1]. وعن الحسن البصري قال: قال موسى عليه السلام: «يا ربِّ، كيف يستطيع آدم أن يؤدّي شكرَ ما صنعتَ إليه؟ خلقتَه بيدكَ، ونفختَ فيه من روحكَ، وأسكنته جنّتَكَ، وأمرتَ الملائكة فسجدوا له، فقال: يا موسى، عَلِمَ أنّ ذلك منّي، فحمدني عليه، فكان ذلك شكراً لما صنعتُهُ»[2]. وفي الحديث: «مَن قال حين يُصبحُ: اللّهُمّ ما أصبح بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقك، فمنك وَحْدَكَ لا شريكَ لك، فلَكَ الحمدُ ولك الشّكرُ، فقد أدّى شُكر ذلك اليوم، ومن قالها حين يُمسي أدّى شكر ليلته»[3].

ولْيحرصْ المسلم على استحضار نعم الله ورصد أكبرها على الأقلّ، حتى نُدرك معنى الشّكر، فإذا تأمّلنا في النّعم التي تُحيطُ بنا نجدُ أنّ أوّلها نعمة الخلق والإيجاد، وثانيها نعمة الآدمية والإنسانية، وبعد ذلك أنعم الله عليك بأن جعلك مسلماً ولولا نعمة الله عليك، لكنتَ يهودياً أو نصرانياً أو بوذيّاً، وتذكّر نعمة الله عليك بأن أنعم عليك وجعلك من أهل السنّة وعلى غير بدعة. وإذا كنتَ صاحب طاعة ودين، فانظر نعمة الله عليك أنك لستَ عاصياً، وإذا كنتَ عندك علمٌ فتشكر نعمة الله عليك أنّك لستَ من الجُهّال[4].

وعلينا أن نُذكّر الناس بنعم الله تعالى، وهذا من أعظم أبواب الدعوة إلى الله، قال الحق تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم

(1) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (8).

(2) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (12).

(3) رواه أبو داود (5073) وحسّنه شعيب الارناؤوط على جامع العلوم والحكم (2/ 80).

(4) سلسلة أعمال القلوب، لمحمد صالح المنجد: (ص 163).

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ (فاطر:3). فهذه الشمس مثلاً نعمة كُبرى من الله تعالى، سخّرها لنا لننتفع بنورها وحرارتها، وهي مع أنّها تبعد عنّا أكثر من (150) مليون كلم، تجري لمستقرّ لها، وتطلع بانتظام وتغرُبُ في توقيتها المحدّد، ولو بعدت عنا أكثر لتجمّد الخَلق، ولو قربت أكثر لاحترقنا جميعاً. فسبحان الذي ضبط موقعها ومدارها وسيرها في غاية الدقة والإحكام! وهذا القمر الجميل نعمة عُظمى، يتحرّك في مداره المضبوط، ويُنير ليلنا بتسخير الله تعالى، ونعرف به عدد الشهور والأيام، ومن فوائده عمليّة المدّ والجزر في البحر، فلو قرب من كوكبنا لزاد المدّ وغرقت الأرض، ولو بعد عنا ليبست! قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ (إبراهيم: 33-34). وماذا لو لم يكُن هذا الغلاف الجوّي الذي يحمي الأرض -بإذن الله- من الأشعّة الحارقة، ومن الرياح الباردة، ومن الشُّهب والنّيازك القاتلة؟! ومن النّعم التي ذكرها ربّنا سبحانه في سورة النّحل (وهي تُسمّى سورة النّعم) قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (النّحل: 14-18).

والقلبُ الشّاكر هو أعظم ما يحرص المسلم على اكتسابه، ولمّا سُئلَ النبي ﷺ: أيّ المال نتّخذ ؟ فلفت نظرهم إلى ما هو أعظم بقوله ﷺ: «لِيتّخذْ أحدُكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، ووزوجةً مؤمنة تُعين أحدكم على أمر دينه ودنياه»[1]. فرأس مالك الحقيقي: هذه النّعم، وأعظمها «القلب الشاكر».

(1) رواه الترمذي (3094) وهو في صحيح الجامع (3555).

ب. **شُكرُ اللّسان**: إذا امتلأ القلبُ بشكر الله تعالى، فاض هذا الإيمان على الجوارح، فيَلهَجُ اللسان ويعترفُ صراحةً ولفظاً بأنّ النّعم كلّها من فضل الله تعالى، فيُكثرُ من حمده والثناء عليه وذكر آلائه بين الناس. وقد أمر ربّنا سبحانه بالتحدّث بنعمه، فقال جلّ شأنه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: 11)، قال القرطبي: «أي انشرُ ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتّحدّث بنِعَم الله، والاعتراف بها شكر»[1]. وإذا تأملنا أذكار النبيّ ﷺ وجدناها حافلة بالشكر والحمد والثناء على الله تعالى، حتى أنّه ﷺ كان يسألُ ربّه سبحانه أن يُبلّغه أعلى درجات الشّكر، فيقول في دعائه: «رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا»[2]. و«شكّار» على وزن «فعّال»، وهي صيغة مبالغة. أي اجعلني كثير الشكر: في السرّاء والضرّاء، وفي القول والعمل، وفي السرّ والعلن. وفي تقديم الجار والمجرور «لك» للدّلالة على الاختصاص، أي أخُصّكَ بالشّكر؛ لأنك خالقُ النّعم، ومعطيها.

وقد قال إمامُ الشاكرين ﷺ: «التحدّثُ بالنّعم: شُكرٌ، وتركها: كُفرٌ»[3]. وقال ﷺ: «إنّ اللهَ لَيَرْضَى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ فيحمدَه عليها، أو يشربَ الشربةَ فيحمدَه عليها»[4]. وكان ﷺ يقول إذا استيقظ من نومه: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النّشور»[5]. وكان ﷺ إذا أوَى إلى فراشه يقول: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا كفانا وآوانا، فكَم ممّن لا كافيَ له ولا مُؤوي»[6]. وكان نبينا ﷺ يعلّم صحابته ﷺ ما يُعينهم على شكر الله تعالى، فقد أوصى أحدهم يوماً قائلاً: «يا

(1) الجامع لأحكام القرآن: (20/ 102).

(2) رواه الترمذي (3551) وقال: حسن صحيح.

(3) رواه أحمد (4/ 278) وهو في السلسلة الصحيحة (667).

(4) رواه مسلم (2734).

(5) رواه البخاري (7394).

(6) رواه مسلم (2715).

مُعاذ إني أُحبُّكَ، فلا تَدَعْ أن تقول دُبُرَ كلّ صلاة: اللهُمّ أعنّي على ذكرك، وشُكرك، وحُسن عبادتك»[1].

ج. **شُكرُ الجوارح**: ويكون بتسخير كامل أعضاء البدن في طاعة الله تعالى، وذلك بالالتزام بما أَمَرَبه، واجتناب ما نهى عنه سبحانه، فعندما سألتْ أمُّ المُؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ بأنّه يُطيلُ القيام وقد غُفر ذنبه، فأجابها: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟»[2]. فنِعَمُ الله تعالى على نبيّه ﷺ، ومغفرته لذنبه زادت رغبته في العمل الصالح شُكراً لله تعالى.

والاجتهاد في نوافل الطاعات - بعد أداء الفرائض - من أعظم مظاهر الشّكر لله تعالى، حتى قال عنها الحافظ ابن رجب: «وهذه درجةُ السّابقين المقرّبين»[3]. وقال بعض السلف: «لمّا قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ (سبأ: 13)، لم يأتِ عليهم ساعةٌ من ليلٍ أو نهارٍ إلاّ وفيهم مُصلٍّ يُصلّي»[4].

ولا يكتملُ شكر الله تعالى إلاّ بترك ما نهى عنه سبحانه، ومن هنا قال بعض السلف: «الشُّكرُ: ترك المعاصي»[5]. وقال بعض العلماء: «الشُّكر: أن لا يُستعانَ بشيءٍ من النِّعَم على معصيته»[6]. فإيّاك -أيها المسلم- أن تستعمل نعمة العينين في النّظر إلى الحرام، أو نعمة اللسان في الكذب والبهتان، أو نعمة السمع في الفسوق والعصيان! فقد يسلبها الله منك! وإيّاك أن تستغلّ نفوذك لإذلال الناس، أو قوّتك للتعدّي عليهم. أو عِلمَكَ للتّعالي عليهم! واحذر أن تستعمل إحدى جوارحك

(1) رواه أبوداود (1522)، وهو في صحيح الجامع (7969).
(2) رواه البخاري (1130)، ومسلم (2819).
(3) جامع العلوم والحكم: (2/ 85).
(4) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (74)، وابن كثير في التفسير: (3/ 536).
(5) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (19) عن مخلد بن الحسين.
(6) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: (2/ 84).

في ما يُخالف شرع الله، فتكون قد كفرتَ نعمةَ ربّك عوض أن تشكرها! قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: 40).

الإشارة الثانية: شأن الحمد والثناء

1. حقيقة الحمد:

أ. **الحَمْدُ في اللُّغة:** هو نقيضُ الذمّ. والتحميدُ أبلغُ من الحَمْد، والحَمْدُ أعمُّ وأبلغُ من الشكر[1].

ب. **الحمد في الاصطلاح:** هو الوصف الجميل على جهة المحبّة والرّضا والتعظيم. وحمدُ الله تعالى: «عبارةٌ عن تعريفه وتوصيفه بنعوت جلاله وصفات كماله الجامع لها، سواء كان بالحال أو بالمقال، وهو معنى يعمُّ الثناء بأسمائه فهي جليلة، والشّكر على نعمائه فهي جزيلة، والرضا بأقضيته فهي حميدة، والمدح بأفعاله فهي جميلة»[2].

ج. **اللهُ: الحميد:** وهذا من أسمائه الحُسنى سبحانه، وقد ورد هذا الاسم الجليل سبع عشرة مرّةً في القرآن، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (فاطر: 15). وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة: 267)، يقول الإمام الطبري: «و[الحميد] يعني: أنه محمودٌ عند خلقه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله»[3]. وقال في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ (النساء:131): «[الحميدُ]: الذي استوجب عليكم أيّها الخلقُ الحمدَ بصنائعه الحميدة إليكم؛ وآلائه الجميلة لديكم، فاستديموا ذلك أيها الناس باتقائه، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وينهاكم عنه»[4].

---

(1) انظر: لسان العرب، لابن منظور: (2/ 988)، مادة [حمد].

(2) الكليات، للكفوي: (2/ 199).

(3) جامع البيان: (3/ 58).

(4) المرجع نفسه: (5/ 205).

قال الخطابي «(الحميد): هو المحمودُ الذي استحق الحمد بفعاله، وهو فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يُحمدُ في السرّاء والضرّاء، وفي الشدّة والرخاء؛ لأنه حكيمٌ لا يجري في أفعاله الغلط، ولا يعترضه[1] الخطأ، فهو محمودٌ على كلّ حال»[2].

من آثار الإيمان باسم (الحميد): الاعتقاد الجازم بأنّ الله جلّ ثناؤهُ هو المستحقّ للحمد على الإطلاق، كما قال جلّ جلاله عن نفسه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: 1)، والألف واللام في [الحمد] للاستغراق؛ أي: هو سبحانه الذي له جميع المحامد بأسرها، وليس ذلك لأحد إلاّ الله تعالى.

• **الفرق بين الحميد والمحمود:** يكشف لنا الإمام ابن القيم رحمه الله بعض أسرار هذا الاسم الجليل قائلاً: «أمّا (الحميدُ) فلم يأت إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغُ من المحمود، فإن «فعيلاً» إذا عدل به عن مفعول: دل على أن تلك الصفة قد صارت مثل السّجيّة والغريزة والخُلُق اللازم، كما إذا قلت: فلانٌ ظريف أو شريف أوكريم، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فعل بوزن «شَرُفَ»، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة، ككَبُرَ وصَغُر، وحَسُنَ ولَطُفَ ونحو ذلك. ولهذا كان (حبيب) أبلغ من (محبوب)، لأن الحبيب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَبُّ لأجلها، فهو حبيبٌ في نفسه؛ وإن قُدِّرَ أنّ غيره لا يُحبّه؛ لعدم شعوره به، أو لمانع منعه من حبه، وأما المحبوب فهو الذي تعلّق به حُبُّ المُحب؛ فصار محبوباً بحبِّ الغير له، وأما الحبيب فهو حبيبٌ بذاته وصفاته، تعلق به حبُّ الغير أو لم يتعلق. وهكذا الحميد والمحمود. فـ(الحميد): هو الذي له من الصفات، وأسباب لحمد ما يقتضي أن يكون محموداً؛ وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه، والمحمود من تعلق به حمد الحامدين»[3].

---

(1) كذا في الأصل! ولعلّ الصّواب: «ولا يعتريه».

(2) شأن الدعاء (ص 78).

(3) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام: (186).

2. فضل الحمد:

أ. الحمد مأمورٌ به ومحبوبٌ لله تعالى: والدليلُ على أنه مطلوبٌ شرعاً: قول الله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: 1)، قال الإمام ابن عاشور: «وعندي: أنه يجوز أن يكون الحمد مصدراً جيء به بدلا من فعله على معنى الأمر، أي احمدوا الله ربّ العالمين. وعُدل به عن النّصب إلى الرّفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات»[1].

وقال الإمام ابن القيم: «ولما كان سؤال الله الهدايةَ إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرفَ المواهب، علّم الله عبادَه كيفيةَ سؤاله، وأمرهم أن يقدِّموا بين يديه حمدَه سبحانه والثناء عليه وتمجيدَه»[2]. وقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ (النمل: 59). يقول الإمام النووي: «والآيات المُصرّحة بالأمر بالحمد والشكر وبفضلهما كثيرة معروفة»[3].

والله سبحانه يُحبُ المدح والثناء من عباده، ففي صحيح البخاري: «لا أحدٌ أحبُّ إليه المِدحةَ من الله عزّ وجلّ، ومن أجل ذلك وعد اللهُ الجنّة»، قال ابن بطّال: «أراد به المدح من عباده بطاعته وتنزيهه عما لا يليق به، والثناء عليه بنِعَمه ليُجازيهم على ذلك. وقال عياض: معنى قوله «وعد الجنّة» أنه لما وَعَد بها ورغّب فيها كثر السؤال له والطلب إليه والثناء عليه. قال: ولا يُحتجُّ بهذا على جواز استجلاب الإنسان الثّناء على نفسه فإنه مذمومٌ ومَنهيٌّ عنه، بخلاف حُبّه له في قلبه إذا لم يجد من ذلك بُدّاً فإنه لا يُذمّ بذلك، فالله سبحانه وتعالى مُستحقٌّ للمدح بكماله؛ والنّقص للعبد لازمٌ ولو استحقّ المدح من جهة ما، لكن المدح يُفسد قلبه ويعظّمه في نفسه حتى يحتقر غيره، ولهذا جاء «احثوا في وجوه المدّاحين التراب»»[4]. وفي رواية أخرى: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ

---

(1) التحرير والتنوير (1/ 56).

(2) مدارج السالكين: (1/ 34).

(3) الأذكار للنووي: (1/ 311).

(4) فتح الباري: (13/ 400).

إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»[1]. قال المُناوي: «أي أنّه سبحانه يُحبُّ المدح من عباده ليُثيبهم على مدحهم الذي هو بمعنى الشكر والاعتراف بالعبودية للواحد المُنعم القهّار. فإذا كان الأشخاص المعلولون المربوبون المذنبون المقصّرون يُحبّون المدحَ، فالذي يستحقُّهُ أوْلى وأحقُّ، تبراك الممدوح في أوصافه، المحمود على أفعاله، المُنعمُ على عباده، البرُّ الرّؤوفُ الرّحيم»[2]. وعلينا أنْ نعلمَ أنّ في مدح الله تعالى والثناء عليه مصلحة للعباد في معاشهم ومعادهم، قال النووي: «حَقِيقَةُ هَذَا مَصْلَحَةٍ لِلْعِبَادِ، لِأَنَّهُمْ يُثْنُونَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيُثِيبُهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَا يَنْفَعُهُ مَدْحُهُمْ، وَلَا يَضُرُّهُ تَرْكُهُمْ ذَلِكَ»[3].

ب. الحمّادون أفضل النّاس: لحديث «إِنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَمَّادُونَ»[4]. قال المناوي: «الحمّادون: أي الذين يُكثرون حمدَ الله، أي وصْفه بالجميل المُستحق له من جميع الخلق، على السرّاء والضرّاء»[5]. وصفة الأمّة الإسلامية في التوراة: «الحمّادون»، كما جاء عن التابعي كعب الأحبار، أحد علماء اليهود المسلمين: «نجدُ مكتوباً في التوراة محمد رسول الله عبدي المختار... وأمته الحمّادون، يحمدون الله في السرّاء والضرّاء، يحمدون الله في كلّ منزلة، ويكبّرونه على كل شرف»[6]. ومن صيغ الحمد التي ترفع صاحبها يوم الحساب، ما ثبت في حديث رسول الله ﷺ: «مَنْ قال حين يُصبحُ وحين يُمسي: سُبحانَ الله وبحمدِه، مائةَ مرةٍ، لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامةِ بأفضلَ ممَّا جاء به، إلَّا أحدٌ قال مثلَ ما قال، أو زاد عليه»[7].

---

(1) رواه مسلم (2760).

(2) فيض القدير: (5/ 438).

(3) شرح النووي على مسلم (17/ 77).

(4) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (10/ 95)، وهو في صحيح الجامع (1571).

(5) فيض القدير: (2/ 532).

(6) رواه الدارمي (1/ 6).

(7) رواه مسلم (2692).

ج. **صاحب لواء الحمد والمقام المحمود:** وهو نبينا مُحمّد ﷺ، و«المُحمَّدُ»: الذي كثُرت خصالُه المحمودة[1]، ومنها: ما يقع يوم القيامة، حيث يَرغبُ إليه الأوّلون والآخرون ليشفع لهم عند ربهم كي يخلّصهم من هول يوم الحساب. وقد جاء في حديث الشفاعة الطويل: «فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»[2]. وشفاعته العُظمى هذه ﷺ من المقام المحمود الذي وعَدَهُ اللهُ إيّاه في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ (الإسراء: 79). وفي حديث إجابة الأذان: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3]. وقال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ»[4]. قال العلاّمة التوربشتي: «لا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أرفع وأعلى من مقام الحمد، ودونه تنتهي سائر المقامات، ولما كان نبينا سيد المرسلين، أحمدَ الخلائق في الدنيا والآخرة، أُعطي لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأوّلون والآخرون، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي»»[5].

د. **الحمدُ يملأُ الميزان:** لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الطُّهورُ شطرُ الإيمان، والحمدُ لله تملأُ الميزان، وسبحان الله والحمدُ لله تملآن ما بين السماوات والأرض..»[6]. قال الحافظ ابن رجب: «فأمّا (الحمدُ لله)، فقد اتفقت الأحاديث كُلُّها على أنه يملأ

(1) الصحاح، للجوهري: (2/ 466)، ولسان العرب، لابن منظور: (2/ 987) مادة [حمد].

(2) رواه البخاري رقم (4712).

(3) رواه البخاري (589).

(4) رواه الترمذي (3615) وصححه الألباني.

(5) تحفة الأحوذي، للمباركفوري: (9/ 465).

(6) رواه مسلم برقم (223).

الميزان، وقد قيل: إنه ضربُ مَثل، وإنّ المعنى: لو كان الحمدُ جسماً لملأ الميزان، وقيل: بل الله عزّ وجلّ يُمثّلُ أعمال بني آدم وأقوالهم صُوراً تُرى يوم القيامة وتوزنُ، كما قال ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمان، ثقيلتان في الميزان، خفيفتان على اللسان: سُبحان الله وبحمده، سُبحان الله العظيم»[1]. وأضاف قوله: «والتسبيحُ دون التحميد في الفضل كما جاء صريحاً في حديث «أنّ التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملؤه»، وسببُ ذلك أنّ التحميدَ إثباتُ المحامد كُلّها لله، فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها، والتسبيحُ هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات، والإثباتُ أكملُ من السلب، ولهذا لم يرد التسبيح مُجرّداً، لكن مقروناً بما يدلُّ على إثبات الكمال، فتارةً يُقرَنُ بالحمد، كقول: سبحان الله وبحمده، وسبحان الله والحمد لله، وتارةً باسم من الأسماء الدالّة على العظمة والجلال، كقوله سبحان الله العظيم»[2].

هـ. بيتُ الحمد بالجنّة: وهذا الجزاء العظيم لمن صبر على موت أحد أولاده، واسترجع واحتسب الأجر عند الله تعالى. فقد ثبت في السنّة أنّ النبي ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»[3].

و. الحمدُ أول كلمة وآخرها: فعن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قال: «ذَلِكَ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَإِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَسَارَ فِيهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى، فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَعَطَسَ فَأَلْقَى اللهُ عَلَى

(1) رواه البخاري (6406) ومسلم (2694).

(2) جامع العلوم والحكم: (2/ 16-18).

(3) رواه الترمذي (942) وهو في السلسلة الصحيحة (1408).

لِسَانِهِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَتِ الْمَلائِكَةُ: رَحِمَكَ اللهُ»[1]. فحَمْدُ الله تعالى هو أوّل كلمة قالها آدم أبو البشر عليه السلام، وهي آخر كلمة يقولها أبناؤه من أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (يونس: 10)، قال الإمام البغوي: «يُرِيدُ: يَفْتَتِحُونَ كَلَامَهُمْ بِالتَّسْبِيحِ وَيَخْتِمُونَهُ بِالتَّحْمِيدِ»[2]. فالحمدُ لله على أن جعل له الحمد في الأولى والآخرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:70).

ز. **الحمدُ أفضلُ الدعاء**: وذلك أنّ الحمدَ مُتضمّنٌ للحبّ والثناء، والحبُّ أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالبٌ للمحبوب فهو أحق أن يُسمّى داعياً من السائل الطالب، فنفسُ الحمد والثناء متضمّنٌ لأعظم الطلب، فهو أحقُّ أن يُسمّى دعاءً من غيره من أنواع الطلب[3]. فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للهِ»[4].

وقد سُئل الإمام سفيان بن عُيينة عن دعاء يوم عرفة[5]: إنما هو ذكرٌ، وليس بدعاء؟ فقال رحمه الله: «أما علمتَ قولَ الله عزّ وجلّ حيث يقول: «مَن شغله ذكري عن مسألتي، أعطيتُهُ أفضلَ ما أُعطي السائلين»[6]. وعن حديث ابن عباس رضي الله عنه:

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه (5415)، وله شاهد مرفوع عند الترمذي والبيهقي وابن حبان.

(2) معالم التنزيل: (ص 569).

(3) بدائع الفوائد، لابن القيم: (3/ 9).

(4) رواه الترمذي (3383)، وابن حبان في «صحيحه» (3/ 126)، وحسنه الألباني في الصحيحة (3/ 484).

(5) وكأنه يشير إلى حديث: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» الذي رواه الترمذي (3585)، وحسنه الألباني في الصحيحة (1503).

(6) التمهيد، لابن عبد البر: (6/ 43)، والحديث رُوي من عدّة طُرُق. قال عنه الحافظ ابن حجر: هذا حديث حسن، أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (579)، كما نقل ذلك السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (2/ 342).

أنّ النبي ﷺ كان يدعو عند الكرب يقولُ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»[1]. يقول الإمام النووي: «وهو حديث جليل ينبغي الاعتناء به، والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة، فإن قيل: هذا ذكرٌ وليس بدعاء، فجوابه: أنّ هذا الذكر يُستفتحُ به الدعاء»[2].

3. صيغ الحمد والثناء

أ. **استحباب الاستفتاح بالحمد**: وذلك لحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ فَهُوَ أَقْطَعُ»[3]. و«أقطع» أي: ناقص وقليل البركة. قال النووي: «قال العلماء: فيُستحبّ البداءة بالحمد للهِ لكل مُصنّف، ودارس، ومدرِّس، وخطيب، وخاطب، وبين يدي سائر الأمور المهمة. قال الشافعي رحمه الله: أُحِبُّ أن يقدّم المرءُ بين يدي خطبته وكل أمر طلبه: حمد الله تعالى، والثناء عليه سبحانه وتعالى، والصلاة على رسول الله ﷺ»[4]. وقال العلّامة السفاريني: «وقد كان النبي ﷺ يفتتحُ خُطبه بالحمد لله والثناء عليه، ولذا جُعلت فاتحةُ الكتاب في أوّل المُصحف لافتتاحها بالحمد لله، وتضمّنها الثناء عليه سبحانه وتعالى»[5].

ب. **الحمدُ والثناء في الصلاة**: وهي أعظم الطاعات التي يتقدّمُ بها العبد إلى ربّه سبحانه، حيث تتجلّى معالم العبوديّة قولاً وفعلاً، قلباً وقالباً. وقد بشّرنا نبيّنا ﷺ بإجابة الله تعالى لنا عند حمده ومناجاته في تلاوة الفاتحة، إذْ يقولُ جلّ شأنه -كما في الحديث

(1) أخرجه البخاري (6345)، ومسلم (2730).

(2) شرح النووي على مسلم: (17/ 47).

(3) رواه أبو داود (4840)، والحديث على ضعفه، فقد أخرجه أبو عوانة في «صحيحه»، وصحّحه ابن حبّان (1)، وابن دقيق العيد وابن المُلقن، وحسنه ابن الصلاح والنووي في «الأذكار» (1/ 312)، وابن حجر في الفتح (8/ 220).

(4) الأذكار، للنووي: (1/ 313).

(5) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: (1/ 12).

القدّسي الصحيح-: «قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفَيْنِ، ولعبدي ما سأَلَ، فإذا قال العبدُ: [الحمدُ لله ربِّ العالمين]. قال اللهُ: حَمِدَني عبدي. وإذا قال: [الرحمنُ الرحيمُ]. قال: أثنى عليَّ عبدي، وَإِذَا قَالَ: [مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ] قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي». ويُخبرنا ﷺ بفضل الطهارة، والحمد والخشوع في الصلاة بقوله: «ما منكم رجلٌ يُقرّبُ وضوءَهُ فيتمضمضُ ويستنشق... فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهَّ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

ج. **الحمد والثناء في الاستفتاح**: وأدعية استفتاح الصلاة كثيرة، وأشهرها ما ثبت عن عائشة ﵂ قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ، قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرَكَ»[2]. وَ«تَعَالَى»: أي علا وارتفع، و«الجَدُّ»: العظمة. وقد كان سيدنا عُمر ﵁ يُعلّمُ هذا الدعاء للناس، فيجهرُ به حين يفتتحُ الصلاةَ كما ثبت في الصحيح[3].

د. **الحمدُ عند الرفع من الركوع**: فقد ثبت أنّ النبي ﷺ كان يقول إذا رفع رأسه من الركوع: «ربَّنا لك الحمدُ، مِلْءَ السَّمواتِ والأرضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شيءٍ بعدُ، أهلَ الثَّناءِ والمجدِ، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلُّنا لك عبدٌ، اللهمَّ لا مانعَ لِما أعطَيتَ، ولا مُعطيَ لِما منَعتَ، ولا ينفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[4]. وعن رِفاعةَ بنِ رافعٍ ﵁، قال: «كنَّا يومًا نُصلِّي وراءَ النبيِّ ﷺ، فلمَّا رفَع رأسَه من الرَّكعةِ، قال: سمِعَ اللهُ لِمَن حمِدَه، قال رجلٌ وراءَه: ربَّنا ولك الحمدُ حمدًا كثيرًا طيِّبًا مبارَكًا فيه، فلمَّا انصرَف، قال: مَنِ المتكلِّمُ؟ قال: أنا، قال: رأيتُ بِضعةً وثلاثينَ مَلَكًا يبتَدِرونها، أيُّهم يكتبُها أولُ»[5].

---

(1) رواه مسلم برقم (832)، والذي قبله برقم (593).

(2) رواه أصحاب السنن الأربعة، وهو في صحيح الترمذي (1/ 77).

(3) رواه مسلم رقم (399).

(4) رواه مسلم (477).

(5) رواه البخاري برقم (799).

هـ- **الحمد في قيام الليل**: كان ﷺ يفتتح تهجّده بأنواع كثيرة من الأدعية، ومنها:

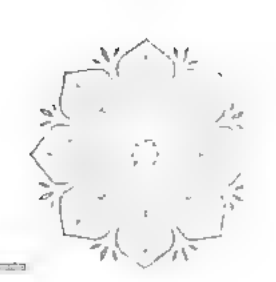
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يتهَجَّدَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ»[1]. قال الشيخ محمد صالح المنجد: «فتأمل كيف قدّم النبيُّ ﷺ قبل أن يبدأ بالدعاء جُملاً كثيرةً، كلها حمد لله، وثناء عليه، وتمجيد له، واعتراف بالفقر إليه، وإقرار بألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ثم بعد ذلك كله بدأ بالدعاء، وقد كان جملةً واحدة فقط، وهي: فاغفر لي ما قدمتُ وما أخّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ»[2]. وفي رواية أنه ﷺ كان يقول -بعد تكبيرة الإحرام-:«وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، إنَّ صَلاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، ومَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ، وبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إلاَّ أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، واعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِر لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إلاَّ أَنْتَ، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إلاَّ أَنْتَ، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأَتُوبُ إِلَيْكَ»[3].

---

(1) رواه البخاري برقم (1120)، ومسلم (769).

(2) «كيف يكون تمجيد الله»، موقع (الإسلام سؤال وجواب) الإلكتروني.

(3) رواه مسلم رقم (771).



رُكنُ الصّبر

وهو نصف الإيمان بعد الشكر، كما سبق. وأعظم ما يتحلّى به العبدُ في حياته، قال ابن القيم: «فَخَيْرُ عيشٍ أدركه السعداء بصبرهم، وترقّوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1]. ولجلالة الصّبر كثر ذكره والحثّ عليه في الكتاب والسنة؛ إذْ بدونه لن يُحقّقَ المسلمُ مُبتغاه، ولن يصل إلى ربّه ومولاه. فالحياة لا تستقيم إلا بالصبر، فهو دواء المشكلات لدار الابتلاء، ومفتاح الفلاح في يوم الجزاء. والصبرُ هو زاد المجاهد إذا أبطأ عنه النّصر والتمكين، وزاد الداعية إذا رفض الناس الاستجابة لربّ العالمين، وزاد الصالح في بيئة الظلم والفساد، وزادُ العالم في زمن الجهل والعناد. وكما أنّ الصبر مُسكّنٌ لآلام المرضى والمساكين والمستضعفين، فهو كذلك سرُّ نجاح أهل العزم والهمم العالية، من النّشطاء العاملين في الدنيا والدين.

(1) عدّة الصابرين: (ص 35).

الإشارة الأولى: شأنُ الصّبر

1. حقيقة الصبر:

أ. **المعنى اللغوي**: الصبر: قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوامها. ويَعني: التَّحمُّلُ والتجلّدُ، وضدُّه الجزعُ، كما جاء في قوله تعالى -على لسان أهل النار-: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: 21). يُقالُ: صَبَرَ يَصْبِرُ صبراً، فهو صابرٌ وصبَّار وصبيرٌ وصَبُور، وجمعه صُبُرٌ، والتصَبُّر: تكلّفُ الصّبر. وأصلُ الصبر: الحبس والكفّ، وسُمّي الصوم صبراً؛ لما فيه من حبس النفس عن الطعام، والشراب والنكاح. ويُقالُ: قُتل فُلانٌ صبراً، إذا أُمسكَ وحُبسَ حتى الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الكهف: 28)، أي: **احبس نفسك معهم**[1].

ب. **المعنى الاصطلاحي**: وقال الرّاغب الإصفهاني: «الصبر: حبسُ النّفس على ما يقتضيه العقل والشرع»[2]. وقال العلّامة ابن عاشور: «هو: احتمالٌ وثباتٌ على ما لا يُلائم.. ومُعظم الفضائل ملاكها الصبر»[3]. وعرّف بعضهم الصبر بأنه: «حَبسُ النّفس عن الجزع والتسخّط، وحبس اللسان عن الشّكوى، وحبس الجوارح عن التعدّي »[4]. والصبرُ المطلوب شرعاً هو: حبسُ النّفس على ما تكره، ابتغاء مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (الرعد: 22)[5].

● **معنى المصابرة**: كما يشرحها لنا الإمام ابن القيم، فإنها: «مفاعلة» تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ

---

(1) انظر: لسان العرب مادة [صبر]، وعدة الصابرين، لابن القيم: (ص 33).

(2) مفردات القرآن: (1/ 811).

(3) التحرير والتنوير: (1/ 478).

(4) انظر: تفسير القرطبي: (1/ 371)، ومدارج السالكين، لابن القيم: (1/ 555).

(5) الصبر في القرآن الكريم، للقرضاوي: (ص 8).

﴿وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 200). فأمرهم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حالة في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبدُ ولا يُصابر، وقد يُصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كلّه التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر؛ فهي لزوم ثغر القلب؛ لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته»[1].

• **معنى الصبر الجميل**: قال ابن القيم: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة -قدس الله روحه ونوَّر ضريحه- مرارًا يقول: ذكَرَ اللهُ الصبرَ الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل. فالصبرُ الجميل: الذي لا شكوى معه، والهجر الجميل: الذي لا أذى معه، والصفح الجميل: الذي لا عتاب معه»[2]. وقال الجرجاني: «الصبر: هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله»[3]. والصبر على البلاء بغير شكوى لغير الله أمر مطلوب، ونعوذ بالله تعالى أن نشكوه سبحانه لخلقه، بل لا نشكو من أمر الله أبدًا، وهذا من لوازم الإيمان، وأن ما أصابنا لم يكن ليُخطئنا، وأن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا؛ ولذلك جعل الله عاقبة الصبر خيرًا كثيرًا، وأجرًا وفيرًا، فقال جلّ جلاله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ (النحل: 126). فعلى العبد أن يعلمَ أنّ الجزع والهلع، والتبرّم والاعتراض، والتشكّي والتضجّر، لا يُجدي نفعاً ولا يُعيد مفقوداً، فلا حلّ إلا بالتجلّد والاحتمال والصبر، والعاقل -كما يُقالُ- يفعلُ في أول يوم من المصيبة، ما يفعله الجاهلُ بعد سبعة أيام!

---

(1) عدة الصابرين، لابن القيم: (ص 33).

(2) بدائع الفوائد: (3/ 112).

(3) التعريفات: (ص136).

ولا ينافي الصبر: إخبار المريض طبيبه -مثلاً- بما يعانيه لضرورة المداواة، أو للاسترشاد وطلب المساعدة من أحدٍ للمساعدة وإزالة ضرر.

2. أسرار الصبر:

أ. ثباتُ باعث الدين: يُبيّنُ لنا الإمام الغزالي أنّ الصبر: طاقةٌ قلبيّة قويّة نتصدّى بها للأعداء، ويكشف لنا هذا الصراع الباطني قائلاً: «ولْيُفهَم أن القتال قائمٌ بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد. ومَدَدُ باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومددُ باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى. فالصّبْرُ عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. فانْ ثبتَ حتى قهره واستمرّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله، والتحق بالصابرين. وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين»[1].

ب. الحبسُ النافع: بعد أن عرّف الصبر بأنه «حبسٌ للنّفس»؛ يفصّل الإمام ابن القيم أسرار هذا الحبس قائلاً: «طَالبُ الله وَالدَّار الْآخِرَة لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ سَيرُهُ وَطَلَبُه إِلَّا بحبْسين: حبس قلْبه فِي طلبه ومطلوبه، وحبسه عَن الِالْتِفَات إِلَى غَيره. وَحبس لِسَانه عَمَّا لَا يُفِيد، وحبسه على ذكر الله وَمَا يزِيد فِي إيمَانه ومعرفته. وَحبس جوارحه عَن الْمعاصِي والشهوات، وحبسها على الْوَاجِبَات والمندوبات. فَلَا يُفَارِقُ الْحَبْسَ حَتَّى يلقى ربّه، فيُخَلّصُه من السّجْن إِلَى أوسع فضاء وأطيبه. وَمَتى لم يصبر على هذَيْن الحبسين وفَرّ مِنْهُمَا إِلَى فضاء الشَّهَوَات، أعقبه ذَلِك الْحَبْس الفظيع عِنْد خُرُوجه من الدُّنْيَا. فَكُلُّ خَارِجٍ من الدُّنْيَا إِمَّا مُتَخلّص من الْحَبْس، وَإِمَّا ذَاهِب إِلَى الْحَبْس»[2].

ج. مُسمّيات الصبر: جاء في «مختصر منهاج القاصدين»: «اعلم أنّ الصبر على

---

(1) إحياء علوم الدين: (4/ 37).

(2) الفوائد: (ص 70).

ضربين: أحدهما: بدني، كتحمّل المشاق بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها. الضرب الآخر: هو الصبر النفساني على مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبرا عن شهوة البطن والفرج، سمى عفة، وإن كان الصبر في قتال، سمى شجاعة، وإن كان في كظم غيظ سمى حِلْماً، وإن كان في نائبة مضجرة، سمى سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر سمى كتمان سر، وإن كان في فضول عيش سمى زهدا، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة. وأما المصيبة، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلّقات»[1].

3. **فضل الصبر**: انفرد الصابرون بجملة من الصفات والخصائص لا يشاركهم فيه غيرهم.

أ. **بشائر الصبر**: المؤمنُ الصابرُ المحتسبُ، الرّاضي بقضاء الله، ينال أعظم الأجور والجوائز. فتأمّل البشائر الرّبانية في هذه الآيات القرآنية، حيث يقول الحقُّ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 155-157).

ب. **الصبر مفتاح النّجاح**: يقول الإمام أبو طالب المكي: «اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة من النار، لأنه جاء في الخبر: «حُفّت الجنةُ بالمكاره، وحُفّت النارُ بالشهوات». فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره، ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات، لينجو من النار»، ويضيفُ قوله: «واعلم أن كثرة معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عمّا يُحِبّون، وقلة الصبر على ما يكرهون»[2].

---

(1) مختصر منهاج القاصدين: (ص 289).

(2) قوت القلوب: (1/ 199 - 200).

ج. الصابر يُحبّهُ الله: ويالها من غنيمة يُحصّلها العبدُ بمجاهدته لنفسه، وصبره لله، وثباته على الحق. قال ربّنا سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: 146). وفي الظّفر بمحبّة الله تعالى، يفوزُ الصابرُ بخيري الدنيا والآخرة.

د. الصابر في معيّة الله: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال:46). وإذا كان الله معك بحفظه ونصره وتوفيقه، فمن يقدرُ عليك؟!

هـ. الصبر عُدّة النصر والفلاح: لذلك أمر ربّنا سبحانه بالاستعانة به، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: 45). وعلّق النّصر على الصبر والتقوى، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران:125)، وقال ﷺ: «واعلمْ أنّ النّصرَ مع الصبر»[1]. وعلّق ربنا سبحانه على الصبر الفلاح، فقال جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:200).

و. الصابر له عُقبى الدار: حيث تكون له الجنّة هي دار القرار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (الرعد: 22-24).

ز. بالصبر تبلغ القمّة: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: 24)، قال سُفيان بن عُيينة: «أخذوا برأس الأمر، فجعلهم رُؤساء»[2]. وقال ابن تيمية: «بالصّبر واليقين؛ تُنالُ الإمامة في الدين»[3].

(1) رواه أحمد (1/ 307)، وهو في صحيح الجامع (6806).

(2) تفسير ابن كثير: (6/ 373).

(3) مجموع الفتاوى: (3/ 358).

الإشارة الثانية: أنواع الصبر

وهو على ثلاثة أنواع كما قال أهل العلم، وهي: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله. ومرجع هذا أن العبد في هذه الدنيا بين ثلاثة أحوال: بين أمر يجب عليه امتثاله، وبين نهي يجب عليه تركه واجتنابه، وبين قضاء وقدر يجب عليه الصبر فيهما، وهو لا ينفك عن هذه الثلاثة ما دام مُكلّفاً.

1. **الصبرُ على الطاعات**: وهو صبرٌ على أداء التكاليف الشرعية، والتزام الآداب الإسلامية. قال الإمام الغزالي: «والعبدُ يحتاجُ إلى الصبر عليها. فالصبرُ على الطاعة شديد، لأنّ النفس بطبعها تنفرُ عن العبودية»[1]. قلتُ: ورأينا بعض الإخوة قد صلّوا مُدّة من الزمن، والتزموا بآداب الدين على مدى سنين، ثم استدرجهم الشيطان فتأخّروا عن ربّهم الرحمان، وطال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم، وتركوا الصلوات واتبعوا الشهوات! فإيّاك -أيها الفاضل- أن تستسلم للنّفس الأمّارة بالسوء، وجاهدها وحاسبها على التقصير، فإنّ أمر الانتكاس جدٌّ خطير. ومن فضل الله علينا: أنّ العبد إذا التزم الطاعة، وكان صادقاً فيها؛ أعانه ربُّه عليها. قال ابن القيم: «لا يزال المرءُ يعاني الطاعة حتى يألفها ويُحبّها، فيُقيّض الله له ملائكةً تؤزّهُ إليها أزّاً، توقظه من نومه إليها، ومن مجلسه إليها»[2]. وقال التابعي الجليل ثابت البناني رحمه الله: «كابدتُ الصلاة عشرين سنةً، وتمتّعتُ بها عشرين سنة»[3]. فأقبل على طاعة ربّك -أيها المتقدّم- واصطبر عليها، ولا تنسَ الاستعانة به سبحانه، حتى يُعينك على ذكره وشكره وحسن عبادته.

2. **الصبرُ عن المعاصي**: ويكون ذلك بحبس النفس عن متابعة الشهوات، وعن الوقوع في المُحرّمات، قال الإمام الغزالي: «وأشدُّ أنواع الصبر عن المعاصي: الصبر

---

(1) إحياء علوم الدين: (4/ 48).

(2) الجواب الكافي: (ص 63).

(3) سير أعلام النبلاء: (5/ 224).

عن المعاصي التي صارت مألوفةً بالعادة... ثم إن كان ذلك الفعل ممّا يتيسّرُ فعله، كان الصبر عنه أثقل على النفس»[1]. قلتُ: وما أيسر المعاصي في هذا العصر، وما أكثر المخالفات المألوفة، حتى صارت من العادات، بل من مظاهر «التحضّر» و«التقدّم» و«التطور» لدى بعض الفئات!

3. **الصبر على الأقدار**: وهو أشدّها على النفس، لما فيه من الصدمة والمفاجأة والبلاء، الذي يصيب العبد في عدّة نواحي. كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: 155). ويكون هذا الصبر بحبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله تعالى، والقلب عن التسخط والجزع، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهم. قال الإمام الغزالي عن هذا النوع من الابتلاءات: «القسم الثالث: ما لا يدخلُ تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب، مثل: موت الأعزّة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض، وعمى العين، وفساد الأعضاء، وبالجملة سائر أنواع البلاء. فالصبر على ذلك من أعظم مقامات الصبر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر على محارم الله تعالى فله ستّمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة». وإنّما فُضّلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل، على ما قبلها وهي من الفرائض، لأنّ كلّ مؤمن يقدرُ على الصبر عن المحارم. فأمّا الصبر على بلاء الله تعالى، فلا يقدرُ عليه إلاّ الأنبياء لأنه بضاعة الصدّيقين، فإنّ ذلك شديدٌ على النفس. ولذلك قال ﷺ: «أسألك من اليقين ما تُهوّنُ عليّ به مصائب الدنيا»، فهذا صبرٌ مُستنده حُسن اليقين»[2]. وقال أبوطالب المكّي: «فأما اشتراط الصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى في قول النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصّدمة الأولى» فلأنه يُقال: إن كلّ شيء يبدو

---

(1) إحياء علوم الدين: (4/ 49).

(2) إحياء علوم الدين: (4/ 51)، وتفسير روح المعاني، للألوسي: (29/ 120).

صغيراً ثم يكبر إلاّ المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشترط لعظم الثواب لها عند أوّل كبَرها قبل صغرها وهي في صدمة القلب أوّل ما يبغته الشيء»[1]. ومن الأعمال الصالحة ما قد يجتمع فيها أنواع الصبر الثلاثة والتي منها الصوم، يقول الحافظ ابن رجب: «ومن أفضل أنواع الصبر: الصيامُ، فإنه يجمع الصبر على الأنواع الثلاثة؛ لأنه صبرٌ على طاعة الله عزّ وجلّ، وصبرٌ عن معاصي الله، لأن العبد يترك شهواته لله عزّ وجلّ ونفسه قد تنازعه إليها، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: إن الله عز وجلّ يقول: «كُلُّ عمل ابن آدم له إلا الصّيامُ، فإنه لي وأنا أجزي به؛ إنه تركَ شهوته وطعامه وشرابه من أجلي»[2]. وفيه أيضا صبرٌ على الأقدار المؤلمة، بما قد يحصل للصائم من الجوع والعطش، وكان النبي ﷺ يُسمّى شهر الصيام «شهرَ الصبر»»[3].

وأُبشّرُك -أخي العزيز- أنّ الابتلاء قد يكون دليل محبّة، قال ﷺ: «إنّ اللهَ تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم»[4]. وقد يكون تطهيراً من الذنوب، ورفعاً للدرجات. ونستحضر هنا قصّة المرأة السوداء، التي أُصيبَت بالصّرع وجاءت تشتكي للنّبي ﷺ فقالت: إني أُصرَعُ وإني أتكشّف فادعُ اللهَ لي، قال: «إنْ شئتِ صبرَتِ ولك الجنّة، وإن شئتِ دعوتُ اللهَ أن يعافيك»، فقالت: أصبر؛ ولكن ادعُ الله لي ألاّ أتكشّف. «فدعا لها فكانت تُصرعُ ولا تتكشّف»[5]. واعلم -أخي الكريم- أنّ الله قد يبتليك أحياناً بمصيبة ليوقظ غفلتك، فظاهر هذه الواقعة محنة وهي منحة، وتراها شدّةً وهي شهدة! قال الفقيه الزاهد عمر بن محمد السهروردي (ت 632): «إن العبدَ مخلوقٌ ليكون ملتجئاً إلى الله سبحانه على الدوام، فما دام كذلك فهو في عافية، ومتى غَفَلَ عن ذلك ساقه الله إلى

---

(1) قوت القلوب: (1/ 278).

(2) رواه البخاري (1904) ومسلم (1151).

(3) جمع العلوم والحكم: (1/ 26).

(4) رواه الترمذي (2396) وهو في صحيح الجامع (2110).

(5) رواه البخاري (5652).

ذلك ببعض المصائب»[1]. فجاهد نفسك على تحمّل الأذى والمكاره، وأيقن بأنّ الله قد منحكَ القُدرة على اكتساب خُلق الصبر، بدليل قوله ﷺ: «ومَن يتصَبّر يُصبّرْهُ الله»[2]. وتزدادُ ثباتاً أيّها المتقدّم إلى ربّ الأرباب، بسماعك لما أُعِدّ للصّابر من عظيم الثواب، حيث قال العزيزُ الوهّاب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: 10).

4. **الرضا أعظم من الصبر**: وأرفع من «الصبر» درجة «الرضا»؛ وقد كتب عُمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «أما بعد، فإنّ الخير كله في الرضا، فإن استطعتَ أن ترضى وإلاّ فاصبر»[3]. والرضا: ضدّ السخط، كما في الحديث: «اللّهُمّ إني أعوذُ برضاك من سَخَطِك»[4]. حيثُ يَرضَى العبدُ عن ربّه، فلا يَكرَهُ ما يجري به قضاؤُهُ. وقد كان نبيّنا ﷺ يسأل في دعائه هذه المرتبة بقوله: «وأسألك الرضا بعد القضاء»[5].

فعلى العبد أن يجتهدَ في رياضة نفسه وتزكيتها، حتى يصبر على الابتلاء، ثم يترقّى فيرضى بالقضاء، ليقينه بأنه مِن تدبير ربّ الأرض والسماء، الموصوف بكلّ كمال، والمُنزّه عن كلّ نقصان. فهو أحكمُ الحاكمين، وأرحمُ الراحمين، وأعدلُ العادلين. قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يقضي اللهُ لمؤمن قضاءً إلاّ كان خيراً له»[6].

فالسعيد الحقُّ هو مَن رضي بما قدّره الله، وصبر على ما قضاهُ سيّدهُ ومولاه؛ فحينئذ يذوق حلاوة الإيمان، كما قال ﷺ: «ذاقَ طعمَ الإيمان مَنْ رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد نبيّاً»[7].

---

(1) نقله عنه من «عوارف المعاف» العلاّمة ابن الوزير في «إيثار الحق عى الخلق»: (ص 211).

(2) رواه البخاري (6470) ومسلم (1053).

(3) مدارج السالكين: (1/ 572).

(4) رواه مسلم (486).

(5) رواه النسائي (1305) وصححه الألباني.

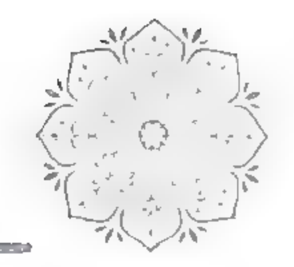
(6) رواه أحمد (5/ 24) وهو في صحيح الجامع (3985).

(7) رواه مسلم (34).

المحطّة التاسعة

عمل المتقدّم إلى الله تعالى

- اللوحة الأولى: مراتب المتقدّمين إلى ربّ العالمين
- اللوحة الثانية: أعمال المتقدمين إلى ربّ العالمين
- اللوحـــة الثالثة: برنامج مقتـــرح للتقدّم إلى الله



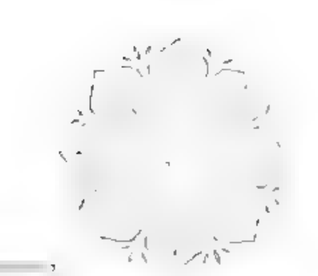
مدخل

وهذه أعظم محطات الكتاب، وذلك لاحتوائها على الجانب العملي التطبيقي لكلّ ما سبق من الأصول والقواعد النظريّة؛ قال العلاّمة ابن القيّم: «السائرُ إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كلُّ سائر إلى مقصد، لا يَتمُّ سيرُهُ ولا يصلُ إلى مقصوده إلاّ بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية. فبالقوة العلمية يُبصرُ منازل الطريق، ومواضع السلوك، فيقصدها سائراً فيها... وبالقوّة العملية يسير حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقة القوة العملية، فإنّ السير هو عملُ المسافر»[1].

فاحرص -أخي العزيز- على حُسن التزوّد من هذه المحطّة المباركة، واجتهد في الالتزام بما فيها على قدر الطاقة، إن كُنت حقّاً تريدُ التقدّم إلى الله جلّ في عُلاه.

(1) طريق الهجرتين. (ص 332).





مراتب المتقدّمين إلى ربّ العالمين

السائرون إلى الله تعالى على ثلاثة أصناف، ويحدّثنا عنهم أحد خبراء السير -وهو الإمام ابن القيم- فيقول: «قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثة أقسام: (ظالم لنفسه)، و(مقتصد)، و(سابق بالخيرات بإذن الله). وهؤلاء كلهم مستعدّون للسير موقنون بالرُّجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزوّد وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسُرعته وبُطئه»[1].

وقد استدلّ العلماء على هذا التصنيف الثلاثي للمتقدّمين إلى ربّ العالمين، بقول الحقّ سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر: 32-35). قال الشيخ العلامة محمّد الأمين الشنقيطي: «فقدْ بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن إيراث هذه الأمة لهذا الكتاب (القرآن) دليل

(1) طريق الهجرتين: (ص 338).

على أن الله اصطفاها في قوله: [ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا]، وبين أنهم ثلاثة أقسام:

- **الأول: الظالم لنفسه**: وهو الذي يطيع الله، ولكنه يعصيه أيضاً، فهو الذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ (التوبة: 102).

- **والثاني: المقتصد**: وهو الذي يطيع الله، ولا يعصيه، ولكنه لا يتقرب بالنوافل من الطاعات.

- **والثالث: السابق بالخيرات**: وهو الذي يأتي بالواجبات، ويجتنب المحرمات، ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التي هي غير واجبة. وهذا على أصح الأقوال في تفسير الظالم لنفسه، والمقتصد والسابق»[1].

الإشارة الأولى: الظالم لنفسه

قال الإمام ابن عاشور: «والظالمون لأنفسهم هم الذين يجُرّون أنفسهم إلى ارتكاب المعصية، فإن معصية المرء ربّه ظلم لنفسه، لأنه يُورّطها في العقوبة.. قال تعالى -حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نُهيا عنه من أكل الشجرة-: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ (الأعراف: 23)، وقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:110)»[2]. قال العلامة ابن القيم: «فالظالم لنفسه، مُقصّرٌ في الزاد، غير آخذ منه ما يبلّغه المنزل، لا فى قدره ولا فى صفته، بل مُفرّط فى زاده الذى ينبغى له أن يتزوّده، ومع ذلك فهو متزوّد ما يتأذى به فى طريقه، ويجد غِبّ أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذى الضارّ»[3].

---

(1) أضواء البيان: (5/ 489).

(2) التحرير والتنوير: (22/ 312).

(3) طريق الهجرتين: (ص 338).

فعلى الظالم لنفسه -وكلنا ظَلَمَة- أن يستيقظ من غفلته، وأن يترك المعاصي، ويتوب توبةً نصوحاً. ويُقبل على فعل الطاعات، وجمع الحسنات، حتى يُرضي ربّ الأرض والسماوات، وينال أعلى الدرجات.

الإشارة الثانية: المُقتصد

وعن حقيقة هذه المرتبة يقول الإمام ابن عاشور: «فالاقتصاد افتعال من القصد، وهو ارتكاب القصد، وهو الوسط بين طرفين يُبيّنه المقام، فلما ذُكر هنا في مقابلة الظالم والسابق، عُلم أنه مُرتكبٌ حالةً بين تَيْنك الحالتين. فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق»[1]. ويعرّفُ الإمام ابن القيم (المقتصدَ) بأنه: «اقتصر من الزاد على ما يبلّغه، ولم يشدَّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزوّد ما يضره، فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة»[2].

قلتُ: ونصيحتي لمن يكتفي بأداء الواجبات واجتناب المحرّمات، دون زيادة نوافل الطاعات والقربات، بأن يراجع نفسه ويحاسبها على هذا «الاقتصاد»، الذي يُحمَدُ في أمور المعيشة الدنيوية، ولكنّه يُذَمُّ في الشؤون الدينية الأخروية! فمن يضمن كمال الفرائض التي أدّيناها وسلامتها من الآفات، وكيف يزهدُ المسلمُ في فضل الله تعالى الذي رغّبنا في السعي إليه؟![3]. ونجدُ في القرآن ذمّاً لهذا «المقتصد»، الذي لم يُحسن مقابلة نعم الله بما تستحقّهُ من الشكر، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (لقمان: 32). قال الشيخ السعدي: «ذكَرَ تعالى حال الناس، عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظل فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [لله] والعبادة:

---

(1) التحرير والتنوير: (22/ 312).

(2) طريق الهجرتين: (ص 338).

(3) راجع: «فضل العمل الصالح»، في المحطة الرابعة.

[فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ] انقسموا فريقين: فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم. وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: [وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ] أي غدّار، ومِن غَدْرِه، أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدّته، لنكوننّ من الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك، [كَفُور] بنعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟»[1].

وقد فُسّر (المُقتصد) في الآية، بأنّه «المتوسّط في العمل»، وعلّق عليه الحفظ ابن كثير قائلاً: «وهذا هو المراد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (فاطر: 32)، فالمقتصد هاهنا هو: المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضا، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدما أنعم عليه من الخلاص، كان ينبعي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مُقصّراً والحالة هذه، والله أعلم»[2].

وقد يَستدلُّ البعض بحديث: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَصِيَامُ رَمَضَانَ». قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»[3].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 662).

(2) تفسير القرآن العظيم: (6/ 354).

(3) رواه البخاري (46) ومسلم (11)

فنقول: قد بيّن معنى هذه البشارة النبوية للأعرابي بالفلاح مع تركه للنوافل، الإمام النووي، حيث قال رحمه الله: «وأما النوافل، فقيل: يُحتملْ أن هذا كان قبل شرعها..، ويحتمل أنه أراد أنه لا يُصلّي النافلة مع أنه لا يُخلّ بشيء من الفرائض. وهذا مُفلحٌ بلا شك، وإن كانت مواظبته على ترك السنن مذمومة، وتُرَدُّ بها الشهادة، إلا أنه ليس بعاصٍ، بل هو مُفلح ناجٍ. والله أعلم»[1].

فلا تخاطر بنفسك، ولا تغامر -أيها الأخ الفاضل- بترك النوافل، فهي أعظم مشاريع الرّبح في تجارتنا مع الله، وصدق العلاّمة ابن عاشر رحمه الله حيث قال -مُوصياً طالبَ الآخرة-:

ويحفظُ المفروضَ رأسَ المال والنّفلَ ربحهُ به يُوالي

ومن تأمّل ديننا، وهدي نبينا ﷺ، وجد أنّ أغلبه نوافل الخير والتطوّعات. ولو عُدّت الفرائضُ لأُحصيت، ولو حاولتَ عدّ نوافل الطاعات لعجزتَ عن الإحصاء، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء[2].

الإشارة الثالثة: السابق بالخيرات

وهذا هو الصنف الثالث من السائرين إلى ربّ العالمين، وهو أرفعهم وأجلّهم وأسرعهم في التقدّم. وقد وصفه ابن القيم قائلاً: «همُّه في تحصيل الأَرباح، وشدّ أَحمال التجارات، لعلمه بمقدار الرّبح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدّخر شيئاً مما بيده ولا يتّجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأَرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة يكسب الدرهم فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة، فهو لو أَمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيء

(1) شرح النووي (1/ 167).

(2) العَرْفُ النّاشر في شرح ابن عاشر- قسم العقيدة والتصوّف، لمختار الجزائري: (ص 238).

به تجارة إلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن ربه يرى خسراناً بيّنا أن يمرّ عليه وقتٌ في غير متجر»[1]. ومن الآيات التي تحدّثنا على هذا السباق الجميل إلى ربّنا الجليل: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (الواقعة:10-12). قال ابن كثير: «المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات، كما أُمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 133)، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الحديد: 21)، فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل وكما تَدينُ تُدان»[2]. وقال ابن عاشور: «وحُذفَ متعلّق [السابقون] في الآية لقصد جَعْل وَصف [السابقون] بمنزلة اللّقب هم، وليُفيد العُمومَ، أي أنّهم سابقون في كل ميدان تتسابق إليه النفوس الزكية، كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين: 26)»[3].

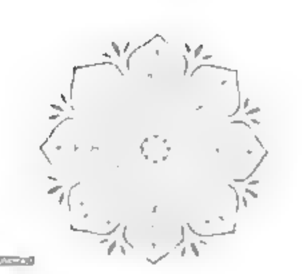
فاللّهُمّ اجعلنا من عبادك السابقين، المجتهدين في طاعتك يا ربّ العالين، وأدخلن جناتك جنات النعيم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[4].

(1) طريق الهجرتين: (ص 338- 339).

(2) تفسير القرآن العظيم: (7/ 491).

(3) التحرير والتنوير: (22/ 314).

(4) راجع للمزيد: القاعدة الثالثة من «قواعد التقدّم إلى الله»، بالمحطة الخامسة.



أعمال المتقدمين إلى ربّ العالمين

إنّ العملَ الصالح هو الذي يرفع العبد في الدنيا والآخرة، فقد رَوَى الإمام مالك في موطّئه أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ ﷺ -الذي سكن أرض الشام-، كَتَبَ إِلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ: أَنْ «هَلُمَّ إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ»، فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَلْمَانُ: «إِنَّ الأَرْضَ لا تُقَدِّسُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يُقَدِّسُ الإِنْسَانَ عَمَلُهُ»، قال العلاّمة الزرقاني: «‹إن الأرض لا تقدس أحدا›: أي لا تُطهّرُهُ من ذنوبه، ولا ترفعه إلى أعلى الدرجات، ‹وإنما يُقدّسُ الإنسانَ عملُه› الصالح في أيّ مكان»[1].

وليس للإنسان فرصة للعمل الصالح إلاّ هذه الحياة الدنيا، فاليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل. وهذه الفرصة الدنيوية قصيرةٌ، ولا ندري متى تنتهي. والموت إذا قدم لا يقبل التأخير، قال الحق تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف:34). فبادر -أخي الفاضل- بصالح العمل قبلَ حلول الأجل، واعمل على طاعة الرحمان قبل فوات الأوان. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ

(1) شرح الزرقاني على الموطأ: (4/ 131).

رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: 9-11). واعلم -أخي العزيز- أنّ العمل الصالح هو أعظم ما يتمنّاه المُقصّرُ في حالة الاحتضار، وأعزّ ما يَرجُوهُ أهل النار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: 99-100)، وقال جلّ شأنه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (فاطر: 37).

الإشارة الأولى: التقدّمُ إلى الله بالفرائض

قد بيّن لنا الإسلام كيف نتقرّب إلى الله تعالى، وعلّمنا أنّ أعظم ما يُقرب العبد من ربه سبحانه: «أداء الفرائض» التي فرضها الله تعالى علينا، كالصلوات الخمس في أوقاتها، وأداء الزكاة، والصيام، والحج لمن استطاع إليه سبيلا، وغيرها من الفرائض. ودليل ذلك الحديث القدسي الذي يقول فيه ربّنا سبحانه: «مَن عادى لي وليّاً فقد آذنتُهُ بالحرب، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»[1]. قال الحافظ ابن رجب: «ذكر في هذا الحديث أنّ أولياء الله على درجتين: **أحدهما**: المتقرّبون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين، وأداء الفرائض أفضلُ الأعمال كما قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: أفضلُ الأعمال أداء ما افترضَ اللهُ، والورعُ عمّا حرّم الله، وصدق النيّة فيما عند الله عزّ وجلّ»[2].

قلتُ: ومع أنّ هذه الفرائض الدينية قاصرةٌ في نفعها على صاحبها، غير أنّها الأكثر تعظيماً، وذلك لأنّها: أركان الإسلام ومبانيه العظام[3]. قال ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى

(1) رواه البخاري برقم (6502).

(2) جامع العلوم والحكم: (2/ 336).

(3) وتُسمّى الشعائر التعبّدية، وهي الأمور التي شرعها لنا الله عزّ وجلّ، والتي تُشعرُ من طُقوسها أنّها عبادةٌ

خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وحجّ البيت»[1].

1. **فريضة الصلاة**: وهي الصلوات الخمس التي أوجبها الله تعالى على المسلم في اليوم والليلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: 103). وهي عماد الدين، قال ﷺ: «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاة، وذروةُ سَنامه الجهادُ في سبيل الله»[2]. والصلاة أحد أركان الإسلام، وأعظم العبادات التي نتقرّبُ بها إلى ربّ الأنام. فرضها وأكرمنا الله بها في السماء ليلة الإسراء والمعراج.

وهذه الصلاة: هي قُرَّة عيون المؤمنين الصادقين؛ كما كانت قُرّة عين سيّد المُرسلين ﷺ، الذي قال: «وجُعلت قُرّةُ عيني في الصلاة»[3]. وهي راحةُ وأُنسُ المُحبّين؛ كما كان يقولُ الصادقُ الأمين ﷺ: «أرِحْنا بها يَا بِلالُ»[4]. فما أعظمها مِن صِلةٍ بين العبد وربّه جلّ وعلا.

أ. الصلاة أعظم العبادات: قال الحافظ ابن رجب[5]: «وأعظمُ فرائض البدن التي تُقرّبُ إلى الله: الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ (العلق:19)، وقال

= محضةٌ لله تعالى. ولكلّ دين شعائر يتميّزُ بها عن غيره من الملل، وقد أُمِرْنا بإقامة شعائر الله وتعظيمها: كرفع الأذان وإقامة الصلوات، وصيام شهر رمضان، وأداء مناسك الحج والعمرة...، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: 32) ويبقى الدينُ ما بقيت شعائره، فإذا ذهبت ذهب؛ وهذا ظاهر حديث النبي ﷺ عن آخر الزمان، حيث قال: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ..» رواه ابن ماجة (4049)، وقوّاه الحافظ في الفتح (16/ 13)، وهو في الصحيحة (1/ 171).

(1) رواه البخاري (8)، ومسلم (22).

(2) أخرجه الترمذي (2616) وصححه، وهو في صحيح الجامع (5136).

(3) رواه أحمد (3/ 128) ووصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (11/ 345).

(4) أخرجه أبو داود رقم (4985) وهو في صحيح الجامع (7892).

(5) جامع العلوم والحكم: (2/ 336).

النبي ﷺ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجدٌ»[1]. وقال: «إذا كان أحدُكم يُصلّي، فإنّما يُناجي ربّه»[2].

ب. **الصلاة أحبّ الأعمال إلى الله**: لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ العمل أفضل؟ -وفي رواية: أيّ الأعمال- أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «برُّ الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله»[3].

ج. **الصلاة مَغسلةٌ يوميّة**: حيث يتطهّرُ المسلم خمس مرات من ذنوبه، قال ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»[4].

د. **فضل صلاة الجماعة**: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»[5]. وقال ﷺ: «الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»[6].

ومن أطرف القصص في بيان عظمة صلاة الجماعة، وحرص سلفنا الصالح عليها: ما وقع للحافظ عبيد الله القواريري- شيخ البخاري، حيث قال رحمه الله: «لم تكن تكادُ تفوتُني صلاةُ العَتمة (العشاء) في جماعة. فنزل بي ضيفٌ، فشُغِلتُ به. فخرجتُ أطلبُ الصلاةَ في قبائل البصرة. فإذا الناس قد صلّوا. فقلتُ في نفسي:

---

(1) رواه مسلم برقم (482).

(2) رواه البخاري برقم (405).

(3) رواه البخاري (528) ومسم (85).

(4) رواه البخاري (528) ومسلم (667).

(5) رواه البخاري (662)، ومسلم (669).

(6) رواه البخاري (645)، ومسلم (650).

يُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «صلاة الجماعة تفضلُ على صلاة الفذّ إحدى وعشرين درجة»، ورُوي «خمساً وعشرين درجة»، ورُوي «سبعاً وعشرين». فانقلبتُ إلى منزلي، فصَلّيتُ العتَمةَ سبعاً وعشرين مَرّةً، ثم رقدتُ فرأيتني مع قوم راكبي أفراس، وأنا راكبٌ، ونحن نتجَارى وأفراسهم تسبقُ فَرَسَي، فجعلتُ أضربُه لألحقهُم، فالتفتَ إليّ آخرَهم، فقال: لا تُجْهِدْ فَرَسَك، فلستَ بلاحقنا. قال: فقلتُ: ولِمَ؟ قال: لأنّا صَلّيْنَا العَتمة في جماعة»[1].

هـ. **لذّة الخشوع في الصلاة**: قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ (المؤمنون: 1 - 2). وقال ﷺ: «ما من امرئ مسلم تحضرُه صلاةٌ مكتوبة، فيُحسن وضوءَها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب ما لم يُؤْتِ كبيرة، وذلك الدّهر كلّه»[2]. والخشوع هو روح الصلاة، وأساسه: استحضار عظمة الجبّار. وحقيقتُه: أن يلينَ القلبُ ويرقّ ويسكُن، ولا ينشغل بغير الله في الصلاة. ورأى سعيد بن المسيب رحمه الله رجلًا يعبثُ في صلاته، فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعَت جوارحه»[3]. ولذّة الخشوع هي التي تُخَفّف عنّا التكاليف، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة: 45). قال الحافظ ابن كثير: «إن الصلاة لَثقيلةٌ إلا على الخاشعين، الذين يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، مَعْروضون عليه، وأمُورهم راجعةٌ إلى مشيئته، يحكُمُ فيها ما يشاء بعَدْله؛ فلهذا لما أيقنوا بالمَعاد والجزاء، سَهُل عليهم فِعلُ الطاعات، وتركُ المنكَرات»[4].

وقد كان سلفنا الصالح يتفنّنون في استحضار الخشوع، فهذه -مثلاً- طريقة الشيخ الزاهد حاتم الأصمّ، الذي يقول رحمه الله: «إذا حانت الصلاة أسبغتُ

(1) سير أعلام النبلاء: (11/ 444).

(2) رواه مسلم (228).

(3) رواه ابن المبارك في الزهد: (1/ 419).

(4) تفسير القرآن العظيم: (1/ 157).

الوضوءَ، وأتيتُ الموضع الذي أريد الصلاة فيه ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملَك الموت ورائي، وأظنّها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبّرُ تكبيرا بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجدُ سجودا بتخشّع، وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري: أقُبلَتْ منّي أم لا؟»[1]. وهو يشيرُ بقوله: «أظنّها آخر صلاتي» إلى حديث النبي ﷺ «إذا قُمتَ في صلاتك فصلِّ صلاةَ مُودِّعٍ»[2].

2. **فريضة الزكاة:** هي إحدى أركان الدين، وفرائض الإسلام العظيم، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (البقرة: 43). والزكاة فيها معنى النّماء والتطهير: تُنمّي المال المُزكّى، وتُطهّرُ المُعطي للزكاة من البُخل والشحّ، كما تُطهّر القابضَ لها من الحقد والحسد. فهي من أعظم الطاعات التي نتقدّمُ بها إلى ربّ الأرض والسماوات. قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة:103)، وعن أبى أيوب رضي الله عنه أن رجلا قال للنبى ﷺ: أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتُقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتَصِلُ الرّحمَ»[3].

والزكاة لا تجب على المسلم إلا بشرطين: بلوغ المال المزكّى نصاباً، وتمام الملك، وبالنسبة لحولان الحول فلا يشترط إلاّ في زكاة النقدين والأنعام وعروض التجارة. وأما الزروع والثمار فزكاتها وقت حصادها، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ (الأنعام:141).

وتُعدُّ الزكاة من أعظم أدوات التكافل الاجتماعي، والتضامن الأخوي بين المسلمين، وهي من الحلول الناجعة لمشاكلنا الاقتصادية، فلو قام الأغنياء بأداء زكاة أموالهم لَسُدَّتْ حاجة معظم الفقراء، وسادت بيننا الألفة والمودة.

(1) إحياء علوم الدين، للغزالي: (1/ 78).

(2) صحيح ابن ماجة (4171).

(3) أخرجه البخارى (1396) ومسلم (12).

3. **فريضة الصيام:** قد فَرَضَ اللهُ تعالى علينا الصيامَ كما فرضه على جميع الأُمَم، فقال عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183). فأوضح الله تعالى أنه أوجب علينا الصيام لنتّقيه سبحانه؛ فدلّ ذلك: على أن الصيام وسيلة عُظمى لتحصيل التقوى.

أ. **رمضان شهر البركات:** فهو فرصةٌ سنوية عظيمة لتجديد الإيمان، والتقدّم بالطاعات إلى الرحيم الرحمن، حيث تجتمع فيه عبادات: الصيام والقيام، والقرآن، قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ (البقرة: 185). وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ»[1].

ب. **خصائص عبادة الصيام:** وهي طاعة عظيمة تُضاعفُ فيها الحسنات، وتُقالُ فيها العثرات، قال ﷺ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»»[2]. وقد ذكر أهل العلم -في بيان معنى الحديث وسبب اختصاص الصوم بهذا الفضل- عدّة أوجُهٍ، فقيل: أن الصيام لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره. وقيل: أن الله سبحانه وتعالى ينفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته. وقيل: أن الصيام أحبّ العبادات إلى الله والمقدّم عنده سبحانه وتعالى. وقيل: أنّ إضافة الصوم لله تعالى هو إضافة تشريف وتعظيم كما يقال: «ناقة الله» و«بيت الله». وقيل: أنّ الصيام لم يُعبَد به غير الله تعالى.

وقال الحافظ ابن رجب: «فتكون الأعمال كلّها تضاعفُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصيام، فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يُضاعفُه الله عز وجل

(1) رواه البخاري (3277)، ومسلم (1079).

(2) رواه مسلم (1151).

أضعافا كثيرة بغير حَصْر عَدَدٍ، فإن الصيام من الصّبر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: 10)، ولهذا ورد عن النبي ﷺ: أنه سمى شهر رمضان «شهر الصّبر»، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. وتجتمع الثلاثة في الصوم»[1].

ج. **فرح الصائم في الدنيا والآخرة**: وهذه السعادة والسرور، والشعور بالفرح والحبور، مكافأة خاصّة لأهل الصيام، كما قال ﷺ: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ»[2]، وهذا زيادة على مغفرة الله للصائمين والقائمين في رمضان، حيث بشّرنا نبينا ﷺ بقوله -كما في الصحيحين-: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. وَمَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

د. **استجابة دعاء الصائم**: وخاصة في رمضان، فبعد ذكر آيات الصيام قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: 186). وفي هذه الآية لطيفةٌ، تجلّت في حذف كلمة (قُل) التي عادةً ما نجدها في الأجوبة القرآنية، وفي ذلك يقول الإمام ابن عاشور: «حذفَ في اللفظ ما يدلّ على وساطة النبيّ ﷺ، تنبيها على شدّة قُرب العبد من ربّه في مقام الدعاء»، وأضاف الشيخ قوله: «وفي هذه الآية إيماء إلى أن الصائم مَرجُوّ الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مَرجُوّة دعواتُه، وإلى مشروعيّة الدّعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان»[3]. وقد ثبت أنّ النبي ﷺ قال عن رمضان: «ولله عُتقاء في كلّ يوم وليلة، لكلّ عبد منهم دعوة مُستجابة»[4]، ومنحة الاستجابة الإلهية ليست خاصة برمضان،

(1) لطائف المعارف، لابن رجب (ص 150).

(2) رواه مسلم (1151).

(3) التحرير والتنوير: (2/ 180).

(4) رواه أحمد (7401)، وهو في صحيح الجامع (2169).

فقد بشّرنا المصطفى ﷺ بقوله: «ثلاثة لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ»[1].

4. **فريضة الحج**: الذي هو الرّكن الخامس من أركان الإسلام، فرضه الله سبحانه على المسلم المستطيع بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: 97)، ولا زال الناس يحجون منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت، وأذن في الناس بالحج كما أمره ربه عز وجل إلى يومنا هذا.

والحج المبرور ليس له ثواب إلا الجنة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[2]. والحج المبرور سبب لغفران الذنوب، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[3].

أ. **شعار الحج التوحيد**: ويتجلّى ذلك من أول لحظة يتلبس فيها الحاج بالنّسك: قال جابر بن عبد الله في صفة حج النبي ﷺ: «ثم أهلّ بالتوحيد: لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمدَ والنعمة لك والملك لا شريك لك»[4]. وفي رواية أخرى قال ﷺ: «اللّهُم حَجة لا رياء فيها ولا سمعة»[5]. وفي هذا تربية للنفس على توحيد الله والإخلاص له؛ فإنّ الحاج يستفتح العبادة بإعلان التوحيد، ولا يزال يردّد هذا الشعار العظيم عبر أدائه لمناسك الحج.

ب. **أسرار التلبية**: وقد ذكر لها العلماء عدّة معان، وأهمّها:

---

(1) رواه الترمذي (2525)، وهو في صحيح الترمذي (2050).

(2) رواه البخاري (1650)، ومسلم (2403).

(3) رواه البخاري (1521)، ومسلم (1350).

(4) رواه مسلم (1218).

(5) صحيح ابن ماجة (2337).

- لبّيكَ اللّهُمّ: بمعنى أجبتُكَ يا رب، وكُرِّرتْ إيذاناً بدوام الإجابة واستمرارها.

- ولبّ بالمكان: أي أقامَ، والمعنى: أنّي مقيمٌ على طاعتك، وملازمٌ لعبادتك.

- وتعني حُبّا لك بعد حُبّ: ويُقالُ امرأةٌ لبّةٌ: إذا كانت شديدة المحبّة لأطفالها.

- وتعني اقتراباً إليك بعد اقتراب: فهي مأخوذةٌ من الإلباب، وهو الاقتراب.

- وتعني الإخلاص: فالتلبية مأخوذةٌ من لُبِّ الشيء، وهو خالصُه، ومنه لُبّ الرجل: عقله وقلبه[1].

وتشتمل التلبية كذلك على: حمد لله تعالى، الذي هو من أحب ما يتقرب به العبد إلى الله سبحانه. وعلى الاعتراف لله بالنّعم كلّها، ولهذا عرّفها باللام المفيدة للاستغراق، أي النّعم كلها لك، وأنت موليها والمنعم بها. واحتوت التلبية كذلك على الاعتراف بأن المُلْكَ كلّه لله وحده، فلا ملك على الحقيقية لغيره.

ج. **التكبير في أيّام الحج**: ولمّا كان الحجّ أظهر الشعائر الإسلامية، وجمعه أكثر جمع في الإسلام، شُرع فيه التكبير في مواضع عدة، مثل: التكبير في الطواف عند استلام الحجر الأسود أو الإشارة إليه، والتكبير على الصفا وعلى المروة، والتكبير مع رمي الجمار، والتكبير عند ذبح الهدايا والأضاحي، والتكبير في أيام التشريق، قال الله تعالى ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ (البقرة: 203). فالأيام المعدودات هي أيام التشريق، وأشهر الذكر فيها هو التكبير المطلق في كل وقت، والمقيّد عقب الصلوات. وفي تكرار هذه الأذكار تعظيم لله الواحد الديّان، وتقوية للقلب والإيمان.

وهكذا يتجلّى لنا: أن الشعائر الإسلامية هي أعلام الدين الظاهرة، وأنها أكثر ما تكون في العبادات المكرّرة يومياً، أو أسبوعياً، أو حولياً، وأن الإسلام يبقى ما بقيت

---

(1) مختصر تهذيب السنن لابن القيم (2/ 335-339).

شعائره قائمة إذْ هي أركانُ الدين، وأن التزام هذه الشعائر وتعظيمها هو أساسُ التقدّم إلى الله ربّ العالمين.

الإشارة الثانية: التقدّم إلى الله بالنوافل

ومما يقرب العبدَ من ربّه سبحانه: الاجتهاد في أداء النوافل والأعمال الصالحة، التي تَجبرُ النقص في الفرائض، وتحطُّ الخطايا، وترفع الدرجات، وبها يَنالُ العبدُ مرضاةَ الله ومحبّته سبحانه. كما جاء في الحديث القدسي السابق: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ». وفي شرح هذا الحديث، بيّن الحافظ ابن رجب أنّ «أولياءَ الله على درجتين:

أحدهما: المتقرّبون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين...

الدرجة الثانية: درجة السابقين المُقرّبين، وهُمُ الذين تقرّبوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبّةَ الله»[1].

والنوافل هي العبادات الزائدة عن الفرائض، كصلوات الرواتب والسنن، وصيام التطوع، وقيام الليل، والتنفّل بالحج والعمرة. وغيرها من قُربات التطوّع؛ كالذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن، والصدقة. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ (الإسراء:79).

(1) جامع العلوم والحكم: (2/ 337).

1. **نوافل الصلاة**: وهي كثيرة مباركة، وقد ورد في فضلها عدّة أحاديث، منها: قول الصحابي ثوبان مولى رسول الله: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ عَمَلٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، وَيُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لله، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لله سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً»[1]. وعن رَبِيعَة بْن كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ»، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ»، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[2]. وربيعة هذا شابٌّ صغير، هوايته: خِدمةُ النبي ﷺ، فلمّا أراد المصطفى مكافأته، طلب مرافقته في الجنّة ! فأشار عليه -بعد التأكّد- بكثرة السجود، ويعني الإكثار من نوافل الصلاة، وفي قوله ﷺ: «فأعنّي على نفسك» إشارة هامّة إلى ضرورة الصبر ومجاهدة النفس، لبلوغ هذه الدرجة من الإجتهاد في الطاعة. وأعظم نوافل الصّلاة:

أ. **السنن الرواتب**: وهي الصلوات التي تتبع الفرائض أو تسبقها، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة، أشهرها: ما ثبت أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي للهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ، إِلَّا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»[3]. وجاء تفسير هذه الركعات وكيفية توزيعها في رواية أخرى تقول: «أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ»[4].

قلتُ: وهذه السنن الرواتب التابعة للصلوات المفروضة أفضل من غيرها من النوافل المطلقة، وقد علّق الحافظ ابن رجب على حديث «وأفضلُ الصلاة بعد

(1) رواه مسلم (488).

(2) رواه مسلم (489).

(3) رواه مسلم (728).

(4) رواها الترمذي (415) وصححها الألباني.

المكتوبة: قيامُ الليل»[1]. بقوله: «ومُرادُه بعد المكتوبة ولواحقها من سُننها الرواتب، فإنّ الرواتب قبل الفرائض وبعدها أفضل من قيام الليل عند جمهور العلماء؛ لالتحاقها بالفرائض»[2].

ب. **فضل سُنّتي الفجر والوتر**: وظهر فضلهما بمواظبة النبي ﷺ عليهما حضَراً وسفراً، قال الإمام ابن القيم: «وكان تعاهُده ومحافظته على سُنّة الفجر أشدّ من جميع النوافل، ولذلك لم يكن يدعها هي والوتر سفرا وحضرا. وكان في السفر يُواظب على سُنّة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن، ولم يُنقل عنه في السفر أنه صلى سُنّةً راتبةً غيرهما»[3].

وسُنَّةُ الفجرِ هي آكَدُ السُّننِ الرَّواتبِ، وهذا باتِّفاقِ المذاهب الفقهيَّة الأربعة، فعن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: «لم يكُنِ النبيُّ ﷺ على شيءٍ مِن النوافلِ أشدَّ تعاهُدًا منْه على رَكعتَي الفجرِ»[4]. وقال ﷺ: «ركعتَا الفجرِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»[5].

وفي فضل الوتر يقول النبي ﷺ: «إن الله زادكم صلاةً وهيَ الوتر، فصلّوها فيما بين صلاة العشاء إلى صلاة الفجر»[6]. وقال ﷺ: «إنَّ الله وِتْر يحُبُّ الوتر؛ فأوتروا يا أهل القرآن»[7].

وذهب الكثير من أهل العلم إلى أنّ أدنى الكمال في الوتر أن يُصلي المسلمُ ركعتين (الشفع) ويُسلّم، ثم يأتي بواحدة (الوتر) ويُسلم. ودليلهم ما أخرجه الإمام ابن

(1) هو قطعة من حديث رواه مسلم (1163).

(2) لطائف المعارف: (ص 78-79).

(3) زاد المعاد (1/ 315).

(4) رواه البخاري (1169)، ومسلم (724).

(5) رواه مسلم (725).

(6) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (6/ 7) وهو في السلسلة الصحيحة رقم (108).

(7) هو في المسند (2/ 290) وصححه أحمد شاكر، وكذلك الألباني في صحيح الترمذي (453).

حبان (2435) عن ابن عمر ﷺ أنه «كان يفصل بين شفعه ووتره بتسليمة، وأخبَر أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك»[1].

وبعض الناس يظن أن الشفع هو سنة العشاء البعدية، وهذا خطأ. وفي بعض المساجد يستعجلون إقامة التراويح في ليالي رمضان، فيحرمون المصلّين من راتبة العشاء البعدية، مع أنّها أوكدُ من القيام، وهذه عادةً سيّئة!

ج. **قيام الليل**: للتّهجّد بالليل شأنٌ عظيم، فهو عبادة عظيمة لا يواظبُ عليه إلاّ الكُمّل من المؤمنين، المُحبّين لربّ العالمين. فمع أنّ قيامَ الليل شاقٌّ على النفس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ (المزّمّل: 6)، غير أنّ شوق العابد إلى ربّه وشدّة محبّته له، تُنسيه كل الأتعاب! وتحظرني هنا قصّة أحد الإخوة، وهو يشرح سرّ نشاطه في استقبال أحد أصدقائه بالليل، قال: «رَنّ الهاتفُ الجوّال الساعة الثانية ليلاً، وأنا غارقٌ في نومي مُتعبٌ من أشغال النهار، ففتحتُ الخطَّ -مُغمض العينين- وقلتُ: نعم؟ فقال المتّصلُ: أنا صديقك العزيز أحمد! فقلتُ أحمد.. مَنْ؟ فقال: صديقك أحمد الذي ودّعك منذ عشر سنين مهاجراً..، قال: فقفزتُ من السّرير لّما عرفته، ولبستُ ثيابي عاجلاً، وشغّلتُ السيارة، ثم ذهبتُ مُسرعاً إلى المطار، لأستقبله بحفاوة، وأكرمه بالضيافة والسّمر معه حتى مطلع الفجر!».

فما الذي جعل هذا الرجلَ المُنهَكَ بالتّعب، يُصبحُ نشيطاً في القيم لصديقه، ويتكلّف الذهاب لاستقباله ليلاً، والصبر على مسامرته وإكرامه إلى الفجر: غير شدّة المحبّة له، والتعلّق به، وقوّة الشوق للقائه! ولله المثلُ الأعلى، فكلّما قويتْ معرفتك بالله، وعظُمتْ محبّتك لله، ازداد شوقك لذكره ولقياه.

وقد مدح الله المتهجّدين، حيث قال سبحانه في وصف «عباد الرحمن»: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ (الفرقان: 64). وأثنى الله تعالى على المُتّقين الفائزين بجنات

(1) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (2/ 481): إسناده قوي.

النعيم، بقوله جلّ شأنه: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: 17 - 18). وحثّنا نبينا ﷺ على التهجّد، فقال: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»[1]. ومن تدبّرَ السيرة النبوية يرى أنّ «مدرسة الليل» التي تربّى فيها الرعيل الأوّل من حَمَلَة رسالة الإسلام، هي سرّ التفوّق والثبات والنّصر لهذا الجيل الفريد، ومن تدبّر سورة المزّمل يعلم حقيقة هذا الأمر. فقد أُمِرَ النبي ﷺ بقيام الليل منذ الأيّام الأولى للرسالة، وذلك حتى يقوى على تحمّل أعباء هذه الدعوة الجديدة. فقال له الحقّ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمّل: 1 - 5).

وإنّ قيام الليل والنّاس نيامٌ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها، والاتصال بالله، وتلقّي فيوضه ونوره، والأُنس بالوحدة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن.. هو الزّاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ﷺ، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كلّ جيل، ويُنيرُ القلبَ في الطريق الشّاق الطويل، ويعصمُهُ من وسوسة الشيطان ومن التّيه في الظلمات الحافّة بهذا الطريق المنير[2].

د. **صلاة الضحى**: وهي من النوافل المؤكّدة التي رغّب فيها نبينا ﷺ، حيث قال: «لا يُحافظُ على صلاة الضّحى إلاّ أوّاب». وقال: «وهي صلاةُ الأوّابين»[3]. وقال ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ،

---

(1) رواه الترمذي (3549) وحسنه الألباني في إرواء الغليل (452).

(2) في ظلال القرآن: (8/ 346).

(3) أخرجه الحاكم (1/ 314) وصححه، وحسنه الألباني في الصحيحة (1994).

وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى»[1]. قال العلّامة الشوكاني: «والحديثان يدلان على عِظم فضل الضحى وكبر موقعها وتأكد مشروعيتها، وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة، وما كان كذلك فهو حقيق بالمواظبة والمداومة»[2]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَركعتي الضُّحَى، وَأن أُوتر قَبلَ أن أنامَ»[3].

2. **نوافل الصدقة:** وهي من أعظم القربات التي يتقدّمُ بها العبدُ إلى ربّ الأرض والسماوات، وذلك لما فيها من النّفع المتعدّي إلى الفقراء والمساكين. وقد أمرنا ربّنا سبحانه بالإنفاق في سبيله في عدّة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد:7). وقال جلّ شأنه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (المنافقون: 10).

وفي الحديث يقول نبينا ﷺ: «ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدُهما: اللّهُم أَعْطِ مُنفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللّهُم أَعْط مُمْسكاً تَلَفاً»[4]. وقال ﷺ: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيْدُ فِي الْعُمرِ، وَفِعلُ المَعْرُوف يَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ»[5]. وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «يا ابن آدم أَنفقْ أُنفقْ عليك»[6]. والمُتصدِّق المخلصُ: أحدُ السّبعة الذين يُظلّهم الله في ظلّه يوم القيامة. كما ثبت في الصحيحين: «.. ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا

(1) رواه مسلم (1181).

(2) نيل الأوطار: (3/ 78).

(3) رواه البخاري (1178)، ومسلم (721).

(4) رواه البخاري (1374)، ومسلم (1010).

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (3442)، وهو في صحيح الجامع (3760).

(6) رواه البخاري (5073) ومسلم (993).

تعلمَ شمالُه ما تُنفقُ يمينُه»، وقال ﷺ: «كلُّ امْرِئٍ في ظِلِّ صدقتِه حتَّى يُقضَى بينَ النَّاسِ»[1]. قال يزيدُ (راوي الحديث): فكان أبو الخيرِ (التابعي) لا يُخطِئُه يومٌ لا يتصدَّقُ فيه بشيءٍ، ولو كعكةً ولو بَصَلةً أَوْ كَذَا.

3. **نوافل الصيام**: صيام التطوُّع من أعظم شُعب الإيمان، وأجلِّ خصال التعبُّد التي تقرّبنا من الله تعالى، ولذا تظافرت أدلّة الكتاب والسُنَّة في الحثِّ عليه. قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:35). وقال سبحانه -وهو يذكر نداءه لأهل الجنة-: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة:24). قال مجاهد بن جبر -إمام التفسير- وغيره: «نزلت هذه الآية في الصُّوّام، وقال الحافظ ابن رجب: مَنْ تركَ لله طعامَه وشرابه وشهوته، عوّضه اللهُ خيراً من ذلك طعاماً وشراباً لا ينفدُ، وأزواجاً لا تموتُ»[2]. وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لاَ عِدْلَ لَهُ»[3]. وقال ﷺ: «من صام يومًا في سبيلِ الله، باعَدَ اللهُ وَجهَه عن النَّارِ سَبعينَ خريفًا»[4]. وفي رواية النسائي: «مسيرةَ مائة عام»[5].

4. **نوافل الحج والعمرة**: وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تابِعوا بينَ الحجِّ والعمرةِ، فإنَّهما ينفِيانِ الفقرَ والذُّنوبَ، كما ينفي الْكيرُ خبثَ الحديدِ والذَّهبِ والفضَّةِ، وليسَ للحجِّ المبرورِ ثوابٌ دونَ الجنَّةِ»[6].

---

(1) رواه ابن حبّان في صحيحه (3310).

(2) لطائف المعارف: (ص 83).

(3) رواه أحمد (2/ 526)، وصححه ابن حبان (3426).

(4) رواه البخاري (2840)، ومسلم (1153).

(5) وهو في صحيح الترغيب للألباني (988).

(6) رواه الترمذي (810) وحسنه، وهو في لسلسلة الصحيحة (1200).

الإشارة الثالثة: شأنُ الأوراد ووظائف الذكر

رأينا في المحطّة السابقة أنّ أعظمَ رُكنٍ من أركان التقدّم إلى الله تعالى هو «الذّكر» بمفهومه الواسع. ولجلالة هذه العبادة العظيمة، صَنّف لها العلماء كُتباً خاصّةً سَمّوها بـ«عمل اليوم والليلة»! وهذا المصطلح العجيب له دلالة كُبرى على شرف هذه الطاعة، التي لا بُدّ لنا من العناية بها، والاهتمام بشأنها، حتى يتحقّقَ لنا التقدّم المنشود إلى ربّنا المعبود.

1. حقيقة الأوراد وفضلها:

أ. **معنى الأوراد**: الوِرْدُ: هو الجُزء من الليل يكون على الرَّجل أن يُصلّيه، والوظيفة من الأذكار، والنّصيبُ من القرآن ونحو ذلك. يقال: قرأتُ وِردي.

وقد يأتي الوردُ بمعنى الحزب[1]. وقال ابن الأثير: «الحزبُ ما يجعله الرجلُ على نفسه من قراءة أو صلاة كالوِرد»[2].

قلتُ: فالوِرْدُ هو النّصيبُ من التلاوة، أو الجزءُ من الصلاة، أو الوظيفةُ من الأذكار، التي يلتزمُها المسلمُ في ليله أو نهاره.

ب. **فضل الأوراد**: قال العلاّمة ابن قدامة: «اعلم، أنه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده، والعلم بِقِصَر العُمُر، وجبَ تركُ التّقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وُقفت على فنّ واحدٍ حصُل لها مللٌ، فمِنَ التلطّف نقلها من فنّ إلى فنّ، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (الإنسان: 25-26). فهذا ونحوه مما ذُكر من الآيات في ذلك يَدُلّ على أن الطريقَ إلى الله تعالى: مُراقبةُ الأوقات، وعمارتها بالأوراد على الدوام»[3].

---

(1) المعجم الوسيط: مادة [ورد]، والفتوحات الربانية، لابن علّان: (1/ 150).

(2) النهاية في غريب الحديث: (1/ 376).

(3) مختصر منهاج القاصدين: (ص 60-61).

وقد كان نبينا ﷺ إمامَ الذاكرين، حيث «كان يذكرُ اللهَ على كلّ أحيانه»[1]. وكان يحثُّ صحابته ﷺ على تدارك أورادهم إذا فاتت، حتى لا يعتادوا تضييعها، فقال ﷺ: «مَنْ فاتَه شيءٌ من وِرْدِهِ -أو قال: من جُزئه- من الليلِ فقرأهُ ما بين الفَجر إلى الظّهر، فكأنّما قرأهُ من ليلته»[2]. قال النووي: «هذا دليلٌ على استحباب المحافظة على الأوراد، وأنّها إذا فاتت تُقضَى»[3].

2. أقوال العلماء في الأوراد:

أ. قول الإمام الغزالي: «فالناس في هذا العالم سفرٌ، وأولُ منازلهم المهد، وآخرها اللّحد، والوطن هو الجنة أو النار. والعمرُ مسافة السفر؛ فسِنُوهُ مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رءوس أمواله، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع المُلك الكبير والنعيم المقيم، وخسرانه البعدُ من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم. فالغافلُ في نَفَسٍ من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تُقرّبُه إلى الله زُلفى مُتعرّضٌ في يوم التغابن لغبينة وحسرة ما لها مُنتهى. ولهذا الخطر العظيم والخَطب الهائل شمّر الموفّقون عن ساق الجد، وَوَدّعُوا بالكُلّية ملاذ النّفس، واغتنموا بقايا العمر. ورتّبوا بحسب تكرّر الأوقات وظائف الأوراد، حرصاً على إحياء الليل والنهر في طلب القُرب من المَلِك الجبّار والسعي إلى دار القرار، فصار من مُهمّات «علم طريق الآخرة»: تفصيلُ القول في كيفية قسمة الأوراد، وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات»[4].

---

(1) رواه مسلم (373).

(2) رواه أحمد في المسند (220) وصححه أحمد شاكر وشُعيب الأرناؤوط، وأصله في مسلم (747).

(3) شرح النووي على مسلم: (6/ 27).

(4) إحياء علوم الدين: (2/ 4).

ب. قول الإمام ابن تيمية: «وأما محافظة الإنسان على أوراد له: من الصّلاة، أو القراءة، أو الذكر، أو الدعاء، طرفي النهار وزلفا من الليل وغير ذلك؛ فهذا سنة رسول الله ﷺ والصالحين من عباد الله قديما وحديثا»[1]. وقد سُئلَ شيخ الإسلام عن أفضل الطاعات، فأجاب رحمه الله بقوله: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن ما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة. وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن مُعلّم الخير وإمام المتقين ﷺ، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة، مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد، إلى غير ذلك.. ثم ملازمة الذكر مطلقاً، وأفضله: «لا إله إلا الله»»[2].

ج. قول الحافظ ابن رجب: «وما من هذه المواسم الفاضلة موسم إلا ولله تعالى فيه وظيفةٌ من وظائف طاعاته، يُتقرّبُ بها إليه، ولله فيه لطيفةٌ من لطائف نفحاته، يُصيبُ بها من يعودُ بفضله ورحمته عليه، فالسعيدُ من اغتنم مواسم الشّهور والأيام والساعات، وتقرّب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تُصيبه نفحةٌ من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللّفحات. وقد خرج ابنُ أبي الدنيا والطبراني وغيرُهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: «اطلبُوا الخيرَ دهركم كلّه، وتعرّضوا لنفحات رحمة ربّكم، فإن لله نفحاتٍ من رحمتِه يُصيبُ بها من يشاء من عباده، وسَلوا الله أن يَستر عوراتكُم ويُؤمّنَ

(1) مجموع الفتاوى: (22/ 521).

(2) المرجع نفسه: (10/ 660)

روعاتكم». وفي رواية للطبراني من حديث محمد بن مسلمة مرفوعا: «إن لله في أيام الدّهر نفحاتٍ فتعرّضوا لها، فلعلّ أحدَكم أن تُصيبَه نفحةٌ فلا يَشْقَى بعدها أبداً»»[1].

د. **قول العلاّمة ابن القيم:** «العبدُ مِنْ حينِ استقرّت قدمُه فى هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه، ومُدّةُ سفره هى عمره الذى كُتبَ له، فالعمر هو مُدة سفر الإنسان فى هذه الدار إلى ربه تعالى، ثم قد جُعلتْ الأيام والليالى مراحل لسفره: فكلٍّ يوم وليلة مرحلةٌ من المراحل، فلا يزال يَطويها مرحلةً بعد مرحلة حتى ينتهى السفر.

فالكيّسُ الفَطنِ هو الذى يجعل كل مرحلة نُصبَ عينيه، فيهتمُّ بقطعها سالماً غانماً، فإذا قطعها جعل الأُخرى نصب عينيه، ولا يطول عليه الأمدُ فيقسو قلبه، ويمتدّ أملُه، ويحصر بالتسويف والوعد والتأْخير والمطل، بل يَعُدّ عمرَه تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد فى قطعها بخير ما بحضرته، فإنه إذا تيقّن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العملُ، وطوَّعت له نفسه الانقياد إلى التزوّد، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عُمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى تُطوى مراحلُ عمره كلّها فيُحمد سعيه»[2].

هـ. **قول الإمام النووي:** «ينبغي لمن كان له وظيفة من الذكر في وقت من ليل أو نهار، أو عَقِيب صلاة أو حالة من الأحوال - ففاتته: أن يتداركها، ويأتي بها إذا تمكن منها، ولا يهملها، فإنه إذا اعتاد الملازمة عليها لم يعرضها للتفويت، وإذا تساهل في قضائها سهل عليه تضييعها في وقتها»[3].

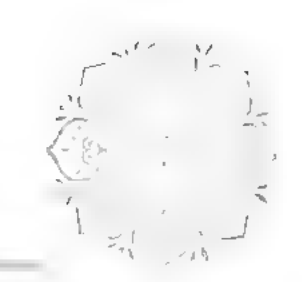
---

(1) لطائف المعارف: (ص 40-41).

(2) طريق الهجرتين: (ص 337).

(3) الأذكار: (ص 76).





برنامج مقترح للتقدّم

رغم كثرة المشاغل اليومية، والظروف المعيشيّة؛ لا بُدّ لنا أن نَحْزِمَ أمْرنا، وأن نُجاهدَ أنفسنا، وأن نَعزمَ على التزام منهجٍ واضحٍ حتى نتقدّمَ إلى ربّنا. ومن تأمّل هديَ نبينا ﷺ وسيرة سلفنا الصالح في العبادات، وكيف كانت أوقاتهم عامرة بالأوراد والطاعات، مع كثرة الأشغال والتحدّيات؛ يعلم حقيقةَ تقصيرنا، وشدّةَ غفلتنا!

فالآن، قبل أن يُداهمك الموتُ، احرصْ -أخي الكريم- على التقدّم إلى ربّك بالقربات، واغتنم أيام حياتك بما فيها من الساعات والدقائق واللّحظات، ولا تتلكّأ وتتعلّل بكثرة المشاغل فإنّ الموت آت، ولا تحْقِرنّ من المعروف شيئا فإنّما الأعمال بالنيّات. ورحم الله الإمام الشافعي، الذي كن يقول: «سيرُوا إلى الله عُرجاً ومكاسير، ولاتنتظروا الصّحة، فإن انتظار الصحة بطالة».

الإشارة الأولى: التقدّم اليومي

وهذا أعظم نشاطٍ يتقرّبُ به المسلمُ إلى ربّه سبحانه في الأربع والعشرين ساعة، وهو ما سمّاهُ علماؤنا بـ«عمل اليوم والليلة». وهذا البرنامج المقترح هنا، هو إحدى

الأوراد النّبوية التي واظب عليه رسول الله ﷺ، وحثّ عليها المسلمين. وهو في غاية السهولة والاختصار، ولكن بالمداومة عليه يحصُلُ الخيرُ بإذن الله تعالى، ففي الحديث: «أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى: أدومُها وإن قلّ»[1]. قال الإمام الغزالي: «وكُلّ وظيفةٍ لا يُمكنُ المواظبة على كثيرها، فقليلُها مع المُداومة أفضلُ وأشدُّ تأثيراً في القلب»[2].

1. **فضل الأوقات الثلاثة:** ميّزَ الله تعالى -في اليوم والليلة- بعض الأوقات المباركة، وخصّها بخصائص روحية، وجعلها مناسبة طيّبة لمضاعفة السير فيها بالطاعات.

وقد نصّ الكتاب والسنّة على فضل ثلاثة أوقات، يغفلُ عنها الكثيرُ من الناس، مع أنّ النبي ﷺ أوصانا باغتنامها في التقدّم إلى الله تعالى، حيث قال: «اُغدُوا، ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلُغوا»، وفي رواية: «استعينوا بالغَدْوةِ والرّوْحة، وشيءٍ من الدُّلجة»[3]. قال الحافظُ ابن رجب: «يعني أنّ هذه الأوقات الثلاثة تكونُ أوقات السير إلى الله تعالى بالطاعات، وهي: «آخرُ الليل» و«أوّل النّهار» و«آخره». وقد ذكر اللهُ هذه الأوقات في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (الإنسان:25-26). وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (طه: 130). وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ (ق:39-40).

فهذه الأوقاتُ الثلاثة، منها وقتان وهما: أوّل النهار وآخره، يجتمعُ في كلّ من هذين الوقتين عملٌ واجبٌ وعملٌ تطوّع.

---

(1) رواه البخاري (6464)، ومسلم (783).

(2) إحياء علوم الدين: (1/ 333).

(3) رواهما البخاري برقمي (6463) و(39)، ومسلم (2816).

فأما العملُ الواجب: فهو صلاة الصبح وصلاة العصر وهما أفضل الصلوات الخمس، وهُما البردان اللّذان مَنْ حافظ عليهما دخل الجنّة[1]، وقد قِيلَ في كُلّ منهما أنها الصلاة الوسطى[2].

وأما عمل التطوّع فهو ذكرُ الله بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس. وقد وردت في فضله نُصوصٌ كثيرة، وكذلك وردت النصوص الكثيرة في أذكار الصباح والمساء... وأما الوقتُ الثالثُ فهو الدُّلجةُ. والإدلاجُ: سيرُ آخر الليل، والمرادُ به ها هُنا العملُ في آخر الليل وهو وقتُ الاستغفار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: 17)، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: 18). وهو آخر أوقات النّزول الإلاهي المتضمّن لاستعراض حوائج السائلين، واستغفار المذنبين، وتوبة التائبين»[3].

2. **التقدّم الصباحي**: الذي نفتتحُ به نشاطنا اليومي، ويبدأُ بطلوع الفجر الصادق إلى ما بعد شروق الشمس. وهو وقتٌ مباركٌ كلّه خير. فما أجمل أن نبتدئ يومنا بصلاة الفجر في المسجد، ثم نجلس فنذكر الله تعالى إلى طلوع الشمس، ثم نُصلّي ركعتَي الضحى، ثم نبدأ أعمالنا!

أ. **فضل الصباح**: وهذا الوقتُ العزيز يتميّزُ بجُملة من الخصائص، أهمّها:

---

(1) يشيرُ إلى حديث الصحيحين: «من صلى البَردين دخل الجنة».

(2) لقوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ (البقرة: 238)، وقد اختلف العلماء في تحديد الصلاة الوسطى، وأشهر الأقوال فيها: قولان:
- الأول: أنها صلاة الصبح: وهو قول أبي أمامة، وأنس، وجابر، وأبي العالية، وعبيد بن عمير، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم، وهو أحد قولي ابن عمر وابن عباس، وهو قول مالك والشافعي فيما نص عليه في «الأم».
- الثاني: أنها صلاة العصر، قال الترمذي (1/ 223): «وهو قول أكثر العلماء من الصحابة وغيرهم»، وقال ابن عبد البر: «وهو قول أكثر أهل الأثر، وبه قال من المالكية ابن حبيب وابن العربي وابن عطية» انظر: (فتح الباري: 8/ 196-197) باختصار.

(3) المحجّة في سير الدُّلجة: (ص: 59- 65).

• **الصباح وقتٌ مباركٌ**: فَعَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»، وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلاً تَاجِراً وَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ[1]. و«البكور» هو أوّل النهار، فكلُّ من يُبكّرُ إلى عمله في هذا الوقت المبارك، ينالُ بركةَ دعوة النبي ﷺ المستجابة، وتعظمُ هذه البركة بافتتاح النهار بطاعة الله وذكره وحُسن عبادته.

• **فريضتُه مشهودة**: فقد قال أبو هُريرة ﵁: «تَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، واقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: 78)»[2]. قال القرطبي: «وعبرّ عنها بالقرآن خاصّة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهورٌ بها حسبما هو مشهور مسطور»[3].

• **سُنَّتُه الراتبة خيرٌ من الدنيا وما فيها**: وهي سُنّة الفجر، الراتبة القبلية لصلاة الصبح[4]، والتي قال فيها النبي ﷺ: «ركعتا الفجرِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»، وقال أيضًا: «لهُما أحبُّ إليَّ من الدُّنيا جميعًا»[5].

• **حفظُ من صلّى فريضته في جماعة**: ففي الصحيح: «من صلّى الصُّبْحَ في جماعةٍ فهو في ذمّةِ الله»[6]. أي: من حضر هذه الجماعة في هذا الوقت العزيز، كان في حفظ الله وضمانه، وعهده ورعايته سبحانه. وما أحوجنا إلى هذه الحصانة الإلاهية والحماية الربانية!

---

(1) أخرجه الترمذي (1212) وحسنه، وصححه ابن حبان (4754) والألباني في صحيح ابن ماجة (2236).

(2) رواه البخاري (4717) ومسلم (649).

(3) الجامع لأحكام القرآن: (10/ 304).

(4) اصطلح أهلُ بلدنا تونس على اطلاق اسم (الفجر) على هذه السنة الراتبة، وإطلاق اسم (الصبح) على الفريضة.

(5) رواه مسلم (725).

(6) رواه مسلم (657)، والمسند المستخرج عليه رقم: (1467)

• **حجّةٌ وعُمرة لِمَنْ عمّره بالذكر**: وهي غنيمةٌ كُبرى لمن تفرّغ لطاعة الله تعالى في هذا الوقت الثّمين، وجاهد نفسه على المرابطة في المسجد، والاشتغال بالذكر حتى تطلع الشمس، ثمّ صلاة ركعتي الضّحى. وقد رغّبنا نبينا ﷺ في هذا الخير بقوله: «من صلَّى الفجرَ في جماعةٍ، ثم جلس يذكرُ اللهَ حتى تطلُعَ الشمسُ، ثم صلَّى ركعتينِ، كانت له كأجرِ حجةٍ وعُمرةٍ تامةً، تامةً، تامةً»[1]. وكان رسولنا ﷺ يُواظبُ -مع كثرة أشغاله- على هذه الجلسة المباركة، وهو المعصوم الذي غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؛ فكيف بنا نحنُ في عصر الفتن والمعاصي والمِحن! فقد ثبت أنه ﷺ: «كان إذا صلّى الفجرَ جلسَ في مُصلاّه، حتى تطلع الشمسُ حسناء»[2]. وفي رواية الطبراني: «كان إذا صلّى الصبح جلس يَذكرُ الله حتى تطلع الشمسُ»[3].

• **اغتنام السلف للصّباح**: ونظراً إلى أهمية هذا الوقت، وعِظَم بركته، وكثرة ما فيه من الخيرِ، فإن السلف رحمهم الله كانوا يكرهون النوم فيه وإضاعته بالغفلة والكسل، ويجتهدون في تعميره بالتقدّم والعمل. فعن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي قال: غَدَونا على عبد الله بن مسعود يوماً بعد ما صلينا الغداة، فسلّمنا بالباب، فأُذن لنا، قال: فمكثنا بالباب هُنَيَّةً [أي انتظرنا قليلاً] قال: فخرجت الجارية فقالت: ألا تدخلون؟ فدخلنا، فإذا هو جالس يُسبّحُ، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أُذن لكم؟ فقلنا: لا، إلاَّ أنّا ظننّا أنّ بعض أهل البيت نائم، قال: ظننتُم بآل ابن أم عبد غفلة؟ [يعني نفسه وأهله] قال: ثم أقبل يُسبّحُ حتى إذا ظنّ أن الشمس قد طلعت، قال: يا جارية: انظري هل طلعت؟ قال: فنظرت فإذا هي لم تطلع، فأقبل يُسبح، حتى إذا ظن أن الشمس قد طلعت، قال: يا جارية: انظري هل طلعت؟

(1) رواه الترمذي (586)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (3403). قلتُ: ويُرجَى لنساء في بيوتهن كذلك مثل هذا الفضل العظيم، إذا قُمْنَ بنفس العمل.

(2) رواه مسلم برقم (669).

(3) رواها ابن رجب في فتح الباري (4/ 56).

قال: فنظرتْ فإذا هي قد طلعت، قال: الحمد لله الذي أقالنا يَومنَا هذا، ولم يُهلكنا بذنوبنا»[1].

قال ابن الحاج المالكي - في كلامه على حال السلف في هذا الوقت-: «ألا ترى إلى ما ورد عنهم في أورادهم بعد الصبح والعصر، فإنّهم كانوا في مساجدهم في هذين الوقتين كأنهم مُنتظرون صلاة الجمعة، ويُسْمَعُ لهم في المساجد دَويٌّ كدويّ النّحل»[2].

ويقول العلاّمة ابن القيم عن شيخه: «خضرتُ شيخ الإسلام ابن تيميه مرةً صلّى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفتَ إليّ وقال: هذه غُدوتي، ولو لَمْ أتغدّ هذا الغداء سقطت قُوتي!»[3].

فتأمّل: كيف شبّهَ وِرده اليومي من الأذكار، بفطور الصباح الذي يتغذّى به الصّغار والكبار!

ب. وردُ الصباح: وهو: العمل الذي نتقدّمُ به إلى الله تعالى في هذا الوقت المبارك، ومُدّتُهُ حوالي الساعة من الزّمن، يبدأ من بعد أذكار الصباح المعتادة، إلى ما بعد طلوع الشمس. وفي شأنه يقول العلاّمة ابن القيم: «فإذا فرغ من صلاة الصُّبح أقبلَ بكُلّيّته على ذكر الله، والتوجّه إليه بالأذكار التى شُرعت أول النهار؛ فيجعلها ورداً له لا يُخلُّ بها أبداً، ثم يزيدُ عليها ما شاءَ من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت فإن شاءَ ركع ركعتي الضّحى»[4].

قلتُ: ويُمكننا أن نجمع في وردنا الصباحي أو المسائي، بين الذكر والتلاوة والدعاء. ولأهل العلم أقوال في هذه المسألة، قال الحافظ ابن رجب: «ومِن أصحابنا

(1) صحيح مسلم (1365).

(2) المدخل، لابن الحاج (1/ 78).

(3) الوابل الصيب: (ص 92).

(4) طريق الهجرتين: (ص 390).

مَن رجّحَ التلاوةَ على التّسبيح ونحوه بعد الفجر والعصر. وسُئل الأوزاعي عن ذلك، فقال: كان هديُهم ذكرَ الله، فإن قرأ، فحسنٌ»[1].

• **ورد الذكر**[2]:

- لا إلهَ إلاّ اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، له الملك ولهُ الحَمْدُ وهوَ على كلّ شيءٍ قدير. (مائة مرّة)

ودليلهُ حديث النّبي ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْه»[3]. وقال النووي: «الْأَفْضَل: أَنْ يَأْتِيَ بِهَا مُتَوَالِيَةً، فِي أَوَّلِ النَّهَارِ؛ لِيَكُونَ حِرْزًا لَهُ فِي جَمِيعِ نَهَارِهِ»[4]. قلتُ: ويُفهمُ من الحديث: أنّ من جاء بهذا الذكر آخر النهار، كان له أيضاً نفس الأجر إن شاء الله تعالى. قال العلاّمة ابن علان: «قوله: «حتى يُمسي»، ظاهرُ التّقابل أنه: «إذا قاله في الليل كانت له حرزاً من الشيطان حتى يُصبح». فيُحتملُ أن يكون اختصاراً من الراوي، أو تُرِكَ لوضوح المقابلة، وتخصيصُ النهار لأنه أحوجُ فيه إلى الحفظ، والله أعلم»[5].

- سُبْحان الله العظيم وبحمده. (مائة مرّة)

لِمَا ثبت أنَّ النّبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا

---

(1) جامع العلوم والحكم: (2/ 526).

(2) راجع: آداب الذكر في المحطة الثامنة.

(3) رواه البخاري (3293) ومسلم (2691).

(4) شرح النووي على مسلم (17/ 17).

(5) الفتوحات الربانية: (1/ 308).

قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ»[1]، وفي رواية: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»[2].

- **سُبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلاّ اللهُ، والله أكبر.** (مائة مرّة)

لحديث: «أحبُّ الكلام إلى الله تعالى أربعٌ، لا يَضرّكَ بأيّهن بدأتَ: سُبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[3].

- **لا حول ولا قُوّةَ إلاّ بالله.** (مائة مرّة)

وهذه «الحَوْقلة» من الباقيات الصالحات التي قال فيها النبي ﷺ: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله»[4]. وهي كنزٌ من كنوز الجنة، كما قال ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهَّ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ»[5]. وهذه الكلمة شاملة لمعنى الاستسلام والتفويض والتبرُّؤ من الحول والقوة إلا بالله، وأن العبد لا يملك من أمره شيئًا وليس له حيلة في دفع شر، ولا قوة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى، فلا تحوُّل للعبد من معصية إلى طاعة، ولا من مرض إلى صحة، ولا من وهن إلى قوة، ولا قوة له على القيام بشأن من شؤونه إلا بالله العظيم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقّب لحُكمه[6].

---

(1) صحيح مسلم (2692).

(2) رواه الترمذي (3464) وحسنه ابن حجر، وهو في السلسلة الصحيحة (64).

(3) رواه مسلم (2137).

(4) رواه ابن حبان في صحيحه: (840)، وهو في السلسلة الصحيحة (3264).

(5) رواه البخاري (6384)، ومسلم (2704).

(6) فقه الأدعية والأذكار، لعبد الرازق البدر، (ص253).

- اللهُمّ صَلِّ وسلِّم علَى نَبيِّنا مُحَمّد. (مائة مرّة)

وقد أمرنا ربنا سبحانه بالصلاة والسلام على نبيّه محمّد ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ (الأحزاب: 56). قال الحافظُ ابن كثير: «والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى أخبرَ عبادَهُ بمنزلة عبده ونبيّه عِندَه في الملأ الأعلى بأنه يُثني عليه عند الملائكة المقرّبين، وأن الملائكة تُصلّي عليه. ثم أمر تعالى أهلَ العالم السُّفلي بالصّلاة والسّلام عليه، ليجتمع الثناءُ عليه من أهل العالَمين العُلوي والسُّفلي جميعاً»[1].

والصلوات أنواع، وأفضلها: الإبراهيمية. ويمكننا الاقتصار على اللفظ المختار عند التّكرار، قال العلاّمة الشوكاني: «والذي يَحصُلُ به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو أن يقول القائل: «اللهم صَلّ وسلم على رسولك»، أو «على مُحمّد أو على النبي»، أو «اللهم صل على محمد وسلم»»[2].

قلت: والأحاديثُ كثيرةٌ في فضل الصلاة على النبي ﷺ، منها: قوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»[3]. وقوله ﷺ: «أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً»[4]. قال الشوكاني: «أي: أَوْلاهم بشفاعتي وأحقّهم بالقُرب منّي: أكثرهم عليّ صلاةً يوم القيامة»[5]. وقد أورد ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام» بعض الأحاديث في فضل تكرار الصلاة مائة مرّة.

---

(1) تفسير القرآن العظيم: (6/ 447).

(2) فتح القدير: (4/ 305).

(3) رواه مسلم (384).

(4) رواه الترمذي (484)، وحسنه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (3/ 295) وهو في «صحيح الترغيب» (1668).

(5) تحفة الذاكرين: (ص24).

- ربّ اغفر لي وتُب عليّ، إنّكَ أنت التوّابُ الغفورُ. (مائة مرّة)

وما أحوجنا إلى كثرة الاستغفار، ونحنُ المُذنبون في عصر الفتن. وقد كان نبينا ﷺ -وهو المعصوم- يستغفرُ الله كثيراً، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة «ربّ اغفر لي وتُب عليَّ، إنك أنت التَوابُ الغفور»، وفي لفظ: «التوابُ الرحيم»[1].

فائدة: ولا بأس باستعمال السبحة لضبط أعداد الأذكار في هذا الورد، دون عرضها أمام الناس، حتى لا نقع في الرياء؛ وقد أجز استعمالها جمهور العلماء. قال الحافظ السيوطي في رسالته «المنحة في السُّبحة»: «ولم يُنقل عن أحدٍ من السلف ولا من الخلف المنع من جواز عد الذكر بالسبحة، بل كان أكثرهم يعدّون بها، ولا يرون ذلك مكروها»[2].

وقال الإمام ابن تيمية: «وعدّ التسبيح بالأصابع سُنة، وأما عدّه بالنّوى والحصى ونحو ذلك فَحَسنٌ، وكان من الصحابة رضي الله عنهم من يفعلُ ذلك وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أمّ مؤمنين تُسبح بالحصى، وأقرّها على ذلك، ورُوي أن أبا هريرة كان يسبح به. وأما التسبيح بما يُجعل في نظام من الخرز ونحوه، فمن الناس مَن كرهه، ومنهم من لم يكرهه، وإذا أُحسنَت فيه النيّة فهو حسنٌ غيرُ مكروه»[3].

وصنّف العلاّمة ابن علان رسالته «إيقاد المصابيح لمشروعية اتخاذ المسابيح»، وذكر فيها أنّ «استعمالها في أعداد الأذكار الكثيرة التي يُلهي الاشتغال بها عن التوجّه للذّكر أفضل من العقد بالأنامل ونحوه، والعقدُ بالأنامل فيما لا يحصُلُ فيه ذلك سيما الأذكار عقبَ الصلاة ونحوها أفضل، والله أعلم»[4].

---

(1) صحيح الترمذي (3/ 153).

(2) الحاوي في الفتاوي (2/ 5).

(3) مجموع الفتاوى (22/ 506).

(4) الفتوحات الربانية: (1/ 252).

- **وردُ التلاوة**[1]:

- **قراءة جُزءٍ من القرآن الكريم (أي حزبين).**

وذلك حتى نَخْتِمَهُ شهريّاً. وهو ما اختره النّبي ﷺ في نصيحته لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما -وقد بلغه كثرة اجتهاده في العبادة- فأمرَهُ بالتوسّط، قائلاً له: «اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»[2].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعكفون -يومياً- على كتاب الله تلاوةً وتدبّراً، حيثُ عُرفوا بِتَحزيب القرآن؛ يعني: يُقسّمونه إلى أجزاء يقرأونها في أورادهم اليومية، ليختموه في أسبوع، أي بمعدّل حوالي خمسة أجزاء في اليوم بتقسيمنا المعاصر. ومنهم من كان يختم في ثلاثة أيام، وهكذا لا يَغيبُ كلامُ الله عن حياة المسلمين في أيّ لحظةٍ وحين.

قال النووي: «وقد كانت للسّلف عاداتٌ مُختلفة فيما يقرءون كلّ يوم بحسب أحوالهم وأفهامهم ووظائفهم؛ فكان بعضهم يختمُ القرآن في كلّ شهر، وبعضهم في عشرين يوماً، وبعضهم في عشرة أيام، وبعضهم أو أكثرهم في سبعةٍ، وكثيرٌ منهم في ثلاثةٍ»[3].

وختمُ القرآن كلّ شهر: هو سُنّةٌ مُيسّرَةٌ -الآن- لعامّة الناس، فضلاً عن طلبة العلم وأهل الصلاح؛ فما الحرجُ في التزام المسلم يومياً بقراءة جُزءٍ من القرآن الكريم ليَختمَهُ كُلّ شهر؟! وها هي الختمات مقسّمة في ثلاثين جُزءاً، وبأحجام متنوّعة، حتى يتيسّر للمسلم قراءة وِرْدِهِ من كتاب الله، ومراجعة حفظه في أي زمان ومكان، وقد تيسّر في عصرنا هذا الأمر بتوفّر المصاحف الإلكترونيّة بالهواتف المحمولة التي لا تحتاج إلى وضوء.

---

(1) راجع: آداب القرآن في المحطة الثامنة.

(2) رواه البخاري (5052) ومسلم (1159).

(3) شرح النووي على مسلم: (4/ 493).

ونصيحتي: أنْ يُقرأَ وردُ القرآن صباحاً، لما في هذا الوقت من البركة والفسحة الزمنيّة، وصفاء الذهن. فإن لم يتيسّر، فلا بأس بتقسيمه صباحاً ومساءً أو على أوقات النّهار، شريطة أن نُتمّهُ في يومه، حتى يتحقّق تقدّمنا إلى الله تعالى بختمةٍ قُرآنية شهريًا. ويا لها من تجارة يومية رابحة، مليئة بالخيرات والبركات، إذ قراءة الحرف فيها بعشر حسنات!

• **ورد الدعاء**[1]:

- **يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ.**

وهذه من أجملِ صِيَغ الحَمْدِ التي ثبتَ فضلها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ أَنَّ «عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ قَالَ: «يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ»، فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالا: يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ-: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالا: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا: اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا»[2]. ومعنى «فعضّلَتْ بالملكين» أي: اشتدّتْ على الملكين هذه الكلمة، فلم يَعلَما مِقدارَ ما يُكتبُ لقائلها من الثّواب.

- **لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ.**

وهذه من أحسن صِيَغ الثناء التي نطق بها النبي ﷺ، فعن عَائِشَةَ قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنْ الْفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[3].

---

(1) راجع: آداب الدعاء في المحطة الثامنة.

(2) رواه ابن ماجة (3801)، وجوّد إسناده الشيخ أحمد شاكر في عُمدة التفسير (1/ 62).

(3) رواه مسلم برقم (751).

ونقل الإمام النووي عن أهل العلم أنهم قالوا: لو حلفَ إنسانٌ لَيُثنِيَنّ على الله تعالى أحسنَ الثّناء؛ فطريقُ البرّ أن يقول: «لا أُحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ»[1].

- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وعلى آل إبراهيم، وبَارِكْ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبراهيمَ وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ في العالمين إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

وهذه أفضلُ صيغ الصلوات على النّبي ﷺ، وقد جمعتُ ألفاظها كما صنع الإمام النووي في خاتمة كتابه «رياض الصالحين». وأصلها في الصّحيحين، فعَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ ﷺ فَقَالَ: أَلاَ أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً؟ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: قَدْ عَرَفْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ. فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ...الحديث». وقد جاء كذلك من رواية: أبي حُميد الساعديّ، وأبي مسعود الأنصاري[2].

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، الأَحَدُ، الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

وهذا من الأحاديث التي فيها اسم الله الأعظم، الذي يتأكّدُ التوسّلُ به في الدعاء. فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: قَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»[3].

---

(1) الأذكار، للنووي: (1/ 316).

(2) رواه البخاري (3369) و(3370)، ومسلم (405) و(406).

(3) رواه أبو داود (985)، وهو في صحيح الترغيب(1640).

- يا حَيُّ يا قَيّومُ برحمتكَ أستغيث، أَصْلِح لي شأني كلّه، ولا تَكِلني إلى نفسي طَرفةَ عَيْنٍ أبدا.

ودليلهُ أنّ رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حَيُّ يا قَيّومُ برحمتكَ...»[1] الحديث.

- اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إلا أَنْت، خَلَقْتَني وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ.

وهذا دعاءٌ عظيم، يتأكّد الاعتناء به. فعن شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إله إلاّ أنت... مَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[2].

- اللَّهُمَّ عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمواتِ والأرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَلِيْكَهُ، أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وأنْ أقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً، أوْ أجُرَّهُ إلَى مُسلمٍ[3].

ومعنى: «وشِركه» أي: شِرك الشيطان، وجاءت هذه الكلمة على وجهين؛ أحدهما: شِرْكه بكسر الشّين وسكون الراء؛ ومعناه ما يدعو له الشيطان، ويوسوس له من الإشراك والثاني بفتح الشّين والرّاء، أي حبائل الشيطان ومصايده.

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ

(1) رواه ابن السُّني في عمل اليوم والليلة (46)، وهو في السلسلة الصحيحة (227).

(2) رواه البخري (6306)، و«أبوءُ»: أي أعترفُ.

(3) الترمذي برقم (3392)، وأبو داود برقم (5067)، وانظر: صحيح الترمذي (3/ 142).

يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ مِنْ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي».

عن ابن عمر ﵄، قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يدع هؤلاء الكلمات إذا أصبح وَإذا أَمْسَى: «اللَّهُمَّ إِنِّي أسألك العافية.. الحديث»[1].

- اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ.

ثبت من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: «كان النبي ﷺ يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدّين وغلبة الرجال»[2]. وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: «يَا أَبَا أُمَامَةَ مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي المَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ!»، قال: همومٌ لزمتني وديونٌ يا رسول الله، قال: «أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا، إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ: أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟»، قال قلت: بلى يا رسول الله، قل: «قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ». قال ففعلتُ ذلك، فأذهبَ الله عزّ وجلّ همّي وقضى عنّي دَيْني»[3].

3. التقدّم المسائي: وهو الذي نختمُ به نهارنا، والأعمالُ بالخواتيم. ويبدأُ المساءُ بعد صلاة العصر إلى المغرب، ويتواصلُ إلى ما بعده بقليل. وأفضلُ أوقاته: حوالي نصف ساعة قبل الغروب، وهي كافية لوِرْدِ الذكر والدعاء.

(1) رواه البخاري في الأدب المُفرد (1200)، وصححه ابن حبان (961)، وهو في صحيح الترغيب (655).

(2) في صحيح البخاري (6369).

(3) رواه أبو داود (1555) وسكت عنه، وحسنه عبد القادر الأرناؤوط على جامع الأصول (4/ 296).

أ. فضل المساء: قد ذهب الكثير من العلماء إلى تفضيل آخر النهار على أوّله، قال الحافظُ ابن رجب: «كان السّلفُ لآخر النّهار أشدّ تعظيماً من أوّله، قال ابن المُبارك: بَلغَنا أنه مَن ختمَ نهاره بذكر الله كُتِبَ نهارُهُ كُلّهُ ذاكراً»[1]. فإنّ مَنْ كان أولُ عمله طاعةً وآخرُهُ طاعةً، فهو في حُكم من استغرقَ بالطاعة ما بين العَمَلَيْن، وفي الأثر الإلهي: «ابنَ آدم اذْكُرْني من أوّل النهار ساعةً، ومن آخر النهار ساعةً، أَغْفِرْ لكَ ما بينَ ذلكَ»[2].

والمساء يبدأ من صلاة عظيمة، ألا وهي: «صلاة العصر» التي قيل فيها «الصلاة الوسطى». وهي صلاةٌ مشهودة، ففيها -مثل الفجر- تجتمع ملائكةُ الليل والنهار، كما قال ﷺ: «يَتَعاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ باللَّيْلِ ومَلائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويَجْتَمِعُونَ في صَلاةِ العَصْرِ وصَلاةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهم -وهو أَعْلَمُ بهِمْ-: كيفَ تَرَكْتُمْ عِبادِي؟ فيَقولونَ: تَرَكْناهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ، وأَتَيْناهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ»[3].

وفي خاتمة هذا المساء تُرفعُ الأعمال إلى الله تعالى، فقد أخبرنا نبينا ﷺ بذلك قائلاً: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ. يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ. يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ. وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ»[4].

فجدير بالمسلم أن يجتهد بالقُربات، ويختمَ نهاره بالطاعات، حتى يُرفع له عملٌ صالح يتقدّمُ به إلى ربّه سبحانه، وينالُ به أعلى الدرجات. ولجلالة الذكر في هذا الوقتُ المبارك، يقول رسول الله ﷺ: «لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَأَنْ

(1) المحجّة في سير الدُّلجة: (ص 62).

(2) لطائف المعارف، لابن رجب: (ص 80-81). والحديث رواه الطبراني عن ابن عُمر، كما في الكنز (21524)، وهو في الحلية (8/ 213) من رواية أبي هريرة، وضعّفه أبونُعيم.

(3) أخرجه البخاري (7486)، ومسلم (632).

(4) رواه مسلم برقم (179).

أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً»، وفي رواية: «وَلَأَنْ أَذْكُرَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ كَذَا وَكَذَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»[1].

ب. ورد المساء: ما ذُكر في وِرْدِ الصباح يُعادُ هنا، مع الاكتفاء بورد الذكر والدعاء لمن أتمّ ورد التلاوة صباحاً. ونصيحتي لكافّة الإخوة والأخوات بالمثابرة والثبات، ومجاهدة النّفس على التزام هذه الجلسات المباركات لذكر ربّ الأرض والسماوات، فهي الزّاد الروحي الضروري للمسلم، حتى يُقوّي الإيمان ويَثْبُتَ أمام شرور الإنس والجان.

وقد يجدُ العبدُ في أيامه الأولى شيئاً من الضّجَر والقلق والملل، ولكن بعد أن يذوقَ حلاوة الإيمان، سُرعانَ ما ينتصرُ الذّاكر على النفس والشيطان، ويبدأ في ارتقاء مدارج الإحسان، وتنسُّم نفحات الجِنان، وذلك فضل الله الكريم المنّان.

• **تذكرة:** على المسلم أن يجتهد -بعون الله- في التزام هذا الورد على قدر الطاقة، حتى يعتاده ويصير ركنا هامّا في نشاطه اليومي. وإن طرأت بعض الضّغوط والمشاغل، فلا أقلّ من يأتي بمُعظمه ولو خارج المسجد وفي طريق العمل، وذلك على قاعدة «ما لا يُدرَكُ كُلُّهُ فلا يُترَكُ جُلُّه»، وبالله التوفيق.

4. التقدّم اللّيلي: وهو ثالثُ أعمال السير اليومي التي أشار إليها الكتابُ والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (الإنسان: 25-26). وهو سيرُ الدُّلْجَة الذي أرشدنا إليه النبي ﷺ بقوله -في الصحيح-: «..وشيءٌ من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلُغوا».

(1) الرواية الأولى أخرجها أبو داود (3667) وحسنها الألباني، والثانية أخرجها أحمد في المسند (22185) وحسنها الأرناؤوط (36/ 522).

وقد حُرِمَ الكثير منّا خيرَ هذا الوقت المبارك، خاصّةً بعد الانقلاب العظيم الذي وقع في حياة المسلمين، حيث اتّبعوا نَمَطاً دخيلًا مُغايراً لِهَدْي الإسلام، فصاروا يَسهَرون في غير طاعة؛ إذْ يقيمُ أكثرهم الليل بين يدي الفضائيات ببرامجها التافهة، ويعكفون على الحواسيب والجوّالات بصورها المحرّمة وأخبارها الواهية، وتلك هي الدّاهية! ثمّ تضيعُ صلاة الفجر، ويكون مصير التهجّد النسيان والهَجْر!

والسنّة أن ينام المسلمُ باكراً، حتى يُحصّل راحته ويستيقظ نشيطاً للعبادة والعمل، وقد كرهَ العلماءُ السّهرَ والسّمرَ بعد صلاة العشاء، إلاّ لمصلحة أو حاجة تدعو إليه، واستدلّوا بما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي بَرْزَةَ رضي الله عنه أَنَّ «رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ، وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا»[1]. قال النووي: «وَسَبَبُ كَرَاهَةِ الْحَدِيث بَعْدهَا أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى السَّهَر، وَيُخَافُ مِنْهُ غَلَبَة النَّوْم عَنْ قِيَام اللَّيْل، أَوْ الذِّكْر فِيهِ، أَوْ عَنْ صَلَاة الصُّبْح... وَلِأَنَّ السَّهَر فِي اللَّيْل سَبَب لِلْكَسَلِ فِي النَّهَار عَمَّا يَتَوَجَّه مِنْ حُقُوق الدِّين، وَالطَّاعَات، وَمَصَالِح الدُّنْيَا»[2].

أ- فضل قيام الليل:

• **أفضل نوافل الصلاة:** كما ثبت في حديث النبي ﷺ: «أفضلُ الصلاة بعد المكتوبة: قيامُ الليل»[3]. وقال ابن مسعود: «فضلُ صلاة الليل على صلاة النهارِ، كفضل صدقة السِّرِّ على صدقةِ العلانية»[4]. قال ابن رجب: «وإنما فُضّلت صلاةُ الليل على صلاة النهار، لأنّها أبلغُ في الإسرار وأقربُ إلى الإخلاص»[5].

---

(1) رواه البخاري (568) ومسلم (647).

(2) شرح النووي على مسلم (5/ 146).

(3) هو قطعة من حديث رواه مسلم (1163).

(4) رواه الطبراني بسند صحيح ورُوي مرفوعاً والموقوف أصحّ. (جامع العلوم والحكم: 2/ 142).

(5) لطائف المعارف: (ص 87).

• **وقت التنزّل الإلهي**: وبهذا شَرُفَ الليلُ على النهار، فقد ثبت في الصحيحين أنّ النبي ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[1]. فعظمت عبادة الليل في هذا الوقت المبارك بهذه الخاصية الشريفة. ويا سعادة من تعرّض لنفحات الله خلال هذا التنزّل الجليل، قِيلَ للحسن البصري: ما بالُ المتهجّدين باللّيل مِنْ أحسن النّاس وجوهاً؟ قال: «لأنّهم خَلَوْا بالرحمن فألبسهم نوراً مِنْ نُوره»[2].

فوالله لو قيل: إنّ غنيّاً من الأغنياء، سيخرجُ آخر الليل لِيُوزّعَ مالاً على الفقراء؛ لرأيت الناس يتزاحمون بالآلاف في انتظاره، وقد يتخلّفُ عن المجيء لموتٍ أو مرضٍ، أو يُخلفُ وعدهُ ويتراجع!

فكيف بربّ العالمين، وأكرم الأكرمين، وقيّوم السماوات والأراضين، الغنيُّ الذي يرزق العباد، والعزيزُ الذي لا يُخلفُ الميعاد! إذْ يُخبرنا عنه الصادقُ المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى: أنه يتنزّلُ كلّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، تنزّلاً يليق بجلاله وكماله، فيسمعُ النداء ويجيبُ الدعاء، ويغفرُ الذنوب، ويسترُ العيوب، ويُفرّجُ الكروب!

فهل يُعقَلُ أن ينام المسلمُ في هذا الحدث العظيم، ولا يتعرّض لرحمات ربّه الكريم؟!

• **شعار المتقين**: حيثُ مَدحَهُم ربّنا في كتابه بقوله سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: 15-17). وذكر جلّ جلاله أنّ

(1) رواه البخاري (6940) ومسلم (1262).

(2) كتاب التهجّد وقيام الليل، لابن أبي الدنيا: رقم (161).

قيام الليل من أسباب الفوز بالجنّات، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: 15-18)، قال الحسنُ البصري: «مدُّوا الصلاةَ إلى السحر، ثم جلسوا في الدعاء والاستكانة والاستغفار»[1]. وقال نبينا ﷺ: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، عِشْ ما شئتَ فإنك ميّتٌ، وأحببْ من شئت فإنك مفارقه، واعملْ ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شَرفَ المؤمن قيامُه بالليل، وعزُّه استغناؤه عن الناس»[2].

ومن عادة السلف أنهم يستيقظون قبل الفجر للعبادة، وقد جاء التابعي الجليل طاوس رحمه الله يزور أحد أصدقائه وقتَ السّحر فقالوا: هو نائم، فقال: ما كُنتُ أرى أنّ أحداً ينامُ وقتَ السّحَر![3].

• **أشدُّ على النفس**: التهجّد شديد، وذلك لما يُصاحبه من المجاهدة، وترك لذّة النوم في وقت الرّاحة والسكون؛ ولذلك يكون الأجرُ فيه أعظمَ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ (المزمل: 6). وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ركعةٌ بالليل خيرٌ من عشرين بالنّهار»[4]. ومع ما في قيام الليل من الشدّة؛ فإنّه قُرّةُ عين الصالحين المشتاقين لربّ العالمين.

فهذا الفضيلُ بن عياض يقول: إذا غربت الشمسُ، فرحتُ بالظلام لخلوتي بربّي.

ويقول أبو سليمان الداراني: أهلُ الليل في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاء في الدنيا.

---

(1) تفسير الطبري: (26/ 124).

(2) رواه الحاكم (5/ 463)، وهو في صحيح الجامع (73).

(3) مختصر منهاج القاصدين: (ص: 70).

(4) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التهجّد وقيام اللّيل رقم (10).

ويقول محمد بن المنكدر: ما بقي من لذّات الدنيا إلاّ ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة[1].

ب. ورد القيام:

• **الهدي النبوي في القيام:** صلاة التهجّد تكون ركعتين، ركعتين. فقد قال ﷺ: «صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَشِيَ أَحَدُكُمْ الصُّبْحَ صَلَّى رَكْعَةً وَاحِدَةً تُوتِرُ لَهُ مَا قَدْ صَلَّى»[2]. وعن هدي النبي ﷺ يخُبرنا الإمام ابن القيم قائلًا: «وكان قيامُه ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة، أو ثلاثَ عشرة، كما قال ابن عباس وعائشة، فإنه ثبت عنهما هذا وهذا، ففي (الصحيحين) عنها: «ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة». وفي (الصحيحين) عنه أيضًا، «كان رسول اللهِ ﷺ يُصلي من الليل ثلاثَ عشر ركعة».. فقد حصل الاتفاقُ على إحدى عشرة ركعة واختلف في الركعتين الأخيرتين هل هما ركعتا الفجر أو هما غيرهما. فإذا انضاف ذلك إلى عدد ركعات الفرض والسنن الراتبة التي كان يُحافظ عليها، جاء مجموعُ ورده الراتب بالليل والنهار أربعين ركعة، كان يُحافظ عليها دائمًا سبعة عشر فرضًا، وعشر ركعات، أو ثنت عشرة سُنّة راتبة، وإحدى عشرة، أو ثلاث عشرة ركعة قيامه بالليل، والمجموع أربعون ركعة، وما زاد على ذلك، فعارض غيرُ راتب.. فينبغي للعبد أن يُواظب على هذا الورد دائمًا إلى الممات، فما أسرع الإِجابة وأعجل فتح الباب لمن يقرعُه كلَّ يوم وليلة أربعين مرة. والله المستعان»[3].

فاجتهد أخي الفاضل في الاستيقاظ نصف ساعة قبل الفجر، لتتقدّم إلى ربّك بأفضل النوافل ولو بركعتين. ولك أن تُصلّي القيام في أي وقت بعد العشاء وتوتر قبل النوم، غير أنّ أفضل أوقاته: آخر الليل، حيث التنزّل الإلهي، وفتح أبواب السماء.

---

(1) مختصر منهاج القاصدين (ص67-68).

(2) رواه البخاري(946)، ومسلم (749).

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد: (1/ 326-327)

قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ»[1].

• **بشارة نبوية للتهجّد:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ»[2]. وهذا من فضل الله تعالى تحفيزٌ للنّاس حتى يَنشُطوا لقيام الليل ولو بالقليل، فمن صلى في تهجّده ركعتين بسورتي (الكافرون والإخلاص) مثلاً، فقد نجا من الغفلة. ومن قام بـ (الذاريات والنّبأ) فقد أدرك مرتبة القانتين. ومن قرأ من سورة (المُلك) إلى (الناس) فقد حاز قِنطاراً من الأجر والحسنات. فكيف يقصّرُ العبدُ بعد كلّ هذا التّيسير، ويعجزُ عن صلاة القيام ولو ركعتين!

• **وصية نبوية:** قيام الليل سُنةٌ مؤكدة، قد تواترت النصوص من الكتاب والسنة بالحثّ عليه والترغيب فيه. وهذا توجيه من النبي ﷺ يقول فيه: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»[3]. والصحابي عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، لما رأى في شبابه رؤيا مُفزعة فيها تخويفٌ من النار، وقصّها على أخته حفصة، فقصّتها حفصة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ، فقال: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ». قَالَ سَالِمٌ (ابنه): فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلاً»[4].

وهكذا استوعب هذا الصحابي الجليل الدّرس، واجتهد في جَبْرِ النّقص، فما ترك القيام حتى المات؛ ونحن المقصّرون في هذا العصر، هل نستوعبُ كذلك الدّرس ونترك الغفلات؟

(1) رواه مسلم (755).

(2) رواه أبو داود (1398) وصححه الألباني.

(3) رواه الترمذي (3549) وحسنه الألباني في إرواء الغليل (452).

(4) رواه البخاري (1121)، ومسلم (2479).

الإشارة الثانية: التقدّم الأسبوعي

1. **يوم الجمعة**: موسمٌ عظيم من مواسم الطاعات، أكرم الله به الأمّة الإسلامية. وجعله متَّجرًا لأوليائه وأصفيائه، يغتنمونه بما يقرّبهم من رحمته ورضوانه. وهذا اليوم العظيم له الكثير من الفضائل والخصائص، وهو فُرصةٌ أسبوعيّة عزيزة للتقدّم إلى الله تعالى بجملة من الطاعات. قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»[1].

قال العلاّمة ابن القيم: «وكن من هديه ﷺ: تعظيم هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختصُ بها عن غيره... فيومُ الجمعة يومُ عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان»[2].

وقال الحافظ ابن كثير: «إنما سُميت الجمعةُ جمعة لأنها مشتقة من الجَمْع، فإن أهل الاسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار... وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة:9)، أي: اقصدوا واعمدوا واهتمّوا في سَيركم إليها، وليس المراد بالسعي هنا المشي السريع.. فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نُهي عنه.. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنيّة والخشوع»[3].

قلت: فعلى المسلم أن يغتنمَ هذا اليوم العظيم، الذي يتكرّرُ كلّ أسبوع؛ ويتقدّم فيه بالتالي:

(1) رواه مسلم (1410).

(2) زاد المعاد: (1/ 398).

(3) تفسير ابن كثير: (8/ 145-146).

أ. **تعظيم فجره:** لأنه أفضلُ الصلوات، حيث قال نبينا ﷺ: «أفضلُ الصلوات عند الله، صلاةُ الصبح يوم الجمعة في جماعة»[1]. ويُسنُّ في صلاة الفجر يوم الجمعة أن يقرأ المصلي فيها سورة السجدة في الركعة الأولى، وسورة الإنسان في الثانية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِـ[الم تَنْزِيلُ] السجدة فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى، وَفِي الثَّانِيَةِ [هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا]»[2].

ب. **قراءة سورة الكهف:** وقد ورد في فضل قراءتها يوم الجمعة أو ليلتها عدّة أحاديث، منها: قوله ﷺ: «من قرأ سورةَ الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النّور ما بين الجُمُعتين»[3]. وفي حديث آخر: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق»[4].

ج. **الصلاة على النبي ﷺ:** وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»[5].

د. **الاغتسال والتبكير:** يُستحبُّ للرجل أن يتنظّف ويتطيّب، ويلبسَ أحسن ثيابه يوم الجمعة، لقوله ﷺ: «إِنَّ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمَسَّ مِنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ»[6]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ،

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وهو في صحيح الجامع (1119).

(2) رواه البخاري (851) ومسلم (880).

(3) رواه الحاكم (2/ 399) والبيهقي (3/ 249)، وحسنه ابن حجر في «تخريج الأذكار»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (6470).

(4) رواه الدارمي (3407)، وهو في «صحيح الجامع» (6471).

(5) رواه البيهقي في السنن (5994)، وهو في السلسلة الصحيحة (1407).

(6) رواه ابن ماجه (1098) وحسّنه الألباني.

ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَلَمْ يَتَخَطَّ أَعْنَاقَ النَّاسِ، ثُمَّ صَلَّى مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ صَلاَتِهِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ جُمُعَتِهِ الَّتِي قَبْلَهَا»[1].

وأمّا التبكير ففضلُه ثابتٌ في قوله ﷺ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ في السّاعة الأولى، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»[2] والرّاجح من أقوال أهل العلم أنّ هذه السّاعات تبدأ من طلوع الشّمس إلى الزّوال.

وهذه النصوص تُحفِّزُ المسلم، وتشحذُ همّته للمسارعة إلى هذا الفضل.

هـ. اغتنام ساعة الإجابة: وفي فضلها عدّة نصوص، منها قوله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لاَ يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَقَالَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا، يُزَهِّدُهَا»[3].

وقد اختلف العلماء في تحديد هذه الساعة، قال ابن القيم: «وأرجح هذه الأقوال: قولان تضمنتها الأحاديث الثابتة، وأحدهما أرجح من الآخر:

الأول: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة[4].

والقول الثاني: أنها بعد العصر، وهذا أرجح القولين، وهو قول عبد الله بن سلام، وأبي هريرة، والإمام أحمد، وخلقٌ. وحجة هذا القول ما رواه أحمد في مسنده (7631) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ

(1) رواه أبو داود (343)، وصححه الألباني.

(2) رواه البخاري برقم (841)، ومسلم برقم (850).

(3) رواه البخاري برقم (5294)، ومسلم برقم (852).

(4) وهذا ما رجّحه النّووي في الأذكار (1/ 247).

سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَهِيَ بَعْدَ الْعَصْرِ»[1]. وروى أبو داود (1048) والنسائي (1389) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لَا يُوجَدُ فِيهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ». وروى سعيد بن منصور في سننه[2]. عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنّ «ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا، فتذاكروا الساعة التي في يوم الجمعة، فتفرقوا ولم يختلفوا أنها آخر ساعة من يوم الجمعة»»[3].

وقد كان سلفنا الصالح يغتنمون مساء يوم الجمعة، ويتفرّغون بعد العصر للذكر والدعاء، لعلّهم يُوفّقون لساعة الإجابة في هذا اليوم المبارك، وأخبارهم في ذلك كثيرة:

فهذا سيّدُ التابعين، الإمام سَعيد بن جُبَيْر، كان رحمه الله تعالى إذا صلّى العصر من يوم الجمعة، لم يُكلّم أحداً حتى تغربَ الشمس[4].

وكذلك التابعي الجليل طاووس بن كيسان رحمه الله، كان إذا صلّى العصر يوم الجمعة، استقبل القبلة، ولم يُكلم أحدًا حتى تغرب الشمس[5].

وكان المُفضّلُ بن فُضالة (ت181) قاضي مصر الفاضل رحمه الله، إذا صلّى عصر يوم الجمعة، خلا في ناحية المسجد وحده، فلا يزالُ يدعو حتى تغرب الشمس[6].

---

(1) وجاء في تعليق المحققين للمسند قولهم: حديث صحيح بشواهده.

(2) صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري. (2/ 489).

(3) زاد المعاد: (1/ 376).

(4) الاستذكار، لابن عبد البّر: (2/ 40).

(5) تاريخ واسط، للواسطي (ص 186).

(6) أخبار القضاة، للبغدادي: (3/ 232).

فلا تُفرّط -أيها المتقدّم- في بركة هذه الساعة الشّريفة، واحرص على أن تتفرّغ لها قبل صلاة المغرب في بيت من بيوت الله[1]، لتأتي بِوِردِ المساء، ثم تتفرّغ للدّعاء والتضرّع والبكاء، والله لا يضيع أجر من أحسنَ عملا.

2. **صيام الإثنين والخميس**: وقد ثبتَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ «كَانَ يَتَحَرَّى صِيَامَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيس»[2]. وعندما سُئل ﷺ عن ذلك، قَال: «ذَاِنكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائمٌ»[3]، ولمّا سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يوم الاثْنَيْنِ قَالَ ﷺ: «فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ»[4]. وثبت أنّ أبواب الجنة تُفتحُ في هذين اليومين، كما أخبرنا رَسُولُ اللهِ ﷺ بقوله: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»[5]. وفي هذا تحذير من التهاجُر بين المسلمين، وحثٌّ على فعل ما يقدّمنا إلى ربّ العالمين.

الإشارة الثالثة: التقدّم الشهري

1. **دعاء رُؤية الهلال**: وهي سنّةٌ مهجورةٌ، وعملٌ صالحٌ نتقرّبُ به كلَّ شهرٍ إلى الله تعالى. وقد كان نبيّنا ﷺ يُردِّد هذا الدعاء اثنتي عشرة مرَّة في العام، وكأنه يستفتح كل شهر بطلب البركة فيه، والثبات على الدين، وهو في الوقت نفسه يَحثُّ المسلم على رَصْد الهلال وملاحظته، لأن هناك الكثير من العبادات مرتبطة بمعرفة

(1) وللمرأة أن تصنع مثل ذلك في بيتها، وفضل الله واسع.

(2) رواه النسائي (2320)، وهو في صحيح الجامع (4897).

(3) رواه ابن ماجه (1740) وهو في صحيح الجامع (1583).

(4) رواه مسلم (1162).

(5) رواه مسلم (2565).

أول الشهر؛ فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال: «اللهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ والإِيمَانِ، وَالسَّلامَةِ وَالإِسْلام، وَالتَّوْفِيْقِ لِمَا تُحِبُّ رَبَّنَا وَتَرْضَى، رَبُّنَا ورَبُّكَ اللهُ»[1]. وقوله: «أَهِلَّهُ» أي: أَطْلِعْهُ علينا، وأرنا إيّاه؛ والمعنى: اِجْعَل رؤيتنا له مقترنةً بالأمن والإيمان...

وفي هذا العصر، يغفلُ الكثير من المسلمين عن حَدَث ميلاد الهلال الجديد في مطلع كلّ شهر قمري، وذلك بسبب غَلبَة التّقويم الشمسي الميلادي الدّخيل على تقويمنا القمري الهجري الأصيل! وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبة: 36)، فهذه الأشهر الحُرُم التي أمرنا الله بتعظيمها: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب، كيف نعرفها؟ وصيامنا الواجب في شهر رمضان القمري كيف نحدّده؟ وقد قال نبينا ﷺ عن هلال هذا الشهر: «صُومُوا لرؤيته وأَفْطِرُوا لرؤيته، فَإِنْ غُمّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدّةَ شعبان ثَلاَثِينَ»[2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ (البقرة: 189)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يَعلمون بها حلّ دَينهم، وعِدّة نسائهم، ووَقت حجّهم»[3]. وقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة: 197)، فكيف نَعرف أشهر الحج؟ شوال، وذي القِعدة، وعشر ذي الحجة، وكيف نعرفُ عاشوراء، وعرفة، والأيام البيض، وغيرها من العبادات؟! فالتقويم المُعتَمَدُ عند ربّ العالمين هو هذا التقويم القمري، الذي يقومُ على هذه الأشهر التي يُعرف ابتداؤها بهذا الهلال، وتُعرفُ نهايتها بغيابه. فينبغي للمسلم أن يكون مُعتنياً ببداية الأشهر القمرية، التي صارت من المقوّمات الإسلامية، ولا يغفل عن إحياء هذا الدعاء المبارك عند رُؤية الهلال، حتى

(1) الترمذي (3451)، وهو في صحيح الجامع (4726).

(2) رواه البخاري (1909).

(3) تفسير ابن كثير: (1/ 326).

يفوز بأجره، وأجر الاتّباع، بالإضافة إلى تحقُّق الأمن والسلامة، والتوفيق لصالح الأعمال، فما أروعها من سُنَّة تتكرّرُ كلّ شهر!

2. **صيام ثلاثة أيام**: وهو أهمُّ عملٍ يُستحبُّ القيامُ به خلال كل شهر قمري، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ»[1]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال لي رسول الله ﷺ: «وإن بحسبك أن تصوم كلّ شهر ثلاثة أيام؛ فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدّهر كلّه»[2].

وهذه الأيام الثلاثة يجوز أن تُصام متوالية أو متفرقة، ويجوز أن تكون من أول الشهر، أو من آخره. والمستحب كونها أوسط الشهر الهجري المسماة «أيام البيض» فعن أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: «قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صُمْتَ شَيْئًا مِنَ الشَّهْرِ، فَصُمْ ثَلاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ»[3].

فاحذَرْ أيّها المتقدّم أن ينقضي شهرٌ قمري، دون أن تغتنمه -على الأقلّ- بصيام ثلاثة أيام.

3. **ختم القرآن**: إن ختم القرآن من الأعمال الجليلة التي يُثاب عليها العبدُ وينالُ بها الدرجات العُلَى، فيُستحبُّ للمسلم أن يختم القرآن شهريّاً، كما أوصى بذلك نبينا ﷺ حين قال: «اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»[4].

• **وتُندبُ المواظبة على هذه الختمة مرة بعد مرّة، لما فيها من عظيم الأجر والثواب.** قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

(1) رواه البخاري (1178) مسلم (721).

(2) رواه البخاري (1874) ومسلم (1159).

(3) رواه النسائي (2424) وهو في صحيح الجامع (673)

(4) رواه البخاري (5052) ومسلم (1159).

سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (فاطر: 29). وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: «ألم» حرف، ولكن «ألف» حرف، و«لام» حرف، و«ميم» حرف»[1]. قال الإمام النووي[2]: «وإذا فرغ من الختمة، فالمُستحبُّ أن يشرعَ في أخرى متّصلاً بالختم، فقد استحبّه السلف». واحتجوا فيه بحديث أنس رضي الله عنه: «قال رجلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ. قَالَ: وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ ؟ قَالَ: الَّذِي يَضْرِبُ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ كُلَّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ»[3]. وقال العلّامة ابن الجزري: «وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين في قراءة العرض وغيرها، حتى لا يكاد أحد يختم ختمة إلا ويشرع في الأخرى، بل جعل ذلك عندهم من سنة الختم، ويُسمّون من يفعل هذا «الحالّ المرتحل»، أي الذي حَلّ في قراءته آخر الختمة، وارتحل إلى ختمة أخرى»[4].

• **ويُندبُ الدعاء عند الختم**، قال الإمام النووي: «ويُستحبُّ الدعاءُ عند الختم استحباباً متأكّداً شديداً.. روى ابن أبي داود -بإسنادين صحيحين- عن قتادة التابعي الجليل صاحب أنس رضي الله عنه قال: «كان أنس بن مالك رضي الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا». وروى -بإسناده الصحيح- عن مجاهد قال: «كانوا يجتمعون عند ختم القرآن يقولون: تنزل الرحمة»»[5]. وقال الإمام ابن تيمية: «وَرُوِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ «عِنْدَ كُلِّ خَتْمَةٍ دَعْوَةٌ مُجَابَةٌ»، فَإِذَا دَعَا الرَّجُلُ عَقِيبَ الْخَتْمِ لِنَفْسِهِ، وَلِوَالِدَيْهِ، وَلِمَشَايِخِهِ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَانَ هَذَا مِنْ جِنْسِ الْمَشْرُوعِ»[6].

---

(1) رواه الترمذي (2910) وصححه الألباني.

(2) الأذكار، للنووي: (1/ 299).

(3) رواه الترمذي رقم (2948) وضعفه، وله بعض الشواهد كما في الفتوحات الربانية: (3/ 248).

(4) النشر في القراءات العشر: (ص 694).

(5) الأذكار، للنووي: (1/ 296-298).

(6) مجموع الفتاوى: (3/ 37).

الإشارة الرابعة: التقدّم السنوي

وأعظمُ محطّة روحيّة، نتزوّدُ فيها بالطاقة الإيمانية، ونقتربُ فيها من ربِّ البريّة: هو شهر رمضان المعظّم!

1. **فضلُ شهر الرمضان**[1]: من أعظم مواسم الخير، وهو أفضل شهور العام، وفرصة جليلة نغتنمها حتى نتقدّم إلى ربنا بصالح الأعمال، ونحصّل زادنا من التقوى. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ (البقرة: 183-184). وقد كان سلفنا الصالح يستعدّون لهذا الشهر استعداداً خاصّاً، والمحروم من حُرم خيره، فقد قال نبينا ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رَجُلٍ، دخلَ عليه رمضانُ ثم انسلخَ قبلَ أن يُغفر لَهُ»[2]. قال العلاّمة ابن القيم: «وكان من هديه ﷺ في شهر رمضان: الإكثارُ من أنواع العبادات، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يُدارسه القرآن الكريم في رمضان، وكان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، يكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن الكريم، والصلاة والذكر والاعتكاف. وكان يخصُّ رمضان من العبادة بما لا يخصُّ غيره به من الشهور»[3].

والتقدّم إلى الله تعالى في هذا الشهر، يكون -أساساً- بهذه الأعمال:

2. **حُسن الصيام**: وذلك بتصحيح النيّة لله تعالى، حتى ينال الصائمُ عظيم الأجر والثواب، كما في الحديث: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[4]. فلْيحرص العبدُ على اغتنام هذه الأيام المعدودات ليتخلّص من المعاصي والزلاّت؛ فهذا الشهر العظيم موسم مباركٌ للتّطهّر. فكما أنّ الصلوات عبارة عن

(1) انظر: «فريضة الصيام» في اللوحة الثانية من هذه المحطة.

(2) رواه الترمذي (3545) وهو في صحيح الجامع (3510).

(3) زاد المعاد في هدي خير العباد: (2/31).

(4) رواه البخاري (38)، ومسلم (760).

«مَغْسَلَةٍ يومية» لنا، فإنّ رمضان «مغسلة سنوية». قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتنب الْكَبَائِرَ»[1]. فإيّاك أخي الكريم أن تُفسد صومك بالغيبة والنميمة، واللّغو والخصام، والنّظر إلى الحرام؛ ففي الحديث: «رُبّ صائمٍ حظّهُ من صيامه الجوعُ والعطشْ، ورُبّ قائمٍ حَظّه من قيامه السّهر»[2].

3. **حسن القيام**: وذلك بالمواظبة على صلوات التراويح، وقيام الليل خاصّة في العشر الأواخر. فقد قال ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[3].

ولْنحرصْ على صلاة التراويح في المساجد، ولْنَصبرْ على إتمامها مع الإمام، ولا نُفرّط في شيء منها، ولا نَنْصرف قبل إمامنا، حتى ولو زاد على إحدى عشرة أو ثلاث عشرة ركعة، ولا نترك صلاة الوتر معه حتى نُحصّل أجر قيامنا كاملاً، فقد قال نبينا ﷺ: «مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»[4].

ومن رغب في القيام عند السّحر، فله أن يزيد ما شاء من الركعات، دون أن يُعيد صلاة الوتر، لقوله ﷺ: «لَا وِتْرَانِ فِي لَيْلَةٍ»[5].

4. **حُسن التلاوة**: خاصّة وأنّ رمضان هو شهر القرآن، فعلينا أن نجدّد العهد مع كتاب الله تعالى، وأن نُقبل عليه تلاوةً وحفظاً ومدارسةً. وقد اكتشف الكثيرُ من النّاس -خلال رمضان- أنّهم قادرون على ختم القرآن في شهر، بل هناك من يختم أكثر من مرّة في رمضان. وكان انطلاق تقدّمهم إلى الله في هذا الشهر الفضيل؛ الذي

(1) رواه مسلم (233).

(2) رواه أحمد (8639)، وهو في صحيح الترغيب (1084).

(3) رواه البخاري (37)، ومسلم (759).

(4) رواه الترمذي (806) وصححه، وكذلك الألباني.

(5) رواه أبوداود (1439)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (2/ 481)، وكذلك الألباني.

يُعَدُّ مدرسة عظيمة نكتشف فيه المواهب والرّوحانيات، ونزداد فيه قُرباً من ربّ الأرض والسماوات. فَلِمَ لا نجعل من أيامنا كلّها رمضان!

5. **حُسن التصدّق**: والصدقة في هذا الشهر شأنها أعظم وآكد، ولها مزية على غيرها، وذلك لشرف الزمان ومضاعفة أجر العامل فيه، ولما فيه من إعانة للصائمين المحتاجين على طاعة ربّهم سبحانه. ولذلك استحق المُعين هم مثل أجرهم، قال نبينا ﷺ: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا»[1]. قال الحافظ ابن رجب: «وذكر الإمام أبو بكر بن أبي مريم عن أشياخه -من التابعين- أنهم كانوا يقولون: إذا حضرَ شهرُ رمضانَ فانْبسطوا فيه بالنّفقة، فإن النّفقة فيه مضاعفةٌ كالنّفقة في سبيل الله، وتسبيحةٌ فيه أفضلُ من ألف تسبيحةٍ في غيره»[2].

وهكذا تتضاعف أجور الأعمال في شهر رمضان، حتى قال النبي ﷺ: «عُمرةٌ في رمضانَ تعدلُ حجّةً معي»[3].

6. **تعظيم العشر الأواخر**: قال أبو عثمان النّهدي[4]: «كانوا يُعظّمون ثلاثَ عشرات: العشرَ الأخيرَ من رمضان، والعشر الأُوَل من ذي الحجّ، والعشرَ الأُوَل من المحرّم»[5].

وتعظيمُ هذه العشر يكون بعدّة أعمال، أهمّها:

---

(1) رواه الترمذي (807)، وصححه الألباني.

(2) لطائف المعارف، لابن رجب: (ص 285).

(3) رواه البخاري (1863) ومسلم (1256).

(4) هو الإمام الحُجة أبو عثمان عبد الرحمن النهدي البصري، أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره، أدرك الجاهلية والإسلام، وغزا في خلافة عُمر، وكان من سادة العلماء العاملين، عُمّر وعاش مائةً وثلاثين سنة، وتوفي رحمه الله سنة مائة للهجرة. ترجمته: (سير أعلام النبلاء، للذهبي: 4/ 176).

(5) لطائف المعارف: (ص 80)، وذكر ابن رجب أنه: رُوي عند ابن أبي الدنيا في كتاب «فضائل العشر» عن أبي عثمان عن أبي ذرّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أنه كان يُعظّمُ هذه العشراتِ الثلاثَ»، وليس ذلك بمحفوظ.

أ. **الاجتهاد بالطاعات**: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان مالا يجتهد في غيرها بالصلاة والقراءة والدعاء، فعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ «كان إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد مئزره»[1]، وقولها «وشد مئزره» كناية عن الاستعداد للعبادة والاجتهاد فيها زيادة على المعتاد، ومعناه التشمير في العبادات. وقيل هو كناية عن اعتزال النساء وترك الجماع. وقولهم «أحيا الليل» أي استغرقه بالسهر في الصلاة وغيرها.

ب. **الاعتكاف في المسجد**: وهذه سُنة مهجورة الآن، وقد كان النبي ﷺ يُواظبُ عليها؛ فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[2]. قال الحافظ ابن رجب: «وإنما كان يعتكفُ النبي ﷺ في هذه العشر التي يطلبُ فيها ليلة القدر قطعًا لأشغاله، وتفريغًا لباله، وتخليًا لمناجاة ربِّه وذِكْره ودعائه، وكان يحتجر حصيرًا يتخلَّى فيها عن الناس، فلا يخالطهم ولا يشتغل بهم؛ ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أنَّ المعتكف لا يُستحب له مخالطة الناس، حتى ولا لتعلُّم عِلم، وإقراء قرآن، بل الأفضلُ له الإنفراد بنفسه، والتخلِّي بمناجاة ربه، وذِكْره ودعائه، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية.. فالمعتكف قدْ حَبس نفسَه على طاعة الله، وذِكْره، وقَطَع عن نفسِه كلَّ شاغل يشغله عنه، وعَكَف بقلبه وقالبه على رَبِّهِ وما يُقرِّبه منه، فما بقي له هَمٌّ سوى الله»[3].

ج- **تحرّي ليلة القدر**: فعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «تَحرُّوا ليلةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ من رمضانَ»[4]. وقد غيّب الله عنّا ليلة القدر لحكمة أرادها، فعلى المسلم أن يجتهد في كافة ليالي العشر لعلّه يُوفّقُ إليها. وهي أعظم الليالي، حيث

---

(1) البخاري (1920) ومسلم (1174).

(2) رواه البخاري (2026) ومسلم (1153).

(3) لطائف المعارف: (ص 348).

(4) رواه البخاريُّ (2020)، ومسلم (1169).

شرّفها الله تعالى بنزول القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ (القدر: 1-5). وقوله تعالى: [ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر] أي: إحْياؤها بالعبادة فيها خير من عبادة ثلاثٍ وثمانين سنة، وهذا فضل عظيمٌ من الله الكريم. وتميزت هذه الليلة المباركة كذلك بتقدير مصير الخلق فيها، قال تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان:4). أي تُقدّرُ في تلك الليلة مقاديرُ الخلائق على مدى العام.

فكيف يتهاون المسلم في إدراك هذه الليلة العظيمة، وقد سمّاها ربُّنا سبحانه «ليلة القَدْرِ»، وذلك لِعِظَم قَدْرها وجلالة مكانتها عند الله تعالى، ولكثرة مغفرة الذنوب وستر العيوب فيها، فهي ليلة المغفرة كما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفِرَ لهُ ما تقدّم من ذنبه»[1].

ولْيُكثر المسلمُ في هذه الليلة من الدعاء، وخاصّة ما ثبت فضله في السنة، فعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ إنْ علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدْر؛ ما أقول فيها؟ قال: قولي: «اللّهُمَّ إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي»[2]. قال ابن رجب: و«العَفُوُّ: من أسماء الله تعالى، وهو المُتجاوز عن سيّئات عباده، الماحي لآثارها عنهم. وهو يُحبُّ العفوَ؛ فيُحبُّ أن يعفُوَ عن عباده، ويُحبُّ من عباده أن يعفُوَ بعضُهم عن بعض؛ فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوُهُ أحبُّ إليه من عقوبته»[3].

• **نصيحة**: من أراد حُسن اغتنام شهر رمضان، فعليه اتّباع قاعدة «صُمْ صيامَ مُودّع»، قياساً على وصيّة النبي ﷺ: «صلِّ صلاةَ مُودّع»[4]. فاعتبْر أخي الصائم أنّ

(1) رواه البخاري (1910)، ومسلم (760).

(2) رواه الترمذي (3513) وصححه، وكذلك النووي في الأذكار (247).

(3) لطائف المعارف: (ص 369-370).

(4) رواه ابن ماجة (4171) وهو في السلسلة الصحيحة (401).

هذا الشهر: هو آخر رمضان في حياتك، وسترى الاجتهاد في الطاعات، والمسارعة إلى العبادات، ولذة الخشوع في الأذكار والصلوات.

الإشارة الخامسة: التقدّم الموسمي

قد أكرمنا الله سبحانه بعدّة مواسم إسلامية، نتقدّمُ فيها إليه بأنواع من الطاعات، ويُتابعُ لنا ربّنا جلّ شأنه هذه المواسم المباركة بعضها تِلْوَ بعض، حتى نتدارك ما فات، ونغتنم هذه النّفحات، ونُسارع إليه سبحانه بالقربات؛ قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 133).

نرصد فيما يلي أبرز المواسم الإيمانية، والمحطات الروحية، التي يتأكّد اغتنامها:

1. **الأشهرُ الحُرُم**: ميّزَ اللهُ تعالى الأشهر الحُرُم عن سائر الشهور، وأمر بتعظيمها لزيادة حرمتها، فقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ (التوبة: 36). قال الإمام ابن عاشور: «وَوجهُ تخصيص المعاصي في هذه الأشهر بالنّهي: أن اللهَ جعلها مواقيتَ للعبادة، فإن لم يَكن أحدٌ متلبّساً بالعبادة فيها فليكن غير متلبّسٍ بالمعاصي»[1]. وقال ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»[2].

ومن فضائل الطاعات في هذه الأشهر:

أ. **فضل عشر المحرّم**: وهي إحدى العشرات الثلاث التي كان السلف يعظّمونها، كما سبق. وقد جاء في فضل هذا الشهر: قول رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ

(1) التحرير والتنوير (11/ 186).

(2) رواه البخاري (4406)، ومسلم (1679).

رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ»[1]. قال الحافظ ابن رجب: «وقد اختلف العلماء في أيّ الأشهر الحُرُم أفضل، فقال الحسنُ وغيرُهُ: أفضلها شهر الله المحرّم، ورجّحه طائفة من المتأخرين. وروى وهبُ بن جرير، عن قرّةَ بن خالد، عن الحسن، قال: إنّ الله افتتح السنة بشهر حرام، وختمها بشهر حرام. فليس شهرٌ في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند الله من المُحرّم، وكان يُسمّى «شهر الله الأصمّ» من شدّة تحريمه. وقد رُوي عنه مرفوعاً ومُرسلاً». وأضاف ابن رجب قوله: «وأفضلُ شهر الله المحرّم: عَشرُهُ الأُوّلُ»[2].

ب. **فضل عاشوراء**: يُستحبُّ صيام يوم عاشوراء، وهو العاشرُ من شهر المُحرّم. وذلك أنّ النبي ﷺ قد صامه وأمر بصيامه، ففي الصحيحين عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَوَجَدَ الْيَهُودَ صُيَّامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا، فَنَحْنُ نَصُومُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ». فَصَامَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ»[3]، وجاء في فضله كذلك قوله ﷺ: «وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ»[4]. قال ابن رجب: «يوم عاشوراء له فضيلةٌ عظيمة، وحُرمةٌ قديمة، وصومه لفضله كان معروفاً بين الأنبياء عليهم السلام»[5].

وقد حرص النبي ﷺ على التميّز عن أهل الكتاب، فأمر بمخالفتهم في هذا الصيام، حيث قال: «صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَخَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ، صُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا

---

(1) رواه مسلم (1982).

(2) لطائف المعارف: (ص 79).

(3) رواه البخاري (2004) ومسلم (1130).

(4) رواه مسلم (1162).

(5) لطائف المعارف: (ص 102).

وبَعْدَهُ يَوْماً» وجاء في رواية «أو بعده»[1]. وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: حِيَن صَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ» قَالَ فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبل حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[2].

• وجمعاً بين هذه الروايات، ذهب الكثير من العلماء إلى أنّ صيام عاشوراء يكون على ثلاث مراتب:

أوّلها: وأكملها صيام اليوم التاسع والعاشر والحادي عشر،

وثانيها: صيام اليوم التاسع والعاشر، وعلى ذلك وردت أكثر الأحاديث،

والمرتبة الأخيرة: هي صيام اليوم العاشر منفرداً.

• تنبيه: ولا يفوتني أن أحذّر من بدع النياحة، ولطم الخدود، وخمش الوجوه، وجرح الرؤوس، التي جعلها الشيعة شعاراً لشهر الله المحرّم، وشعيرةً تتكرّر كل عاشوراء! وهذه بدعة منكرةٌ تُشوّهُ صورة الإسلام، وتُخالف هدي خير الأنام، ﷺ، الذي حذّرنا من النياحة قائلاً: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[3]. وقال ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»[4].

ج. فضل عشر ذي الحجة: من مواسم الطّاعة العظيمة العشر الأُوَل من شهر ذي الحِجّة، التي فضّلها الله تعالى على سائر أيام العام ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العملُ الصالحُ فيهن أحبُّ إلى الله منه في هذه الأيام

---

(1) رواه أحمد في المسند (1/ 241)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر.

(2) رواه مسلم (1916).

(3) رواه مسلم (67).

(4) رواه البخاري (1294).

العشر. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله! قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء»[1].

وقد أقسم الله تعالى بهذه الأيام المباركة، فقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (الفجر: 1-2)، قال الحافظ ابن رجب: «أمّا «الليالي العشر» فهي عشر ذي الحجّة؛ هذا الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين من السلف وغيرهم» وأضاف قوله: «وهذا يدلّ على فضيلة لياليه، لكن لم يثبت أنّ لياليه -ولا شيئاً منها- يَعْدِلُ ليلةَ القَدْر»[2].

د. فضل يوم عرفة:

• **أنه يوم إكمال الدين وإتمام النعمة:** ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﷺ أن «رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتّخذنا ذلك اليوم عيدا! قال أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:3). فقال عُمر: إني لأعلمُ اليومَ الذي نزلتْ فيه، والمكان الذي نزلت فيه؛ نزلَتْ ورسولُ الله ﷺ قائمٌ بعرفَةَ يومَ جُمُعةٍ»[3].

• **أنّ صيامه يُكفّرُ سنتين:** فعن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «صيامُ يومِ عَرَفة؛ أحتَسبُ على الله أن يكفّرَ السنةَ التي قبله والتي بعده»[4].

• **يوم المغفرة والعتق من النار:** فعن عائشة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة، وإنّهُ ليَدنُو، ثم يُباهي

(1) أخرجه البخاري (969).

(2) لطائف المعارف: (ص470 و468).

(3) أخرجه البخاري (45) ومسلم (3018).

(4) رواه مسلم برقم (1162).

بهم الملائكةَ، فيقولُ: ما أراد هؤلاء؟»[1]. وفي رواية: «إن الله تعالى يُباهي ملائكته عَشيّةَ عرفةَ بأهل عرفة، فيقول: انظروا إلى عبادي، أتوْني شُعثاً غُبْراً»[2]. وفي رواية: «أُشهدُكُم أني قد غفرتُ لهم»[3]. ورُويَ في «الموطأ» أنّ النبي ﷺ قال: «ما رُؤِيَ الشيطانُ يوماً هو فيه أصغرُ، ولا أدْحَرُ ولا أحقَرُ، ولا أغْيَظُ منه يومَ عرفة، وما ذاكَ إلاّ لما يُرَى من تنزّل الرّحمة، وتجاوُز الله عن الذنوب العِظام»[4].

• **أفضل الأعمال في يوم عرفة**: يلخّصها لنا الحافظ ابن رجب[5] بقوله رحمه الله: «فمَنْ طمعَ في العتق من النار ومغفرة ذنوبه في يوم عرفة، فَلْيُحافظ على الأسباب التي يُرجى بها العتقُ والمغفرة. فمنها:

صيامُ ذلك اليوم، وحفظ جوارحه عن المحرّمات،

والإكثار من شهادة التوحيد بإخلاصٍ وصدقٍ؛ فإنّها أصلُ دين الإسلام الذي أكمله الله تعالى في ذلك اليوم، وأساسُهُ. وفي الحديث: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْم عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[6].

كثرةُ الدعاء بالمغفرة والعتق؛ فإنه يُرجى إجابةُ الدعاء فيه. روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن علي، قال: «ليس في الأرض يومٌ إلاّ لله فيه عتقاءُ من النار، وليس يومٌ أكثر فيه عِتقاً للرّقاب من يوم عرفة. فأكثِرْ فيه أن تقول: اللّهُمَّ أعتِقْ رقبتي من النار، وأوسع لي من الرزق الحلال، واصرف عنّي فَسقَةَ الجنِّ والإنس».

---

(1) رواه مسلم (1348).

(2) رواه أحمد (3/ 224) وحسنه المنذري (2/ 204)

(3) نقلها ابن رجب عن كتاب «التوحيد» لابن منده، الذي قال عنه: إسناده حسن متصل.

(4) رواه مالك مُرسَلًا (1/ 422)، وقال الزرقاني في شرحه: وصله الحاكم في المستدرك.

(5) لطائف المعارف: (ص 492-494) باختصار.

(6) رواه الترمذي (3585) وهو في صحيح الترغيب (1536).

قلتُ: ورجّح العلماء أنّ فضل دعاء يوم عرفة ليس خاصّاً بمن كان حاجّاً في الموقف، بل يشمل باقي البقاع وسائر المسلمين، والله ذو الفضل العظيم.

هـ. فضل أيام التشريق: وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، وهي أيامٌ مباركة، يُستحبُّ فيها الذكر مُطلقاً، وخاصّةً عقب الصلوات المكتوبات[1]. وذلك عملًا بقول الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (البقرة:203)، وقد فسّر أكثر العلماء هذه الأيام بأنّها أيام التشريق. وقال عنها النبي ﷺ: «إنها أيام أكلٍ وشُربٍ وذكرٍ لله عز وجل»[2]. قال الحافظ ابن رجب: «وفيه إشارةٌ إلى أنّ الأكل في أيام الأعياد والشُّربَ إنّما يُستعانُ به على ذكر الله تعالى وطاعته، وذلك من تمام شُكر النعمة أن يُستعان بها على الطاعات. وقد أمر اللهُ تعالى في كتابه بالأكل من الطيبات والشكر له، فمن استعان بنعم الله على معاصيه فقد كفر نعمةَ الله وبدّلها كُفراً، وهو جديرٌ أن يُسلَبَها»[3].

2. شهر شعبان:

أ. فضل شهر شعبان: يمكن أن نطلق عليه «شهر كشف الحساب»، وقد كان نبينا ﷺ يُكثرُ من صيامه. فعن أُسَامَةَ بن زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُول الله، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ مِنْ شَهْرٍ مِنْ الشُّهُور مَا تَصُوم مِنْ شَعْبَان، قَالَ: ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاس عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَان، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَال إِلَى رَبّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[4]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبيّ ﷺ يصومُ شهراً أكثرَ من شعبان»[5].

---

(1) وصفة التكبير، يقول عنها الإمام ابن أبي زيد القيرواني: «والتكبيرُ دُبُرَ الصلوات: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. وإنْ جمع مَع التكبير تهليلاً وتحميداً فحسنٌ، يقولُ إن شاء ذلك: الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد. وقد رُوِيَ عن مالك هذا والأوّل، والكلُّ واسع». (الرسالة: 72) و(النوادر والزيادات: 1/ 506)

(2) رواه أحمد (10286) وهو في السلسلة الصحيحة (3573).

(3) لطائف المعارف: (ص 504).

(4) حسنه الألباني في صحيح النسائي (2221).

(5) رواه البخاري (1869) ومسلم (782).

ب. فضل ليلة نصفه: ثبت في ذلك حديث أبي موسى الأشعري ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليَطّلِعُ في ليلة النصف من شعبان، فيغفرُ لجميع خلقه إلا لمشرك أو مُشاحن»[1]. قال الشيخ المباركفوريّ: «اعلم أنه قد ورد في فضيلة ليلة النصف من شعبان عدة أحاديث مجموعها يدل على أن لها أصلاً... فهذه الأحاديث بمجموعها حُجّة على من زعم أنه لم يثبت في فضيلة ليلة النصف من شعبان شيء، والله تعالى أعلم»[2].

وجاء في الموسوعة الفقهية: أنّ «جُمهور الفقهاء ذهبوا إلى ندب إحياء ليلة النّصف من شعبان، واستحباب قيامها، لما ورد من أحاديث صحيحة في فضلها»[3].

وقال الإمام ابن تيمية: «وَأَمَّا لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَفِيهَا فَضْلٌ، وَكَانَ فِي السَّلَفِ مَنْ يُصَلِّي فِيهَا»[4].

وبعد أن ذكر كراهة إحياء هذه الليلة جماعةً في المساجد، قال الحافظ ابن رجب: «ولا يُكرَهُ أن يُصلّيَ الرجلُ بخاصّة نفسه، وهذا قول الأوزاعي إمامِ أهل الشام وفقيههم وعالمهم، وهذا هو الأقربُ إن شاء اللهُ تعالى»، وأضاف قوله: «فينبغي للمؤمن أن يتفرّغَ في تلك الليلة لذكر الله تعالى، ودعائه بغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكروب... ويتعيّنُ على المسلم أن يجتنبَ الذنوبَ التي تمنعُ من المغفرة وقبول الدعاء في تلك الليلة. وقد رُويَ أنها: الشرك.. ومن الذنوب أيضاً الشحناء، وهي حقدُ المسلم على أخيه بُغضاً له لهوى نفسه»[5].

---

(1) رواه ابن ماجه (1390) وحسنه الألباني في صحيحه (1140)، ورواه ابن حبان في صحيحه (5665) وصححه بشواهده مُحققه الشيخ شُعيب الأوناؤوط.

(2) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي: (3/ 363).

(3) الموسوعة الفقهية: (2/ 235) مادة (إحياء الليل).

(4) مجموع الفتاوى: (4/ 428).

(5) لطائف المعارف: (ص 263 و265).

3. شهر شوال:

أ. **فضل ستّة شوّال:** وهذا شهرُ التدارك، نَجبُرُ فيه ما نَقُصَ في رمضان. فَمِنْ رحمة الله تعالى بعباده أن شرَع لهم مع كلِّ فريضةٍ نافلةً مِن جنسها؛ لتكون جابرةً لِمَا قد يكون وقع فيها من خَلَل، ومتمِّمةً لما قد يكون فيها من نقص، ومن ذلك مشروعيةُ صيام ستَّةِ أيام من شوال، فهي سُنة حث عليها النبي ﷺ وبيَّن فضلها، وهي بالنسبةِ لرمضان كالسُّنة الراتبة البعديّة بالنسبة للصلاة المفروضة، ومَن أتى بها مع رمضان كان كصيام العام.

وقد ذهَبَ جَمَاهِيرُ الفُقَهاءِ إلى استحبابِ صيامِ الستِّ من شوَّالٍ، لما رواه أبو أَيُّوب الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»[1]. وقد فسرّ ذلك النبي ﷺ بقوله: «من صام ستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام:160)». وفي رواية: «جعلَ اللهُ الحسنةَ بعَشْرِ أمثالها، فشهرٌ بعشرة أشهرٍ، وصيام ستّة أيام تمام السنة»[2]. ورواه ابن خزيمة بلفظ: «صيامُ شهر رمضان بعشرةِ أمثالها، وصيام ستة أيام بشهرين، فذلك صيام السنة».

والأفضلُ أن نبدأ صيامها من اليوم الثاني من شوّال، لعموم قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (البقرة: 148). ولكن عملاً بفقه الأولويات والمصالح الشرعية، ننصحُ أصحاب العائلات ومن يصلُ رحمه في أيام العيد أن يُؤخّر صيام ستة شوال. ويتأكّد هذا المعنى حين يُدعى المسلمُ إلى طعام، فإن تطييب خاطر الداعي بتناول الطعام أولى من المبادرة إلى صيام الست؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَعَامًا فَأَتَانِي هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَلَمَّا وُضِعَ الطَّعَامُ، قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: دَعَاكُمْ أَخُوكُمْ وَتَكَلَّفَ لَكُمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَفْطِرْ وَصُمْ مَكَانَهُ يَوْمًا

---

(1) رواه مسلم (1164).

(2) رواه النسائي وابن ماجة وهو في صحيح الترغيب (1/ 421).

إنْ شِئْتَ»[1]. وقد استحبّ تأخير هذا الصيام جماعةٌ من السلف، واستحسنوا أن لا يبدأ الإنسان به إلا بعد مُضيّ بضعة أيام من شوال، من أجل أن يستمتع بأيام العيد، فإن أيام عيد الفطر كأيام عيد الأضحى: أيامُ أكل وشرب. وهذا قول مَعْمَر، وقولُ عبدالرزاق، ويُروى عن عطاء بن أبي رباح رحمهم الله[2].

ب. **تأويل الكراهة عند المالكية**: ثبت -كما في رواية يحيى بن يحيى الليثي- أنّ الإمام مالك رحمه الله كره صيام ستّة شوال، وقد تأوّل علماء المذهب كلام الإمام على أنه لم يبلغه الحديث، أو أنّه خشي اعتقاد فرضيّتها، واستنقاص أهل الجهل لرمضان! وبيّنوا أنّ صيامها اقتداءً ودون هذه الشبهة مشروعٌ ولا حرج فيه.

فقال الحافظ ابنُ عبد البر المالكي: «لَمْ يَبلُغ مالكاً حديثُ أبي أيوبَ على أنهُ حديثٌ مَدَنيٌّ، والإحاطةُ بعلم الخاصَّةِ لا سبيلَ إليهِ، والذي كَرِهَهُ لهُ مالكٌ أَمْرٌ قد بيَّنَهُ وأَوْضَحَهُ.. وأمَّا صيامُ السِّتَّةِ الأَيَّامِ من شوَّالٍ على طَلَبِ الفضلِ وعلى التأويلِ الذي جاءَ بهِ ثوْبَانُ رضي الله عنه فإنَّ مالكاً لا يَكرَهُ ذلكَ إن شاءَ اللهُ، لأنَّ الصَّوْمَ جُنَّةٌ وفضلُهُ معلُومٌ... ويُمكِنُ أن يكونَ مَالِكٌ قد جَهِلَ الحديثَ ولو عَلِمَهُ لقالَ بهِ، واللهُ أعلَمُ»[3].

وقال القاضي عياض: «قال شُيوخُنا: ولَعلَّ مالكاً إنما كرهَ صَوْمَه على هذا، وأنْ يَعتقدَ مَن يَصُومُه أنه فرضٌ، وأمَّا مَن صَامَهُ على الوجهِ الذي أرادَ النبيُّ ﷺ فجائز»[4].

وقال أبو الوليد الباجي المالكي: «قالَ مُطَرِّفٌ: إنما كَرِهَ مالكٌ صيامَهَا لئلاً يُلْحِقَ أهلُ الجَهلِ ذلكَ برمَضَانَ، وأمَّا مَن رَغِبَ في ذلكَ لِما جاءَ فيهِ فلَم يَنْهَهُ، واللهُ أعلَمُ وأحكَمُ»[5].

---

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى(7723)، وحسنه الحافظ ابن حجر كما في مرقاة المفاتيح: (7/ 106).

(2) لطائف المعارف: (ص 391).

(3) الاستذكار: (3/ 380).

(4) إكمال المعلم بفوائد مسلم (4/ 139).

(5) المنتقى شرح الموطأ: (2/ 76).

المحطّة العاشرة

وصول المتقدّم إلى اللّه تعالى

اللوحــة الأولــى: الوصـــول الدنيوي

اللوحــة الثانيــة: الوصـــول الأخروي



مدخل

إنّ مُنتهى سَيْرِ المؤمن هو «الجنة»، ففيها محطُّ الرّحال ومرتع الآمال، وعندها يتحقّقُ وصول المتقدّمين إلى ربّ العالمين.

ومن فضل الله تعالى أنْ مَنَحَ عبدَه الصّالحَ جزاءً مُعجّلاً في الدنيا، يُقوّي به رجَاءَهُ ويخفّف عنه عنَاءَهُ. فيذيقه حلاوةَ الإيمان، ويرزقه الأنس والإحسان، وهذا هو الوصول الدنيوي للإنسان قبل إدراك الجِنان. قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 97).

قال الحافظ ابن رجب: «الوصولُ إلى الله تعالى نوعان: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة.

فأمّا الوصول الدنيوي: فالمُرادُ منه أنّ القلوبَ تصلُ إلى معرفته، فإذا عرفتهُ أحبّتهُ، وأَنِسَتْ به، فوجدتهُ منها قريباً ولدعائها مُجيباً، كما في بعض الآثار: «ابن آدم اطْلُبني تجدني، فإن وجدتني وجدتَ كُلّ شيء، وإنْ فُتُّكَ فاتكَ كُلُّ شيء»[1].

(1) أورد هذا الأثر لإلهي الكثير من أهل العلم، منهم: ابن تيمية في الفتاوى (8/ 52)، وابن القيم في الجواب الكافي (1/ 140)، وابن كثير في التفسير (5/ 696)، والأبشيهي في المستطرف (1/ 153). وهو من

وأمّا **الوصول الأُخروي**: فالدخول إلى الجنّة التي هي دار كرامة الله لأوليائه»[1].

= الإسرائيليات التي يتساهل العلماء في روايتها للموعظة والاعتبار، اعتماداً على حديث: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» الذي أخرجه البخري.

(1) المحجّة في سير الدلجة: (ص 78-79).

اللوحة الأولى

الوصول الدنيوي

إنّ انشراح الصدر بالإيمان، وطمأنينة القلب بعبادة الله، وسعادته بذكره سبحانه، هو جنة الدنيا ورياضها التي أشار إليها نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله: «إذا مَرَرتُم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلقُ الذكر»[1]. فالعبدُ إذا اجتهد في طاعة الله حتى بلغ درجة الإحسان، أَتَتْهُ البشائر من ربّه الرحمن، وهبّت عليه نسائم الجِنان.

الإشارة الأولى: حقيقة الإحسان وفضله

1. الإحسان في اللغة: مصدر أَحْسَنَ، أي جاء بفعل حسنٍ. والإحسانُ ضدّ الإساءة، ويعني كذلك: الإتقان، يقالُ أحسنَ الشيء: أي أتقنه وأتمّهُ وأجادَ صُنعه[2].

وقال الراغبُ الأصفهاني: «والإحسانُ يُقالُ على وجهين:

أحدهما: الإنعامُ على الغير، يقالُ: أحسن إلى فُلان.

(1) رواه الترمذي (3510)، وهو في السلسلة الصحيحة (2562).

(2) لسان العرب (2/ 877).

والثاني: إحسانٌ في فعله، وذلك إذا عَلِمَ عِلْماً حسناً، أو عَمِلَ عملاً حسناً»[1].

2. **الإحسان في الشرع**: هو منزلة عظيمة في الدين، ودرجة رفيعة للسالكين، إليه شمَّر العارفون، ولإدراك مرتبته يتنافس المتقدّمون. يقول الفيروزآبادي: «الإحسان: من أَفضل منازل العبوديّة؛ لأَنه لُبُّ الإِيمان ورُوحُه وكمالُه، وجميع المنازل منطويةٌ فيها، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (الرحمن:60)، وقال رسول الله ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»»[2].

3. **اسم الله المُحسن**: ثبت هذا الاسم الجليل في السنّة النبوية، فعن شدّاد بن أوس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله محسنٌ يحب الإحسانَ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ثُمَّ لِيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[3].

وقال العلاّمة المُناوي في شرحه: «الإحسانُ له وصفٌ لازمٌ، لا يخلو موجودٌ عن إحسانه طَرْفةَ عين، فلا بدَّ لكل مُكوَّن من إحسانه إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد»[4].

وذكر الإمام القرطبي عن اسم الله «المُحْسِن» أنّه: «اسم فاعل من أحسنَ، ومعناه راجعٌ إلى معنى المُفْضِل وذي الفَضل والمنَّان والوهّاب»، وأضافَ أنه «لم يَرد في القرآن اسماً، وإنما ورد فعلاً، فقال -في قصة يوسف عليه السلام-: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ (يوسف: 100)»[5].

فالله سبحانه وتعالى هو «المُحسنُ»، الذي غَمَرَ الخلقَ جميعاً بإحسانه وفضله، بَرّهم وفاجرهم، مُؤمنهم وكافرهم، لا غنًى لهم عنه طرفة عين، ولا قيام لهم ولا بقاء

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن: (ص 119).

(2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (2/ 465).

(3) رواه الطبراني في الكبير (7121)، وهو في صحيح الجامع (1824).

(4) فيض القدير: (2/ 246).

(5) الكتاب الأسنى: (2/ 414)، والنهج الأسمى: (ص 648).

إلاّ به سبحانه وبجوده وإنعامه، ولو غفل عن ذلك الغافلون، وجحَدَ به الجاحدون، وأعرض عن شُكره العاصُون[1].

4. **فضل الإحسان**: حازَ المحسنون أعلى المنازل وأعظم الدرجات؛ حيث تأكّد حُبُّهم وتكرّر في غيْر موضِع قرآني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 195)، وكانوا في معيّة الله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: 69)، وقريبِينَ مِن رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56)، ومَوْعودِين ببركة منه وزيادة ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 58)، ولهذا جاء الأمْر بالإحسان جازماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل: 90)، وتكرّر مع المَحبُوبين ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 195)، وكان النُّصح به واجباً ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: 77). ورُفع عن أهل الإحسان اللّوم والحرج ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (التوبة: 91)، فكان جزاؤهم على قاعدة ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (الرحمن: 60)، فكُوفئوا في العاجلة بالحسنات ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ (النحل: 30)، وزادهم في الجنة النظر إلى وجه ربّ الأرض والسموات ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: 26).

قلتُ: وهذا الإحسانُ على نوعين:

- **إحسانٌ بين العبد وبين ربّه**، ويمكنُ أن نُطلق عليه (الإحسان العَمُودي).
- **إحسانٌ بين العبد وبين الخلق**، ويُمكننا أن نُسمّيهُ (الإحسان الأفُقي).

الإشارة الثانية: الإحسان العمودي

مَنْ تأمّلَ حديث جبريل عليه السلام، يرى الدينَ على ثلاث مراتب: الإسلام.. والإيمان.. والإحسان. وكل مرتبة لها أركان، والإحسان أعلاها. فالإسلام يُمثل أعمالَ الجوارح..

(1) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحُسنى، لمحمّد النجدي: (ص 648-649).

والإيمان يمثِلُ أعمالَ القلوب.. والإحسان هو إتقان تلك الأعمال، وحسن أدائها، مع كمال التوجّه بها إلى الله سبحانه وتعالى.

وبهذا يتجلّى لنا أنّ تحقيق كمال العبوديّة لله تعالى: يكون بإدراك أعلى مراتب الدين ألا وهو «الإحسان». وبذلك يتحقّقُ الفلاح الدنيوي، ويصلُ العبدُ إلى ربّه سبحانه. ولمّا كان الإحسان في هذه الدنيا قائماً على قوّة اليقين في الله، واستحضار عظمته كأنّنا نراه؛ فإنّ جزاءَ أهل الإحسان في جنات النعيم يكون بتمتيعهم بلذّة النظر إلى وجه ربّهم الكريم.

قال الحافظ ابن رجب: «وأمّا الإحسانُ، فقد جاءَ في القرآن في مواضع: تارةً مقروناً بالإيمان، وتارةً مقروناً بالإسلام، وتارةً مقروناً بالتقوى، أو العمل.. وقد يُذكرُ مُفرداً كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: 26)، وقد ثبتَ في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: تفسير الزيادةِ بالنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ في الجنّة، وهذا مناسبٌ لجعله جزاءً لأهل الإحسان، لأنّ الإحسانَ هو أن يعبدَ المؤمنُ ربّه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاءُ ذلك النّظَرَ إلى الله عياناً في الآخرة.. فقوله ﷺ في تفسير «الإحسان»: «أن تعبدَ الله كأنّك تراه.. إلخ» يُشيرُ إلى أنّ العبدَ يعبُدُ الله على هذه الصّفة، وهي استحضارُ قُربه، وأنّه بين يديه كأنه يراهُ، وذلك يوجبُ الخشيةَ والخوفَ والهيبةَ والتعظيمَ، ويوجبُ أيضاً النُّصح في العبادة، وبذل الجُهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها.

وقد وصّى النبيُّ ﷺ جماعةً من أصحابه بهذه الوصية، كما رُويَ عن ابن عُمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، فقال: «اعبُد الله، كأنّك تراهُ»، خرّجهُ النّسائي»[1].

1. **مرتبتي الإحسان العمودي:** إنّ الإحسان بين العبد وبين ربه، يقومُ على إتقان

(1) جامع العلوم والحكم: (1/ 125-126).

العبد للعبادة، حتى تكون خالصةً لوجه الله عز وجل، موافقةً لسنة رسوله ﷺ. وقد جاء في حديث جبريل عليه السلام أنّ هذا الإحسان على مرتبين، واحدة أعلى من الأخرى:

أ. المرتبة الأولى: «**أن تعبُدَ اللهَ كأنكَ تراهُ**»، أي: بأن يبلغ بك اليقين والإيمان كأنك تشاهد الله عيانًا، ليس عندك تردّد أو أيّ شك، بل كأن الله أمامك سبحانه وتعالى تراه ببصركَ. وهو الذي يُسمّى عند أهل السلوك بـ«مقام المشاهدة»، الذي يفسّرُهُ الحافظ ابن رجب قائلاً: «وهو أن يعملَ العبدُ على مُقتضى مُشاهدته لله بقلبه، وهو أن يتنوّرَ القلبُ بالإيمان، وتنفُذ البصيرةُ في العرفان، حتى يصير الغيبُ كالعيان، وهذا هو حقيقة مقام الإحسان»[1].

وكان الزاهد أبو بكر الشبلي، يعظمُ شوقه إلى ربّه سبحانه، فيُنشدُ قائلاً:

علـى بُعـدكَ لا يصبـرُ	**مَـن عادتُـهُ القُـربُ**
ولا يقـوى علـى حَجْبكَ	**مَنْ تيَّمـهُ الحُـبُّ**
فإنْ لـم تَـرَكَ العيـنُ	**فقد أبصَـركَ القلـبُ**[2].

• **تنبيه**: على المسلم أن يحذر -في هذا الباب- من الشّطحات والمزالق التي سقط فيها بعض المخرّفين، الذين لاحت لهم بعض البوارق فظنّوا أنّهم يشاهدون ربّ العالمين، وتعمّقوا في المكاشفات والمشاهدات حتى سقطوا في الحلول والاتحاد والشطحات! ولْنَعلمْ أنّ الله جل وعلا لا يُرَى في الدنيا، وإنما يُرى في الآخرة، وهو سبحانه بائنٌ من خلقه، ليس كمثله شيءٌ وهو السميعُ البصير. قال العلاّمة ابن القيم: «وإنّما غايةُ ما يصلُ إليه العارفُ: مزيدُ إيمان ويقين، بحيث يعبدُ اللهَ كأنه يراه، لقوّة يقينه وإيمانه بوجوده وأسمائه وصفاته. وأنّ «الأنوار، واللوامع، والبوارق» إنما هي أنوار الإيمان والطاعات: من الذكر، وقراءة القرآن، ونحوها. أو هي أنوار استغراقه

---

(1) جامع العلوم والحكم: (1/ 129).

(2) المحجّة في سير الدُّلجة: (ص 80).

في مطالعة الأسماء والصفات، وإثباتها والإيمان بها. بحيث يبقى كالمُعاين لها، فيُشرقُ على قلبه نورُ المعرفة»[1].

ب. المرتبة الثانية: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، أي: إذا لم يبلغ العبدُ المرتبة الأولى العليا، فإنه يعبدُ ربّه على طريقة المراقبة، وذلك بأن يعلم أن الله يراه، أي مُطّلعٌ عليه، يعلم أحواله ظاهراً وباطنا، ولا يخفَى عليه شيءٌ، فلا يليق به أن يعصيه، وأن يخالف أمره، وهو يراه ويطلع عليه، وهذه حالة طيّبة. قال ابن رجب: «قيلَ: هو إشارةٌ إلى أنّ مَنْ شقّ عليه أن يعبُدَ الله كأنه يراه، فَلْيعبُد الله على أنّ الله يراه ويطّلع عليه، فليستحي مِنْ نظَره إليه، كما قال بعض العارفين: اتّق الله أن يكون أهونَ الناظرين إليك»[2].

2. ثمرات الإحسان:

أ. اجتناب المعاصي: وذلك أنّ المسلم إذا عرف ربّه أحبّه، وعظّمهُ، فاستحَى من معصيته. قال الإمام ابن القيّم: «فإنَّ الإحْسَانَ إذا باشرَ القلبَ مَنعهُ عن المعاصي، فإنَّ مَن عبدَ الله كأنَّه يَراهُ، لم يكن كذلك إلّا لاستيلاء ذِكرهِ ومحبَّته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصيرُ كأنَّه يُشاهدُه، وذلك سيحولُ بينَهُ وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها»[3].

ب. استنارة القلب: وذلك أنّ القلوب تحيا بأنوارها الإيمانية لا بدقّاتها العَضليّة، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: 122). فالأوّل: هو المُؤمن استنار بالايمان بالله ومحبّته ومعرفته وذكره، والآخر: هو الغافل عن الله تعالى المُعرِضُ عن ذكره ومحبته. والشأن كلُّ الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته.

---

(1) مدارج السالكين (1/ 404-405).

(2) جامع العلوم والحكم (1/ 129).

(3) الجواب الكافي: (ص 55-56).

ولهذا كان النبي ﷺ يُبالغ في سؤال رَبّه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه، وعظامه، وعصبه، وشَعره، وبَشره، وسمعه، وبصره، ومن فوقه، ومن تحته، وعن يمينه، وعن شماله، وخلفه، وأمامه، حتى يقول: «واجعلني نوراً»[1]. فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النورَ في ذرّاته الظّاهرة والباطنة، وأن يجعله مُحيطاً به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاتَه وجُملته نوراً. فدينُ الله عزّ وجلّ نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التي أعدّها لأوليائه نورٌ يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض[2].

قال العلاّمة ابن القيم: «وقد ضربَ سبحانه وتعالى لنوره في قلب عبده مثلاً لا يَعقلُهُ إلاّ العالمون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (النور: 35). قال أُبي بن كعب: «مَثَلُ نُوره في قلب المسلم»، وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبّته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم، فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تَقوى مادّته، فيتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظُلمة الجسر حتى يقطعوه»[3].

ج. **دخول جنّة الدنيا**: وهذه الجنّة العاجلة قد دخلها الكثير منّا في إحدى لحظات الصّفاء والخشوع، فذاق لذّتها وتمتّع بنعيمها ولو قليلاً. وقد قال علماء السلوك: «مَنْ ذاقَ عَرف، ومَنْ عرفَ اغترَف». ويريدون بها: أنّ من ذاق طَعْمَ الإيمان عَرفَ لذته وحلاوته، ومن عرف حلاوته اغترفَ منه واستزاد واستكثر.

(1) جُزءٌ من حديث في صحيح مسلم (763).

(2) الوابل الصيّب، لابن القيم: (ص 104).

(3) المرجع نفسه، (ص 106-107).

ويُخبرنا عن هذه الجنّة الدنيويّة، أحد العلماء العارفين، وهو الإمام ابن القيم، فيقول: «والإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه، والرضا به وعنه، وامتلاء القلب من محبّته واللّهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل، وجنّة، وعيشٌ لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»... فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوْحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها. وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره»[1].

وهكذا يصلُ العبدُ إلى ربّه سبحانه في الدنيا قبل الآخرة، فيذوق حلاوة الإيمان، ببلوغ درجة الإحسان، فيأنسُ بربّه وينعم بحلاوة ذكره وقُربه.

الإشارة الثالثة: الإحسان الأُفقي

وهو بين العبد وبين الخلق، وإدراك مرتبة هذا الإحسانُ يُعدُّ من علامات سعادة الإنسان؛ لأنّ نفعه يتعدّى شخص المسلم ليعمّ مَنْ حوله من المخلوقات، وقد يفوق ثوابُه أجرَ بعض العبادات.

1. **أهمّية الإحسان الأفقي**: إنّ خُلُقَ الإحسان والإتقان مطلوبٌ في كل الأمور، في العبادات والمعاملات، في صغائر الأمور وعظائمها، في معاملة الخالق ومعاملة الخلق. ومع هذه المنزلة العالية والمكانة الرفيعة للإحسان الأفقي، إلا أن كثيرًا من المسلمين قد قَصروا الإحسان على الشعائر الدينية في علاقة العبد بربّه! وتناسَوْا

---

(1) الوابل الصيّب: (ص101).

حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[1]. فانظر إلى صيغة العموم في الحديث الشريف «كتبَ الإحسان على كل شيء»، فهي تتناول كافّة مناحي الحياة. وكل عمل مهما ظهر بسيطًا أو لا قيمة له، حتى ذبح الحيوان، فعلى المُسلم أن يقوم به على أحسن الوجوه؛ فيُحدّ الشفرة بعيداً عن نظر الحيوان حتى لا يتأذّى. فقد مرّ رسول الله ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يَحدّ شفرته، وهي تلْحظُ إليه ببصرها، فقال: «أتريدُ أن تُميتها موتات؟! هلاّ حَدَدْتَ شفرتك قبل أن تُضجعها؟»[2].

وإذا وسّعنا مفهوم «الإحسان» إلى معنى «الإتقان الشامل» في كل مناحي الحياة، سعدت بنا أمّتنا، وتقدّمت شعوبُنا، وفاض الخير وعمّ أرجاء المعمُورة، فكما أنّ الله لا يُصلحُ عمل المفسدين، فهو سُبحانه يُحبُّ المُحسنين، الذين يُتقنون أعمالهم في الدنيا والدين، فيقومون بها على أحسن الوجوه، وبأفضل الطرق الممكنة، عملاً بحديث النبي ﷺ: «إن الله تعالى: يُحبُّ إذا عَمِلَ أحدُكم عملاً أن يُتقِنَه»[3]. ويأتي تفسير «الاتقان» بالإحسان في الرواية الأخرى: «إنّ اللهَ تعالى: يُحبُّ من العامل إذا عملَ أن يُحسِنَ»[4].

فأين نحنُ من هذا الإحسان والإتقان، الذي صار شعار التقدّم والرّقي والازدهار بين بني الإنسان!

2. **مظاهر الإحسان الأفقي**: ويمكن أن نوزّعه على ثلاثة مستويات:

أ. الإحسان إلى الإنسان: ويكون بعدّة أعمال، وأهمّها:

---

(1) أخرجه مسلم (1955).

(2) أخرجه الحاكم (4/ 231) وصححه ووافقه الذهبي، وهو في السلسلة الصحيحة (1/ 32).

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (5312)، وهو في صحيح الجامع (1880).

(4) رواه البيهقي كذلك، وهو في صحيح الجامع (1891).

• **النّفع والمواساة**: فقد قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا المَسْجِدِ -يَعْنِي مَسْجِدَ المَدِينَةِ- شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَتَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا، أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ»[1].

وهذا لا يقتصر على النفع المادي فحسب، بل كل نفع بالمال أو التعليم أو النصيحة أو بالجاه وغيره. وأعظم النّفع أن تدلَّ الإنسان على الله تعالى، حتى يوحّدَهُ، ويُحبّه، ويعبدَهُ حقّ العبادة. فقد قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: 33)، وقال ﷺ «لأَنْ يَهْدِىَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحداً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[2].

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبَهُم ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

• **حُسنُ الخُلُق مع النّاس**: و«حُسنُ الخُلُق»: هو بذلُ المعروف قولاً وفعلاً، وكفُّ الأذى قولاً وفعلاً[3]. وقال الإمام القرطبي -في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:83)-: «وهذا كُلّه حَضٌّ على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لَيّناً، ووجهُه مُنبسطاً طَلَقاً، مع البَرّ والفاجر، والسُّنّي والمبتدع، من غير مُداهنة»[4].

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (36)، وهو في «صحيح الترغيب» (2623).

(2) رواه البخاري (3009)، ومسلم (2404). و«حُمْرُ النَّعَم» هي الإبل الحُمْر، وهي أنفس وأعلى وأعظم أموال العرب.

(3) «تهذيب السنن» لابن القيم، شرح سنن أبي داود (13/ 130).

(4) الجامع لأحكام القرآن: (2/ 16).

ومن وصايا النبي ﷺ: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[1]. قال العلّامة ابن القيم: «جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته»[2].

ولا يكتمل إيمان عبد ما لم يُوفَّق للخلق الحسن فقد قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا»[3].

ويقول الله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: 53)، قال الشيخ السعدي: «وهذا أمرٌ بكلّ كلام يُقرّبُ إلى الله: من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمرُ بين أمرين حسَنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقولُ الحسنُ داع لكل خُلق جميل وعمل صالح»[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:34). وقال ﷺ «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وقُلِ الحقَّ ولو على نَفسك، وأَحْسِن إلى مَنْ أساءَ إليك»[5].

فأحْسِن تعاملك -أيها الفاضل- مع الخلق، بداية من ردّ السلام إلى آخر ما جاء به الإسلام، ولا تعامل الناس بمعاملاتهم، وإنما عاملهم بما تحبّ أن يعاملوك به وبما تحبّ أن يراك الله عليه.

(1) رواه الترمذي رقم (1987)، وقال: حديث حسن صحيح.

(2) الفوائد: (ص 84-85)

(3) رواه الترمذي (1162)، وقال: حديث حسن صحيح.

(4) تيسير الكريم الرّحمان: (ص 472).

(5) رواه ابن السمّاك، وهو في السلسلة الصحيحة (1911).

• **سلامة الصّدر**: وهو صفة المحسنين المخلصين، الذين زكّوا نفوسهم وطهّروا قلوبهم من الأحقاد والضغائن، فنالوا أعظم الدرجات، وبُشّروا بالجنّات.

وهذا أحد الصحابة يُبشَّرُ بالجنّة، لسلامة صدره من الحقد والغلّ والحسد لأحد من المسلمين، فعن أَنس بْن مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى. فتبعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ واستأذنه في أن يُؤيهُ ثلاثاً ففعلَ، فلَمْ يرَهُ يصنَعُ شيئًا كبيراً. وقال: فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحتقرَ عملَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: «مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ؛ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ». فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ»[1].

وقيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «كُلّ مَخْمُوم القلب، صَدوق اللسان» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التّقيّ النّقي، لا إثم فيه ولا بَغي، ولا غِلّ، ولا حَسَد»[2].

---

(1) رواه أحمد (12720)، وقال عنه المنذري في التّرغيب والتّرهيب (4/ 32) والعراقي في تخريج الإحياء (2/ 231) وابن كثير في التفسير (8/ 95): إسناده على شرط البخاري ومسلم. وقال الهثمي في المجمع (8/ 81). رجال أحمد رجال الصحيح، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (20/ 125).

(2) رواه ابن ماجه (4216)، وصححه الألباني في صحيحه (3397). و«مخموم» هو من خمَمْتَ البيت إذا كنسته.

وقال بعض علماء السلف: «أفضلُ الأعمال: سلامةُ الصدور، وسخاوةُ النّفوس، والنّصيحة للأمّة »[1].

ب. **الإحسان إلى الحيوان**: وقبل أن تولد جمعيّات الرفق بالحيوان في الغرب، أمرنا الإسلامُ برحمة هذه المخلوقات التي سخّرها لنا، ونهانا عن إذايتها.

والأصل العام في تأكّد أمر هذا الإحسان حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[2]. وقد مرَّ رسول الله ﷺ ببعيرٍ قد لحِقَ ظهرُه ببطنه (أي من شدة الجوع)، فقال: «اتّقوا الله في هذه البهائم»[3]. وقال ﷺ: «عُذِّبت امرأةٌ في هرَّة ربطَتْها حتى ماتت. فدخلَتْ فيها النَّارَ، لا هي أطعمَتْها ولا سقَتْها إذ حبسَتْها، ولا هي تركَتْها تأكل من خَشَاش الأرض»[4].

ونهى نبينا ﷺ عن إطالة الجلوس على الدواب لغير حاجة، فقد مرّ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورَوَاحِل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودَعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطّرق والأسواق، فَرُبَّ مَرْكوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله تعالى منه»[5].

وبلغ من رحمة الحيوان في الإسلام أن «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ وَعَنِ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ»، بل مَرَّ ﷺ على حمار قد وُسِم في وجهه فقال: «لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ»[6].

---

(1) لطائف المعارف: (ص 267).

(2) أخرجه مسلم (1955).

(3) أبو داود (2548) وصححه الألباني

(4) رواه البخاري (3482)، ومسلم (2242).

(5) رواه أحمد (15639) وصححه الشيخان أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط.

(6) رواهما مسلم برقمي (2116) و(2117).

وثبت في الصحيحين أنّ النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوجد بئراً فَنزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فإذا كلْبٌ يلهثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ العطشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي، فَنزَلَ الْبِئْرَ فملأَ خُفَّه مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَه بِفيهِ، حتَّى رقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَه فَغَفَرَ لَه، فأدخلهُ الجنّة. قَالُوا: يَا رسولَ الله إِنَّ لَنَا في الْبَهَائِم أَجْراً؟ فَقَالَ: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ». وهكذا يبيّنُ لنا النبي ﷺأنه في الإحسان لكلِّ ذِي رُوحٍ مِن الحَيَوان أجرٌ.

ج. **الإحسان في الأرض**: سخّر الله عزّ وجلّ لنا هذا الكون بكلّ ما فيه من المنافع والنّعم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: 13). وأمرنا ربّنا سبحانه بالإحسان في انتفاعنا بخيرات هذه الأرض، ونهانا عن الإفساد فيها، فقال جلّ شأنه: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (الأعراف: 56).

وعمارة الأرض، هي أعظم وجوه الإحسان من قبل الإنسان الذي استخلفه الديّان. فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61)[1].

ومعلوم في اللغة أن (السين والتاء) تفيد الطلب، قال القاضي أبو بكر بن العربي: «فقوله تعالى [اسْتَعْمَرَكُمْ]: خَلَقَكُمْ لِعِمَارتها» ونَقَلَ عن بعض علماء الشافعية: «الإسْتعمَار[2]: طلبُ العِمَارَةِ، والطَّلَبُ المُطلَق من الله تعالى على الوُجُوب»[3].

وقال العلاّمة أبو بكر الجصّاص في تفسير قوله تعالى [واستعمركم فيها]: «وفيه الدّلالة على وجوبُ عِمَارةِ الأرض للزراعة، والغِراس والأَبْنية»[4].

(1) انظر مادة [عمر] في لسان العرب والمعجم الوسيط.

(2) أمّا مصطلح «الاستعمار» الشائع في هذه لأعصار فهو مغالطة لا تصحُّ، والأَوْلى تسميته بالإستخراب، لأنّه: احتلال واغتصاب ودمار للأهل والديار، لا خير فيه ولا إعمار!

(3) أحكام القرآن، لابن العربي: (3/ 18).

(4) أحكام القرآن، للجصّاص: (4/ 378).

أمّا تعمير الأرض فيكون بمفهومه الإسلامي الواسع:

أ. معنويا: بالإستقامة على دين الله، وإقامة العدل، وإشاعة الإحسان بين الناس، وبذلك تتحقق التنمية الروحية والفكرية والسلوكية.

ب. ماديا: بإصلاح الأرض، ودعم التناسل[1]، وإقامة المنشآت الاقتصادية النافعة، وخدمة قطاعات الزراعة والصناعة ومقتضياتها، وبذلك تتحقق التنمية الشاملة، والإحسان المنشود في الأرض.

وتعمير الأرض مقصد إسلامي، وذلك أنّ واجب الاستخلاف في الأرض يقتضي إصلاحها وعمارتها، حسب منهج الله تعالى الذي تعبّدنا به. وهذا الاستخلاف لا يتحقّق إلا من خلال الحركة المُنتجة والعمل الصالح الدّؤوب، مصداقا لقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:14).

يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور: «إن من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمّة على وجوه جامعة، بين رعي المنفعة العامّة، ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطّأ به جُهدُهُ. وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية»[2].

---

(1) وقد حثّ الإسلام على الزواج والتناسل لتعمير الأرض بالموحدين وتكثير سواد الأمّة، وتحصين المجتمع وإيجاد السكينة بين الجنسين، حيث قال الله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: 21). وشجّع نبينا ﷺ على النكاح بقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج»، (البخاري (1905) ومسلم (1400)). وقال ﷺ «تزوّجُوا الولودَ الوَدُود، فإنّي مُكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة: (صحيح ابن حبّار 1228). قال الشيخ البسّام في (توضيح الأحكام من بلوغ المرام: 5/ 165): «وفي الحديث: الترغيب في نكاح المرأة الولود، ليكثر نسل المسلمين ويعظم سوادهم، ويكونوا قوّة في وجه أعداء الله وعدوهم، وليعمرو الأرض، ويخرجوا خيراتها، ويبحثوا على كنوزها فيحققوا مراد الله تعالى من عمرانها».

(2) التحرير والتنوير: (2/ 449)، ط. الدار التونسيّة للنشر.

ويقول الشيخ علال الفاسي: «المقصد العام للشريعة الإسلامية: هو عِمَارَةُ الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلِّفُوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع»[1].

ومن أعظم النّصوص التي تحثّنا على الإيجابيّة والإنتاج قوله ﷺ: «لاَ يَغْرِسُ المُسلمُ غرسًا ولا يَزْرَعُ زَرعًا، فيأكلُ منه إنسانٌ ولا دابّةٌ ولا طيرٌ، إلاّ كان له صدقةً إلى يوم القيامة»[2].

ودفعًا لكلّ معاني الإحباط والسلبيّة، يأمرنا نبيّنا ﷺ بالتفاؤل والأمل، ويدعونا إلى الحركة والعمل، حتّى لو انتهى في الدّنيا الأجل فيقول: «إن قامت الساعة، وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تَقُومَ حتّى يغرسها فَلْيَفْعلْ»[3].

ويُخبرنا عليه الصلاة والسلام عن فضل تنقية المحيط من الأذى، فيقول: «مرَّ رجُلٌ بِغُصْنِ شَجرةٍ عَلَى ظَهْرِ طرِيقٍ، فَقَالَ: واللهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عنِ الْمسلِمِينَ لا يُؤْذِيهُمْ، فأُدْخِلَ الجَنَّةَ»[4].

وحتى لا يستهين المسلمُ بجهود حماية البيئة، يذكّرنا المصطفى ﷺ بأنّها من شُعب الإيمان، فيقول: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»[5].

---

(1) مقاصد الشريعة ومكارمها: (ص41-42)، ط. دار الغرب الإسلامي الخامسة.

(2) أخرجه البخاري (2320)، ومسلم (1552). وفي الحديث: فضل عمارة الأرض، وجواز اتخاذ الضيعة، وفيه فساد قول منكري ذلك من المتصوفة المتزهدة، ويُحمل ما ورد في النهي عن ذلك على ما أشغل عن طاعة الله وجعل حبّ الدنيا أكبر همّه ومبلغ علمه. انظر: (فتح الباري: 5/4).

(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (479)، وهو في السلسلة الصّحيحة (9).

(4) رواه البخاري (624) ومسلم (1914).

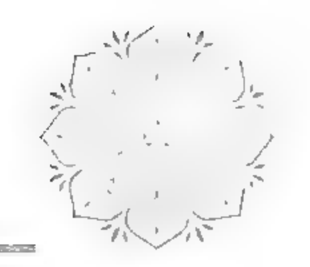
(5) رواه البخاري (9) ومسلم (35).

وحرصاً على حفظ الصحّة في هذه الأرض، نهى ﷺ عن قضاء الحاجة في موارد المياه والطرق، خشية تلوث هذه المصالح وإذاية الناس، فقال ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظّلّ»[1]. وفي حديث جابر رضي الله عنه «أن النبي ﷺ نهى أن يُبال في الماء الراكد»[2].

إنّ تقصير المسلمين في تعمير الأرض، كان من أعظم أسباب ضعفهم وهوانهم وتخلّفهم عن ركب الدول المتقدمة. ونحن الآن نشاهد كيف تداعت علينا الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها -كما أخبر نبينا ﷺ- وأصَابنا من الوهن ما جعلنا عالة نتكفّفُ القُوى العُظمى، ونفقد العزة الحضاريّة التي بناها أسلافنا على أسس المبادئ الإسلاميّة الدّاعية إلى اكتساب كل أسباب القوة والـمَنعَة وتحقيق الكفاية للجميع. فقول الله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: 60) لا تعني القوة العسكرية فحسب، بل كل أسباب القوة المعنوية والمادية ومنها القوة الاقتصادية.

(1) رواه أبو داود رقم (26) وهو حسن بشواهده.

(2) رواه مسلم رقم (281).



الوصول الأخروي

بعد عناء الكدح في الدنيا، يصلُ المتقدّمُ إلى نهاية السعي في الآخرة، وذلك ليحصُلَ على جزائه العظيم وملاقاة ربّه الكريم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6).

وفي الآخرة يَصلُ العبدُ الصالحُ إلى الله تعالى، فيُكرِمُهُ بجنّات النّعيم، مع النبيئين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

والنَّجاةُ مِنَ النَّارِ وَدُخُولُ الجَنَّةِ هُمَا الفَلاحُ العَظِيمُ وَالفَوزُ الكَبِيرُ، قَالَ الله سُبحَانَهُ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: 185)، وَقَالَ تَعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 72)، وَقَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11).

وقضيّة دخول الجنة والنّجاة من النار، هي أعظم ما شغل بال المسلمين منذ البعثة، فقد سألَ النَّبِيُّ ﷺ رجلاً من الصحابة ﷺ: «كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» فقَالَ: أَتَشَهَّدُ ثُمَّ أَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا

أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ (أي لا يحفظ أدعيةً كثيرة). فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[1].

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولـم يـكُ فيها منـزل لـك يُعلـمُ
فحيّ على جنّات عدن فإنهـــا ... منازلـك الأولـى وفيهـا المُخيَّـمُ

الإشارة الأولى: صِفةُ الجنّة ونعيمها

هي دار كرامة الله تعالى، أعدّها سبحانه لعباده الصالحين، وهذه الجنّة لا مثيل لها، وقد جاء في وصفها أنّها: نورٌ يتلألأ، وريحانةٌ تهتزّ، وقصرٌ مَشيدٌ، ونهرٌ مُطّردٌ، وفاكهةٌ ناضجةٌ، وزوجةٌ حسناء جميلة، وحُلَلٌ كثيرة. فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمعتْ ولا خطرَ على قلب بَشر.

1. **أسماء الجنة:** ولها عدّة أسماء، أشهراها:

أ. **الجنّة:** وهو أعظم أسمائها وأشهرها، وأكثرها استعمالاً في النصوص. وقد ذُكرَ في القرآن الكريم في مائة وتسعاً وثلاثين موضع، وجاء بصيغة المفرد والجمع والتّثنية. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة:82)، قال ابن القيم: «وهو الاسمُ العام المتناولُ لتلك الدار، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم، واللّذّة والبهجة، والسرور، وقرّة الأعين، وأصل اشتقاقه من الستر والتغطية، ومنه الجَنين لاستتاره في البطن.. ومنه سُمّيَ البُستان جَنّة؛ لأنه يَسترُ ما داخله من الأشجار، ولا يُطلقُ هذا الاسم إلا على موضع كثير الشجر مختلف الأنواع»[2].

فأكثر أخي الفاضل من سؤال الله الجنّة، والاستعاذة بالله من النار. فقد قال

---

(1) رواه أبو داود (792) وهو في صحيح الجامع (3163).

(2) حادي الأرواح: (ص 65).

النبي ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات، قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة. ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أَجِرْهُ من النار»[1].

ب. **دار السلام**: قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام: 127)، وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (يونس: 25)، قال ابن القيم: «وهي أحقُّ بهذا الاسم؛ فإنها دار السلامة من كل بليّة وآفة ومكروه، وهي دارُ الله، واسمُه سبحانه وتعالى «السَّلاَمُ» الذي سلّمها وسلّم أهلها. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ (يونس: 10)، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (الرعد: 23-24)، والرب تعالى يُسلّمُ عليهم من فوقهم كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس: 57-58)[2].

تلك هي دار السلام التي دعانا إليها ربُّ الأنام، فمتى سنُلبّي النداء؟! قال يحيى بن معاذ: «يا ابن آدم.. دعاكَ ربّك إلى دار السلام، فانظُر من أين تُجيبُه، إن أجبتَه من دُنياك دخلتها، وإن أجبته من قبرك مُنعتها»[3].

ج. **الفردوس**: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: 107). قال ابن القيّم: «والفردوس اسم يقالُ على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين، قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار. وقال الزجاج: وحقيقته أنه البستان الذي يجمعُ كلّ ما يكونُ في البساتين»[4].

---

(1) رواه الترمذي (2572) وهو في صحيح الجامع (6275).

(2) حادي الأرواح: (ص 65).

(3) كتاب العاقبة، للإشبيلي: (1/ 145).

(4) حادي الأرواح: (ص 69).

ولمّا كان هذا الفردوس هو أعلى درجات الجنة، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -تَعْلِيمًا لِلْأُمَّةِ وَتَعْظِيمًا لِلْهِمَّةِ-: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[1].

2. **أبواب الجنّة**: قد ثبت أنّ عددها ثمانية، كما في حديث النبي ﷺ: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمّى الريّان لا يدخلُه إلا الصائمون»[2]. يقصدها المؤمنون يوم القيامة، فيجدونها مفتّحةً تنتظرهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر: 73). وهمّة الصحابة العالية جعلتهم يتشوّفون لدخول الجنّة من جميع أبوابها، فعن أبي هريرة ﵁: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من أنفقَ زوجين في سبيل الله، نُودي من أبواب الجنَّة: يا عبدَ الله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة، دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد، دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام، دُعيَ من بب الرَّيَّان، ومن كان من أهل الصَّدقة، دُعي من باب الصدقة»؛ فقال أبو بكر ﵁: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على مَن دُعِيَ من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كُلِّها، قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[3].

3. **نعيم الجنّة**: وهو كثير لا حدّ له، وهذا بعضه

أ. **نسيان شقاء الدنيا**: وذلك بمجرّد أن يُغمسَ أحدُهُم غمسةً واحدةً في الجنّة، فقد بشّرنا نبينا ﷺ بقوله: «يُؤْتَى بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ:

(1) رواه البخاري (2790).

(2) رواه البخاري (3017).

(3) رواه البخاري (1897)، ومسلم (1027).

لَا وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»[1]. ولأجل ذلك كلّه حكى الله تعالى عن حال أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ (فاطر:34-35)، قال الشيخ السعدي: «[دار المُقامة] أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مَسرَّاتها، وزوال كدوراتها. وذلك الإحلال مِنْ فَضْلِهِ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه. [لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ] أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسهم نَصَبٌ ولا لغوب، ولا همّ ولا حزن»[2].

ب. **الخلود الأبدي فيها**: وهذا فضل عظيم من ربّنا الكريم، الذي بشّرنا بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ (النساء: 122)، وهُنا لفتةٌ جميلة في تكرار الخلود مرٍّ بعد مرّة؛ وذلك حتى لا تُنغّصَ لذّات أهل الجنة بخوف زوالها عنهم، أو زوالهم عنها كما هو الحال في لذّات الدنيا[3].

ويزدادُ العبدُ اطمئناناً وأماناً بسماع قوله جلّ شأنه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ (الدخان: 56). وهذا ما يؤكّدهُ نبينا ﷺ بقوله: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ،

---

(1) رواه مسلم برقم (2807).

(2) تيسير الكريم الرحمن: (ص 689).

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: (1/357).

فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»[1].

وفي حديث آخر: «يُنَادِي مُنَادٍ -يعني في أهل الجنة-: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبَدًا»[2].

ج. **مفاجآت سارّة**: مع كلّ أنواع النّعم التي سمعنا بها في الجنّة، فهناك ما لا يخطرُ بالبال أو يدور في الخيال. قال الحقُّ تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: 16-17)، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، ثُمَّ قَالَ أبو هريرة اقرءُوا إن شِئتُم: [فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ][3]. قال العلامة ابن القيم: «تأمّل كيف قابلَ ما أخفَوهُ من قيام الليل، بالجزاء الذي أخفاه هم مما لا تعلمه نفسٌ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقُرّة الأعين في الجنة»[4].

د. **كلمة جامعة**: ويُلخّصُ لنا الإمام ابن القيم نعيم الجنّة في هذا الوصف الجميل، فيقول رحمه الله: «فإن سألتَ عن أرضها وتربتها، فهي المسكُ والزعفران، وإن سألتَ عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الإذفر،

---

(1) رواه البخاري (7430) ومسلم (2849).

(2) رواه مسلم برقم (2837).

(3) رواه البخاري (4779) ومسلم (2824).

(4) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم: (ص191).

وإن سألتَ عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلَبنَةٌ من فضة ولَبنة من ذهب.

وإنْ سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب. وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال، ألين من الزبد وأحْلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فاحسن ما يكون من رقائق الحلل.

وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لَبَن لم يتغير طعمه، وأنهار من خَمرٍ لذّة للشّاربين، وأنهار من عسل مُصفّى. وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيّرون، ولحم طيْر مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم فالتّسنيم والزّنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنها تستفزّ بالطّرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلّها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجدُّ السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها. وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فُرشها فبطائنها من استبرق مفروشة في أعلى الرُّتب، وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم، فَهُنّ الكواعب الأتراب اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب»[1].

4. **صفة أهل الجنة:** وردت صفات أهل الجنة في الكتاب والسنة، ومنها:

أ. **جمال وجوههم:** قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (آل عمران: 107)، وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (يونس: 26)، وقال جلّ شأنه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ (عبس: 38-39). وفي الحديث: «كُلُّ من يدخلُ الجنة على صورة آدم، طوله ستّون ذراعاً»[2]، وفي

(1) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم: (ص 355-357).

(2) رواه البخاري (6227) ومسلم (2841).

رواية أنهم: «في ثلاثٍ وثلاثين سنةً، جُرداً، مُرداً، مُكحّلين، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم»[1].

ب. **صفة السابقين**: وقد قال فيهم الحقُّ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (الواقعة: 10-12)، قال الشيخ السعدي: «أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات. أولئك الذين هذا وصفهم، المقرّبون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى علّيّين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها»[2].

وفي الحديث: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ: صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمْ الْأَلُوَّةُ (أي العودُ الذي يتبخّرُ به)، وَرَشْحُهُمْ (أي عَرَقُهم) الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنْ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[3].

ولمّا سأل الصحابة رضي الله عنهم عن مصير الطعام بعد الأكل؟ قال: «جُشاءٌ، ورشحٌ كرشح المسك»[4]. وفي رواية «حاجةُ أحدهم: عرقٌ يفيضُ من جلودهم يخرجُ من مسامه مثل ريح المسك، فإذا البطنُ قد ضَمُرَ»[5]. قال القرطبي: «نعيم أهل الجنة من أكل وشرب وكسوة وطيب، ليس عن ألم جوع أو ظمأ أو عري، وإنما هي لذات متتالية، ونعم متوالية». وفي هذا نفي لجميع صفات النقص عنهم، وقال ابن الجوزي:

(1) رواه الطبراني في الصغير (1164) بسند صحيح.

(2) تيسير الكريم الرحمن: (ص 843).

(3) رواه البخاري (3245) ومسلم (2834).

(4) رواه مسلم (2835).

(5) رواه أحمد (19288)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب: (3739).

«لما كانت أغذية أهل الجنة في غاية اللطافة والاعتدال، لم يكن فيها أذى ولا فضلة تُستقذر، بل يتولّدُ عن تلك الأغذية أطيب ريح وأحسنها»[1].

• **سلامة صدورهم**: قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:47) قال الشيخ السعدي: «[وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ] أي: فتبقى قلوبهم سالمة من كل دَغَل وحسد متصافية متحابّة، [إخوانا على سرر متقابلين]: دلّ ذلك على تزاوُرهم واجتماعهم، وحُسن أدبهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلا للآخر لا مستدبرا له، متكئين على تلك السُّرُر المزيّنة بالفُرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر»[2]. فأخلاق أهل الجنة متوافقة عند الجميع، قال ﷺ: «قلوبهم على قلب رَجُلٍ واحد» يعني متوافقة متطابقة في الصفاء والمحبّة، كلّهم لا يحسدون، كلّهم لا يحقدون، كلّهم ما في صدورهم غل، قال: «لا اختلاف بينهم ولا تباغُض»[3].

ج. **أهل الجنة لا ينامون**: إذ «النوم أخو الموت»، ولا موتَ ولا فناء في الجنة، فقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (الدخان:56). بل لا تعبَ فيها ولا مشقّة حتى يطلبوا الرّاحة بالنوم، وفي الآية: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: 48). وقد سُئلَ النبي ﷺ: أينامُ أهلُ الجنة؟ فقال ﷺ: «النومُ أخو الموتِ، وأهلُ الجنّة لا ينامون»[4].

5. **صفة استقبال أهل الجنة**: هو أحسنُ استقبال وأكرمه، ويكون عند كلّ منزلة من منازل الآخرة.

---

(1) فتح الباري: (6/ 325).

(2) تيسير الكريم الرحمن: (ص 444).

(3) رواه البخاري (3245)، ومسلم (2834).

(4) رواه الطبراني في الأوسط (8816) وهو في السلسلة الصحيحة (3/ 74)

أ. **عند خروج الروح**: وتبدأ هذه الحفاوةُ منذ انتقال المُؤمن إلى العالم الآخر. وما أحوج الانسان في هذه الشدّة إلى البشارة والمواساة، قال الحقُّ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: 30). وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (النحل: 32)، أي: تُسلّمُ عليهم ملائكة الرحمة عند الاحتضار وسحب الروح، وتُبشرهم بالجنة. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: 27-30)، قال ابن كثير: «وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضا»[1].

ب. **عند الخروج من القبر**: قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: 103)، أي: لا يُخيفهم الهول العظيم يوم القيامة، بل تستقبلهم ملائكةُ الرحمة عند خروجهم من القبور وتُبشّرُهم[2].

ج. **عند الحشر**: يُحشرُ المُؤمنون المتّقون في غاية الإكرام والإعزاز، يقول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ (مريم 85). ويأتيهم نداء الله الكريم لهم يوم الفزع الأكبر: نداء التبشير والطّمأنة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ (الزخرف:68).

د. **عند دخول الجنة**: تستقبلهم خَزَنَة الجنة من الملائكة بكلّ حفاوة، وتبادرهم بالتّحية، وتُبشّرهم بالسلامة والطّيب والدخول والخلود. قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر: 73).

---

(1) تفسير القرآن العظيم: (8/ 422).

(2) التفسير الميسّر: (ص 331).

ويتواصلُ الإكرام بعد دخول الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (الرعد: 23 - 24). وأعظم من ذلك كُلّه نداء الشُّكر من الله الشكور لأهل الجنّة، ليُطمئِنهم بأنّ أعمالهم لم تذهب سُدَى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:43)، ويأتي الإنعام اللّطيف بالطعام والشراب: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة: 24)، وبعد كلّ هذا الإنعام والتكريم، يأتي هذا السؤال الكريم، من ربّنا الرحيم لأهل جنّات النعيم: «هَلْ رَضيتُم»[1].

الإشارة الثانية: شوقُ المُحبّين إلى ربّ العالمين

الشوق إلى الله تعالى: درجةٌ علية رفيعة، تنشأ من قوّة المحبّة لله عزّ وجلّ، وقد كان النبي ﷺ يسألُ الله هذه الدرجة، كما ثبت في دعائه[2]: «اللهمَّ بعِلْمِكَ الغيبَ وقُدْرَتِكَ عَلَى الخلقِ، أحْيِني ما علِمْتَ الحياةَ خيرًا لي، وتَوَفَّني إذا عَلِمْتَ الوفاةَ خيرًا لي، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ خشْيَتَكَ في الغيبِ والشهادَةِ، وأسألُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ في الرِّضَا والغضَبِ، وأسألُكَ القصدَ في الفقرِ والغِنَى، وأسألُكَ نعيمًا لَا ينفَدُ، وأسألُكَ قرَّةَ عَينٍ لا تنقَطِعُ، وأسألُكَ الرِّضَى بعدَ القضاءِ، وأسألُكَ برْدَ العيشِ بعدَ الموْتِ، وأسألُكَ لذَّةَ النّظرِ إلى وجهِكَ، والشوْقَ إلى لقائِكَ في غيرِ ضرّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمّ زيِّنّا بزينَةِ الإيمانِ، واجعلنا هُداةً مهتدينَ»[3]. وإنما سأل نبينا ﷺ الشوقَ إلى لقاء الله تعالى، لأنه من موجبات محبّة الله للقاء عبده، لحديث الصحيح: «من أحبّ لقاءَ الله أحبّ الله لقاءه»، ومحبة الله تعالى لذلك من أسباب المغفرة.

---

(1) رواه البخاري (7518) ومسلم (2829).

(2) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لابن رجب: (ص 93).

(3) رواه النسائي (1305) وصححه الألباني، ومحققو مسند أحمد (30/ 265).

1. **حقيقة الشوق:** وعرّف بعضهم الشوق بأنه: «اهتياج القلوب، إلى لقاء المحبوب»[1]. وذكر الإمام الغزالي أنّ «الشّوقَ لا يُتصور إلا لشيء أُدرِكَ من وجه ولم يُدرَكْ من وجه. فأما ما لا يُدرَكُ أصلا، فلا يُشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك في الآخرة. واعلم: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها، ويبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلمُ وجودها، وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوّقاً إلى أن يحصل له اصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يُسمّى رؤية ومشاهدة، ولا يُتصوّرُ أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا»[2].

2. **أخبار المشتاقين:** وهم أهل الإحسان الذين عَبدوا الرحيم الرحمان، فأَنِسُوا به وأحبّوه، حتى طارت قلوبهم شوقاً إلى لقائه، لِمَا ذاقوه من حلاوة الإيمان. قال الحافظ ابن رجب: «ولهذا كان النبيُّ ﷺ يسألُ ربّه الشوقَ إلى لقائه، مع أنه أكمل الخلق مشاهدةً ومعرفةً، وكان يقولُ في الوصال: «إنّي لستُ كهيئتكم، إني أظلُّ عند ربّي يُطعمني ويسقيني»[3].

ويُشيرُ إلى ما يتجلّى لقلبه من آثار القرب والأنس ممّا يُقوّيه ويُغذّيه، ويُغنيه عن الطعام والشراب.

ولم يزل أئمة العارفين يُثبتون الشوق، ويُخبرون به عن أنفسهم:

---

(1) مدارج السالكين (2/ 261).

(2) مختصر منهاج القاصدين: (ص 368).

(3) الحديثُ في الصحيحين، وقد قاله النبي ﷺ حين نهى الصحابة عن اتباعه في هذا الصيام، و«الوصالُ» هو مواصلة الصيام يومين متتالين دون فطر. وقال الحافظ ابن حجر: «ويُحتمل أن يكون المراد بقوله «يُطعمني ويسقيني»؛ أي: يشغلني بالتفكر في عظمته، والتحلّي بمشاهدته، والتغذي بمعارفه، وقُرة العين بمحبته، والاستغراق في مناجاته، والإقبال عليه عن الطعام والشراب، وإلى هذا جنح ابن القاسم، وقال قد يكون هذا الغذاء أعظم من غذاء الأجساد، ومَن له أدنى ذوق وتجربة يعلَم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الجسماني، ولا سيما الفرح المسرور بمطلوبه الذي قرّ عينُهُ بمجموعه»: (فتح الباري 4/ 207).

قال عبد الواحد بن زيد: يا إخوتاه، ألا تبكون شوقاً إلى الله عزّ وجلّ؟ ألا إنه من بكى شوقاً إلى سيّده لم يحرمه النّظر إليه.

وكان أبو عُبيدة الخوّاص يمشي في الأسراق، ويضربُ صدرَهُ ويقول: واشوقاه إلى مَن يراني ولا أراه.

وقال ذو النون: إنّ المؤمن إذا آمن بالله، واستحكم إيمانه خاف الله. فإذا خاف الله تولّدت من الخوف هيبة الله، فإذا سكنت درجةُ الهيبة دامت طاعته لربّه. فإذا أطاع الله تولّد من الطاعة الرجاء، فإذا سكنت درجة الرجاء، تولّد من الرجاء المحبة. فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه، سكن بعدها الشوق. فإذا اشتاق، أدّاه الشوق إلى الأنس بالله. فإذا أنس بالله، اطمأنّ إلى الله. فإذا اطمأنّ، كان ليلُهُ في نعيم، ونهاره في نعيم، وسرُّهُ في نعيم، وعلانيته في نعيم.

ووصف أحدُهم حال بعض المشتاقين لربّ العالمين، فقال:

قليلُ العزاءِ كثيرُ النَّدَمْ — طويلُ النّحيب على ما اجترم
جَرى دمعُه فبكى جَفْنُه — فصارَ البُكاءُ بدمعٍ ودم
أناخ المطايا بِباب الحبيب — يخافُ البِعاد إذا ما انْحرم
ويُخفي مَحبّةَ ربِّ العُلا — فتُظهِر أنفاسُه ما اكتتم
وأسبلَ من طَرفِهِ عَبْرةً — فسالتْ على خَدّه فانسجم
وباتَ يُعانِقُ مِحرابَه — ولمّا تزِلّ قَدم عن قَدم
فلمّا تفَتّتْ أحشاؤه — مِن الشّوق رقّ عليه الألم
وكم ليلة رام فيها المنام — فصاح به حُبُّه لا تنم
وناحَ على جَسَدٍ ناحلٍ — أطال النّحول به فانهدم
أنابَ إلى الله مُستغفِرًا — فصار لهُ من أعزّ الخَدَم[1].

(1) استنشاق نسيم الأنس، لابن رجب: (ص 92 و101-103).

3 . **أعظم اللّذّات**: أيّها الأحبّة لقد طال شوقنا إلى رؤية أعظم حبيب في هذا الوجود، ألا وهو ربّنا الله المعبود !

وحُقّ هذه القلوب المؤمنة أن تفرّغ سحتها لله تعالى: عبادة واستعانة، وحبّا وشوقا. قال الحق تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة:165)، وكان من دعاء نبينا ﷺ: «اللهم إني أسألك حبّك، وحبّ من يُحبك، والعمل الذي يبلغني حبّك، اللهم اجعل حبّك أحبّ إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد»[1].

ولّما وُعِدَ أهل الإيمان برؤية وجه ربّهم في الجنان، طاشت قلوب أهل العرفان، شوقاً إلى إلاههم الكريم المنّان. حتى قال قائلهم: «ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنّة إلا برؤيته. ولو أن الله احتجب على أهل الجنة، لاستغاث أهل الجنة من الجنة كما يستغيث آهل النار من النار»[2].

ياحبيبَ القلوب مالي سواكـا   اِرْحَم اليوم مُذنبا قد أتاكـا
أنتَ سُؤلي ومُنيَتي وسروري   طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس سُؤلي من الجِنان نعيمٌ   غير أني أريدُها لأراكـا.

إنّ نعم الله تعالى على عباده المؤمنين لا تُحصى، وأعظم هذه النّعم على الإطلاق: تشريفهم في الجنة بالنظر إلى وجهه الكريم. كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: 26)، فالحسنى (الجنة) والزيادة هي (النظر إلى وجه الله الكريم)، كما فسّرها بذلك رسول الله ﷺ، بقوله: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ

---

(1) رواه الترمذي (3235) وهو في السلسلة الصحيحة (3169).

(2) وهو منسوب لذي النّون المصري، كما في «الحلية» (14727) لأبي نعيم، و«شرح حديث لبيك» (ص 127) لابن رجب.

وَنُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وهي الزيادة، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ [لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ]»[1].

قال الحسن البصري: «إذا تجلّى لأهل الجنة نسوا كلّ نعيم الجنة»[2].

وحتى نعلم عظمة النّظر إلى وجه الله تعالى، ونقارنه بسائر نعيم الجنة، نسمع هذه الفائدة العزيزة من العالم الربّاني أبي حامد الغزالي: «ولا تظنّن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة مُلك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصّبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة المُلك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك»[3].

الإشارة الثالثة: رُؤية الله في الجنة

وهذا أعظمُ نعيمٍ يرجوهُ المؤمنون، ويشتاق إليه المُحبُّون، ولمثلِ هذا فليَعْمل العاملون.

1. **الوصول إلى الله:** يُدركُهُ بتوفيق الله، كلُّ مَن تقدّم إلى الله، شريطة الصدق والتحقيق، والصبر على معاناة الطريق. فلا تقطع رجاءك في ربّ العالمين، فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين. قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: 5). قال الإمام ابن كثير: «[من كان يرجو لقاء الله] أي: الدّارَ الآخرة وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيُحقّقُ

(1) رواه مسلم (266).

(2) شرح حديث لبيك، لابن رجب: (ص88).

(3) إحياء علوم الدين (4/ 227).

له رجاءَه، ويُوفّيه عملَه كاملاً مُوفّراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء، بصيرٌ بكل الكائنات»[1].

والمتقدّمون إلى الله تعالى أصنافٌ، وهذا الحافظ ابن رجب -أحد خبراء السير- يُخبرنا رحمه اللهُ عن درجاتهم فيقول: «الصراطُ المستقيم في الدنيا يشتملُ على ثلاثة درجات: درجة الإسلام، ودرجة الإيمان، ودرجة الإحسان.

فمن سلكَ درجة الإسلام إلى أن يموت عليها منعتهُ من الخلود في النّار، ولم يكُن له بدٌّ من دخول الجنة وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه.

ومن سلك على درجة الإيمان إلى أن يموت عليها منعتهُ من دخول النار بالكُلّية، فإنّ نور الإيمان يُطفىءُ لهبَ جهنّم حتى تقول: «يا مُؤمنُ جُزْ، فقد أطفأَ نورُكَ لَهَبي»[2].

ومن سلكَ على درجة الإحسان إلى أن يموت عليها وصلَ بعد الموت إلى الله [للّذين أحسنوا الحُسنى وزيادة]. وفي الحديث الصحيح: «إذا دخلَ أهلُ الجنة الجنة، نادى مُنادٍ: يا أهل الجنة إنّ لكم عند الله موعداً يُريدُ أن يُنجزكُمُوه. فيقولون: ما هو؟ ألم يُبيّض وجوهنا؟ ألم يُثقّل موازيننا؟ ألم يُدخلنا الجنة ويُجِرْنا من النار؟ فيكشفُ الحجابَ فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم، ولا أقرّ لأعينهم من النظر إليه. وهو الزيادة، ثم تلا: [للّذين أحسنوا الحُسنى وزيادة]»[3].

فاللّهُمّ اجعلنا من المُحسنين، السابقين إليك، يا ربّ العالمين.

2. **اليقين في رُؤية ربّ العالمين:** مِنْ مُسلّمات العقيدة الإسلامية التي نُدرّسُها لأطفالنا مُنذ الصّغر: الإيمان بأنّ «اللهَ سبحانه قد خَلقَ الجنّة فأعدّها دارَ خلودٍ

---

(1) تفسير القرآن العظيم: (6/ 274).

(2) رواه الطبراني مرفوعاً، وفيه سليم بن عمّار وهو ضعيف، كما في المجمع (10/ 360).

(3) المحجة في سير الدُّلجة: (ص 80 – 82).

لأوليائه، وأكرمَهم فيها بالنّظر إلى وجهه الكريم.. وخلقَ النار فأعدّها دار خُلودٍ لمن كفر به وألحد في آياته وكُتُبه ورُسله، وجعلَهم محْجوُبين عن رُؤيته»[1].

وقال الإمام النووي رحمه الله: «قد تظاهرت أدلّة الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة فَمن بعدهم من سلف الأمة، على إثبات رُؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين»[2].

وفي تفسير قوله تعالى عن الكفّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين: 15)، قال الإمام مالك رحمه الله: «لما حَجبَ أعداءَه فلم يَروهُ، تجلّى لأوليائه حتى رأوه. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لّما حَجب قوماً بالسّخط، دلّ على أن قوما يرونه بالرّضا. ثم قال: أما والله لو لم يُوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربّه في المَعاد لما عبَده في الدنيا»[3].

وقد بيّن العلماء أنّ ضُعفنا البشري، هو سببُ عجزنا عن رُؤية الله تعالى في الدنيا.

قال العلاّمة ابن أبي العزّ: «وإنما لم نرهُ في الدنيا لعجز أبْصارنا، فهذه الشمسُ إذا حَدّقَ الرّائي البصرَ في شُعاعها، ضَعُف عن رؤيتها، لا لامتناعٍ في ذات المرئي، بل لِعَجزِ الرّائي، فإذا كان في الدّار الآخرة، أكْمَلَ اللهُ قُوَى الآدميّين حتى أطاقوا رؤيته»[4].

إنّنا لا نَقدرُ بأجسادنا الضعيفة هذه، على رُؤية الله العظيم سبحانه في هذه الدنيا. ولنا في قصّة كليم الله مُوسى عليه السلام عِبرة، حيثُ طلبَ -حُبّاً وشوقاً- أن يرى ربّهُ بعد سماع كلامه وَوَحيه؛ فأخبره الله سبحانه أنه لن يقدر في هذه الدنيا على رؤيته، وأراه آيةً على ذلك بعجز الجبل الأصمّ الغليظ عن الثبوت أمام نوره سبحانه، حيث ما إن

(1) الرسالة الفقهية، لابن أبي زيد القيرواني: (ص 20).

(2) شرح النووي على مسلم: (2/ 105).

(3) تفسير القرطبي (19/ 261).

(4) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي: (1/ 295).

تجلّى ربّنا له حتى انهال وذهب. يقول الله جلّ في عُلاه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: 143).

فإذا كانت الجبال الشامخات الرواسي عاجزة عن رؤية الله والثبات أمام نوره، فكيف بالإنسان الضعيف؟! لذا جاء في الحديث أنّ الله عزّ وجلّ «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»[1]. قال الإمام النووي: «معنى «سُبُحات وجهه»: نورُه وجلاله وبهاؤه»[2].

أمّا في الآخرة فإنّ الله تعالى يمنح عباده قوّةً خارقة، وقُدرةً فائقة، ويُغيّرُ خَلقهم بالكلّية ليتحمّلوا رُؤيته، وينالوا شرفَ التلذّذ بالنّظر إلى وجهه الكريم سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: 22-23). قال الحافظُ ابن كثير: «[وجوه يومئذ ناضرة] من النّضارة، أي: حَسَنة، بهيّة، مُشرقة مَسرورة، [إلى ربها ناظرة] أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً». وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة، في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث»[3].

3. **رُؤيةُ الله يوم المزيد**: وهو يوم الجُمعة عندنا، كما ورد في بعض الأحاديث. حيث يذهبُ أهل الإيمان لزيارة ربّهم الرحيم الرحمن، فياله من حَدثٍ عظيم، يُكرمُ اللهُ فيه عباده أعظم التكريم، ويُبيحُهم النظر إلى وجهه الكريم!

ويُلخّصُ لنا الإمام ابن القيم -من مجموع الآثار- صورة هذا المشهد المَهيب، فيقول رحمه الله: «وإن سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزّه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر.

---

(1) رواه مسلم (1860)

(2) شرح النووي على مسلم: (3/ 14).

(3) تفسير القرآن العظيم: (8/ 304).

فاستمع يوم ينادي المنادي: يا أهل الجنة إن ربّكم تبارك وتعالى يستزيركم فحَي على زيارته. فيقولون: سمعاً وطاعةً، وينهضُون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنّجائب قد أُعدّت لهم؛ فيستوون على ظهورها مُسرعين، حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفْيَح الذي جُعل لهم موعدا وجُمعوا هناك فلم يغادر الداعي منهم أحدا، أمر الربُّ تبارك وتعالى بكرسيه فنُصبَ هناك، ثم نُصبَت لهم منابرُ من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابرُ من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة. وجلس أدناهم -وحاشاهم ان يكون فيهم دنيء- على كثبان المسك، وما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا.

حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم نادى المنادي يا أهل الجنة إنّ لكم عند الله موعدا يريد أن يُنجزكموه، فيقولون: ما هو؛ ألم يُبيّض وجوهنا، ويُثقل موازيننا، ويُدخلنا الجنة، ويُزحزحنا عن النار؟ فبينما هم كذلك إذْ سَطع لَهم نورٌ أشرقت له الجنة، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبّار جلّ جلاله، وتقدست أسماؤه، قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: «يا أهل الجنة، سلامٌ عليكم». فلا تُرَدُّ هذه التحية بأحسن من قولهم: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

فيتجلّى لهم الربُّ تبارك وتعالى يضحك إليهم ويقول: «يا أهل الجنة».. فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: «أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني فهذا يوم المزيد؟» فيجتمعون على كلمة واحدة: قد رضينا فارضَ عنا، فيقول: يا أهل الجنة إني لو لم أرضَ عنكم لم أُسكنكم جنتي، هذا يوم المزيد فاسألوني. فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر اليه؟ فيكشف الربُّ جلا جلاله الحُجُبَ ويتجلّى لهم، فيغشاهم من نوره، وينسَوْن كلّ نعيم عاينوه، ولولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا.

ولا يبقى في ذلك المجلس أحدٌ إلا حاضره ربه تعالى محاضرةً، حتى إنه ليقول: يا فلان أتذكرُ يوم فعلت كذا وكذا -يُذكِّرُهُ ببعض غدراته في الدنيا-، فيقول: يا رب ألم تغفر لي، فيقول: بلى، بمغفرتي بلغْتَ منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قُرّة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدّار الآخرة،

ويا ذلّة الرّاجعين بالصّفقة الخاسرة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيام: 22-25).

فحيّ على جنات عدن فإنها	**منازلك الأولى وفيها المخيّمُ**
ولكننا سَبيُ العدُوّ فهلْ ترَى	**نعَودُ إلى أوطاننا ونُسلّمُ»[1].**

4. **درجات الرؤية في الجنة**: يتفاوت المؤمنون في الجنة على قدر إيمانهم وأعمالهم في الدنيا، وكما يتفاوتون في نعيم الجنة الحسّي، فهم يتفاوتون كذلك في نعيمها المعنوي، وأعظم النّعيم: النّظر إلى وجه الله الكريم. وفي هذه النعمة الكُبرى يتفاوت أهل الجنّة: في مُعدّل هذا النّظر وعَدَده، وكذلك في لذّته ومُتعته.

أ. **تعدّد الرؤية لله تعالى**: وهذه منحة لخواصّ أهل الجنة، حيث يحظَوْنَ من ربّهم سبحانه بمزيد من الإنعام، فيُبيحهم النظر إلى وجهه الكريم بُكرةً وعشيّا. وقد استدلّ من ذهب إلى هذا القول من العلماء بجُملةٍ من النّصوص، أبرزها: ما رُوي عن ابن عُمر رضي الله عنه أنّ: رَسُولُ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى جِنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَدْوَةً وَعَشِيَّةً»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ]»[2].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: 22-23)، يقول الشيخ السعدي: «﴿إلى ربّها ناظرة﴾ أي ينظرون إلى ربّهم على حسب مراتبهم:

(1) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: (ص 358-360).

(2) رواه الترمذي (2553) و(3330)؛ وقال: حسنٌ غريب. وصححه الحاكم (2/ 553)، ورواه كذلك أحمد والطبراني وأبو يعلى، وفي أسانيدها ضعف، كما في «مجمع الزوائد» (10/ 401).

منهم من ينظرهُ كل يوم بُكرةً وعشياً، ومنهم من ينظرهُ كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه»[1].

وبعد عرض جُملة من النصوص في المسألة، قال الإمام ابن تيمية: «وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيَاقَ الْأَحَادِيثِ عَلِمَ أَنَّ التَّجَلِّيَ يَوْمَ الْجُمْعَةِ لَهُ عِنْدَهُمْ وَقْعٌ عَظِيمٌ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذَا النَّوْعَ أَفْضَلُ مِنْ الرُّؤْيَةِ الْحَاصِلَةِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ أَكْثَرَ» وأضاف قوله: «ثُمَّ هَذَا مِنْ الْمُمْكِنِ: أَنَّ «الرُّؤْيَةَ جَزَاءُ الْعَمَلِ»؛ فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّؤْيَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ثَوَابُ شُهُودِ الْجُمُعَةِ ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ فِيهَا يَكُونُونَ فِي الدُّنُوِّ مِنْهُ عَلَى مِقْدَارِ مُسَارَعَتِهِمْ إلَى الْجُمُعَةِ[2]، وَتَفَاوُتِ الثَّوَابِ بِتَفَاوُتِ الْعَمَلِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مُسَبَّبٌ عَنْهُ...، وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِحَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الصَّالِحَ إذَا انْقَضَتْ الْجُمُعَةُ اشْتَغَلَ بِمَا أُبِيحُ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأُولَئِكَ اشْتَغَلُوا بِالتَّقَرُّبِ إلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ، فَكَانُوا مُتَقَرِّبِينَ إلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ الْجُمْعَةِ، فَقَرُبُوا مِنْهُ بَعْدَ الْجُمْعَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَهَذِهِ «الْمُنَاسَبَةُ الظَّاهِرَةُ» الْمَشْهُودُ لَهَا بِالِاعْتِبَارِ تَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ التَّجَلِّيَ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ»[3].

وقال الحافظُ ابن رجب: «كُلُّ أهل الجنة يشتركون في الرؤية، ولكن يتفاوتون في القرب في حال الرؤية وفي أوقات الرؤية. عمومُ أهل الجنة يرون يوم المزيد وهو يوم الجمعة، وخواصّهم ينظرون إلى وجه الله في كُلّ يوم مرتين: بُكرةً وعشياً، وعموم أهل الجنة لهم رزقهم فيها بُكرةً وعشيا، وخواصّهم يرون الله بُكرةً وعشيا. العارفون لا يسلّيهم عن محبوبهم قصرٌ ولا يرويهم دونه نَهرٌ... ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ

(1) تيسير الكريم الرحمن: (ص 904).

(2) يُشيرُ إلى ما أخرجه الدارقطني في «كتاب الرؤية» بسند صَحّحه، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سَارِعُوا إِلَى الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْرُزُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ فِي الْكُثُبِ مِنْ كَافُورٍ أَبْيَضَ، فَيَكُونُونَ فِي الدُّنُوِّ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ مُسَارَعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْجُمُعَةِ، فَيُحْدِثُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ شَيْئًا لَمْ يَكُونُوا رَأَوْهُ فِيمَا خَلَا».

(3) مجموع الفتاوى: (6/ 455-457).

-في الحديث الصحيح، حديث جرير بن عبد الله البَجلي-: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يومَ القيامة، كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ ليلةَ البدر، لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثمّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ (ق: 39)»[1].

ولمّا كان هذان الوقتان في الجنة: وقتان للرؤية في حقّ خواصِّ أهل الجنة، حضّ ﷺ على المحافظة على الصلاة في هذين الوقتين في الدنيا. فمن حافظ على هاتين الصلاتين في الدنيا في هذين الوقتين، وصلاّهما على أكمل وجوهها وخشوعهما وحضورهما وأدبهما، فإنه يُرجَى له أن يكون مِمّن يرى اللهَ في هذين الوقتين في الجنة. لا سيما إنْ حافظ بعدهما على الذكر وأنواع العبادات حتى تطلع الشمسُ أو تغرب، فإن وصلَ العبدُ ذلك بدُلجةِ آخر الليل فقد اجتمع له السير في الأوقات الثلاثة، وهي: (الدُّلجة، والغدوة، والرّوحة)، فيوشكُ أن يعقبه الصّدقُ في هذا السير الوصول الأعظم إلى ما يطلبُه [في مقعد صِدْقٍ عندَ مليكٍ مُقتدر]»[2].

ب. لذّة النّظر إلى وجه الله: وهذه هي أعظم الأمنيات التي سألها نبينا ﷺ بقوله: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ». ويقول العلاّمة المُناوي في معنى الحديث: ««لذة النظر إلى وجهك» أي: الفوز بالتجلّي الذاتي الأبدي، الذي لا حجابَ بعده. وقيّد النظر باللّذة؛ لأن النّظر إلى الله: إما نظر هيبة وجلال في عرصات القيامة، أو نظر لُطفٍ وجمال في الجنة»[3]. وهذا هو المراد هنا، ويقول الإمام ابن القيم: «جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا وهو «الشوق إلى لقائه» سبحانه، وأطيب ما في الآخرة وهو «النظر إلى وجهه الكريم»»[4].

(1) رواه البخاري (521) ومسلم (633). وفي الحديث تشبيه الرؤبة بالرؤية، أي: أنها في غاية الوضوح.

(2) المَحجّة في سير الدُّلجة، لابن رجب: (82-85).

(3) فيض القدير بشرح الجامع الصغير، للمُناوي: (2/ 182).

(4) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: (ص 269).

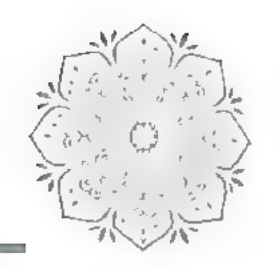
وتختلفُ لذّات النّظر إلى وجه الله الكريم وتتفاوت بين أهل الجنّة، على قدر إيمانهم وصلاحهم في دار الدنيا. فأسعدُ الناس بلذّة هذا النّظر العظيم: من كان في دار الفناء منشغلاً بالله، ومتفانياً في خدمة سيّده ومولاه، يُكثِرُ ذكره وشكره في سائر الأوقات، ويجاهد في سبيله النّفس والشهوات، لا يَعبُدُ إلاّ إيّاه ولا يُؤثِرُ على محبّته سواه. فهذا الذي يُرجَى له أن يَلقى في دار البقاء أحسنَ الجزاء، ويذوق في الجنة أحلى السعادة وأمتع الهناء، بلذّة النّظر إلى وجه الله جلّ وعلا.

ويَزيدنا العلاّمة ابن القيم توضيحاً لهذه الفروق بين لذّة ولذّة، فيُخبرُنا أنّ «اللذّة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعةٌ للتلذّذ بمعرفته ومحبّته في الدنيا، فإنّ اللّذّة تتبع الشعور والمحبّة، فكلما كان المُحبُّ أعرفَ بالمحبوب وأشدّ محبة له، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»[1].

أروحُ وقد ختمتُ على فؤادي ... بحُبّك أن يَحلّ به سواكا
فلو أنّي استطعتُ غَضَضْتُ طرفي ... فلم أنظُر به حتى أراكا
أُحبُّكَ لا ببعضي بل بكُلّي ... وإن لم يُبقِ حُبُّكَ لي حراكا[2].

(1) إغاثة اللهفان، لابن القيم: (1/ 33).

(2) شرح حديث لبيك، لابن رجب: (ص 92-93).



مسك الختام

الآن، وقد وصلنا -بعد هذه الرحلة الماتعة- إلى جنّات النّعيم، وذُقنا شيئاً من خيرها العَميم، وتعرّفنا لذّة النّظر إلى وجه الله الكريم؛ فماذا علينا فعله غير:

- محاسبة النّفس على كلّ ما فات.
- والعزم على التوبة والإنابة، وترك الغفلات.
- والانطلاق في التقدّم إلى الله تعالى بصدق وثبات.

وذلك حتى نكون من المُحسنين، الفائزين بجنات النعيم، مع النبيئين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (يونس: 10).



فهرس المصادر والمراجع

1. **أحكام القرآن**، ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله، ط. المكتبة التوفيقيّة، القاهرة، الأولى 2009م.
2. **أحكام القرآن**، الجصّاص أحمد بن علي، ت: محمد قمحاوي، ط. دار إحياء الكتب العربية- لبنان، 1992.
3. **الإحكام في أصول الأحكام**، ابن حزم الأندلسي، ت: أحمد شاكر، القاهرة.
4. **إحياء علوم الدين**، الغزالي،محمد بن محمد، ط. دار الكتاب العربي، (د. ت).
5. **الأدب المفرد**، البخاري محمد بن إسماعيل، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. المطبعة السلفية- مصر، 1375.
6. **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار، فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار**، ابن عبد البرّ، يوسف بن عبد الله، ت: عبد المعطي قلعجي، ط. مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، 1993.
7. **الاعتصام**، الشاطبي إبراهيم بن موسى، ت: محمد رشيد رضا، المكتبة التجارية الكبرى- مصر، (د.ت).
8. **الأعلام**، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين، الزركلي، خيرالدين، ط. دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، السابعة 1986 م.
9. **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: محمد كيلاني، ط. مكتبة مصطفى بابي الحلبي-القاهرة، 1961.

10. **اقتضاء العلم العمل**، الخطيب البغدادي أحمد بن علي، ت: ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي-لبنان، 1984.
11. **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، اليحصبي، أبو الفضل عياض بن موسى، ت: يحي إسماعيل، ط. دار الوفاء، الأولى، 1419هـ/ 1998م.
12. **بدائع الفوائد**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: علي العمران، ط. دار عالم الفوائد، مجمع الفقه الإسلامي- السعودية، 2008.
13. **بيان فضل علم السلف على علم الخلف**، ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد، ت: محمد العجمي، ط. دار الصميعي- الرياض 1994.
14. **التحرير والتنوير**، ابن عاشور محمد الطاهر، ط. الدار التونسية للنشر، 1984.
15. **تُحفة الذاكرين**، الشوكاني محمد بن علي، ط. دار الكتاب العربي- لبنان.
16. **التذكرة في الوعظ**، ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي، ت: أحمد فتيح، ط. دار المعرفة- لبنان، 1986.
17. **الترغيب والترهيب**، المنذري عبد العظيم بن عبد القوي، تعليق: مصطفى عمارة، ط. دار الجيل- بيروت، 1987.
18. **التسهيل لعلوم التنزيل**، ابن جُزي الغرناطي محمد بن أحمد، ط. الدار العربية للكتاب- تونس، (د.ت).
19. تفسير **القرآن العظيم**، ابن كثير إسماعيل بن عمر، ت: عبد المنعم غنيم وجماعة، ط. دار الشعب- مصر ودار سحنون- تونس، 1989.
20. التفسير المُيسّر، لجماعة من العلماء، ط. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- السعودية، 2009.
21. تلبيس إبليس، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، ط. دار القلم - لبنان، 1403.
22. **التلخيص لوجوه التخليص**، ابن حزم علي بن أحمد، ت: عبد الحق التركماني، ط. دار ابن حزم- لبنان، 2003.
23. **التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد**، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، تحقيق: سعيد أعراب وجماعة، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب 1402 هـ/ 1408 هـ
24. **تهذيب التهذيب**، العسقلاني ابن حجر، ت: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد، ط. مؤسسة الرسالة 2008.

25. **تهذيب السنن**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: إسماعيل مرحبا، مكتبة المعارف- الرياض، 2007.
26. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الطبري محمد بن جرير، ت: عبد الله التركي وجماعة، ط. دار هجر- القاهرة، 2001.
27. **جامع العلوم والحكم**، ابن رجب أبي الفرج عبد الرحمن، ت: شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة- لبنان. 1991.
28. **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، الترمذي، أبو عيسى محمّد بن عيسى، تحقيق: د. بشار عوّاد معروف، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الأولى، 1996م.
29. **جامع بيان العلم وفضله**، ابن عبد البر يوسف بن عبد الله، ت: أبي الأشبال الزهيري، ط. دار ابن الجوزي- السعودية، 1994.
30. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي محمد بن أحمد، ت: أحمد البردوني، ط. المكتبة العربية- القاهرة، 1952.
31. **الجامع لشُعب الإيمان**، البيهقي أحمد بن الحسين، ت: مختار الندوي وعبد العلي حامد، ط. مكتبة الرشد- الرياض، 2003.
32. **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: زايد النشيري، ط. دار عالم الفوائد، مجمع الفقه الإسلامي-جدّة، 1425هـ.
33. **الجواب الكافي**، ابن القيم محمّد بن أبي بكر، ت: أحمد آل نبعة، ط. جمعية إحياء التراث- الكويت، 2009.
34. **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: علي الشربجي وقاسم النوري، ط. مؤسسة الرسالة 1992.
35. **حاشية الصاوي على تفسير الجلالين** (من أول سورة الأنعام إلى آخر سورة الأنفال)، الصاوي أحمد أبو العباس، رسالة دكتوراه، دراسة وتحقيق: محمد أبو بكر محمد، العام الدراسي (2013/ 1434)، جامعة المدينة بماليزيا، نسخة إلكترونية، موقع (تفسير للدراسات القرآنية).
36. **الحِكَم الجديرة بالإذاعة**، ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد، إشراف: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي- بيروت، 1983.
37. **حلية الأولياء**، أبو نُعيم الأصفهاني أحمد بن عبد الله، ط. دار الكتب العلمية، (د.ت).

38. **الدّر الثمين والمورد المَعين (شرح المرشد المُعين)**، ميّارة محمد بن أحمد، ت: عبد الله المنشاوي، ط. دار الحديث-القاهرة، 2007.
39. **دراسة وتحقيق قاعدة «الأصل في العبادات المنع»**، الجيزاني محمد، ط. دار ابن الجوزي- الرياض 1431.
40. **الدعاء ومنزلته في العقيدة**، العروسي جيلان، ط. مكتبة الرشد- الرياض، 1993.
41. **دليل الفالحين لطُرق رياض الصالحين**، ابن علان محمد الصديقي، ت: جمعية النشر الأزهرية، ط. دار الكتاب العربي- بيروت.
42. **الذكر والدعاء**، القحطاني سعيد، ط. مكتبة الرشد- الرياض، 2000.
43. **الرسالة التبوكية**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: عقيل اليماني، ط. مكتبة دار القدس- صنعاء، 1990.
44. **الرسالة الفقهية**، القيرواني عبد الله بن أبي زيد، ت: أحمد الطهطاوي، ط. دار الفضيلة- القاهرة، 2013.
45. **الرسالة القشيرية**، القشيري عبد الكريم، ت: معروف زريق وعلي بلطجي، ط. دار الجيل- بيروت (د. ت).
46. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: محمد شمس، ط. دار عالم الفوائد/ مجمع الفقه الإسلامي- السعودية، 1431.
47. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن القيم محمد بن أبكر، ت: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت، 1988.
48. **الزهد الكبير**، البيهقي أحمد بن الحُسين، ت: عامر حيدر، ط. مؤسسة الكتب الثقافية- لبنان، 1987.
49. **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، الهيتمي أحمد بن محمد، ط. دار الفكر- لبنن، 1987.
50. **سباق نحو الجنان**، أبو شدي خالد، ط. دار البشير- القاهرة، 2000.
51. **سُبل السلام شرح بلوغ المرام**، الصنعاني محمد بن إسماعيل، ت: محمد عطا، ط. دار الكتب العلمية- لبنان.
52. **سلسلة أعمال القلوب**، محمد صالح المنجد، ظ.دار الفجر والتراث- القاهرة، 2005.
53. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، الألباني محمد ناصر الدين، ط. مكتبة المعارف، الرياض - السعودية،1419هـ/ 1995 م.

54. **سنن ابن ماجة**، ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: بشار عواد معروف، ط. دار الجبل، بيروت، الأولي، 1418هـ/ 1989 م.
55. **سنن أبي داود**، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: محمّد محي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، (د.ت).
56. **السنن الكبرى**، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، ط. دار المعرفة، بيروت – لبنان، 1413 هـ/ 1992 م.
57. **سنن النسائي (المجتبي)**، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، عناية: عبد الفتاح أبو غُدّة، ط. دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، الأولى، 1409هـ/ 1988م.
58. **سير أعلام النبلاء**، الذهبي، شمس الدين محمّد بن أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وجماعة، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، السابعة 1410 هـ/ 1990م.
59. **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، أحمد مهدي، ط. مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات– الرّياض، 1992.
60. **شأن الدعاء**، الخطابي أحمد أبو سليمان، ت: أحمد الدقاق، ط. دار الثقافة العربية–دمشق، 1992.
61. **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، ت: أحمد المزيدي، ط. دار الكتب العلمية–لبنان، 2007.
62. **شرح الزرقاني على الموطّأ**، الزرقاني محمد بن عبد الباقي، ط. مكتبة الثقافة– القاهرة، 2003.
63. **شرح السنة**، البغوي، أبو محمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، بيروت–لبنان الثانيةـ 1403هـ/ 1983 م.
64. **شرح القواعد الفقهية**، للزرقا مصطفى أحمد، ط. (2) دار القلم– دمشق 1989.
65. **شرح حديث «لبيك اللهم لبّيك»**، ابن رجب عبد الرحمن، ت: الوليد آل فريان، ط. دار عالم الفوائد– السعودية، 1417.
66. **شرح حديث يتبع الميت ثلاث**، ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد، ت: خالد أبو صالح، ط. دار الوطن للنشر–الرياض.
67. **الصبر في القرآن الكريم**، القرضاوي يوسف بن عبد الله، ط. مكتبة وهبة– القاهرة، 1989.
68. **الصحاح**، تاج اللغة وصحاح العربيّة، الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط. دار العلم للملايين، بيروت، الرابعة 1990.

69. **صحيح ابن حبّان (الإحسان في تقريب صحيح ابن حيان)**، ابن حيان، أبو حاتم محمد، ترتيب: علاء الدين علي بن بلبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الاولى، 1408 هـ/ 1988 م.
70. **صحيح ابن ماجه**، الألباني، محمّد ناصر الدين، ط. مكتبة المعارف - الرياض، 1997.
71. **صحيح أبي داود**، الألباني، محمّد ناصر الدين، ط. مكتبة المعارف - الرياض، 1998.
72. **صحيح البخاري**، البخاري، محمّد بن اسماعيل، ط. دار الاسلام، الرياض - السعوديّة، الأولى 1417هـ/ 1997م.
73. **صحيح الترغيب والترهيب**، الألباني محمد ناصر الدين، ط. مكتبة المعارف- الرياض، 2000.
74. **صحيح الترمذي**، الألباني محمّد ناصر الدين، ط. مكتبة المعارف - الرياض، 1998.
75. **صحيح الجامع الصغير**، الألبني، محمّد ناصر الدين، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، الثانية 1406هـ/ 1986م.
76. **صحيح مسلم**، النيسابوري، مسلم بن الحجّاج، ط. دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الأولى 1416هـ/ 1995م.
77. **صفحات مضيئة من عبادة السلف**، إبراهيم العلي، ط. مكتبة المنار- الأردن، 1993.
78. **صفوة التفاسير**، الصابوني محمد علي، ط. دار القلم - بيروت (بدون تاريخ).
79. صيد الخاطر، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، ت: عبد القادر عطاء، ط. دار الكتب العلمية، 1992.
80. **طريق الهجرتين**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: يوسف علي بدوي، ط. دار ابن كثير- بيروت، 2000.
81. العبودية، ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي- لبنان، 1997.
82. **عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، ت: إسماعيل مرحبا، ط. دارعالم الفوائد، 1429هـ مجمع الفقه الإسلامي.
83. **عدّة المريد الصادق/ ضمن الشيخ زروق- آراؤه الإصلاحية**، عزوزي إدريس، ط. وزارة الأوقاف المغربية، 2011.
84. **عُمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير**، شاكر أحمد، ط. دار الوفاء-القاهرة، 2005.

85. **عمل اليوم والليلة**، ابن السني أحمد بن محمد، ت: عبد الرحمن البرني، ط. دار الأرقم – بيروت، 1998.
86. **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، العظيم آبادي محمد شمس الحق، ط. دار الكتيب السلفية (د.ت).
87. **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب**، السفّاريني محمد بن أحمد، ت: محمد الخالدي، ط. دار الكتب العلمية، 1996.
88. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، ط. دار المعرفة، بيروت – لبنان، (د.ت)، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي ومجد الدين الخطيب وعبد العزيز بن باز.
89. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد، ت: طارق عوض الله، ط. دار ابن الجوزي– الرياض 1996.
90. **فتح القدير في علم التفسير**، الشوكاني محمد بن علي، ت: يوسف الغوش، ط. دار المعرفة – بيروت، 2007.
91. **الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية**، ابن علان محمد، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت– (د. ت).
92. **الفروق**، القرافي شهاب الدين أبو العباس أحمد، ت: عمر حسن القيام، ط. مؤسسة الرسالة – ناشرون– لبنان 2003.
93. **فقه الأدعية والأذكار**، البدر عبد الرزاق بن عبد المحسن، ط. مكتبة دار المنهاج– الرياض، 1431.
94. **فقه الأسماء الحسنى**، البدر عبد الرزاق بن عبد المحسن، ط. دار التوحيد– الرياض، 2008.
95. **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، الحجوي، محمّد بن الحسن الفاسي، عناية: هيثم خليفة طعيمي، ط. المكتبة العصريّة – بيروت، الأولى 1430هـ/ 2009م.
96. **الفوائد**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: أحمد عرموشي، ط. دار النفائس، 1981.
97. **في ظلال القرآن**، قطب سيد، عناية: محمد قطب، ط. دار الشروق – القاهرة، 2011.
98. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المناوي محمد عبد الرؤوف، ط. دار الفكر – لبنان، 1996.
99. **قوت القلوب في معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، المكي أبو طالب محمد بن علي، ت: محمد الرضواني، ط. مكتبة دار التراث– القاهرة، 2001.

100. **قواعد التصوّف**، زرّوق أحمد بن أحمد، ت: عبد المجيد خيالي، ط. دار الكتب العلمية- لبنان، 2005.
101. **القواعد الفقهية**، الندوي علي، ط. دار القلم 1994.
102. **كتاب التهجّد وقيام الليل**، ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد البغدادي، ت: مسعد السعدي، مكتبة القرآن -القاهرة.
103. **كتاب الزهد**، ابن المبارك عبد الله المروزي، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. دار الكتب العلمية- لبنان، 2004.
104. **كتاب الشكر**، ابن أبي الدنيا عبد الله ن محمد البغدادي، ت: محمد زغلول، ط. مؤسسة الكتب الثقافية- مصر، 1993.
105. **كتاب المرض والكفارات**، ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد البغدادي، ت: عبد الوكيل الندوي، ط. الدار السلفية- القاهرة 1991.
106. **الكليات**، الكفوي أيوب بن موسى، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت 1998.
107. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، الخازن علي بن محمد، ت: عبد السلام شاهين، ط. دار الكتب العلمية- بيروت 2004.
108. **لسان العرب**، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، تحقيق: عبد الله علي الكبير، وجماعة، ط. دار المعارف، 1886م.
109. **لطائف المعارف**، ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد، ت: ياسين السوّاس، ط. دار ابن كثير- بيروت، 1996.
110. **الماجَريات**، السكران إبراهيم بن عمر، ط. دار الحضارة للنشر والتوزيع- الرياض، 2015.
111. **مجموع الفتاوى**، ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، ترتيب: عبد الرحمان بن القاسم، ط. مطابع الرياض، الأولى.
112. **المجموع شرح المهذّب**، النووي يحيى بن شرف، ط. دار الفكر- لبنان، (د.ت).
113. **مختصر منهاج القاصدين**، ابن قدامة أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، ت: سيد إبراهيم، ط. دار الحديث- القاهرة، 2005.
114. **مدارج السالكين**، ابن القيم محمّد بن أبي بكر، ت: رضوان رضوان، ط. المكتب الثقافي- القاهرة، 2001.

115. **المستدرك على الصحيحين**، الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، ط. دار الفكر، بيروت، 1978م.

116. **المُسند**، ابن حنبل أحمد بن محمد، ت: أحمد شاكر، ط. دار الحديث- القاهرة، 1995.

-المُسند، ابن حنبل أحمد بن محمد، ت: شعيب الأرناؤوط وجماعة، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت، 2009.

117. **معالم التنزيل**، للبغوي الحسين بن مسعود، ط. دار ابن حزم - لبنان 2002.

118. **معجم التعريفات**، الجرجاني علي بن محمد، ت: محمد صديق المنشاوي، ط. دار الفضيلة القاهرة، 2011.

119. **معجم المناهي اللفظية**، أبوزيد بكر، ط. دار العاصمة- الرياض 1996.

120. **المعجم الوسيط**، إبراهيم مصطفي، وجماعة، صادر عن مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، ط. دار الدعوة. استانبول، تركيا، 1990م.

121. **المفردات في غريب القرآن**، الأصفهاني الحسين بن محمد، ت: صفوان الداودي، ط. دار القلم.

122. **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، القاري مُلاّ علي، ت: جمال العيناني، ط. دار الكتب العلمية.

123. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، الرازي فخر الدين محمد بن عمر، ط. دار الفكر- بيروت، (د.ت).

124. **مفتاح دار السعادة**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت: علي عبد الحميد، دار ابن عفان- السعودية، 1996.

125. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، الفاسي علال، ط. دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1993.

126. **مقاصد المكلفين**، الأشقر عمر سليمان، ط. مكتبة الفلاح- الكويت 1981.

127. **منهاج العابدين إلى جنة ربّ العالمين**، الغزالي محمد بن محمد، ت: محمد حلاوي، ط. دار البشائر الإسلامية- لبنان، 2001.

128. **منهاج القاصدين ومفيد الصادقين**، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، ت: كامل الخراط، ط. دار التوفيق- دمشق 2010.

129. **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، النووي يحيى بن شرف، ط. دار إحياء التراث العربي، لبنان.

130. **المنهاج في شعب الإيمان**، الحُليمي الحُسين الحسن، ت: حلمي محمد فوده، ط. دار الفكر- 1979.

131. **منهج الإسلام في تزكية النّفس**، كرزون أنس، ط. دار ابن حزم- لبنان، 1997.

132. **الموافقات في أصول الفقه**، الشاطبي أبو إسحق إبراهيم بن موسى، تعليق: عبد الله دراز، وتخريج أحمد علي، ط. المكتبة التوفيقية- القاهرة، 2003.

133. **الموسوعة الفقهيّة**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بالكويت، ط. مطبعة الموسوعة الفقهيّة، الكويت، الثانية 1405هـ/ 1984م.

134. **الموطأ**، مالك بن أنس، تحقيق: بشّار عوّاد، ط. دار الغرب الإسلامي 1996.

135. **الميسّر في الادعية والأذكار**، الجبالي مختار، ط. دار سحنون- تونس، 2009.

136. **النّشر في القراءات العشر**، ابن الجزري محمد، ت: علي محمد الضباع، ط. دار الكتب العلمية- لبنان،2009.

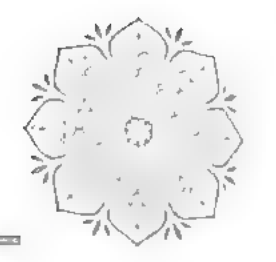
137. **النهاية في غريب الحديث**، ابن الأثير المبرك بن محمد، ت: طاهر زاوي ومحمود الطناحي، ط. المكتبة الإسلامية.

138. **النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، النجدي محمد، ط. مكتبة الإمام الذهبي- الكويت، 2007.

139. **هُبّي يا ريح الإيمان**، أبو شادي خالد، ط. دار الراية- القاهرة، 2002.

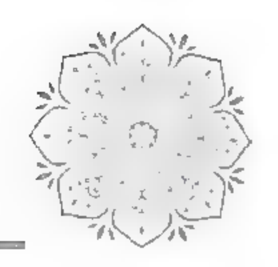
140. **الوابل الصّيّب**، ابن القيم محمّد بن أبي بكر، ت: إياد القيسي، ط. مكتبة الرشد- الرياض، 2001.

مع جملة من المواقع الإسلاميّة، والصّفحات العلميّة الإلكترونيّة.



فهرس المصطلحات

(1) ملاحظة: شرح هذه المصطلحات وبيان معانيها يكون غالبا في المتن، وأحيانا في الهامش.



فهرس الموضوعات

المحطّة الثانية

المحطّة الثالثة

المحطّة الرابعة

المحطّة الخامسة

المحطّة السادسة

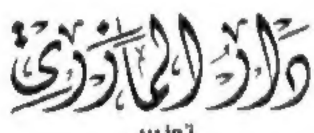
المحطّة السابعة

المحطّة الثامنة

المحطّة التاسعة

هذا الكتاب

تذكرةٌ ضرورية، لإنقاذ الروح من أتُون هذه الحياة المادّية، التي غَفلت فيها القلوب عن ربّها علاّم الغيوب؛ فغابت الطاعات وغرقت النفوس في الشَّهوات. وبعيدا عن كلمة "التَّقدم" العصرية، التي شاعت للتعبير عن التطورات التقنية والإقتصادية، يكشفُ لنا المؤلّف عنٍ نوع آخر من التقدّم؛ ألا وهو: «التقدّم إلى الله» جلّ في عُلاه! وهو سيرٌ جميل إلى ربّنا الجليل؛ ليس فيه تكالبُ على الدّرهم والدينار، وإنما فيه سِباقٌ إلى الجنة وفرارٌ من النار. تقدّمٌ يُطهّرُ القلوبَ من وساوس الشيطان، ويَملؤُها بأنوار الإيمان. فترى صاحبَ هذه "الروح التقدُّمية"، مُقبلاً على ربّه بالكلّية؛ لا يَغفلُ عن ذكره، ولا يُقصّرُ في شُكره. يَصرفُ له العُمرَ والأوقات، ويُسارعُ إليه بالطاعات. لا يعبدُ إلا إيّاه، ولا يستعينُ بسواه. يُراوِحُ في سَيره بين الخوف والرجاء، وتَملأُ قلبَهُ محبّةُ ربّ الأرض والسماء. يَصبر ويُصابرُ في دار الإمتحان، حتى يفوز في الآخرة برضا ربّه المنّان، والنّظر إلى وجهه الكريم في أعلى الجِنان. فمتى -أحبّتي- نستيقظ من غفلتنا، ونتقدّم إلى الله في سيرنا، ونعود إلى الجنة دارنا؟



تونس

فرع رادس: نهج الحبيب ثامر - رادس 2040
فرع تونس: نهج السبخة - باب الجزيرة 1000
الجمهورية التونسية

الهاتف: 466 953 25 (216)+ | 524 253 71 (216)+
dar.maziri@gmail.com | www.dar.maziri.com



8 938 908480